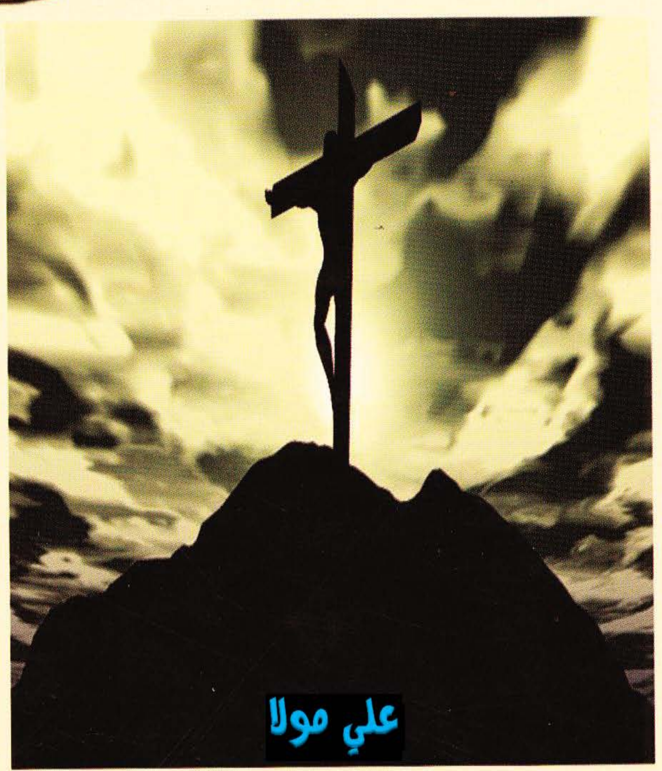
خوسيه ساراماغو

الإنجيل يرويه المسيح



ترجمة: سهيل نجم



الأناجيل برؤية المسيح

روايات	التكوين

❖ الكتاب: الإنجيل يرويه المسيح

❖ المؤلف : خوسيه ساراماغو

❖ ترجمة: سهيل نجم

Jose Saramago
THE GOSPEL ACCORDING TO JESUS CHRIST

لـ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

هاتف: 00963 112236468

فاكس: 00963112457677

ص . ب: 11418، دمشق. سوريا

www.attakwin.com
info@attakwin.com
taakwen@yahoo. com

خوسيه ساراماغو



رواية

ترجمة: سهيل نجم

دار التكوين

تقديم

ولد خوسيه ساراماغو في البرتغال عام ١٩٢٢. عمل في مهن متنوعة منها عامل ميكانيك، ومصمم فني ومحرر أدبي، ولكنه منذ عام ١٩٧٩ كرس نفسه تماماً للكتابة، وتتضمن أعماله الكاملة مسرحيات وأشعاراً وقصصاً قصيرة وكتابات غير أدبية، والعديد من الروايات التي ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة. أول مالفت إليه أنظار قراء الإنكليزية هو طبع روايته «بلتازار وبليموندا» التي صدرت عام ١٩٨٨، وهي الرواية التي وصفت في صحيفة «فيلادلفيا إنكوايرر» بأنها «رواية تاريخية ساحرة وخلاقة تستحق المقارنة بأفضل أعمال غابرييل غارسيا ماركيز. منح ساراماغو جائزة «الاندبندنت» للأدب الأجنبي عن روايته «السنة التي مات فيها ريتشارد ريس». ومنحت جائزة «تيكسيريا- غوميز للترجمة لجيوفاني بونتيرو عن ترجمته لـ «الإنجيل يرويه المسيح»، ومنح خوسيه ساراماغو لقب «الكاتب البرتغالي» للعام ١٩٩٢. في عام ١٩٩٨ نال سارماغو جائزة نوبل.

الدكتور جيوفاني بونتيرو، الذي ترجم «الإنجيل يرويه المسيح» من البرتغالية إلى الإنكليزية كان حتى وقت قريب أستاذاً مساعداً للأدب الأمريكي اللاتيني في جامعة مانجستر، وهو الدليل والمترجم الرئيسي لخوسيه ساراماغو إلى العالم الذي يتكلم الإنكليزية.

يقول سارماغو عن هذه الرواية: "إن إنجيلي يحاول ملء المساحات الخالية بين الحوادث المختلفة التي حدثت في حياة المسيح كما رويت في الأناجيل الأخرى مع بعض التأويلات الشخصية من قبلي" .

يتتبع ساراماغو حياة المسيح من الوعي إلى الصلب، مسلطاً الضوء على يسوع بسيط لا يستطيع مقاومة تسلط الغرائز البشرية عليه، ولذلك نراه يتعايش عيشة الأزواج مع مريم المجدلية. أما الإله المستبد المتعطش للدماء والسلطة الذي يُكوِّن معه يسوع علاقة غير متوازنة ولا مستقرة، فهو طاغية سماوي أوحت به حوليات العهد القديم، وهو أيضاً الناقل لخطيئة يوسف المعقدة إلى إبنه، تلك الخطيئة التي تشحن الرواية بموضوعٍ غنيٍ لعلم النفس الحديث،ولكن توحد هوية الشحاذ الغامض الذي يظهر في عيد البشارة مع الراعي الشفوق والغريب الذي قضى يسوع الجوال معه سنوات التكوين قد أحدث الانعطافة الجديدة والمثيرة في النسخة التقليدية لقصة الإنجيل مما أدى إلى إعادة النظر في النقاش الأبدي حول الخير والشر .

ومهما يكن الموقف الذي يبثه سارماغو في ثنايا خطابه الروائي هنا بحرية فمما لا شك فيه إن من حق القارئ العربي الاطلاع على هذه الضفيرة من الواقعية والغرائبية والفنتازيا والسخرية ليتسنى له أن يتبنى بدوره موقفاً واضحاً إزاء دعامة من دعامات الأدب الغربي المعاصر .

الاهداء

إلى بيلار


I·N·R·I

إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور الأكثر يقيناً عندنا، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء شهود عيان وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثيوفيلُس لتعرف ربما صحة الكلام الذي عُلمت به.

إنجيل لوقا .. ١، ١-٤

(الكتاب المقدس) ـ ط بيروت

Qual scripsi, scripsi

ما قد كتبته، قد كتبته.

بونتيوس بيلاطس

تبزغ الشمس من إحدى الزوايا العالية للمستطيل، إلى يسار أي شخص ينظر إلى الصورة، وكأنها رأس رجل ينشر أشعة ضوء وهاجة ولهب متعرج، مثل محيط متموج ينبعث عن الاتجاه المطلوب، ولهذا الرأس وجه ممزق، تشوبه نوبات الألم التي ترفض الخمود. يطلق الفم الفاغر صرخة لن نسمعها أبداً. إذ لا شيء حقيقياً، فما نتأمل فيه ليس إلا الورق والحبر، ولا شيء غيرهما. تحت الشمس نرى رجلاً عارياً شد إلى جذع شجرة وثمة قطعة قماش تلف حقويه لتستر تلك الأجزاء التي سنسميها الخاصة أو الأعضاء التناسلية، وتستريح قدماه على قطعة خشبية تستقر عرضاً لتدعم وقوفه ولتمنع قدميه من الانزلاق مع أنهما قد ثبتتا بمسمارين اندفعا عميقاً في الخشب. من الملامح المتعبة على وجه الرجل ومن عينيه اللتين ارتفعتا نحو السماء، يتضح أن ذلك لابد أن يكون اللص الطيب. ومما يؤكد ذلك أيضاً عقصات شعره، فمن المعروف أن هكذا يكون حال شعر الملائكة وكبارهم، ولذلك فمن الجلي أن ذلك المجرم التائب قد رفع من قبل إلى عالم المخلوقات السماوية. من المستحيل القول فيما إذا لا يزال الجذع شجرة تغيرت ببساطة عشوائية لتكون أداة تعذيب بينما هي لا تزال تتغذى من التربة عبر جذورها، لأن الجزء الأسفل من الصورة يحتله رجل ذو لحية طويلة. إنه يتطلع إلى الأعلى ولكن ليس باتجاه السماء مرتدياً ثياباً فاخرة مهفهفة ومتراخية. لابد أن ذلك الوضع الفريد والتعابير الحزينة هي

ليوسف الأريماثي، لأن الشخص الآخر الوحيد الذي يخطر في البال، هو سمعان السيريني بعد أن أجبر على مساعدة الرجل المدان بأن يحمل صليبه، كما كان متبعاً في العادة عندما تحدث مثل هذه الاعدامات، وقد ذهب لحال سبيله، قلقاً بشأن إجراء العمل الذي دعي إليه بقرار عاجل أكثر مما كان بشأن معاناة التعس المسكين الذي يوشك أن يصلب. الآن، يوسف الأريماثي هذا الثري وطيب القلب هو الذي تبرع بقبر لدفن أعظم مجرم على الإطلاق، لكن هذا العمل الكريم سيكون غير ذي نفع عندما يحين الوقت لتقييم بهجته ناهيك عن تقديسه. تلف رأسه عمامة دائماً ما يرتديها خارج بيته، على العكس من تلك المرأة التي في مقدمة الصورة التي يتدلى شعرها على طول ظهرها بينما تنحني إلى الأمام مجمّلة بالهالة الساطعة التي أحيطت بالنسبة إليها بأجمل الزخارف. لابد أن تكون هذه المرأة المنحنية مريم، إذ، كما نعرف، أن كل النساء المجتمعات هنا لهن الاسم ذاته، باستثناء أمر واحد، هو أنها الوحيدة التي تدعى بالمجدلية. كل من ينظر إلى هذه الصورة، وهو واع للحقائق الأولية للحياة سوق يقسم من خلال الرؤية الأولى أن هذه هي بالضبط المرأة التي تدعى المجدلية فلا واحدة مثلها بماضيها سيئ السمعة كانت ستتجرأ على حضور حدث مهيب وهي ترتدي ثوباً فاضحاً ذا صدار ضيق يبرز صدرها الرهوان ، الذي يجذب حتماً النظرات الفاسقة للرجال المارين، وهم يضعون أرواحهم في مخاطر مهلكة، منساقين إلى هلاكهم عبر ذلك الجسد الداعر. على أن التعبير على وجهها هو تعبير ندم حزين وجسدها الذاوي لا يشير إلا إلى روحها الكئيبة، لا يمكننا نكرانها، حتى لو تخفت في جسد يثير الغواية، إذ من الممكن أن تكون هذه المرأة عارية تماماً. اختارها الفنان ليرسمها، وعلى الرغم من ذاك فهي لا تزال تستحق احترامنا وتبجيلنا. مريم المجدلية، إن يكن ذلك هو اسمها، ترفع إلى شفتيها يد امرأة أخرى تداعت إلى الأرض وكأنها سُلبت قوتها أو جرحت جرحاً مميتاً. اسمها مريم أيضاً، هي الثانية في

ترتيب الظهور، ولكنها دون ريب الأكثر أهمية من أية مريم أخرى، ان يكن للحيز المركزي الذي تشغله في الجزء الأسفل من الصورة أية دلالة. غير تعبير حزنها ويديها المتهالكتين، لا شيء يمكن أن يرى من جسدها المغطى بعباءتها ذات العطفات الكثيرة وردائها الكهنوتي الطويل المشدود عند خصرها بالحبل الذي حيك بخشونة. إنها أكبر سناً من مريم الأخرى، وهو السبب الكافي، رغم أنه ليس الوحيد، الذي حتم أن تكون هالتها أكثر اتقاناً، وعلى الأقل هذا ما يستنتجه المرء ما لم يعطِ معلومات أخرى أكثر دقة عن معايير المنزلة والامتياز والمقام المتعارف عليها آنذاك. على أية حال، لابد أن يوضَع في البال، التأثير الكبير لهذه الأيقونة المرسومة التي نفذت بطريقة ما، وليس سوى ساكن غير محتمل في كوكب آخر، حيث لم تحدث أبداً مثل هذه الدراما، من الممكن أن يفشل في التعرف على أن هذه المرأة المتهالكة هي أرملة لنجار يدعى يوسف وأم للعديد من الأولاد والبنات، رغم أن أحد أبنائها فقط، حكم عليه القدر أو مَنْ يتحكم بالقدر، أن ينال بعض الشهرة خلال حياته والكثير منها بعد مماته. تستلقي إلى يسار مريم، أم يسوع التي تسند يدها على وركها امرأة أخرى، منحنية أيضاً واسمها أيضاً مريم، وهي التي قد تكون مريم المجدلية الحقيقية على الرغم من أننا لا يمكننا أن نرى ولا نتخيل خيط رقبة ردائها الكهنوتي. ومثل المرأة الأولى في هذا الثالوث ، فهي لها ضفائر طويلة تتدلى متراخية على ظهرها، وتبدو الضفائر جميلة، ما لم تكن تختلف ضربات القلم، فهي رقيقة، تاركة فضاءات فارغة بين الخصلات ، وهذا ما سمح للرسام بأن يخفف من درجة لون شعر المرأة. لسنا نحاول أن نبرهن أن مريم المجدلية كانت، في الحقيقة، شقراء، ولكننا ببساطة نماثل الإيمان الشعبي أن النساء ذوات الشعر الأشقر، حقيقياً كان أم مصبوغاً، من أكثر الوسائل المؤدية للخطيئة والهلاك. لذلك فإن مريم المجدلية، التي يعرف الجميع، إنها كانت أكثر امرأة شريرة على وجه الأرض، لابد أن تكون شقراء لو أننا

احترمنا هذا الرأي الصارم، على علاته، الذي يؤمن به نصف البشر. على أية حال، ليس بسبب أن لمريم الثالثة هذه شعراً وبشرة أجمل من الأولى التي نرى، على الرغم من دليل الإدانة الذي لدى الأخرى الذي هو الرداء القصير والصدر المكشوف، بأنها هي المجدلية. إن الدليل القاطع الذي يرجح هويتها أن مريم الثالثة هذه، التي تسند بذهول ذراع أم يسوع، تتطلع عالياً وإن نظرتها الجذلى تسمو بقوة حتى إنها تبدو وكأنها ترتقي بكامل جسدها مثل هالة aureole ساطعة قادرة على إنارة الهالة التي تحيط برأسها من قبل متمكنة من كل فكر ومشاعر. ليس غير المرأة التي أحبت مثلما آمنا أن مريم المجدلية قد أحبت، يمكن أن يكون لها مثل هذه التعابير، وهذا هو البرهان، الحاسم أنها هي ولا غيرها، وهذا ما يبعد المرأة التي تقف إلى جانبها. هذه هي مريم الرابعة، يداها نصف مرفوعتان علامة على التقوى، تعابير وجهها غامضة، مترافقة من هذه الجهة من الصورة مع شاب، في سن المراهقة، ركبته محنية بوهن، مع إيماءة مسرحية مؤثرة ليده اليمنى وهو يقدم المرأة الرابعة التي تمثل الدراما الحادة التي في المقدمة. هذا هو يوحنا، الذي يبدو شاباً يافعاً، بشعره المتموج وشفتيه المرتعشتين. ومثل يوسف الأريماثي، فهو أيضاً يحجب بعض الخلفية، إذ يخفي جسده مقدمة جذع الشجرة من الجهة الأخرى حيث لا يوجد عش للطيور. كل ما نراه على القمة هو رجل آخر عاري الجسد طاف في الهواء وملتف حول الشجرة التي ثبت إليها بمسامير كما ثبت اللص الأول، لكن هذا له شعر ناعم، وعيناه منخفضتان، ربما لا يزال قادراً على النظر إلى الأرض، ووجهه النحيف القاحل يثير الشفقة فينا، وعلى العكس من اللص الذي في الجانب الآخر، الذي هو على الرغم من أنه في النوبات الأخيرة من العذاب، فهو يشمخ بوجهه الذي لم يكن أبداً شاحباً هكذا، لأن السرقة منحته حياة رغيدة. رأسه ذو الشعر الناعم الرقيق، تحول نحو الأرض التي سوف تلتهمه محكوماً بالموت والجحيم، فهذا المخلوق التعس لابد أن يكون اللص

الشرير، رجل مستقيم عندما يقال كل شيء ويُعمل، وهو الذي تجرد من قوانين البشر والسماء، كان نزيهاً تماماً ويؤمن أن تلك التوبة المفاجئة تكفي لخلاصه من حياة كاملة في الشر أو من مجرد لحظة ضعف. فوقه بما يشبه نواح وعويل الشمس التي في الواجهة، يمكننا أن نرى القمر على شكل امرأة تضع قرطاً دائرياً غير لائق في إحدى أذنيها، بحرية لم يضاهيها أي شاعر أو رسام من قبل. الشمس والقمر كلاهما ينيران الأرض بنسبة واحدة، لكن محيط الضوء الدائري والذي لا ظل له يسلط الضوء على كل شيء في الأفق البعيد، الأبراج الصغيرة والأسوار، والجسر المتحرك الذي يعبر من تحته خندق مائي حيث يلتمع الماء والأقواس القوطية وعلى ذروة التل البعيد، الأذرع الساكنة للطاحونة الهوائية. وقريباً من هناك، وبسبب المنظور الخادع، أربعة فرسان متسلحين برماح وخوذ، يعتلون خيولهم بفخر وبراعة، ولكن يبدو أن عرضهم يشرف على النهاية وهم يومئون بإشارات التوديع كجمهور غير مرئي. والانطباع ذاته عن نهاية الاحتفالية يوحيه جندي المشاة المنسحب حاملاً شيئاً ما في يده اليمنى، يرى من بعيد، ومن الممكن أن يكون ثوباً، أو ربما حتى عباءة أو ثوباً كهنوتياً، بينما جنديان آخران يبدوان ضجرين ومحبطين وكأنهما خسرا في المقامرة، على الرغم من أنه من الصعب التفرس من بعيد في تعابير تلك الوجوه البالغة الصغر. يحوم حول أولئك الجنود والمدينة المسورة أربعة ملائكة، اثنان منهم رسما بالكامل، إنهم ينتحبون وينتدبون عدا الملاك الذي يمسك بهيبة بكأس إلى يمين الرجل المصلوب ليلتقط آخر قطرة دم تجري من الجرح المطعون بالرمح. في هذا المكان الذي يدعى الجلجثه، شهد الكثيرون المصير نفسه وسيتبعهم الكثيرون، لكن هذا الرجل العاري المسمر في يديه وقدميه على صليب، ابن يوسف ومريم، واسمه يسوع هو الرجل الوحيد المدان الذي ستتشرف أجياله بحفر مبادئه بحروف كبيرة، لأن كل الآخرين سوف ينسون على عجل. لذلك فهو هذا الذي يتطلع إليه يوسف

الأريماثي ومريم المجدلية، وهو الذي جعل الشمس والقمر ينتحبان، والذي قبل هنيهة مضت، مجّد اللص الطيب وقبّح اللص الشرير، لأنه فشل في أن يفهم أن لا فرق بين الواحد والآخر، أو، إن كان ثمة أية فرق، فهو شيء آخر، لأن الخير والشر غير موجودين في نفسيهما، إذ ببساطة كل واحد منهما هو غياب الآخر. يشع فوق رأسه إعلان بآلاف الأشعة الأكثر لمعاناً من أشعة الشمس والقمر مجتمعين، كتب بحروف رومانية يعلن أنه ملك اليهود محاط بتاج جارح من الأشواك يشبه ذلك الذي يوضع على أولئك الرجال الذين لا يعلمون به، وليس ثمة أية إشارة للدم، أولئك الذين لا يسمح لهم بأن يمتلكوا أجسادهم. على العكس من اللصين ليس ثمة مكان ليسوع ليضع عليه قدميه، إذ يستند جسده بأكمله على ذراعيه المسمرتين على الخشب بعد أن فقد قوة الحياة كي يبقى منتصباً على ساقيه المحنيتين، تلك الحياة القريبة من نهايتها بينما يستمر الدم في الانبجاس عبر الجرح المذكور. بين الاسفينين اللذين يدعمان الصليب واللذين أقحما في الشق المظلم الذي في الأرض. الجرح الفاغر الذي لا علاج له مثل أي قبر بشري، ثمة جمجمة وعظم قصبة وعظم عريض لكتف، لكن الذي يهمنا هي الجمجمة، لأن هذا هو ما تعنيه كلمة الجلجثه، كان علينا أن نكتب الجلجثه والجمجمة، لا أحد يعرف من وضع هذه الرفات البشرية هنا أو لأيما غرض، ربما كانت مجرد أمر خبيث وتحذير مشؤوم لأولئك المساكين التعساء حول القدر الذي ينتظرهم قبل أن يتحولوا إلى أرض وغبار ولا شيء. ولكن أيضاً ثمة البعض ممن يدعي أن هذه هي جمجمة آدم، ارتفعت من الأعماق المظلمة السحيقة من الأطوار الجيولوجية، ولأنها من غير الممكن أن تعود إلى هناك، قُدر لها أن لا تواجه أبداً أي شيء سوى الأرض، جنتها الممكنة الوحيدة وقد فقدتها إلى الأبد. في الخلفية البعيدة، في الساحة ذاتها حيث يقوم الفرسان بمغامرتهم الأخيرة، ثمة رجل يسير مبتعداً لكنه ينظر إلى الخلف في هذا الاتجاه ويحمل في يده اليسرى دلواً وفي يده اليمنى

عصا. عند طرف العصا ثمة إسفنجة على الأرجح، من الصعب رؤيتها من هنا، ويمكن للمرء أن يراهن مطمئناً أن الدلو يحتوي على ماء وخل. في يوم ما، وإلى الأبد، سيبقى هذا الرجل منموماً ومتهماً لأنه أعطى يسوع الخل بحقد وازدراء عندما طلب ماء، ولكن لو قيلت الحقيقة، فإنه سقاه الخل والماء لأن تلك هي أفضل السبل في إطفاء الظمأ. يسير الرجل مبتعداً ولا ينتظر النهاية، بعد أن قام بواجبه ليروي العطش الجسدي للرجال المدانين، ولم يميز بين يسوع واللصين للسبب البسيط أن هذه الأشياء أرضية وستستمر على الأرض ومن خلالها من الممكن فقط أن يكتب التأريخ.

الليل لا يزال بعيداً عن الانتهاء. المصباح الزيتي المعلق بمسمار قرب الباب ما زال منيراً، لكن اللهب المتراقص، مثل لوزة صغيرة مضيئة، مرتجف وغير مستقر، يصطدم واهناً بالظلام الجاثم الذي يملأ البيت من أعلاه إلى أسفله وينفذ في الزوايا البعيدة حيث الظلال في غاية الكثافة حتى إنها لتبدو كتلة صلدة واحدة. استيقظ يوسف مرعوباً، لكأن أحداً قد هزه بعنف من كتفه، من المؤكد أنه كان يحلم لأنه يعيش وحيداً في هذا المنزل مع زوجته التي لا تتحرك كثيراً وسرعان ما تغط في النوم. إن استيقاظه في منتصف الليل غريباً، إذ من النادر أن يفتح عينيه قبل الفجر عندما يبدأ الضياء الصباحي الرمادي البارد بالتسلل، عبر شق الباب. كم من المرات فكر في أن يصلح الباب، فما أسهل على نجار في أن يغطي ذلك الشق بقطعة خشب بقيت من عمل آخر، لكنه أصبح معتاداً على رؤية ذلك العمود الضوئي حين يفتح عينيه في الصباح حتى انه توصل إلى استنتاج غير معقول أنه بدونه قد يبقى يتخبط أبداً في ظلال النوم، في عتمة جسده وعتمة العالم. كان ذلك الشق في الباب جزءاً من المنزل كما هي حال الجدران والسقف والتنور والأرضية. وهمس ملقياً كلمات الشكر كي يتجنب إزعاج زوجته التي ما زالت نائمة، كلمات يرددها كل صباح بعد عودته من أرض الأحلام الغامضة، الشكر لك أيها الرب العظيم، ملك الكون، الذي أبقيت لي برحمتك روحي كي أحيا. ربما لأنه لم يستعد تماماً قوة حواسه الخمس، ما لم يكن الناس في ذلك الوقت غير واعين للبعض منهم أو، على العكس، يوشكون أن

يخسروا آخرين ممن يقدمون القليل في هذه الأيام، وجد يوسف نفسه كأنه يراقب من بعيد بينما جسده مسكون ببطء من قبل روح تعود تدريجياً، مثل مياه تقطر وهي تتخذ سبيلها في جداول ونهيرات قبل أن تنفذ في عمق الأرض، مغذية النسيج الذي في السيقان والأوراق. وبدأ يوسف يدرك وهو ينظر إلى مريم النائمة إلى جانبه كم يمكن أن تكون هذه العودة إلى الوعي شاقة، وطرأت في ذهنه فكرة مقلقة، فهذه زوجته التي سرعان ما غطت في النوم، كانت حقاً جسداً بلا روح، إذ لا روح تبقى في الجسد بينما هو نائم، وإلا فلا معنى في شكرنا لله كل صباح من عودة الروح إلينا ونحن نستيقظ. وفجأة تساءل صوت في داخله، ما هو الشيء أو الشخص الذي يحلم في داخلنا بما نحلم، ثم استغرب، أيمكن أن تكون الأحلام هي الذكريات الروحية لجسدنا وبدا هذا إيضاحاً عملياً. تحركت مريم، هل يمكن أن تكون روحها قريبة، تحوم هنا في المنزل، لكنها لم تستيقظ في الأخير، مما لا شك فيه إنها في خضم حلم مقلق، وبعد أن تنهدت بعمق، مثل نشيج منفجر، راحت تقترب من زوجها بحسية. لم تجرؤ أبداً على الانغماس فيه وهي متيقظة. سحب يوسف البطانية الخشنة مغطياً كتفيه وانضم إلى مريم ملتمساً الدفء. شعر بدفئها المعطر مثل صندوق من الحرير امتلأ بالأعشاب الجافة راح ينفذ في أنسجة ردائه واندمج مع حرارة جسده. ثم وهو يغمض عينيه ببطء، تعطلت أفكاره، إذ غاص في نوم عميق متناسياً روحه.

حين استيقظ ثانية، كان الديك يصيح. ترشح ضوء رمادي مضبب عبر شق الباب. ولأنه انتظر صابراً تشتت ظلال الليل، كان الوقت يستعد لنهار آخر يأتي إلى العالم. ذلك لأننا لم نعد نعيش في ذلك العصر الخرافي عندما كانت الشمس، التي ندين لها بالكثير، كريمة إلى حد أنها توقف رحلتها عند جيبيون، مما منح جوشوا وقتاً متمهلاً ليهزم الملوك الخمسة الذين كانوا يحاصرون المدينة. جلس يوسف على بساطه،

وسحب الملاءة، وعند تلك اللحظة صاح الديك للمرة الثانيـة، مذكراً إياه بصـلاة الشكر الثانيـة التـي عليـه أن يرددهـا، عـازلاً كـل الفضـائل التـي وهبت للديك عندما وزعها الخالق بين خلائقه، الحمد لك، أيها الرب، يـا إلهنا، ملك الكون، يا من وهبـت الديـك الذكـاء ليميز بيـن الليـل والنهـار، صلـى يوسـف وصـاح الديك للمـرة الثالثـة. عنـد أول إشـارة للفجـر مـن المعتاد أن تصيح كل الديكة التي فـي الجـوار، لكنهـا مكثـت صامتـة هـذا اليوم، وكأن ليلها لم ينته بعد أو كأنه قد بـدأ تـواً. نظـر يوسـف فـي وجـه امرأته، مندهشاً من نومها العميق فهي عـادة مـا تستيقظ لأقـل ضـوضـاء وكأنهـا طـير. وظهـرت قـوة غامضـة تحـوم فـوق مريـم، تضغطهـا إلـى الأسفل دون أن تشلها تماماً، إذ حتى في الظلال يرتعـش جسدها برفـق، مثل ماء يخضه النسيم. هل يمكن أن تكون مريضة، هكذا تسـاءل، لكنـه انقطع عن هذا التفكير المقلق بدافع مفاجئ للتبول، وكان هذا، أيضاً، شيئاً غير عادي. فمن النادر أن يشعر بأي حاجة لإراحة نفسه في هذه الساعة المبكرة بمثل هذه العجالة. تسرب بهدوء من تحت الملاءة ليتجنب إزعاج زوجته، لأنه مكتوب أن على الرجل أن يقوم بكل ما أمكنه لينال احترامه لنفسه، ففتح بحذر الباب ذا الصرير وخرج إلى الباحة. فـي تلـك السـاعة من الصباح بدا كل شيء مشوباً بلون رمادي. توجه يوسف نحـو سـقيفة منخفضة حيث ربط حماره وهناك أراح نفسه وهو يستمع بقناعـة حلميـة إلـى الصـوت الانفجـاري لبولـه وهـو ينبجس علـى التبن المتبعثر علـى الأرض. حول الحمار رأسه، عيناه واسعتان لامعتان في الظلام، ثم هـز أذنيه الصوفيتين بقوة قبل أن يعيد لصق أنفـه فـي المعلـف باحثـاً عـن أي بقايا للطعام بشفتيه الغليظتيـن الحساستين. جلـب يوسـف الإبريـق الكبـير الذي يستخدم للغسل، أماله جانباً وجعل الماء يتدفق علـى يديـه، ثـم وهـو يجففهما بردائه حمد الرب الذي بحكمته اللامحدودة وهب الإنسان الثقوب الضرورية والأوعية لكي يعيش، إذ لو أن أياً منها قد فشل فـي أن ينفتـح أو ينغلق وفق الحاجة، فإن ذلك سيؤدي إلى الموت بالتأكيد. تطلع يوسـف

عالياً نحو السماء وشعر أنه مغمور. السماء متباطئة الظهور وليس فيها أية إشارة لخيوط الفجر القرمزية، لا ظلال للورد أو الكرز، لا شيء سوى الغيوم ترى من حيث كان يوسف واقفاً، سقف واحد وعريض من الغيوم المنخفضة مثل كرات صغيرة مسطحة من الصوف، كلها متطابقة وفي الظل البنفسجي ذاته الذي يتعمق ويصبح نيراً على الجهة حيث تبزغ الشمس، قبل أن تزداد حلكة حتى تندمج مع ما تبقى من الليل على الجهة الأخرى. لم ير يوسف مثل هذه السماء، على الرغم من أن الشيوخ تحدثوا عن بشائر في السماوات تظهر قدرة الرب، أقواس القزح التي غطت نصف القبة السماوية، وسلالم عملاقة جمعت في يوم ما السماء بالأرض، وأمطار المن الغزيرة التي هطلت بفضل العناية الإلهية من السماء، ولكن ليس كهذا اللون الغامض الذي قد لا يكون إلا البداية أو النهاية لهذا العالم، يحوم طافياً فوق الأرض، سقف من آلاف النتف من الغيوم التي تكاد تلتصق ببعضها، وتنتشر في كل الجهات مثل أحجار الصحراء. فأصابه الرعب، وفكر أن العالم يوشك على النهاية، وها هو الشاهد الوحيد على الحكم النهائي لله، بلا، إنه الشاهد الوحيد. هيمن السكون على الأرض والسماء، ولا أصوات تسمع من البيوت القريبة، لا صوتاً بشرياً ولا نواح طفل، لا صوت صلاة أو لعنة، ولا هبة ريح، ولا ثغاء معزى أو نباح كلب. لماذا لا تصيح الديكة، تمتم مع نفسه، ثم كرر السؤال بقلق وكأن صياح الديكة قد يجلب الأمل الوحيد والأخير في الخلاص. ثم طفقت السماء تتغير.. وعلى نحو ضئيل تقريباً، زحفت الألوان والخطوط الوردية تدريجياً نحو البنفسجية في الجهة المنخفضة من تشكل الغيوم هذا، قبل أن تتحول أخيراً إلى الأحمر ثم تتلاشى. مرت دقيقة، وتلتها الأخرى، ثم ودونما أي إنذار تفجرت السماء بريح مضيئة، ثم تضاعفت في رماح ذهبية طعنت الغيوم التي لم تعد نتفاً بل تضخمت هائلة مثل مراكب كبيرة ترفع أشرعة ملتهبة وتلوي سماء قد تحررت أخيراً. خمدت مخاوف يوسف، واتسعت عيناه

من الذهول والاندهاش لسبب مبرر، ذلك لأنه الوحيد الذي كان يرى ذلك المشهد. فحمد بصوت مرتفع إله كل الخليقة على العظمة الخالدة لتلك السماوات التي تجعل عظمتها التي لا توصف الناس يجاهدون مع كلمات الإقرار بالعرفان البسيطة تلك، الشكر لك يا إلهي، لهذا ولذلك وللشيء التالي. وما أنْ تكلم، اقتحمت جلبة الحياة، فيما إذا كانت قد استدعيت من قبل صوته، أو اندفعت عبر الباب الذي تُرك مفتوحاً على وسعه بإهمال، الفضاء الذي كان ينتمي من قبل إلى الصمت، دون أن يبقى له أي مجال، المساحات القريبة هنا وهناك، مثل تلك المستنقعات الصغيرة التي لفتها الغابات المهمهمة وأخفتها عن الأنظار. ظهرت الشمس ونشرت ضياءها، رؤيا ذات جمال أخاذ، يدان هائلتان تطلقان طائر الفردوس الذي يومض والذي عرض ذيله الطاووسي العظيم ذا العيون الألف الملونة بألوان القوس قزح، مما جعل الطائر القريب الذي لا اسم له يصدح بأغنية. عند ذاك بالضبط صدمت هبة ريح يوسف في وجهه، أمسكت بلحيته وردائه، التفت في دوامة حوله مثل زوبعة صغيرة تتحرك باتجاه الصحراء، ما لم يكن يتخيل الأشياء ولم يكن ذلك أكثر من اندفاع دم نحو رأسه، أو ارتعاشة تسري في عموده الفقري مثل لسان نار، يضلل بذلك باعثاً مختلفاً تماماً وأكثر إلحاحاً.

دخل يوسف المنزل وكأنه يتحرك في دوامة هواء وأغلق الباب خلفه، هناك وقف للحظة، منتظراً أن تعتاد عيناه على الظلال. بعث المصباح القريب وهجاً واهناً لا يكاد يضيء. استلقت مريم على ظهرها متيقظة تماماً تصغي وتحدق في الفضاء وكأنها تنتظر. وصل يوسف مختلساً وعاد ليسحب الملاءة ببطء. أشاحت عينيها، وبدأت تشد بقوة حافة ردائها الذي سرعان ما رفعته إلى مستوى سرتها حتى علاها يوسف ورفع رداءه إلى خصره. خلال ذلك باعدت مريم ساقيها، أو أنهما تباعدتا من ذاتيهما بينما كانت تحلم وبقيتا متباعدتين،

ربما بسبب هذا الكسل المفاجئ أو مجرد هاجس المرأة المتزوجة التي تعرف واجبها. الله، الكلي الوجود، كان هناك، ولكن لأن(ـه) روح نقية، كان غير قادر على رؤية كيف أن جلد يوسف قد اتصل بجلد مريم، كيف اخترق لحمه لحمها كما قضي الأمر، وربما لم يكن (هو) هناك حين انسكبت البذرة القدسية في رحم مريم العزيز، كلاهما في منتهى القداسة، لكونه ينبوع الحياة وقربانها. ففي حقيقة الأمر، ثمة أشياء الرب نفسه لا يفهمها، رغم إنه خلقها. هناك في الباحة لم يكن الرب يسمع اللهاث المتألم الذي يتسرب من شفاه يوسف وهو في الذروة ولا الأنين الرقيق الذي لم تستطع مريم كبحه. استراح يوسف على جسد مريم ليس أكثر من دقيقة وربما أقل من ذلك. أنزلت رداءها وسحبت الملاءة بيد وغطت وجهها باليد الأخرى. وقف يوسف في وسط الغرفة، رفع يديه وتطلع إلى السقف، ونطق بأكبر صلاة شكر رهيبة حفظت للرجال، أشكرك، يا إلهي العظيم، يا ملك الكون، لأنك لم تجعلني امرأة. عند ذاك، لابد أن الرب كان قد غادر الباحة، ذلك لأن الجدران لم تهتز أو تنهار، ولم تنشق الأرض. كل ما كان يسمع أن مريم كانت تقول للمرة الأولى، بذلك الصمت الخاضع الذي دائماً ما يتوقعه الإنسان من النساء. شكراً لك يا إلهي، لأنك جعلتني وفقاً لمشيئتك. والآن ليس ثمة فرق بين هذه الكلمات وتلك التي قيلت للملاك جبرائيل، إذ من الواضح أن أي شخص قد يقول، أنظروا لخادمة الرب، تقول افعل معي حسب مشيئتك، ربما يكون قد استخدم بسهولة تلك الكلمات الأخرى. بعد ذلك نهضت زوجة النجار من بساطها، لفته سوية مع بساط زوجها، وطوت الملاءة التي يقتسمانها.

عاش يوسف ومريم في قرية اسمها الناصرة، مكان غير ذي أهمية، سكانه قليلون في مقاطعة الجليل، في منزل لا يختلف عن المنازل الأخرى، يشبه مكعباً مائلاً صنع من الأحجار والطين، وهم فقراء كباقي الفقراء. ليس ثمة أمثلة صارخة للعمارة الخيالية التي وجدت هنا حيث يظهر الشكل غير الممتع ذاته في كل مكان. وللاقتصاد بمواد البناء أُنشئ البيت على جانب التل الذي كون الجدار الخلفي وسمح ذلك بسهولة اعتلاء السقف المسطح الذي يصلح أن يكون عليّة. كما نعرف، كان يوسف يمتهن التجارة وهو كفوء تماماً في عمله، على الرغم من أنه لا يمتلك الخبرة ولا الموهبة اللتين تتطلبان من المحترف. على أن هذا النقد لا يجب أن يؤخذ تماماً على محمل الجد لأن الإنسان يحتاج إلى الوقت الكافي لكسب الخبرة والمهارات المعينة، ويجب أن لا ننسى أن يوسف في العشرينات من عمره ويعيش في مكان ذي موارد شحيحة وفرص أكثر شحة. على أية حال لابد لنا أن لا نقيس قيمة الرجل اعتماداً على مهاراته الحرفية، فلابد أن يقال، أن يوسف هذا مع كل شبابه، هو واحد من أكثر الناس نزاهة وتقىً في الناصرة، مواظب على الحضور في الكنيس، ملتزم في تنفيذ واجباته، وبينما قد لا يكون موهوباً بتلك القدرات الخاصة في البلاغة، بإمكانه أن يقيم حواراً ويطرح ملاحظات نكية ، خصوصاً عندما يُمنح الفرصة باستخدام بعض الصور البلاغية الشديدة الذكاء أو الاستعارات المستمدة من عمله، كمثل تجارة الكون. ولأنه لم يمتلك أبداً ما يمكن أن يسميه الإنسان بالخيال الخلاق الحقيقي، فلن ينجح

خلال حياته القصيرة بأن يأتي بمثل رمزي جديد بالذكر يمكن أن تتوارثه الأجيال التالية، إذا تجاوزنا ذكر تلك التصورات اللماحة التي عبرت بوضوح تام حتى أن ليس ثمة المزيد لما يقال ولكنها مع ذلك غامضة جداً ومثيرة للتساؤلات لدى الدارسين والباحثين في السنوات التي تلت.

أما مواهب مريم، فإن هذه حتى أقل بروزاً مما قد نتوقعه من فتاة في السادسة عشرة من العمر، التي، رغم زواجها، ما زالت مراهقة غضة، تتجرد من ثيابها، ففي تلك الأيام أيضاً اعتاد الناس استخدام مثل هذه التعابير. ناهيك عن مظهرها الهش، فمريم تعمل بشقاء كباقي النسوة في تمشيط الصوف والغزل وحياكة الملابس وخبز الخبز للعائلة في كل صباح، وجلب الماء من البئر عبر المنحدر الشديد الانحدار واضعة دلواً كبيراً على رأسها وآخر تسنده بحوضها. وفي آخر النهار تنطلق عبر الطرق المقفرة وغابات الله، لتجمع الحطب وتقطع الجذامات وتملأ سلة أخرى من روث البقر والأشواك والأغصان الشائكة التي تزدهر على المنحدرات العليا للناصرة، وهي أفضل الأشياء التي خلقها الله لإضرام النار أو لضفر تاج. كان من الأسهل لها أن تضع كل الحمل على ظهر الحمار لولا الحقيقة البسيط أن يوسف كان يحتاجه لحمل الخشب. تذهب مريم إلى البئر عارية القدمين، وتسير في الحقول عارية القدمين أيضاً، ترتدي الثياب الرثة التي اتسخت وتهرأت وبحاجة ماسة إلى الغسل والترتيق، وكل ثياب جديدة أو إضافات صغيرة تخصص لزوجها، لأن النساء مثل مريم يكسبن القليل جداً. حين تحضر في الكنيس، تدخل من الباب الجانبي، كما يأمر الناموس النساء، وحتى حين تجد نفسها هناك مع ثلاثين امرأة أخرى، مع كل نساء الناصرة، أو كافة المجتمع الأنثوي في الجليل، فمع ذلك عليهن الانتظار حتى يصل عشرة رجال على الأقل لأداء الخدمة التي لا يكن النساء فيها إلا مشاركات سلبيات. على العكس

من يوسف، زوجها، فإن مريم ليست مستقيمة ولا تقية، ولكن لا يمكن لومها على تلك العيوب الأخلاقية، بل يكمن الخطأ في اللعبة التي تتحدث بها، إن لم يكن في الرجال الذين اخترعوها، لأن تلك اللغة لا تمتلك شكلاً أنثوياً للكلمات مستقيماً وتقياً.

وفي يوم آخر جميل، بعد أربعة أسابيع من ذلك الصباح الذي لا ينسى عندما تحولت الغيوم في السماء وعلى نحو غامض إلى اللون البنفسجي، حدث أن يوسف كان في البيت. كانت الشمس توشك على الغروب وكان جالساً على السطح يأكل طعامه بأصابعه كما كانت العادة، بينما تقف مريم هناك بانتظار أن ينتهي من طعامه قبل أن تتناول عشاءها. لم يتكلم أي منهما إذ لا كلام لديه ليقوله، أما هي فغير قادرة على التعبير عما في ذهنها. وظهر فجأة شحاذ عند بوابة الباحة، الشيء النادر تقريباً في هذه القرية التي يسكنها الفقراء، وهذه الحقيقة من غير المحتمل أن تغيب عن بال جماعة الشحاذين الذين يدسون انوفهم في الأماكن حيث العائدات الغنية، لذلك من المؤكد أن هذا ليس هو المكان المناسب. وعلى الرغم من ذلك فقد غرفت مريم غرفة جيدة من العدس مع بصل مقطع وهرست البازلاء الدقيقة التي عزلتها لعشائها في طبق لتناولها للشحاذ الذي جلس على الأرض أمام العتبة. لم تكن مريم بحاجة لموافقة زوجها الشفهية، إذ أشار لها برأسه فقط، فكما يعرف الجميع، في تلك الأزمان كانت الكلمات غير ضرورية تماماً وإشارات بسيطة بالإبهام للأعلى أو للأسفل كافية لأن تدين شخص ما فيحكم بالموت أو يرفع من شأنه، كما كان يحدث في ساحات المدرجات الرومانية القديمة. ورغم اختلاف الأمر، فإن هذا الشفق، أيضاً، كان دراماتيكياً بمجاميع الغيوم الغزيرة التي تتناثر في السماء، وردية اللون، ومتلئلئة، وقرنفلية وكرزية، هذه الصفات تستخدم هنا على الأرض لكي نفهم بعضنا، إذ لا لون من هذه الألوان، في حدود علمنا، له: أسماء في السماء. لابد أن

الشحاذ لم يصب طعاماً منذ ثلاثة أيام، وهذا جوع حقيقي، لأنه مسح وكنس الطبق ليغدو نظيفاً على عجل، وأتى ليعيده معبراً عن امتنانه. فتحت مريم الباب لتجد الشحاذ هناك، لكنه بدا أوسع وأطول مما كان، يبدو فعلاً ان هنالك بوناً شاسعاً بين الجوع والشبع، لأن عيون ذلك الرجل كانت تشع، وثيابه المهلهلة التي تهفهفها ريح غامضة وضعت الغشاوة على نظرها فاتخذت تلك الأسمال مظهر الثياب الغنية، وهي رؤية تراها فتصدقها. مدت مريم يدها لتستلم الطبق الفخاري الذي، بسبب من خداع بصر غريب، ربما تبعاً لوميض الضياء في السماء، قد تحول إلى إناء من الذهب الخالص. ومع مرور الطبق من يديه إلى يديها، دعا لها الشحاذ بصوت رنان، إذ حتى صوت الرجل المسكين قد تغير، فليباركك الله أيتها المرأة الطيبة، ويرزقك بكل الأطفال الذين يتمناهم زوجك، وعسى الله ذاته أن يحميك من قدري الحزين، فوا حسرتاه عليّ لا أجد مكاناً أضطجع فيه في هذا العالم التعس. حملت مريم الطبق بيدين مكورتين، واحدة فوق الأخرى، وكأنها تنتظر من الشحاذ أن يملأه، وهو الشيء الذي قام به بالفعل. فدونما أي إنذار انحنى وجمع حفنة تراب من الأرض ثم رفع ذراعه، وسمح ليده بأن تتراخى لينهال التراب من بين أصابعه بينما يردد بصوت منخفض، من الأرض وإلى الأرض، من الرماد وإلى الرماد، من التراب وإلى التراب، لا شيء يبدأ دون أن يفنى، وكل شيء يخرج من آخر فان. كانت مريم في حيرة وسألته ما معنى هذا، لكن الشحاذ أجاب ببساطة، أيتها المرأة الطيبة، في رحمك طفل وهذا هو القدر الوحيد للإنسان أن يبدأ وينتهي، أن ينتهي ويبدأ، كيف عرفت أنني أحمل طفلاً قبل أن ترى أي انتفاخ؟ الطفل يُرى مشعاً عبر عيون أمه، إن كان ذلك صحيحاً، فلابد أن زوجي قد رأى طفله في عيني، ربما لا ينظر إليك حين تنظرين إليه، من أنت يا من تعرف الكثير عني دون أن تسمع مني، أنا ملاك، ولكن لا تخبري أحداً.

في تلك اللحظة عادت أرديته إلى أن تكون أسمالا، العملاق غير المتوقع ذوى وكأن لساناً من النار قد كنسه، وقد حدث هذا التحول العجيب في وقته المناسب، شكراً لله، إذ سرعان ما ظهر يوسف في الممر بعد الاختفاء الهادئ للشحاذ، إذ تناوبته الشكوك من أصوات الهمس وغياب مريم الذي طال. فسألها ماذا أراد الشحاذ أيضاً، ولم تستطع مريم المرتبكة سوى أن تردد، من الأرض وإلى الأرض، من الرماد وإلى الرماد، من التراب وإلى التراب، لا شيء يبدأ دون أن يفنى، لا شيء يفنى دون أن تكون له بداية. هل هذا ما قاله، بلا، وقال أيضاً أن ابن الأب يشع من عيني أمه، أنظر إليّ، إنني أنظر إليك، إنني أرى، إنني أرى لمعاناً في عينيك، قال يوسف، وأخبرته مريم، لابد أنه طفلك. مع تحول سماء المساء من الزرقة إلى ظلال الليل المعتمة، راحت الأشياء التي في الطبق تشع بإشعاع داكن غيّر وجه مريم وبدت عيناها كأنهما تعودان لامرأة مسنة. هل أنت حامل، سألها يوسف في الأخير، أجل، أنا حامل، أجابت مريم، لماذا لم تقولي لي ذلك مبكراً، كنت أنوي أن أخبرك اليوم و أنتظرت حتى تنتهي من طعامك، ثم جاء الشحاذ، هذا صحيح، وماذا كان يريد أن يقول فهو بالتأكيد أخذ فرصته في الكلام، دعا الرب أن يرزقني بكل الأطفال الذين تتمناهم، وماذا لديك في ذلك الطبق ليشع هكذا، لا شيء سوى التراب، التراب أسمر، الطين أخضر والرمل أبيض، ومن بين هذه الأشياء الثلاثة الرمل وحده يشع في ضوء الشمس، ولكننا في المساء، اغفر لي، لست سوى امرأة ولا أفهم في هذه الأشياء. تقولين أنه أخذ شيئاً من التراب من الأرض ووضعه في الطبق، وفي الوقت ذاته نطق بالكلمات، من التراب وإلى التراب، أجل، تلك الكلمات عينها.

ذهب يوسف ليفتح البوابة، ونظر يساراً ويميناً. لا أثر له، لقد أخبرها، واختفى، وتتبعت خطاه إلى المنزل لتشعر بالاطمئنان. كانت

تعرف أن ذلك الشحاذ، إن كان حقاً ملاكاً، لا يمكن رؤيته إلا إذا رغب. وضعت الإناء على البلاطة الحجرية للموقد، وأخرجت جمرة من النار وأوقدت المصباح الزيتي حتى ارتفع لهب صغير. عاد يوسف إلى الداخل وعلى سيمائه الحيرة. حاول أن يخفي شكوكه وتحرك باتزان ورزانة الأبوة التي بدت غريبة على شاب في عمره. وراح يختلس النظر إلى الإناء الذي امتلأ بالتراب المضيء ليتفحصه، كانت تعابيره الساخرة تظهر شكه، ولكن إن كان يحاول تأكيد تفوقه الذكوري، فقد كان يبدد وقته. كانت عيون مريم منخفضة وأفكارها في مكان آخر. حرك يوسف التراب مستخدماً عوداً صغيراً، واندهل حين رآه يسود عندما تكدر، ولكي يستعيد ألقه اندفع ضوء خاطف في كل الجهات فوق السطح الباهت. ثمة شيء غامض لا يمكنني فهمه، إما أن يكون الشحاذ قد جلب هذا التراب معه وأنتِ تصورت أنه أخذه من هنا، أو ثمة سحر في الأمر، إذ من ذا الذي رأى تراباً مضيئاً كهذا في الناصرة. بقيت مريم صامتة. كانت تأكل ما تبقى من العدس مع البصل وهرست البازلاء الصغيرة مع بعض الخبز الذي غمسته في الزيت. حين قطعت الخبز خضعت للقانون المقدس بالتعبير عن شكرها بالصوت المتواضع الذي يناسب المرأة، الشكر لك، يا أدوناي، الرب الإله، ملك الكون، الذي بقدرتك جلبت الخبز من الأرض. واستمرت تأكل بصمت بينما ظل يوسف في دهشته وكأنه يفسر آية من التوراة Torah في الكنيس، أو عبارة للأنبياء، الكلمات التي نطقتها مريم، هي كلمات يستخدمها هو حين يقطع الخبز، وحاول أن يتخيل أي قمح من الممكن أن يزرع ويحصد في هذا التراب المضيء. أي خبز سينتج وأي ضياء سوف تحمله في داخلنا ونحن نغذي أنفسنا بمثل هذا الخبز. هل أنت متأكدة أن الشحاذ قد غرفه من الأرض، سأل مريم للمرة الثانية، وأجابته مريم، بلا، أنا متأكدة من ذلك. ربما كان يضيء طوال الوقت. كلا، أنا متيقن أنه لم يكن يضيء على الأرض. مثل هذا اليقين كان يهدئ المخاوف الأشد فتكاً

لأي رجل يجابه بتقولات وأفعال النساء عامة، وخصوصاً زوجتـه، لكـن يوسف قد أيقن، مثل كل الرجـال فـي ذلك الوقت وفـي هذا المكـان، أن الرجل الحكيم حقيقة هو الذي يكون حذراً من مكائد وخدع النسـاء. عليـه أن يتحدث قليلاً مع النساء ويمنحون القليـل مـن الانتبـاه، هذا هـو شـعار الزوج الحصيف الذي ينتبه للنصائح الحكيمة لرابي يوسفات بن يوحنان، التي تقول أن في ساعة الموت على كل رجل أن يُحاسب عن كل حديث عقيم تحدث بـه مـع زوجتـه. فسأل يوسـف نفسـه فيمـا إذا كـانت هـذه المحادثة مع مريم من المقدر لها أن تكون ضرورية ولأنه قـرر أنهـا قد تكون كذلك، حين فكر في الطبيعة الغريبة لما حدث، أقسم أنه لـن ينسـى أبداً الكلمات المقدسة لرابي، شـبيهه بالاسـم، لأن يوسـفات يشـبه يوسـف، مفضلاً ذلك على معاناة الندم عند ساعة المـوت، التـي ستكون، إن شـاء الله، بسلام. أخيراً وبعد أن سأل نفسه فيما إذا كان سيستشـير الكبـار فـي الكنيس عن الأمر الغريب للشحاذ الغامض والتراب المضـيء، فقد قـرر أن لابد له من إخبارهم ليريح ضميره وليخيم السلام على بيته.

أنهت مريم طعامها. وأخذت الأواني إلى الخـارج لتغسـلها، لا حاجـة بنا إلى القول، دون الإناء الذي أكل فيـه الشـحاذ. ثمـة الآن ضـوءان فـي المنزل، ذلك الذي يترشح من المصباح الزيتي الذي يصارع ظلام الليـل ببسالة وتلك الهالة المضيئة التي تومـض بثبـات، مثـل شـمس تتباطـأ فـي الظهور. جلست مريم على الأرض بانتظار أن يستأنف زوجها الحديـث، ولكن لم يكن ثمة شيء يضيفه يوسف لها وهو يسترجع في ذهنه الكـلام الذي عليه أن يقوله أمام مجلس الشيوخ. ووجد أن من المحبط لـه أن لا يعرف بالضبط ما حدث بين زوجته والشحاذ، ليعرف أي شيء آخـر قد تحدثا به بعضهما للبعض الآخر. ولكنه قرر أن لا يسألها المزيد في ذلك لأنها من غير المحتمل أن تفشي له بأكثر من ذلك. بالإضافة إلى أنـه قد يصدق ما أخبرته به من قبل مرتين، إذ لو أنها كاذبة، فلـن يعـرف ذلـك،

لكنها ستعرف ومن المؤكد أنها ستسخر منه، وهي تغطي وجهها بعباءتها كما سخرت حواء من آدم، من ورائه، لأنه في ذلك الوقت لم يكن الناس يرتدون العباءات. وظل يوسف يفكر بفكرة بعد أخرى حتى أقنع نفسه أن الشحاذ قد أرسل من قبل الشيطان. ولأن المغوي قد أدرك أن الزمان قد تغير وأن الناس قد أصبحوا حذرين، فلم يعرض واحدة من فاكهة الطبيعة بل حمل الوعد بتراب عجيب ومضيء، معتمداً مرة أخرى على سذاجة وضعف النساء. كان عقل يوسف مضطرباً ولكنه منشرح للنتائج التي توصل إليها. أما مريم، غير الواعية للأفكار التي تعذب زوجها عن تآمر الشيطان والتي يحملها هي المسؤولية فيها، فقد شعرت بالقلق بسبب ذلك الشعور الغريب بالفراغ منذ أن أخبرت زوجها بحملها. وهو ليس فراغاً داخلياً، ذلك شيء أكيد، لأنها تعرف تماماً منذ الآن، وبالمعنى الدقيق للكلمة، أن رحمها ممتلئ، بل هو بالأحرى فراغ خارجي وكأن العالم قد تقهقر وأصبح بعيداً. إنها تتذكر، ولكن كأنها تستدعي حياة أخرى للوجود، لذلك بعد العشاء وقبل أن تبسط الفراش استعداداً للنوم، دائماً ما يكون لديها عمل تقضيه بيديها لتبديد الوقت، لكنها الآن لا تشعر بالميل للنهوض من حيث هي جالسة على الأرض، تحدق في الضياء الذي ينعكس نحوها من حافة الإناء، وتنتظر ولادة طفلها. ولو أُريد قول الحقيقة فإن أفكارها ليست واضحة كما ينبغي، لأن الفكر، عندما يقال كل شيء ويفعل، كما قال الآخرون وقلت من قبل، يشبه كرة كبيرة من الخيوط التفت حول نفسها، فتتراخى في مكان، وتشتد في مكان، وهي هنا في داخل رأسنا بالضبط. من الاستحالة أن نعرف أقصى مدى لها، ويريد الإنسان أن يقلها ثم يقيسها ولكن، مهما يحاول الإنسان، أو يتظاهر بالمحاولة، فإن ذلك لا يمكن أن يعمل دونما مساعدة. وفي أحد الأيام على شخص ما أن يأتي ويخبرنا من أين يقطع أحد ما الحبل الذي يشد الإنسان بسرته ويربط الفكر بجذره.

في الصباح التالي، بعد ليلة مقلقة اضطرب كيان يوسف خلالها أيما اضطراب بالكابوس ذاته الذي رأى نفسه فيه يسقط مرة بعد أخرى في إناء هائل مرتفع وكأنه تحت سماء مرصعة بالنجوم، ذهب إلى الكنيس ينشد نصيحة الشيوخ. القصة التي كان عليه أن يرويها غريبة تماماً، على الرغم من أنه هو ذاته لم يعرف ما هو الغريب فيها لأنه، كما نعرف، لم ترو له القصة كاملة. لذلك إن لم يكن من أجل الاحترام الكبير الذي لمسه من قبل الرجال المحنكين في الناصرة، ربما كان عليه أن يعود بخطاه ونيله بين ساقيه وكلمات اللوم من المبدأ الكنسي ترن في أذنيه: أن تثق على عجل برجل فتلك سذاجة، وهو، المسكين، لم يكن سريع البديهة ليجيب بكلمات من المبادئ الكنسية ذاتها، ملائمة للحلم الذي طارده طوال الليل، ما تراه في حلم ليس إلا انعكاس يشبه انعكاس الوجه في المرآة. حين فرغ من سرد قصته، نظر الشيوخ بعضهم إلى بعض ثم نظروا إلى يوسف، ثم ترجم أكبرهم الشك الصامت للمجلس إلى سؤال مباشر، فتساءل، أهذه هي الحقيقة، الحقيقة كاملة ولم تقل غيرها، عند ذاك أجاب النجار، الحقيقة، الحقيقة كاملة وليس سواها، والله شاهد عليّ. ثم تباحث الشيوخ طويلاً فيما بينهم، بينما انتظر يوسف على بعدٍ حذر حتى استدعوه أخيراً وأعلنوا، بسبب اختلافات الرأي لا يمكن حلها حول مواصلة الاجتماع فقد قرروا أن يرسلوا ثلاثة مبعوثين لمناقشة مريم ذاتها حول هذه الأحداث الغامضة لاكتشاف هوية الشحاذ الذي لم يره أحد، وليعرفوا كيف كانت هيأته والكلمات التي قالها

بالضبط، وفيما إذا كان أحد ما يتذكر أنه رآه يسأل الصدقات في الناصرة، أو من الممكن أن يعطي أية معلومات عنه مهما كانت بسيطة حول هذا الغريب الغامض. كان يوسف مسروراً في داخله، رغم أنه لم يقر بذلك أبداً، فقد كره فكرة أن يقابل زوجته بمفرده بعد أن بدأت تغيظه عادتها الجديدة في أن تخفض عينيها. قد يتطلب التواضع مثل هذا التعقل، ولكن ثمة أيضاً إشارة واضحة، في هذه النظرة التي تعود لامرأة تعرف أكثر مما أفصحت عنه وتريد من الآخرين أن يلاحظوا ذلك. في الحقيقة، في الحقيقة، أقول لكم، أن كيد النساء لا حدود له، خصوصاً حين يدّعين البراءة.

وهكذا غادر المبعوثون يقودهم يوسف وكانت أسماؤهم آبياثار ودوثان وزاكيوس، أسماء ذكرت هنا كي ترد على أي شك يتردد عن اللادقّة التاريخية في أذهان أولئك الذين أخذوا روايتهم لهذه الأحداث من مصادر أخرى، ربما تكون مطابقة أكثر للتراث، ولكن ليس من الضروري أن تكون موثوقة. وبعد كشف الأسماء وتعيين الرجال الذين استخدموها، فإن أية شكوك أخرى تفقد قوتها، ولا حاجة لذكر مدى صحتها. وعند رؤية المنظر غير المعتاد للشيوخ الثلاثة وهم يسيرون في موكب مهيب عبر الشوارع، يداعب النسيم أرديتهم ولحاهم، تجمع صغار الحي حولهم وراحوا يقلدون حركاتهم، كعادة الصغار، يتصايحون مبتهجين وهم يطاردون المبعوثين طوال الطريق من الكنيس حتى وصلوا إلى منزل يوسف، الذي كان انزعاجه من هذا الموكب الصاخب بادياً للعيان. وبدأ النسوة، بعد أن جذبتهن الضوضاء، بالظهور في مداخل الأبواب للبيوت المجاورة، ولأنهن شعرن بوجود خطب ما، بعثن أطفالهن ليعرفوا ما الذي يعمله مثل هذا الوفد عند باب مريم. وخاب أملهن إذ لم يسمح سوى للشيوخ بالدخول. وأغلق الباب خلفهم، ولم تتمكن أية امرأة في الناصرة، مهما كانت فضولية، في أن تكتشف

حتى هذا اليوم ما الذي حصل في منزل يوسف النجار. ولأن الشيوخ أجبروا على اختلاق شيء ما يرضي فضولهم الشره، اتهموا الشحاذ، الذي لم يروه بأعينهم قط، بأنه لص عادي، وهذا ظلم كبير، لأن الملاك، لم يخبر أياً كان عن هويته، ولم يسرق الطعام الذي أكله حتى أنه ترك برهاناً قدسياً قبل أن يغادر. ولذلك فبينما استمر اثنان من الشيوخ الكبار بمناقشة مريم فقد ذهب الثالث، أصغرهم، وهو زاكيوس، حول المنطقة المجاورة ليجمع أية معلومات من الممكن أن يتذكرها الناس عن الشحاذ، حسب الوصف الذي وصفته به زوجة النجار، ولكن لا أحد من الجيران قد قدم أية معلومات، كلا سيدي، لم يمر شحاذ من هذا الطريق يوم أمس، وإن مر فلم يطرق بابي، لابد أنه كان لصاً يتجول وعندما وجد أحداً في البيت تظاهر بأنه شحاذ ثم اختفى على عجل، هذه أقدم حيلة عرفها العالم.

عاد زاكيوس إلى منزل يوسف دون أن يضيف شيئاً جديداً عما روته مريم ثلاث وأربع مرات عن الشحاذ. كانوا جميعاً في المنزل، تقف مريم هناك وكأنها مذنبة بجريمة ما، والإناء موضوع على الأرض، وفي داخله التراب الغامض مستقر مثل قلب نابض. وجلس يوسف في إحدى الجهات بينما جلس الشيوخ في الأمام ليكونوا مثل منبر للقضاة. قال دوثان الثاني من بين الثلاثة، لا تحسبي أننا لا نصدقك، ولكن لا تنسي أنك الشخص الوحيد الذي رأى ذلك الرجل، إن كان رجلاً، فكل ما يعرفه زوجك أنه سمع صوته، وهذا زاكيوس يخبرني أن لا أحد من جيرانك قد رآه. يشهد الله، أقسم أنني أقول الحقيقة، الحقيقة، ربما، ولكن أهذه هي الحقيقة كلها، سأشرب ماء الله وهو الذي سيبرهن على براءتي، إن شرب المياه المرّة هي للنساء اللائي يُشك في ولائهن ولكنك قد لا تكونين خائنة لزوجك لأنه لم يمنحك الفرصة الكافية، الكذب يساوي الخيانة، فهو نوع آخر من الخيانة، كلماتي صادقة كالبقية مني.

ثم أخبرها آبياثار، أكبر الثلاثة، لن نسألك أكثر من ذلك، فالله سوف يكافئك سبعة أضعاف عن الحقيقة التي قلتها، أو يعاقبك سبعة أضعاف لو كنت قد خدعتنا. وحل الاجتماع وظل صامتاً، ثم التفت نحو زاكيوس ودوثان وسألهما، ما الذي سنفعله بهذا التراب المضيء الذي تتطلب الحكمة أن لا نبقيه هنا لأن هذه ربما تكون واحدة من ألاعيب الشيطان. قال دوثان، دع التراب يعود من حيث جاء، دعه يعود إلى عتمته السابقة. وقال زاكيوس، نحن لا نعرف من كان ذلك الشحاذ، ولماذا اختار أن تراه مريم وحدها. ولا نعرف معنى هذا التراب الذي في الإناء. واقترح دوثان، دعونا نأخذه إلى الصحراء ونبعثره هناك، بعيداً عن أعين الناس، كي تنشره الريح بعيداً وعلى مدى واسع ثم يأتي المطر ويمحوه. قال زاكيوس، إن يكن هذا التراب هبة إلهية فلابد لنا أن لانفرط فيه، وإن يكن، من الناحية الأخرى، ينبئ بالشر، فلندع أولئك الذين أُهدي إليهم يتلقون عواقبه. تساءل آبياثار، فما الذي تقترحه إذاً، أجاب زاكيوس، من الأحرى أن يدفن الإناء هنا، ويغطى كي لا يختلط بباقي التراب الطبيعي، لأن هبة الرب، حتى لو دفنت، فلن تضيع وأن قوة الشر تتضاءل كثيراً لو أخفيت عن الأنظار. تساءل آبياثار، ماذا تقول يا دوثان، فيما يخص الجواب الأخير، أنا أتفق مع زاكيوس، دعنا نعمل بما يقول. قال آبياثار لمريم، أفسحي لنا المجال كي نكمل عملنا فسألته، أين سأذهب، أما يوسف، فقد كان مُستثاراً، ويشعر بالضيق، إن كان من الواجب أن ندفن الإناء فليكن ذلك بعيداً عن منزلي، لأنني لن أستريح والتراب المضيء مدفون تحتي. طمأنه آبياثار، أجل يمكننا أن نقوم بذلك ، ثم التفت إلى مريم وقال لها، ستمكثين هنا. خرج الرجال إلى الباحة وكان زاكيوس يحمل الإناء. وفي الحال سُمع صوت المجرفة وهي تحفر عندما بدأ يوسف يعمل بنشاط، وبعد دقائق سمعت مريم آبياثار يقول ، توقف الآن، هذا العمق يكفي. واختلست مريم النظر عبر الشق الذي في الباب، شاهدت زوجها يغطي الإناء بكسرة إناء مقوس ثم أخفاه

في الحفرة التي كانت بطول ذراعه. ثم نهض وسحب مجرفته وراح يهيل التراب في الحفرة ثم يدوس بقدميه بقوة.

بقي الرجال لبعض الوقت في الباحة يتحدثون فيما بينهم ويحدقون في بقعة التراب الطري وكأنهم قد دفنوا للتو كنزاً ثميناً ويحاولون حفظ المكان بالضبط. ولكن بالتأكيد لم يكن ذلك مدار الحديث لأن زاكيوس كان من الممكن سماعه وهو يقول فجأة وبصوت عال، في نغمة لوم، والآن يا يوسف، أي نوع من النجارين أنت إن لم تصنع سريراً لزوجتك الحامل. ضحك الآخران وانضم يوسف إليهما، مفضلاً ذلك على وجه الخاسر الذي يكشف عن كدره. رأتهم مريم يسيرون نحو البوابة فجلست على المصطبة الحجرية إلى جانب الموقد، كانت تنظر فيما حولها متسائلة أين يمكن أن يضعا السرير لو قرر يوسف أن يصنعه. حاولت أن لا تفكر في الإناء الذي واروه التراب أو في التراب المضيء، أو فيما إذا كان الشحاذ ملاكاً حقيقياً أو بهلواناً. لو أن امرأة وعدت بسرير لبيتها فلابد أنها ستبدأ بالتفكير في أفضل مكان تضعه فيه.

بين شهري تموز وآب **Tammuz and Ab**، عندما يقطف العنب في مزارع الكروم ويبدأ التين بالنضوج بين أوراق العنب الداكنة الخضرة، تحدث أحداث معنية. البعض منها عادية، مألوفة، مثل رجل وامرأة يلتقيان جسداً بجسد، وتقول له بعد قليل، إنني أحمل طفلك، الاخرى منها غريبة تماماً، كالومضات الأولى لبشارة أطلقها شحاذ متسكع يبدو أن جريمته الوحيدة كانت الظاهرة الغريبة للتراب المضيء، الذي هو الآن بأمان من أية عيون فضولية، ويعود الفضل لعدم ثقة يوسف ولحكمة الشيوخ. وسريعاً كان دنو أيام القيظ، الحقول جرداء، وليس سوى التربة الجافة ذات الجذامات. خلال الساعات اللاهبة من النهار، تكون الناصرة قرية غاطسة في الصمت والعزلة. وعندما يهبط الليل فقط وتظهر النجوم يمكن للإنسان أن يشعر بالمنظر الريفي الذي يكفنه الظلام أو يسمع موسيقى الكواكب السماوية وهي تشع متقاطعة. جلس يوسف بعد العشاء في الباحة في الجهة اليمنى من الباب ليتنسم الهواء. كم أحب أن يشعر بنسيم المساء العذب على وجهه ولحيته. كان المساء قد هبط حين التحقت به مريم، جاثمة على الأرض كزوجها ولكن في الجهة الأخرى من الباب، وهناك بقيا صامتين، يصغيان للأصوات الآتية من البيوت المجاورة، هي أصوات الحياة العائلية التي هما، أيضاً، سوف يجربانها ما إن يكون لهما أطفال. وجد يوسف نفسه يصلي خلال النهار، عسى الله أن يأتيني بغلام، بينما ظلت مريم، أيضاً تفكر، عسى أن يكون غلاماً، يا ربي العزيز، لكنها كانت لها مآرب أخرى بطلب الغلام. كانت

بطن مريم بطيئة في النمو، وكان على الأسابيع والشهور أن تمر حتى تظهر حالتها، ومنذ ذلك الحين، ولأجل الاحتشام والحذر، صارت ترى القليل من الجيران، وحدث اندهاش عام في الحي عندما ظهرت فجأة لتبدو أنها تحولت إلى بالون في ليلة وضحاها. ربما كان السبب الحقيقي لاختباء مريم هو خوفها من أن أحداً ما قد يربط حملها مع ظهور ذلك الشحاذ الغريب. أياً من هذه المخاوف قد يصعقنا لنكون تعساء، ولكن في لحظات الضحى، عندما بدأت أفكار مريم بالتشتت لم تعد تطيق أي تساؤل عما حدث. ولأنها طفقت تتعذب بالشكوك الحمقاء لم تعد تطيق السؤال عن الأب الحقيقي للطفل الذي تحمله في رحمها. وكما يعرف الجميع، عندما تحمل النساء يبدين رغباتهن بأشياء غريبة ويتخيلن أشياء وهمية، البعض منها أسوأ من تلك التي لدى مريم، التي لن نفشيها كي لا نشوه سمعة هذه المرأة التي ستكون أماً.

مر الوقت، وانسابت الأسابيع، وكان شهر أيلول **Elul** ساخناً كالفرن، حين تقوم الرياح اللاذعة التي تهب من الصحراء الجنوبية بخنق الأجواء، في الموسم الذي يبدأ فيه التمر والتين بتقطير العسل، ويجلب شهر تشرين الأول **Tishri** البشائر الأولى للمطر الخريفي لترطيب الأرض في وقت الحرث والبذار ثم في شهر تشرين الثاني **Heshvan** عندما يقطف الزيتون وتهبط في الأخير درجات الحرارة، بعد أن صار يوسف عاجزاً عن عمل أي شيء أهم من السرير قرر أن يصنع سريراً بسيطاً حيث تتمكن مريم من أن تجد في الأخير الراحة لرحمها المنتفخ والمثقل. سقطت أمطار غزيرة في شهر كانون الأول **Kislev** وخلال أغلب أيام شهر كانون الثاني **Tebet**، مما أجبر يوسف على الانقطاع عن عمله في الباحة. وكان يستغل أي فترة جفاف ليجمع فيها قطع الأخشاب الكبيرة، ولكن يتحتم عليه في غالب الوقت أن يعمل داخل البيت تحت الضوء الشحيح وهناك قطّع ولمّع النير غير المنجزة، مغطياً الأرض

التي حوله بالنشارة والقطع الخشبية التي ستكنسها مريم لاحقاً وتتخلص منها في الباحة.

في شهر شباط **Shebat** أزهرت أشجار الليمون وقد أقيمت الاحتفالات بعيد البوريم **Purim**، في شهر آذار **Adar** عندما ظهر الجنود الرومانيون في الناصرة، المنظر المألوف في الجليل إذ تمر الكتائب من قرية لمدينة ومن مدينة لقرية وترسل أخريات لأماكن أخرى في مملكة هيرودس لإعلام الناس بأمر القيصر أوغسطوس، الذي يقضي بأن كل عائلة تقيم في المقاطعات التي يحكمها المستشار يوبليوس سوبيرسيوس كورينوس يجب أن تشارك في إحصاء، مقرر، كالآخرين جميعاً، بجلب كل السجلات الجديدة عن كل أولئك الذين يتحتم عليهم دفع الضرائب إلى روما. ودونما أي استثناء، طلب من كل عائلة أن تسجل في مسقط الرأس لكل منها. كان أغلب الناس الذين تجمعوا في الساحة لسماع البلاغ على استعداد لإهمال الأمر الإمبراطوري، لأنهم مواطنون من الناصرة وقد استقروا هنا منذ عدة أجيال وهذا هو المكان الذي عزموا التسجيل فيه. لكن بعض الأسر التي جاءت من أماكن أخرى من المملكة، من غاولانيتيس أو السامرة، من اليهودية أوبيرية أو أدومية، من هنا وهناك، من الأراضي البعيدة والشاسعة بدأوا التحضيرات للرحلة الطويلة وهم يتذمرون بمرارة من دناءة وجشع روما، وكانوا يتحاورون بشأن محاصيلهم ووقت حصاد الشعير والكتان يوشك أن يبدأ. أولئك الذين لهم أسر كبيرة، أطفال وصغار في أذرعهم أو عجائز وشيوخ ما لم تكن لديهم رسائل: نقل خاصة بهم، يكونون في حيرة من أمرهم فمن أين لهم أن يستعيروا أو يستأجروا حميراً بسعر معقول، خصوصاً إن كانت أمامهم رحلة شاقة وطويلة تتطلب كمية كبيرة من المؤن من طعام وقِرب ماء لو تحتم عليهم أن يقطعوا الصحراء، وكذلك الأفرشة والملاءات للنوم، وأدوات للطبخ ومواد إضافية للحماية من البرد، إذ لم ينته فصل الأمطار بعد وقد يجدون أنفسهم يقضون الليالي في البرية.

كان يوسف قد علم فقط بالمرسوم حين ذهب الجنود لحمل أنبائهم السارة إلى مكان آخر. ظهر له جاره المسمى أنانياس فجأة وهو في ارتباك شديد ليخبره بما حدث. لحسن حظ أنانياس كان بإمكانه أن يسجل في الناصرة، ولأنه قرر أن لا يحتفل بعيد الفصح في أورشليم هذا العام بسبب الحصاد، فلسوف يعلق كلتا الرحلتين. شعر أنانياس أن من الواجب تنبيه جاره، ولكن بمثل هذه التعابير التي تلمح إلى الاعتداد بالنفس كان كأنه يحمل أنباءً سارة. واحسرتاه فحتى أفضل الناس يظهرون بوجهين ونحن لا نعرف أنانياس هذا بما فيه الكفاية لنقرر فيما إذا يكون هذا التباساً آتياً من اللطف أو فيما إذا سقط تحت تأثير أحد الشياطين الشريرين ممن يتلاعبون بالوقت. في أول الأمر لم يسمع يوسف، الذي كان يدق في لوح خشبي، أنانياس وهو يناديه من البوابة. سمعت مريم، التي كان سمعها أكثر رهافة، صوتاً ينادي يوسف، ولكن كان ذلك هو زوجها الذي ينادي عليه وكان عليها أن تشده بقوة من كمه وتسأله، هل أنت أصم، ألا تسمع شخصاً ما يناديك من البوابة. وناداه أنانياس بصوت أعلى، توقف الطرق، وذهب يوسف ليرى ما الذي يريده جاره منه. دُعي أنانياس للدخول، وبعد التحية المعتادة تساءل بلهجة من يريد التأكد، من أين أنت يا يوسف، وأجابه يوسف لا شعورياً، أنا من بيت لحم، من اليهودية، أليست هذه قريبة من أورشليم، بلا، قريبة جداً، وهل تذهب إلى هناك للاحتفال بعيد الفصح، سأله أنانياس، وأجاب يوسف كلا، كلا، قررت أن لا أذهب هذا العام لأن زوجتي توشك أن تضع طفلها في أية لحظة، أوه، أهكذا هو الأمر، ولكن لماذا تسأل. رفع أنانياس ذراعيه إلى السماء مظهراً الحزن والعويل، يا ليوسف المسكين، لما ستلاقيه من مصاعب، لما ستعانيه من عناء ومشقة لا مبرر لهما، كل هذا ينتظر منك أن تتمه هنا ومطلوب منك أن تلم حاجياتك وترحل عبر ذلك الطريق، أعني يا إلهي يا من ترى وتعين كل الأشياء. ودون أن يستفسر يوسف من جاره عن سبب هذا الانفجار المفاجئ واساه عن

مشاعره النبيلة، ليت الله يعينني أيضاً، وأجابه أنانياس عن ذلك دون أن يخفض صوته، أجل فمع الله كل الأشياء ممكنة، إنه يعرف ويرى كل الأشياء، في السماء وعلى الأرض فالحمد لله على كل الأشياء الخالدة، ولكن، اغفر لي وقاحتي، فلست متأكداً أنه يستطيع إعانتك هذه المرة لأنك بين يدي القيصر. ماذا تحاول أن تقول لي، أولئك الجنود يعلنون هنا أن قبل نهاية شهر نيسان Nisan على كل الأسر الإسرائيلية أن تذهب للتسجيل في مساقط رؤوسها. وهذا ما يعني في حالتك، يا عزيزي يوسف، أن تقوم برحلة طويلة.

وقبل أن يتسنى ليوسف الوقت الكافي كي يكوّن ردّ فعل، ظهرت شوا زوجة أنانياس واتجهت مباشرة نحو مريم التي كانت واقفة متوجسة عند المدخل، وبدأت بالمواساة بالصوت المتهدج ذاته، أيتها الطفلة المسكينة، أيتها الرقيقة، ما الذي سيحدث لك وأنت توشكين على الإنجاب في أي يوم ويجبرونك على السفر إلى مكان من يعلم أين. إلى بيت لحم في اليهودية، أخبرها زوجها، يا إلهي، كل ذلك الطريق، اندهشت شوا، وبكل الإخلاص قالت أنها مرة ذهبت للحج إلى أورشليم وقد هبطت نحو بيت لحم القريبة للصلاة عند قبر راحيل. لم تستجب مريم وانتظرت أن يتكلم زوجها أولاً، لكن يوسف كان مُستثاراً لأن الأخبار الحزينة لم تأت بهدوء وبكلمات محددة، بل جاءته منفجرة بهذه الطريقة الصاخبة من قبل الجيران العصابيين. وكي يخفي ضيقه جعل تعابير وجهه ذات وقار وقال، صحيح أن الله لا يختار دائماً السيطرة على القوى التي يمارسها القيصر، ولكن الله له قوى خاصة تتجاوز الإمبراطور. وقف وكأنه قلق من مذاق الدلالة العميقة للكلمات التي قالها للتو، قبل أن يعلن، أننا سنحتفل بعيد الفصح هنا في الناصرة ثم ننطلق إلى بيت لحم، إن شاء الله، سوف نعود في الوقت المناسب كي تلد مريم في البيت ما لم يكن الله قد قرر أن يولد طفلنا في أرض أسلافنا. ودمدمت شوا، قد يُنجب في الطريق، لكن يوسف سمعها فذكّرها مسرعاً، ولد الكثير من الأطفال

الإسرائيليين في الطريق ولن يكون طفلنا إلا إضافة واحد لهم. ولم يكن لأنانياس وزوجته إلا أن يوافقاه على تلك الكلمات الحكيمة. لقد جاءا ليتعاطفا مع هؤلاء الجيران سيئي الطالع الذين أجبروا على القيام بالرحلة إلى أورشليم وليخففا عن همومهم، لكنهما وجدا نفسيهما مصدودين ودونما ترحيب. لكن مريم تدخلت ودعت شوا إلى الداخل لتطلب نصيحتها عن بعض الصوف الذي عليها أن تمشطه، ويوسف الذي رام تحسين كلامه الفظ، قال لأنانياس، هل لي أن أسألك، أيها الجار الطيب، بأن تعتني ببيتي حين سفري لأننا سنمضي شهراً على الأقل في السفر، هذا ما ستستغرقه الرحلة، ثم الأيام السبعة في المنعزل وربما يطول الأمر أكثر من ذلك، لو شاء سوء الطالع، ويكون المولد بنتاً. طمأن أنانياس جاره بأنه سيعتني بأملاكه وكأنها أملاكه الشخصية، وجاء في ذهنه فجأة أن يسأل يوسف، هلا تفضلت وشرفتني لنحتفل معاً بعيد الفصح مع عائلتي وأصدقائي ما دمت أنت وزوجتك ليس لكما أقارب هنا في الناصرة بعد أن توفي والدا مريم اللذان كانا عجوزين جداً عند ولادتها حتى أن الناس ما زالوا يتساءلون كيف يمكن أن يبذر جواكيم في آن لتلد بنتاً. قال يوسف لأنانياس موبخاً إياه ومازحاً، اسمع الآن يا أنانياس، هل نسيت كيف أن إبراهيم غمغم مع نفسه غير مصدق تماماً عندما أخبره الرب أنه سيمنحه ذرية، وإن يسمح الله العظيم لرجل عجوز عمره مائة عام مع زوجه ذات التسعين عاماً بأن يكون لهما طفل، لماذا لا يكون لحماي وحماتي، جواكيم وآن، اللذين لم يكونا بعمر إبراهيم وساره الشيء ذاته. أجاب أنانياس، كان ذلك زمن العز، عندما كان الرب حاضراً دائماً وغير منشغل بأعماله فقط. فرد عليه يوسف، الذي له دراية جيدة في مسائل العقيدة، الرب هو الزمن، أيها الجار أنانياس، والزمن لا ينفصل عن الرب. غادر أنانياس دون أن يعلق بشيء لأن هذه ليست اللحظة الملائمة لاستدراج الجدل القديم عن السلطات، سواء أكانت من الجوهر ذاته أو أخذت منه، من الرب أو

القيصر. على الرغم من هذا الشرح التطبيقي من اللاهوت، فلم ينس يوسف دعوة أنانياس المفاجئة للاحتفال بعيد الفصح معه وأسرته. على أية حال لم يرغب أن يبدو تائقاً لقبول الدعوة، رغم أنه كان قد قرر أن يلبيها، لأنها كما يعرف الجميع، من علامات اللطف والتهذيب أن تستقبل أي تقدير دون أن تظهر إسرافاً في التعبير عن الامتنان، وإلا سيظن الآخر أننا ننتظر أن ندعى وحسب. حدد يوسف موعد حضوره، وفي الوقت الذي كان يشكر فيه أنانياس على اهتمامه، خرجت المرأتان من المنزل. كانت شوا تقول لمريم، أنت بارعة في تمشيط الصوف يا ابنتي، وتورد وجه مريم وهي تسمع من يطريها أمام يوسف.

في صباح رائق ستأتي مريم كي تبقي في ذهنها عيد الفصح الميمون هذا وما كانت لتساعد في الطبخ أو خدمة الرجال الجالسين على المائدة. واتفقت النسوة الأخريات أن عليها أن تدخر هذه الأعمال اليومية، لا تتعبي نفسك، حذرنها، وإلا آنيتها، من المؤكد أنهن على معرفة بذلك لأن أغلبهن أمهات ولهن أطفال صغار. كل ما عليها فعله هو أن تلازم زوجها الجالس هناك على الأرض مع الرجال الآخرين. مدت يدها من الأعلى ببعض الصعوبة وملأت قدحه وملأت صحنه بالطعام البيتي الشهي، الخبز الفطير ولحم الضأن المتفتت والأعشاب ذات الطعم اللاذع والبسكويت المصنع من الخرنوب الجاف، ذي الطعم الشهي الذي يتفاخر به أنانياس، لأن هذا البسكويت من تراث العائلة. البعض من الضيوف تجنبوه خجلين من اشمئزازهم الفاضح وشعورهم بالألم بأنهم لا يستحقون ذلك المثل المنير لأولئك الأنبياء الصحراويين الذين صنعوا منقبتهم وأكلوا الخرنوب وكأنه المن، ذلك الغذاء السماوي. بعد أن انتهى العشاء، جلست المسكينة مريم وحدها يتقاطر العرق من وجهها، بينما تستريح بطنها المنتفخة على وركيها، وبالكاد تصغي للضحك والمزاح والقصص والقراءات الجادة للكتب المقدسة، يغمرها شعور أنها قد ترحل من هذا العالم في أية لحظة، حياتها تتعلق بالخيط الرفيع الأخير النقي

الفكر والعشوائي الصامت. كل ما كانت تعرفه أنها كانت تفكر دون أن تعرف بماذا أو لماذا كانت تفكر. وأيقظتها رعشة. كانت قد رأت في نعاسها وجه الشحاذ يلوح من خلال العتمة الداكنة، ثم تلفع جسده الضخم بالأسمال. زحف الملاك، إن كان ملاكاً حقاً، إلى حلمها خلسة عندما كان بعيداً عن أفكارها. ورغم ذلك فها هو ذا يحدق فيها بتمعن. وأحست بنوع من الفضول في تعابير وجهه، لكنها ربما تكون مخطئة، فهو قد جاء وذهب كالطيف، وكان قلب مريم الآن يرفرف مثل ذلك الطائر المهتاج. كان من الصعب عليها أن تقول أن شيئاً ما قد جعلها ترتجف أو همس شخص ما ببعض العبارات المربكة في أذنها. بقي الأولاد والرجال جالسين على الأرض بينما النسوة اللائي يشعرن بالحرارة والارتباك في حركة دائبة ليقدمن لهم الطلبات الثانية، حتى أشاروا إلى امتلاء بطونهم. وصار الحديث أكثر حميمية بعد أن بدأ النبيذ يفعل مفعوله.

ودون أن يلاحظ أحد، نهضت مريم ووقفت على قدميها. كان الليل قد هبط. لم يكن ثمة قمر في السماء الصافية، وليس سوى النجوم المتلألئة تبعث نوعاً من الصدى، ثمة أزيز مكتوم يُسمع مجرداً. يمكن لزوجة يوسف أن تحس به على جلدها، في عظامها، يكاد يكون من المستحيل معرفة كنهه، كان مثل رعشة شهوانية ماكرة لم تخمد بعد. عبرت مريم الباحة ونظرت إلى الخارج. لم تر أحداً. كانت البوابة الجانبية مغلقة، كما تركتها، ولكن ثمة تذبذباً في الهواء وكأن أحداً ما قد جرى للتو أو مر طائراً، ولم يخلف وراءه غير أثر فراره الذي يجعل الآخرين في حيرة من أمرهم.

بعد ثلاثة أيام، بعد أن طمأن يوسف النجار زبائنه أنه سينجز أعمالهم عند عودته، وبعد أن قام بوداع أصدقائه في الكنيس وعهد للعناية ببيته وممتلكاته إلى جاره أنانياس، انطلق مع زوجته من الناصرة متجهاً إلى بيت لحم حيث يتحتم عليهما التسجيل كما جاء الأمر من روما. لو أن الأخبار لم تصل بعد إلى السماء، بسبب بعض التأخر في الاتصال أو بعض التعثر في التفسير الآني، فلابد أن الرب الإله سيكون مندهشاً من رؤية مشهد إسرائيل وهو يتغير على نحو فوضوي بسفر جماعات من الناس في كل الاتجاهات، بينما كان في العادة أن يتحرك الناس بطرد مركزي، خلال الأيام الأولى بعد عيد الفصح، ليبدأوا رحلة العودة من تلك الشمس الأرضية، أو المركز المنير، أو المدينة التي تسمى أورشليم. قوة العادة، مع أنها قابلة للانكسار، وحدة الذهن الإلهية، والأخيرة هي المحتمة، سوف تساعد الرب دون ريب في أن يدرك، حتى من مكانه العالي، أن هؤلاء حجاج يعودون على مهل إلى مدنهم وقراهم، ولكن ماذا عن هذه المتاهة المحيرة مع إطاعة هؤلاء لأوامر القيصر المجدفة وهم يرحلون بعشوائية عبر مسالك مألوفة. وثمة تأويل معقول آخر هو أن القيصر أوغسطوس يطيع مشيئة الرب وهو غير واع لذلك، وإن يكن ذلك صحيحاً فبحكمته الإلهية قد قضى بأن يرحل يوسف ومريم إلى بيت لحم في هذا الأوان. ومع أن هذه النظرات اعتباطية وخارج السياق فقد تبدو لأول وهلة، أنها غير بعيدة عن الاحتمال، لأنها من الممكن أن تعيننا على استبعاد ما توصل إليه أولئك

الشاردون الذين يريدوننا أن نتخيل أن يوسف ومريم قد عبرا الصحراء القاحلة وحدهما فقط، دونما أي رفيق طيب، ووثقوا فقط برحمة الله وحماية ملائكته. فما كادا يصلان ضواحي بيت لحم حتى اتضح لهما أنهما لن يكونا وحيدين. فقد التقى يوسف ومريم بعائلتين كبيرتين، كل منهما قبيلة بعشرين نفراً بينهم بالغون وشيوخ وأطفال. صحيح أنهم لم يكونوا جميعاً متجهين إلى بيت لحم، إذ لا تقطع إحدى العائلتين غير منتصف المسافة وستبقى في قرية قرب راما، وستتجه الأخرى نحو الجنوب إلى بئر السبع، وعلى الرغم من أنهم سوف يفترقون عند وصولهم إلى بيت لحم، لأنه دائماً ثمة إمكانية أن يسافر البعض أسرع من غيره، فلسوف ينضمان إلى مسافرين آخرين على الطريق، ناهيك عن أولئك الذين سيقابلونهما أثناء سفرهم في الاتجاه المعاكس، وربما يكونون في طريقهم ليسجلوا في الناصرة، المكان الذي غادراه تواً. يسير الرجال في المقدمة في مجموعة يصطحبون معهم الأولاد الذين بلغوا الثالثة عشرة، بينما تسير النسوة والبنات والعجائز من كل الأعمار، متثاقلات في الخلف برفقة الشبان. ومنذ تحركهم، يردد الرجال صلوات مناسبة للحال بينما تتمتم النسوة بالكلمات، وكلهم يوقنون أن لا جدوى من رفع أصواتهم إن لم يرغب أحد في السماع، على الرغم من أنهم لا يطلبون شيئاً ويشكرون الرب على كل شيء.

ليس غير مريم، من بين النساء، مَنْ توشك على الولادة وفي مثل هذا الإجهاد، لم تهب العناية الإلهية الحمير مثل هذا الصبر والقدرة على الاحتمال اللذين لا حدود لهما كما وهبته لمريم فقد استسلمت وتوسلت الآخرين بأن يتركوها على جانب الطريق لتنتظر ساعتها، التي تعرف بأنها قريبة، ولكن من يمكنه أن يحزر متى وأين، لأن هذا ليس سباقاً للمراهنات أو إجراء تخمينات عن المكان والزمان اللذين سيولد فيهما ابن يوسف، وأي دين عقلاني يُحرم المقامرة. حتى تحين تلك الساعة وحتى

تنتهي هذه الفترة القلقة، فإن المرأة الحبلى قليلاً ما ستتكئ على الانتباهات المذهولة ليوسف الغارق في الحديث مع الرجال الآخرين مبدياً القليل من الاهتمام بالإسناد الموثوق للحمار الذي يتساءل بالضرورة، إن تكن حيوانات الحمولة حساسة لمثل هذه التحولات، لماذا لا يستخدم السوط كثيراً، والأغرب من هذا كله، أنه لم يعد يضغط عليه ويسمح له بالسير مسترخياً بالنسبة لجنسه، لأن هنالك حميراً آخرين يقومون بالرحلة. ولأن النسوة يرحلن على مهلهن فهن غالباً ما يتخلفن مما يحتم على الرجال الذين يتقدمونهن أن يتوقفوا مؤقتاً حتى يقتربن إلى حد ما. يفضل الرجال أن يعطوا انطباعاً بأنهم إنما توقفوا للراحة لأنه، إن كان حقاً أن الطريق يستخدمه الجميع، فحيث تصيح الديكة لابد للدجاجات أن لا تطلق أية أصوات عالية، كل ما هناك أنها قد تقوقي عندما تضع بيضة، هذه هي القوانين الطبيعية التي تسيّر العالم الذي نعيش فيه. هكذا تستمر مريم في رحلتها، متمايلة مع الإيقاع الرقيق لمطيتها، ملكة بين النساء، إذ أنها الوحيدة التي سمحوا لها بامتطاء حمار بينما تحمل الحمير الأخرى العفش. ولتيسير الأمور تحتضن ثلاثة أطفال صغار في حجرها، لتمنح النسوة الأخريات بعض الراحة وتعد نفسها في الوقت ذاته للأمومة.

سرعان ما شعروا بالتعب في اليوم الأول من الرحلة وما كانوا قد ساروا إلا مشواراً قصيراً. فلم تتعود أرجلهم على المشي لساعات دون توقف، ولابد لنا أن لا ننسى عدد الشيوخ والأطفال الصغار الذين يقومون بالرحلة أيضاً. الشيوخ، بعد حياة طويلة، قد استنفدوا طاقاتهم ولم يعودوا يستطيعون إدعاء ذلك، أما الصغار فلم يعتادوا بعد المحافظة على قوتهم المتزايدة، ويرهقون أنفسهم بعد سويعات من النشاط المكثف وكأن الحياة توشك على الفناء ولابد لهم أن يستمتعوا فيها حتى النهاية. عند وصولهم إلى قرية اسمها جيزريل توقفوا عند خان وجدوه في حالة من الفوضى والصخب بسبب الزحام، ولكن، في حقيقة الأمر، الصخب أكثر

من الفوضى في مستشفى المجانين هذا، لأنه، كما يستطيع المرء أن يحكم بعينيه وأذنيه، فثمة نوع من النظام بدا للعيان خلال هذه الكثرة من الناس والحيوانات التي تتجمهر بين الجدران الأربعة ذاتها، مثل كثبان نمل اضطرب ويحاول العثور على اتجاهه ليتجمع ثانية في وسط هذا التشتت. على الرغم من شدة الزحام كانت الأسر الثلاث محظوظة في أن تجد لها مأوى تحت أحد الأقواس حيث سيضطجع الرجال معاً في جهة وتضطجع النسوة في الجهة الأخرى مع هبوط الظلام ويهجع جميع الناس والحيوانات في الخان لقضاء الليل. ولكن على النسوة أولاً تحضير بعض الطعام وملء القرب الجلدية من البئر، بينما ينزل الرجال أحمال الحمير، ويسقونهن الماء بعد أن ترتوي الجمال. إذ يمكن للجمل بجرعتين اثنتين أن يفرغ الأجران التي لابد أن يعاد ملئها مرة بعد أخرى لتروي ضمأها. بعد إرواء وإطعام الحمير، على المسافرين أن يجلسوا أخيراً ويتناولوا الطعام، الرجال أولاً لأن النساء، كما نعرف، في المرتبة الثانية. كم مرة نحن بحاجة لأن نذكر أنفسنا أن حواء قد خلقت بعد آدم وقد خرجت من ضلعه وهل سنتعلم أبداً أن هنالك أشياء لا يمكن أن تفهم إلا حين نتكبد معاناة استعادة أصلها في الذهن.

كان الرجال قد أنهوا طعامهم وعادوا إلى زواياهم، وكادت النسوة ينتهين من أكل ما تبقى عندما قام سمعان، أحد أكبر الشيوخ، والذي كان يعيش في بيت لحم ولكن يتحتم عليه التسجيل في راما ، مستغلاً سلطة كبر السن والحكمة التي يؤمن الناس بها، ليسأل يوسف ما الذي سيفعله لو أن مريم، على الرغم من أنه لم يذكرها بالاسم، بقيت تنتظر الولادة وقد مر آخر يوم للإحصاء. كان من الواضح أن السؤال غير عملي فذلك رهين بالزمان والمكان، ذلك لأن موظفي الإحصاء وحدهم، الضليعون بالنقاط الدقيقة للقانون الروماني، يمكن أن يقرروا كيفية التعامل مع امرأة حبلى جاءت للتسجيل وتقول، لقد جئنا لنسجل، دون أن

يعرف أي إنسان فيما إذا كانت حبلى بصبي أو فتاة، ناهيك عن ذكر الاحتمال الممكن بأنها حبلى بتوأم من جنس واحد أو من الاثنين. ولأن النجار يعد نفسه يهودياً نموذجياً، نظرياً وعملياً، فلم يحلم أبداً أن يحدد بالمنطق الغربي البسيط أن الأمر لا يعود إلى أولئك الذين يطيعون الأوامر أن يكافأوا عن أي خلل في القانون، وإن تكن روما غير قادرة على استبصار صعوبات معينة فيقع اللوم على المشرعين ومفسري الكتاب المقدس. ولأن يوسف صادف مثل هذه المعضلة الشائكة فقد فكر جاهداً ولمدة طويلة باحثاً في تفكيره عن حجة شافية ليقنع أولئك الذين يلتفون حول النار ببلاغته وميله الطبيعي للمناظرة. وبعد تأمل طويل توقف النجار عن التحديق في اللهب الساطع ورفع عينيه ليقول لهم، أن لم يولد ابني حتى اليوم الأخير من الإحصاء فتلك ستكون إشارة من الرب أنه لا يريد أن يعرف الرومان بوجوده. فرد سمعان، تلك وقاحة بأن تدعي أنك تعرف ما يرغب فيه الرب وما لا يرغب. فتساءل يوسف، ألا يرى الرب طرقي ويحسب كل خطواتي، وتلك الكلمات، التي نجدها في كتاب أيوب، وتضمن في سياق النقاش أن يوسف أمام كل الحاضرين والغائبين يحتج على إذعانه وتواضعه في عيون الرب، وهي مشاعر تقارن على نحو مطلق بالوقاحة الشيطانية التي اتهمه بها سمعان حين حاول الإفصاح عن كنه المشيئة الإلهية التي لا يمكن إدراكها. لابد أن الشيخ قد فسر جوابه هكذا، لذلك ظل صامتاً بانتظار أن يعيد يوسف الكرة في الهجوم، إن أيام مولد الإنسان وموته قد حددت ويشرف على تنفيذها ملائكة منذ أن بدأ العالم، وليس سوى الرب، متى شاء، يمكنه تغيير ذلك، أولاً الولادة ثم الموت، وغالباً في وقت واحد، بيده اليمنى ويده اليسرى، وثمة أوقات يتباطأ كثيراً في تحديد موعد الموت حتى يبدو أنه قد نسي وجود بعض الأرواح الحية، توقف يوسف كي يتنفس، ثم أخبر سمعان، وهو يبتسم متألماً، نتمنى أن لا يُنكِّر حديثنا هذا الرب بوجودك. ضحك الحاضرون سراً لأن النجار لم يبد احتراماً

للعجوز، مهما كان رأي الأخير في خرفه متضائلاً. لم يحاول سمعان العجوز بأن يخفي استياءه متشبثاً و مستثاراً بكمه وهو يقول ليوسف، ربما كان الرب متعجلاً بتغيير موعد ميلادك فولدت قبل موعدك، إن تكن هذه هي الوقاحة والاحتقار اللذان تعامل بهما شيوخك الذين رأوا من الحياة وكسبوا من الحكمة أكثر مما لديك. حينذاك أجاب يوسف اسمع، يا سمعان، لقد سألتني ما الذي سأفعله لو أن طفلي لم يولد قبل اليوم الأخير من الإحصاء، ولم أكن أستطيع الإجابة عن سؤالك لأنني غير مطلع على القانون الروماني وأشك بأنك مطلع عليه. كلا، فأنا لم أطلع عليه. ثم قلتُ، أعرف ما قلت، لأنك لا تتعب أبداً من التكرار، فأنت الذي بدأ بالإساءة عندما اتهمتني بالوقاحة لأنني أتنبأ بمشيئة الرب، لذلك سامحني لو أنني جرحت كرامتك، لكنك أنت من بدأ بالإساءة، ولأنك شيخي فجدير بك أن تكون قدوة. كان ثمة همهمة هادئة من الاستحسان حول النار. من الواضح أن يوسف النجار قد كسب في النقاش وانتظر الآخرون رد فعل سمعان. فأخبره مناكداً إياه بروح وخيال ضيقين، كل ما كان عليك أن تفعله هو أن تجيب على سؤالي باحترام، فأجاب يوسف، ألم أجب على سؤالك، حماقة سؤالك واضحة للجميع، لذلك عليك أن تقر بأنني مهما اعتمل في صدري، فقد أبديت لك الاحترام الكبير بأن منحتك الفرصة في مناقشة شيء نريد جميعاً معرفته، هو بالتحديد فيما إذا كان الرب سيرغب أن يكون قادراً على إخفاء شعبه من عيون العدو. أنت تتحدث الآن عن شعب الله وكأنه طفلك الذي لم يولد، لا تضع في فمي، الكلمات التي لم أقلها يا سمعان وأصغ لما حري به أن يفهم بمعنى وما حري به أن يفهم بمعنى آخر. ولم يحاول سمعان أن يجيب على ذلك الهيجان. فوقف على قدميه وانزوى في ركن بمعية رجال من أهله، الذين اضطروا لمرافقته بسبب روابط الدم والقرابة على الرغم من أنهم شعروا بالخيبة إزاء الهزال الذي ظهر به الأب الكبير في هذه المنازلة الحقيقية. كان الصمت الذي تلا همهمات وهمسات المسافرين الذين

خلدوا لقضاء الليل يُحطم بالأحاديث المكتومة في الخان التي تقطعها بين الحين والآخر الصرخات الحادة للحيوانات وتختلط بلهاثها وشخيرها الذي يقطعه الخوار المروع لبعض الجمال المهتاجة. إثر ذلك، كان من الممكن سماع جماعة الناصرة، متناسين كل خلافاتهم، يرددون متوحدين آخر وأطول صلاة شكر إلى الرب في نهاية ذلك اليوم: الحمد لك، يا إلهي يا ملك الكون، يا من تغلق عيوننا دون أن تسرق منها الضياء. هب لنا يا إلهي أن ننام بسلام ونصحو في الغد لنعيش حياة هانئة وسعيدة، أعنا على طاعة أوامرك. لا تقدنا لطريق الغواية وأبعدنا عن الشر. قدنا إلى طريق الفضيلة واحمنا من الأحلام الخبيثة، والأفكار الشريرة والمرض الجسدي. احمنا من رؤى الموت. وخلال دقائق، لا أكثر، غط أغلب أعضاء الجماعة المتعبين في النوم سريعاً، وشخر البعض منهم دونما أية روحية. وسرعان ما التحق بهم الباقون، ولم يتدثر الأكثرية منهم بغير الأردية الكهنوتية التي يتلفعون بها، فليس سوى الشيوخ والصغار، بسبب ضعفهم، يتمتعون بدفء بطانية خشنة أو ملاءة خفيفة. راحت النار تخبو مع خلوها من الخشب، وليس سوى بعض اللهب الواهن الذي يستمر بالوميض الآتي من آخر قطعة خشبية مشتعلة كانت قد التقطت من الطريق لهذا الغرض. نام جماعة الناصرة تحت ذلك القوس بعمق كلهم إلا مريم. فلم تكن قادرة على أن تمتد بسبب بطنها المنتفخة التي ربما كانت تؤوي عملاقاً، لذلك اتكأت إزاء بعض الخرج جاهدة لأن تريح حقويها المتألمين. ومثل الآخرين، كانت هي أيضاً قد أصغت إلى يوسف وهو يجادل العجوز وفرحت لانتصار زوجها، كما يكون الأمر مع أي زوجة مخلصة مهما كان ذلك التنافس سلمياً وبريئاً. لكنها لم تعد تتذكر موضوع ذلك الجدال، فقد غطست استرجاعاتها عن النقاش في الاحساسات النابضة في بدنها التي كانت تروح وتأتي مثل جريان البحر الذي لم تره أبداً، لكنها سمعت الآخرين يصفونه، في مده وجزره اللذين لا نهاية لهما كما يتحرك طفلها في نهاية

رحمها. ومن أغرب الأحاسيس، أن ذلك المخلوق الذي يعيش في داخلها كان يحاول أن يرفعها على كتفيه. ليست سوى مريم كانت تضطجع هناك عيناها مفتوحتان على وسعهما، مشعتان في الظلال وما زالتا تشعان بعد أن خمدت آخر ألسنة اللهب. وليس ثمة من عجب، لأن ذلك يحدث لجميع الأمهات، وليست زوجة النجار استثناء منذ أن ظهر لها الملاك واختفى بصورة الشحاذ.

حتى في الخان ثمة ديكة تُحيي الصباح، ولكن يتحتم على المسافرين والتجار ورعاة الماشية والإبل الاستيقاظ مبكرين استعداداً للمرحلة الثانية من رحلتهم قبيل الفجر. فحمّلوا الحيوانات متاعهم وبضائعهم وقاموا بجلبة أكثر مما كان في المساء الماضي. وما إن رحلوا، حتى بقي الخان هادئاً لسويعات، مثل سحلية تتمدد تحت الشمس. لم يمكث غير أولئك الذين قرروا الاستراحة خلال النهار، ولكن عند المساء سيتقاطر مسافرون آخرون، البعض منهم يخلفون أوساخاً أكثر من غيرهم، وهم جميعاً مرهقون، لكن ذلك ليس له أي تأثير على حبالهم الصوتية، إذ في اللحظة التي يصلون فيها يشرعون في الصياح بأعلى الأصوات وكأن آلاف الشياطين قد تملكتهم. ما إن عاد جماعة الناصرة إلى الطريق حتى صار من المحتم أن يزداد جمعهم. فقد انضم إليهم عشرة أفراد، وأي أحد يتخيل أن هذا المكان كان قاحلاً فهو على خطأ كبير، خصوصاً حين اجتمع موعد عيد الفصح والإحصاء.

لم تكن ثمة حاجة لأن يُذكّر أحد ما يوسف أن عليه مصالحة سمعان العجوز، ليس لأنه كان على خطأ ولكن لأنه تعلم احترام شيوخه وخصوصاً أولئك الذين كانوا في حالة خرف، بسطاء، والذين كانوا يدفعون ثمن الحياة الطويلة بأن يفقدوا عقولهم ويفقدوا أي تأثير على الجيل الذي يصغرهم. لذلك ذهب إليه يوسف وقال بصوت خاضع، لقد جئت لاعتذر عن عجرفتي ووقاحتي ليلة أمس، لم أنو أن أكون مهيناً

ولكنك تعرف الطبيعة البشرية، كلمة واحدة تقود لأخرى، تتعب الأمزجة ويذهب الحذر مع الرياح. سمعه سمعان بصمت دون أن يرفع عينيه، ثم تكلم أخيراً، لقد غفرت لك. بقي يوسف إلى جانبه على الطريق من أجل لمسة لطف متأملاً إجابة استرضاء من هذا الشيخ العنيد عن مبادرته الودودة. لكن سمعان استمر يتجاهله وعيناه مثبتتان على التراب الذي على قدميه، حتى قرر يوسف أن يذعن ساخطاً. وفي آخر لحظة، احتجز العجوز يوسف وكأنه يتيقظ من أفكاره، ووضع يده على كتف يوسف قائلاً، انتظر لحظة. فالتفت يوسف متفاجئاً. توقف سمعان وكرر، انتظر. واصل الآخرون سيرهم تاركين الرجلين يقفان في منتصف الطريق في أرض لا شر فيها تفصل بين مجموعة الرجال المتقدمين وشلة النساء اللائى يتتبعنهم واللائي يقتربن منهم شيئاً فشيئاً. أمام النسوة كان يمكن رؤية مريم وهي تتمايل مع إيقاع الحمار.

كانوا قد مروا بوادي يزرعيل. ينحرف الطريق بوعورة عالياً عند أول منحدر تحوطه الصخور الكبيرة قبل أن ينفذ من جبال السامرة نحو الشرق، ثم يمر عبر سلاسل قاحلة قبل أن يهبط إلى الناحية الأخرى إلى الأردن، حيث يمتد السهل اللاهب إلى الجنوب وتشعل صحراء اليهودية وتلذع الندوب القديمة للأرض الموعودة للفئة المختارة ولكن من غير المؤكد أبداً لمن حري بها أن تسلم قيادها. انتظر، قال سمعان، وأطاعه النجار بعد أن شعر فجأة بالضيق والغضب. النسوة كن يقتربن. ثم واصل الشيخ السير متشبثاً بكُم يوسف وكأن قواه بدأت تخونه، وأباح له بسر، حين اضطجعت للنوم ليلة أمس، رأيت رؤيا، نعم، رؤيا، لكنها ليست رؤيا عادية، لأنني أستطيع إدراك المعنى الخفي في الكلمات التي قلتها بنفسك، بأن طفلك إن لم يولد في آخر يوم من أيام الإحصاء فذلك لأن الرب لا يرغب في أن يعلم الرومان بوجوده ويضيفون اسمه إلى سجلاتهم. أجل، ذلك ما قلته، ولكن ما الذي رأيته. لم أر شيئاً لكنني

شعرت فجأة أن من المستحسن أن لا يعلم الرومانيون بوجود طفلك، وأن لا أحد يخبر عن أماكنه، وإن تحتم وولد الطفل في هذا العالم، فدعه على الأقل يعش دونما عذاب أو مجد، مثل أولئك الرجال الذين أمامنا وأولئك النسوة في الخلف، وحري به أن يبقى مجهولاً كأي واحد منا حتى ساعة الموت، وإلى الأبد بعد ذلك. أي قدر يمكن أن يصبوا إليه طفلٌ لنجار فقير من الناصرة مثلي غير ما وصفته الآن. يا لله، لست الوحيد الذي تتخلص من حياة طفلك، صحيح أن كل شيء بيد الرب وهو أفضل من يعلم. كذلك أقول أنا. ولكن أخبرني عن طفلي، ما الذي اكتشفته، لا شيء أبعد من تلك الكلمات التي قلتها أنت نفسك والتي بدت لي أن لها معنى آخر، وكأنها عن رؤية بيضة للمرة الأولى، أكاد أحس بوجود الفرخ في داخلها. يخلق الله ما يشاء وخلق ما شاء، طفلي بين يديه وليس بوسعي أن أفعل شيئاً. هذا صحيح تماماً، ولكن هذه أيام لا يزال الرب فيها يتقاسم الطفل مع أمه. ولكن هل سيكون ولداً، ذلك شيء يعود لي وللرب. أو يعود للرب وحده. كلنا نعود إلى الرب. ليس جميعنا تماماً، فالبعض منقسم بين الرب والشيطان. كيف يمكن للإنسان أن يخمن. لو لم يخرس الناموس. النساء اليوم وأبداً، لربما كنا قد عرفنا ما نريد معرفته، لأنها المرأة هي التي أوجدت الخطيئة الأولى فتولدت عنها الأخريات. ما الذي نريد معرفته. أي جزء من طبيعة المرأة شيطاني وأي جزء إلهي وبشري. لا أفهم، أظنك تشير إلى طفلي، كلا لست أشير إلى طفلك، كنت أتحدث عن النساء اللائي ولدن مخلوقات مثلنا، وربما يكن مسؤولات، ربما دون أن يدرين، عن هذه الثنائية في طبيعتنا، في أذل انحطاط وأعلى نبل في الوقت ذاته، في أعلى فضيلة وأعتى شر، في غاية السكينة والأشد صخباً، الأكثر خنوعاً والأقوى تمرداً.

نظر يوسف خلفه. كانت مريم تتقدم على حمارها، أمامها صبي يجلس منفرج الساقين على السرج مثل رجل ناضج، وللحظة اعتقد

يوسف أنه كان ينظر إلى ولده، ويرى مريم للمرة الأولى وهي تتقدم شلة النساء التي تضخمت على طول الطريق. ظلت كلمات سمعان الغريبة ترن في أذنيه، ولكنه وجد من الصعب القبول أن أي امرأة يمكن أن تحوز على قوة هائلة، وخصوصاً هذه الزوجة المتواضعة التي لم يبد عليها أبداً أنها تختلف عن الأخريات من النساء. وفجأة وهو يحول بصره وينظر إلى الطريق الذي أمامه، تذكر فجأة حكاية الشحاذ والتراب المضيء. وراح جسده يختض بأجمعه، وانتصب شعره، وتغطى جلده ببثور الإوز، وساءت أحواله حين التفت ثانية ليلقي نظرة أخرى على مريم ورأى بوضوح رجلاً غريباً وطويلاً يسير إلى جانبها، كان طويلاً جداً حتى أن رأسه وكتفيه أعلى من رؤوس النسوة، دون ريب ذلك هو الشحاذ الذي لم يره. ألقى يوسف بنظرة فاحصة أخرى، فرآه موجوداً، شخص نافر يدحض وجوده المشؤوم بين كل أولئك النساء أي تفسير. أوشك يوسف أن يطلب من سمعان إلقاء نظرة ليقنع نفسه أنه لم يكن يتخيل الأشياء، لكن الرجل العجوز كان قد سار، بعد أن أفرغ ما في ذهنه وهو يلتحق الآن برفاقه الذكور ليستأنف دوره رئيساً لقبيلته، وهو الدور الذي لا يأمل أن يلعبه طويلاً. ولأن النجار خسر الشاهد ألقى بنظرة أخرى نحو زوجته. كان الشحاذ قد اختفى في هذه المرة.

اتجهوا جنوباً وعبروا السامرة كلها مسرعين، عين على الطريق والأخرى ينظرون بها بحذر حولهم. كانوا يستريبون من فعل عدواني، أو على الأقل فعل كراهية من قبل الناس الذين يسكنون تلك البقاع منهم من ينحدرون من الآشوريين القدماء المعروفين بأفعالهم الشائنة ومعتقداتهم الهرطقية، والذين استقروا هنا خلال عهد شالمانصر، ملك نينوى، بعد ترحيل وتشريد القبائل الاثنتي عشرة. إنهم وثنيون أكثر ما يكونون يهوداً، فهم لا يكادون يعرفون الكتب الخمسة لموسى كونها الناموس المقدس، ويجرؤون على القول أن المكان الذي اختاره الرب

ليكون معبده ليس أورشليم بل جبل جيرزيم الذي يقع ضمن سيطرتهم. رحلت بعثة الجليل متسللة لكنها لم تستطع تجنب قضاء ليلتين في العراء في مقاطعة العدو، مشددة الحراسة والدورية خوفاً من الكمين. إن غدر هؤلاء الأوغاد ليست له حدود وكانت لهم القدرة على أن يمنعوا الماء عن شخص له أصل عبري يكاد يقتله الظمأ. ولكن كان ثمة بضعة رجال محترمين فيما بينهم. كان القلق قد استبد بالمسافرين خلال تلك الرحلة الممتدة حتى أنهم، على نقيض عادتهم، انقسموا مجموعتين، واحدة أمام النساء والأطفال والأخرى في الخلف لحمايتهم من التوبيخ والإهانات وما هو أسوأ. ولكن، لابد أن سكان السامرة قد واجهوهم بسلام، فلو تجاوزنا نظرات الامتعاض وإشارات الريبة فلم تجابه مجموعة الجليل بعدوانية مباشرة، ولم يكن ثمة كمين، ولا عصابات للصوص تهبط من التلال القريبة لتهاجمهم بالحجارة.

وقبيل أن يصل أولئك الذين آمنوا بالإشعاع العظيم أو الذين لديهم الإحساس المرهف بالرائحة إلى راما، أقسموا أنهم كانوا يستنشقون عطر أورشليم المقدس. هنا انفصل الشيخ سمعان ورفاقه وساروا في طريقهم، كما ذكرنا من قبل، إذ كان عليهم التسجيل في قرية في هذه المقاطعة. وفي وسط الشارع ودع المسافرون بعضهم البعض شاكرين فضل الله الوافر عليهم. ملأت النسوة المتزوجات رأس مريم بألف نصيحة ونصيحة، عصارة تجربتهن، ثم افترقوا، البعض منهم هبط إلى الوادي حيث سيستريحون في الحال من سفر أربعة أيام على الأقدام، بينما يتوجه الآخرون نحو راما حيث سيأوون إلى خان، فهاهو الغسق أوشك أن يحين. عند الوصول إلى أورشليم سيفترق الفريق الباقي ممن انطلقوا من الناصرة. فسيتجه أغلبهم إلى (بئر السبع) التي عليهم أن يصلوها خلال يومين بينما سيبقى النجار وزوجته في بيت لحم القريبة. في وسط فوضى العناقات والتوديع، نادى يوسف على سمعان وأخذه جانباً وسأله،

بكل تواضع، إن كان يتذكر أي شيء آخر عن رؤيته. لقد قلت لك من قبل، أنها ليست رؤيا. مهما تكن، لابد لي أن أعرف المصير الذي ينتظر طفلي. إن كنت لا تعرف مصيرك وأنت تقف هنا أمامي وتسأل الأسئلة، كيف تتوقع أن تعرف مصير طفل لم يولد بعد. إن عيون الروح ترى أبعد ولأن عيونك قد فتحت من قبل الرب إلى تجليات معينة تحجز المختارين، ظننت أن لديك شيئاً ما لأنني لا أرى سوى العتمة. أنت قد لا تعيش أبداً لترى مصير ابنك، ومن يدري، فقد تصادف مصيرك قريباً جداً، ولكن لا مزيد من الأسئلة أرجوك، كف عن جميع هذه التنبؤات وعش يومك. وضع سمعان يده اليمنى على رأس يوسف وهو يقول له هذه الكلمات متمتماً بكلمات لم يسمعها أحد ليباركه وعاد ليلتحق بأقاربه وأصدقائه الذين كانوا في انتظاره. وساروا في طريقهم فرادى ليهبطوا ممراً متعرجاً يؤدي إلى الوادي الذي جثت فيه قرية سمعان عند قدم المنحدر المقابل، تتحدد البيوت بصخور الجلمود التي برزت من الأرض مثل عظام ناتئة. لم يسمع يوسف عنه شيئاً فيما بعد غير نبأ متأخر كثيراً يعلمه أن الرجل العجوز قد توفي قبل أن يسجل.

بعد أن أمضت بعثة الناصرة ليلتين تحت النجوم، في خضم البرد والسهل الأجرد دون أن يروا حتى نار خيمة تظهر لهم أماكنهم، قرروا أن يأووا مرة أخرى تحت أقواس لخان ما. ساعد النسوة مريم للترجل من الحمار وهن يحاولن طمأنتها، تعالي، سينتهي كل شيء قريباً، وتجيبهن البنت المسكينة هامسة، أدري، فلن أستطيع الانتظار طويلاً، وأي برهان أوضح من تلك البطن الهائلة الانتفاخ وأرخها على قدر الإمكان في زاوية هادئة وانطلقن لاعداد العشاء فالوقت متأخر وينوي المسافرون أن يأكلوا معاً. لم تعقد الأحاديث تلك الليلة، تليت الصلوات وسُردت القصص حول النار، وكأن الحضور القريب لأورشليم تطلب هذا الصمت الجليل، كل رجل يتفحص قلبه ويسأل، من يكن هذا

الشخص الذي يشبهني ولكنني لا أعرفه. ليس هذا في الحقيقة ما قالوه، لأن الناس لا يحدثون أنفسهم هكذا، ولم يكن هذا في أذهانهم عن وعي، ولكن مما لا شك فيه إن في هذا الصمت فقط، كما نجلس بهدوء نحدق في لهيب النار، يمكن أن يعبر الإنسان بكلمات مثل هذه تقول كل شيء.
كان بإمكان يوسف أن يرى هيئة مريم الجانبية من المكان الذي يجلس فيه إزاء ضياء النار. كانت الأضواء المنعكسة تنير بتوهجها المحمر جانباً من وجهها برقة راسماً خطوط جسدها باليد، واندهش من اختراق الفكرة لعقله، فقد بدأ بالادراك أن مريم كانت امرأة ذات جانبية، إن صح قول ذلك لشخص له مثل هذه التعابير الطفولية. بالطبع جسدها منتفخ الآن، لكنه لا يزال يرى تلك الهيئة الرائعة التي ستعود إليها بعد أن تلد طفلهما. خطرت هذه الأفكار ببال يوسف، دون سابق إنذار، وكأن جسده كان ينتفض متمرداً بعد كل تلك الشهور من العفة الإجبارية، موجات متتالية من الرغبة طرحها خياله وسرت في دمه جعلته يشعر بالغثيان. صرخت مريم متألمة لكنه لم يسع لمساعدتها. وكأن أحداً ما قد غطسه في ماء بارد فسرعان ما خمدت حماسته للذكرى المفاجئة للرجل الذي رآه على نحو خاطف قبل يومين يسير إلى جانب زوجته. كانت ذكرى ذلك الشحاذ تطاردهما كليهما منذ أن اكتشفت مريم أنها حبلى، لأن يوسف لم يعد يشك أبداً، على الرغم من أن ذلك الرجل لم يظهر حتى ذلك اليوم عندما شاهده أخيراً بعينيه، بأن ذلك الغريب الغامض لم يبتعد مطلقاً عن ذهن مريم خلال الشهور التسعة من حملها. أيستطيع يوسف أن يجعل نفسه في موضع من يسأل زوجته عن طبيعة ذلك الرجل أو أين ذهب بعد أن غاب. آخر شيء كان يريد سماعه أن تقول له باندهاش، رجل، أي رجل، وما أن يصر يوسف على وجوده، ستسأل مريم النسوة الأخريات ليشهدن لها، هل رأت إحداكن أي رجل بيننا، وسينكرن رؤيته ويهززن رؤوسهن لأي فكرة عنه ولربما تتجرأ إحداهن لتختصر الإجابة، أي رجل يلتف حول النساء طوال الوقت لا يبغي إلا

شيئاً واحداً. رفض يوسف تصديق أن مريم كانت مندهشة فعلاً وأنها حقاً لم تر الشحاذ، فيما إذا كان بشراً أو شبحاً. لقد رأيته بأم عيني عندما كان يسير إلى جانبك، سيصر يوسف، ولكن مريم، التي تعلم بأنها تقول الحقيقة، لم تتلعثم، كما هو مكتوب في الناموس المقدس، على الزوجة أن تحترم وتطيع زوجها هكذا، إن أصررت على رؤية الشحاذ يسير إلى جانبي فلن أعارضك، ولكن صدقني، فأنا لم أره. حسناً، فليكن شحاذاً، فلِمَ لَمْ تره في المرة الأولى التي ظهر فيها، ومثلما يكون هو، من المحتمل أكثر أن يكون مسافراً يسير ببطء حتى أننا جميعاً قد تجاوزناه، الرجال في البداية، ثم النساء، ولربما يكون برفقة جمعنا حين حدث ونظرت ثانية، ها أنتِ تتفقين معي أنه كان هناك، كلا مطلقاً، إنني أحاول فقط، كوني زوجة تعرف واجباتها، أن أجد تفسيراً يقنعك. ظل يوسف يراقب مريم وهو يغالب النعاس بعينين نصف مغمضتين على أمل أن يستجمع الحقيقة من تعابير وجهها، لكن وجه مريم قد غاص في الظل كما يختفي الوجه الآخر للقمر، وتحددت خطوط جسدها بغموض إزاء الضوء الواهن للجمرات التي تخمد شيئاً فشيئاً. هز يوسف رأسه مستسلماً. بعد أن غلبته محاولة الفهم، وانضم، بينما كان ينوي النوم على الفكرة العبثية بأن الشحاذ قد يكون صورة لولده على هيأة رجل يأتيه من المستقبل ليخبره، هذا ما سأكون عليه في أحد الأيام، لكنك لن تعيش لترى ذلك. نام يوسف وعلى شفاهه ابتسامة خضوع، لكنه شعر بالحزن. وظن أنه يسمع مريم تقول عسى الله أن لا يسمح بما يجول في خاطري من أن الشحاذ ليس له من مكان ليريح رأسه. إنني أقول في الحقيقة لك أن أشياء كثيرة في هذا العالم يمكن أن تعرف قبل أن يفوت الأوان، لو أن الأزواج والزوجات قد وثقوا بعضهم البعض كأزواج وزوجات.

في الصباح الباكر التالي، غادر أغلب المسافرين الذين قضوا الليلة في الخان إلى أورشليم، أما الباقون فقد تجمعوا بطريقة أخرى، حتى أن

يوسف، دون أن يبعد النظر عن مواطنيه الذين توجهوا نحو بئر السبع، قد رافق زوجته هذه المرة، سائراً إلى جانبها كما فعل الشحاذ، أو أياً كان، في اليوم الماضي. لكن يوسف فضل أن لا يفكر بشأن الغريب الغامض. واقتنع في أعماقه أن الرب قد منّ عليه برؤية ولده قبل أن يولد، غير متسربل بالثياب والأقمطة التي تشد عظامه الصغيرة الواهنة، مخلوق صغير لم يتشكل بعد، ذو رائحة كريهة وصاخب، لكنه رجل بالغ النمو، أطول من أبيه وأغلب الذكور من جنسه. انشرح يوسف لأنه احتل موضع ولده، وها هو أب وطفل في اللحظة ذاتها، وهذا الشعور قوي جداً حتى أن طفله الحقيقي، ذلك الرضيع الذي لم يولد بعد بل ما زال في رحم أمه متجهاً إلى أورشليم، لم يعد له معنى فجأة.

أورشليم، أورشليم، هكذا ينادي الحجاج بورع ما إن تلوح لهم المدينة، ثم تظهر لهم بغتة مثل طيف على قمة التل الذي بعد الوادي، مدينة سماوية حقاً، هي مركز الكون، وتلمع من كل الاتجاهات تحت سطوع شمس منتصف النهار، تاج كرستالي سيتحول إلى الذهبي النقي في وقت الغروب واللون العاجي تحت ضوء القمر. أورشليم آه أورشليم. ظهر الهيكل حالاً وكأنه قد وضع هناك من قبل الرب، ولربما يكون النسيم المفاجئ الذي يداعب وحده الحجاج والمسافرين وشعورهم وثيابهم إشارة إلهية لأننا سنرى حين ننظر بعناية إلى الغيوم في السماء يداً هائلة تسحب أصابعها التي ترطبت بالطين، وتحددت خطوط الحياة والموت لكل إنسان ومخلوق في هذا العالم في راحتها، وحان الوقت لنا أيضاً في أن نتتبع خط حياة وموت الرب نفسه. رفع المسافرون أذرعهم إلى السماء وهم يرتعشون من الانفعال وأصواتهم العالية تصدح بالشكر، جماعياً أولاً، ثم غاب كل واحد منهم في نشوى، الذين كانوا متزنين منهم قليلاً ما يتحركون ينظرون فقط باتجاه السماء ويصلون باخلاص متقان وكأنهم قد سُمح لهم في تلك اللحظة أن يخاطبوا الرب مخاطبة الند

للند. ينحدر الطريق إلى الأسفل وما إن بدا المسافرون بالهبوط إلى الوادي وتسلقوا المنحدر التالي الذي سيؤدي بهم إلى بوابات المدينة، ظهر الهيكل شاهقاً عالياً وعالياً، وبسبب المنظور، الذي يبين قلعة أنتونيا الرهيبة، حيث يمكن للإنسان، حتى من هذه المسافة، أن يلاحظ الأشكال المظللة للجنود الرومانيين وهم يراقبون من السطوح ويرى بريق أسلحتهم المتقطع. هذا هو المكان الذي ستفترق فيه جماعة الناصرة، لأن مريم مرهقة ولن تتمكن أبداً من هبوط التل حية وهي راكبة متخبطة في الطريق الوعر الذي يزداد انحداره إلى اندفاع مباشر حين تلوح جدران المدينة للعيان.

وهكذا وجد يوسف ومريم نفسيهما وحيدين على الطريق، هي تجاهد كي تسترد قوتها، وهو نافد الصبر من التأخر وهما قريبان جداً من قدرهما. الشمس تلسع الصمت الذي يغلف المسافرين. وفجأة تفر صرخة مكتومة من شفتي مريم. ويسألها يوسف بضيق، أهو الألم يزداد ضراوة، وهي بالكاد تقول، بلا. بعد ذلك يزحف تعبير عن اللايقين إلى وجهها، وكأنها قد توصلت إلى شيء أبعد مما يمكن أن تدركه. من المؤكد أنها شعرت بذلك الألم في جسدها، لكنه بدا كأنه ألم شخص آخر، فمن هو، انه ألم الطفل الذي في رحمها. كيف يعاني جسدها من هذا الألم الذي هو ألم شخص آخر، على الرغم من أنه قد يكون ألمها، أو هو بالأحرى مثل الصدى الذي يمكن من خلال ظاهرة سمعية غريبة أن يسمع بكثافة أكثر من الصوت الذي أصدره في المكان الأول. ودونما رغبة كبيرة في أن يعرف. سألها يوسف بحذر، أما زال الألم ضارياً، لكن مريم كانت ساهية عن الجواب. كانت ستكذب لو قالت كلا، ولن تكون صادقة لو قالت نعم، لذلك قررت أن لا تقول شيئاً لكن الألم لا يزال وبإمكانها أن تحس به، لكنه بعيد جداً حتى أن لديها انطباعاً أنها تشاهد طفلها يعاني في رحمها ولا تستطيع أن تهب لمساعدته. ولأن

الحمار لم تصدر له تعليمات في السير ولم يستخدم يوسف سوطه فقد اتخذ الطريق ذا الانحدار الشديد المؤدي إلى أورشليم بخطى نشطة وكأنه متيقن أنه سيحظى بمعلف جيد وراحة طويلة وممتعة حال وصوله. الذي لم يعرفه الحمار أنه لا يزال ثمة مشوار يذهبون إليه قبل الوصول إلى بيت لحم، حينذاك سيكتشف أن الأشياء ليست بالسهولة التي تبدو عليها. بالطبع كان سيكون من الأفضل المناداة له بـ فيني، فيدي، فيسي، مثل يوليوس قيصر في عز مجده، لولا أن يقتل من قبل ابنه، الذي كان عذره الوحيد أنه قد تبني. صراعات بين الآباء والبنين، وراثة الخطيئة، التنصل من الأقرباء والأصدقاء، التضحية بالأبرياء، العودة إلى الماضي البعيد والوعد بالأبدية.

حين دخلا من بوابات المدينة، لم تعد مريم قادرة على كبت صرخاتها المتألمة الآن وقلبها يتمزق كأن رمحاً يخترقها. كانت ثمة ضجة هائلة تأتي من الزحام بين الناس وأقل منها بين الحيوانات لم يكن يسمعها غير يوسف، على الرغم من أن ذلك يتسبب في ضجة تصم الآذان تذكر بزحام السوق. قرر يوسف أن لا يدخل في الزحام، لستِ بحالةٍ تساعد على الاستمرار، لنحاول أن نجد نزلاً قريباً وسأذهب غداً إلى بيت لحم وحدي وأوضح لهم أنك توشكين على الولادة، وبإمكانك أن تسجلي فيما بعد إن يكن ذلك ضرورياً حقاً، لأنني لا أعرف شيئاً عن القانون الروماني، ومن يدري، ربما لا يسجلون غير رئيس العائلة، خصوصاً ممن في حالتنا. لكن مريم أكدت له أن الألم قد انقشع، وكانت تقول الحقيقة، فالألم الطاعن الذي جعلها تصرخ تحول إلى نبض هادئ، ومشاغب. ولكن يمكن تحمله، إنه بالأحرى مثل ارتداء ثوب شعري. ولم يستطع يوسف أن يبقى مسترخياً. فالبحث عن مأوى في أورشليم بمتاهات شوارعها الضيقة كان بحثاً يثبط الهمة خصوصاً في بلواهما الحالية، نوبات الولادة عند زوجته، وهو في رعب من الرجل القادم

وفكرة المسؤوليه على الرغم من انه لا يقرّ بهـا. فكـر فـي نفسـه، مـا أن يصلا بيت لحم، التـي هـي ليسـت أكبر مـن النـاصرة، حتـى يكـون مـن المؤكد أن الأمور ستتيسر، لأنه من المعروف أن الناس أكثر طيبـة فـي المجتمعات الصغيرة.من يبـالي فيما إذا لـم تعد مريم تتذمـر، أو لـم تعد تتألم، أو تظهر الشجاعة، لأنهما في طريقهما وعلى وشك أن يصلا بيت لحم. استقبل الحمار صفعة على زاويتـه الخلفيـة التـي هـي مـن الواضـح ليسـت لحثـه علـى محاولـة الإسـراع للخـروج مـن ذلـك الزحـام الشـديد والفوضى التي لا توصف التي وجدوا أنفسهم فيها، بل إشارة حنان تعبر عن ارتياح يوسف. اكتظت الشوارع الضيقة بالتجار أناس من كل جنس ولغة يتدافعون بالمناكب، ولكن تلك الشوارع تكاد تفـرغ بأعجوبـة مـا إن يمر رتل من الجنود الرومانيين أو تظهر قافلة من الجمال فينفض النـاس المتزاحمون ويتفرقون مثلما تتفرق مياه البحـر الأحمـر. كـان الزوجـان الناصريان قد سارا بثبات مع حمارهما وخرجا تدريجياً من ذلك البـازار الهستيري المهتاج والضاج بالناس الجهلاء وعديمي الإحساس الذين مـن العبث أن تقول لهم، أنظروا ذلك الرجل هناك، ذلك هـو يوسـف والمـرأة التي تبدو كأنها على وشك الولادة فـي أيـة لحظـة هـي مريـم، وهمـا فـي طريقهمـا للتسـجيل فـي بيت لحـم. وأن تذهـب محاولتنـا الظريفـة فـي التعريف بهما سدى، فببساطة لأننا نعيش في عالم يكون فيه عدد النـاس ممن يسمون بهذين الاسمين لا حدود له، حيث كم من يوسف ومريم فـي كل الأعمار والحالات نجدهم في كل مفترق. ولابد لنـا أن لا ننسـى أن هذيـن ليسـا الزوجيـن الوحيديـن اللذيـن أسـماهما يوسـف ومريـم ممـن ينتظران مولودهما، فمن يدري، قد يولد طفلان من الجنـس ذاتـه يكونـان ذكرين يولدان في الساعة ذاتها في هذه الأنحاء في شارع واحـد أو حقل قمح واحد. الأقدار التي تنتظر هؤلاء الأطفال، ستكون مختلفة بأية حـال، في محاولة أخيرة لإضافة مادة لعلوم التنجيم البدائية في العصور القديمة، لربما كان علينا أن نطلق عليهما كلاهما، يشوع، المشابه ليسـوع. ولـولا

أن نتهم باستباق الأحداث بتسمية طفل لم يولد، فاللوم يقع على النجار الذي قرر قبل حين أن يسمي ولده الأول بهذا الاسم.

بعد أن خرج المسافران من البوابة الجنوبية، اتخذا الطريق المؤدي إلى بيت لحم، وهما يشعران بالراحة لاقترابهما من قدرهما لتيمكنا من الاستراحة الطويلة بعد هذه الرحلة المضنية. على أية حال لم تنته مشاكل مريم، فهي، وحدها، لا يزال عليها أن تتحمل أعباء المخاض ومن يدري أين ومتى ستكون الولادة. وطبقاً للكتاب المقدس، فإن بيت لحم هو موضع منزل داود وذريته التي يدعي يوسف أنه ينتمي إليه، ولكن مع مرور الزمان توفي كل أقاربه أو فقد النجار الاتصال بهم، وسيتسبب ذلك وضعاً حرجاً يقودنا للاعتقاد حتى قبل أن نصل إلى هناك أن الزوجين سيعانيان صعوبة كبيرة في إيجاد مأوى لهما. فمع وصولهما إلى بيت لحم لم يستطع يوسف أن يدق أول باب ويقول، أود أن يولد طفلي هنا، ويتوقع أن يرحب به بابتسامة ودودة من سيدة المنزل الدمثة وتقول له، تفضل، تفضل يا سيدي، الماء يغلي والفراش قد مدّ على الأرض، واللفائف جاهزة، وأنت في بيتك . ربما كانت هذه هي الحال في عصر ذهبي عندما كان الذئب يتغدى على الأعشاب بدل الخراف. غير ان هذا عصر حديدي، قاس ولا إحساس فيه. وعصر العجائب إما أن يكون قد قضى أو لم يأت بعد، وبالإضافة إلى ذلك، فإن العجائب، العجائب الأصيلة، مهما يقول الناس عنها، ليست بالفكرة الحسنة، لو أنها تعني تهشيم المنطق والطبيعة الفعلية للأشياء من أجل أن تبرهن على وجودها. رغب يوسف في أن يتباطأ مفضلاً ذلك على مواجهة الصعاب التي تنتظره، لكنه حين حسب أن الأمور ستكون أسوأ بكثير حين يولد إبنه على جانب الطريق، فقد أجبر الحمار، ذلك الدابة المسكين، على أن يسرع. ليس سوى الحمار يعرف كم أنه مرهق، إذ العناية الألهية تشمل البشر فقط، وليس كل البشر، لأن البعض منهم يعيشون كالحمير أو

أسوأ، ولايجهد الرب نفسه في مساعدتهم.أخبر أحد رفـاق السفر يوسـف بأن هنالك خاناً فـي بيت لحم، وهذه ضربـة حظ حقيقيـة بدت لـه حـلاً لمشكلته. ولكن حتى أي نجار وضيع كان سيجد أن من المحـرج لـه أنـه يرى زوجته الحبلى مكشوفة لفضول الغوغاء والألسنة المهذارة للحوذيين وأصحاب الجمال في الخان، لأنه البعض من هؤلاء بهائم كالدواب التـي يتاجرون بها، وقد يكون سلوكهم أكثر خسة، لأنهـم بشـر ويمتلكـون تلـك النعمة الإلهية في الكلام التي حرمت الحيوانات منها. ويقرر يوسـف فـي الأخير أن يطلب نصيحة مرشد شيوخ الكنيس، وتسـاءل لمـاذا لـم يفكـر بهذا من قبل. ولشـعور يوسـف بالارتيـاح قليـلاً، تسـاءل إن كـان مـن المفروض أنه يسأل مريم فيما إذا كانت الآلام لم تزل موجـودة، لكنـه لـم يقل شيئاً في النهاية، لأننا يجب أن ننسـى أن هـذه العمليـة بأكملهـا غير صافية منذ لحظة الأخصاب وحتى لحظة الولادة، ذلـك العضـو الأنثـوي الفضيع. الدوامة والهاوية ، موضـع كـل شـرور العـالم والمتاهـة الداخليـة والدم والعرق والتفريـغ والمياه المنبثقة والتفجـر بعـد الـولادة، يـا ألهـي العزيز، كيف تسمح أن يولد أطفالك الجميلون من هـذا التلـوث. أمـا كـان من الأفضل لك ولنا لو أنك خلقتهم من الضياء والشفافية، الأمـس واليـوم وغداً، البدايـة والوسط والنهايـة، والجميـع متسـاوون، دونمـا تمييز بيـن أرستوقراطيين وعـاميين، بيـن ملـوك ونجـاريين، فـارزاً بلطخـة ضــوء أولئك الذين قدر لهم أن يبقوا وسخين إلى الأبد. وانتهى يوسـف وهو مقيد بالكثير من المخاوف بأن سأل السؤال دونما مبالاة، وكأنــه كـان مشـغولاً بأمور أكثر أهمية وتركيزاً من أمور هينـة أخـرى، كيـف تشـعرين. كـان السؤال متوافقاً مع شعور مريم بألم مختلف مما كانت تكابده، وهذه عبارة رائعة، لو قلبت، إن سيكون من الأصح أن الألم راح يكابدها في الأخير.

مضى عليهما أكثر من ساعة وهما يمشيان ولم تعد بيت لحـم بعيـدة. ماأثار أستغرابهما، أنهما ما إن غادرا أورشليم حتى وجدا الطريق مقفراً،

فمع قرب بيت لحم قد يتوقع المرء ذهاباً وأياباً مستمراً للناس والحيوانات. في المنعطف الذي ينقسم فيه الطريق، ليس بعيداً عن أورشليم، ظهر العالم منقبضاً ومنطوياً على نفسه. لو حصل أن رأينا العالم على هيئة رجل، كان سيكون مثل مشاهدة شخص يغطي عينيه بعباءته ويصغي لخطى المسافرين، كما نسمع أغنية الطيور المعششة بين الأغصان،وكذلك يكون الأمر لنا، فلا بد لنا أن نظهر هكذا للطيور التي تختبيء في الأشجار. عبر يوسف ومريم والحمار الصحراء، لأن الصحراء ليست كما تتخيل، فالصحراء هي أية أرض غير مسكونة، ولا ننسى أننا يمكن أن نجد صحراء قاحلة بين حشد كبير من الناس.

ينتصب قبر راحيل إلى اليمين، وهذا هو الفخر الذي أنتظره يعقوب لأربعة عشر عاماً. بعد سبع سنوات من الخدمة، زف إلى ليخ ، ولكن كان عليه أن ينتظر سبع سنوات أخرى قبل أن يسمح له بالزواج من حبيبته راحيل، التي ستموت في بيت لحم. بعد أن ولدت له ولداً أسماه بنيامين والذي يعني إبن يدي اليمنى، لكن راحيل وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، أسمته بحق بينوني، الذي يعني إبن حزني،وعسى الله أن لايجعل ذلك فألاً سيئاً.لاحت المنازل الان طينية اللون مثل منازل الناصرة، ولكن هنا في بيت لحم يكون اللون خليطاً من الأصفر والرمادي والذي يغدو أكثر شحوباً من أثر الشمس. مريم في حالة من يوشك على الإنهيار، يميل جسدها إلى الأمام أكثر فأكثر مع كل لحظة تمر. يهب يوسف لمساعدتها وتضع هي ذراعها على كتفية لتسند نفسها. من المؤسف أن لا أحد هنا لمشاهدة مشهد هذه اللمسة النادرة. وهكذا يدخلان بيت لحم . على الرغم من حالة مريم، تساءل يوسف عن خان قريب لأنه فكر أن يستريحا حتى الصباح التالي. كانت مريم تعاني أشد الألم ومع ذلك فلم تظهر أية علامة على أنها تستعد للولادة. ولكن حينما وصلا الخان في الجانب الآخر من القرية الذي كان قذراً وفظاً، قسم منه

سوق والآخر أسطبلاً لم يجدا فيه زاوية هادئة على الرغم من أن الوقت ما زال مبكراً ولن يأتي أغلب الحونيين وأصحاب الجمال إلا بعد حين. فعاد الزوجان أدراجهما وترك يوسف مريم تحت ظل شجرة في مساحة صغيرة تحيط بها البيوت وأنطلق ليستشير الشيوخ . لم يكن ثمة أحد في الكنيس ولا حتى وكيل، يمكن أن ينادي على صغير يلعب قريباً من هناك ويطلب منه أن يدل الغريب على أحد من الشيوخ الذي قد يمكنه تقديم المساعدة. المصادفة، التي تحمي الأبرياء حين تتنكرهم، قد حكمت أن يمر يوسف في آخر بحث له عبر الساحة التي ترك فيها زوجته، وفي الوقت الملائم لانقاذ مريم من الظل المميت لشجرة التين التي كانت توشك على قتلها ببطء، وهو الخطأ الجسيم الذي يجب أن يتقاسما اللوم عليه، لأن أشجار التين غزيرة في هذه الأرض وعليهما أن يتبيناها جيداً لذلك أنطلقا ثانية مثل روحين مدانين للبحث عن الشيخ، ولكنه كان قد غادر القرية ولن يعود قريباً. عندما سمع النجار ذلك، إستجمع قواه ونادى بصوت عال، بحق حب الله العظيم أليس من أحد يأوي زوجتي العزيزة التي توشك على الولادة. كل ما كان يطلبه هي زاوية هادئة لأنهما كانا يحملان فراشهما معهما. وهل يمكن لأحدهم أن يخبره أين يجد قابلة في القرية تساعد في الولادة. إصطبغ وجه يوسف المسكين بالحرج وهو يسمع نفسه يفشي هذه الأشياء الخاصة والشخصية. كانت العبدة الواقفة عند مدخل الباب قد عادت إلى سيدتها لتخبرها وبعد قليل ظهرت لتقول لهما أن من غير الممكن لهما أن المكوث هنا وعليهما أن يبحثا عن مكان آخر. وليس ثمة فرصة لإيجاد ملجأ في القرية واقترحت سيدتها أن يلتجئا إلى أحد الكهوف الكثيرة في المنحدرات القريبة. وتساءل يوسف وماذا عن القابلة، فأجابته العبدة حينذاك إن وافقت سيدتها ورغب هو، فيمكنها أن تقدم المساعدة، لأنها عملت في الخدمة طوال حياتها وقد ساعدت في ولادات كثيرة. هذه بالتأكيد أوقات عصيبة عندما تأتي أمرأة

حبلى لتدق الباب ولا نؤويها في زاوية من الباحة ونبعدها لتلد في كهف، كالدببة والذئاب. على أية حال، شيء ما أيقظ ضميرنا فنهضنا من المكان الذي نجلس فيه وذهبنا إلى الباب لنرى بانفسنا هذا الزوج والزوجة اللذين يبحثان يائسين عن سقف فوق رأسيهما. كانت التعابير الحزينة التي على وجه الفتاة المسكينة كافية لتثير غرائزنا الأمومية فوضحنا لهما السبب الذي يجعلنا غير قادرين على أن ندخلهما فالمنزل مزدحم بالاولاد والبنات والأحفاد والأنساب من أولاد وبنات. فكما تريان، ليس ثمة مكان ولكن ستأخذكما هذه العبدة إلى كهف نستخدمه إسطبلاً. لا حيوانات فيه في الوقت الحاضر وبامكانكما أن تستريحا فيه. كان الزوجان الشابان شاكرين لعرضنا الكريم وأنسحبنا شاعرين أننا فعلنا ما بوسعنا وأرحنا ضميرنا.

مع كل هذا الرواح والمجيء، المشي والراحة، البحث والسؤال، كانت السماء الداكنة الزرقة قد شحب لونها، وستغيب الشمس في الحال خلف تلك الجبل . العبدة سالوم، هكذا كان اسمها، تقودهما. تحمل معها بعض الفحم الساخن لاضرام النار وإناء من الطين المفخور لتسخين شيء من الماء، وملح لمسح المولود الجديد لحمايته من الأمراض. ولأن مريم كانت قد جلبت معها ثياباً ولدى يوسف سكيناً في حقيبة الظهر لقطع الحبل السري، ما لم تفضل سالوم أن تستعمل أسنانها، كل شيء مهيأ حتى تأتي الولادة. الاسطبل، مهما قيل عنه، جيد كما البيت، وكل من تمتع بمتعة النوم في معلف يعرف أنه تقريباً جيد كالمهد. أما الحمار فيكاد لا يميز شيئاً، لأن التبن هو هو في السماء أو على الأرض. وصلوا الكهف في الساعة الثالثة تقريباً، عندما كان الضوء لا يزال يذرف أشعته الذهبية فوق التلال. كان تقدمهم بطيئاً ليس بسبب البعد، بل لأن مريم حين تعين لها مكان لتستريح فيه أرخت العنان لمعاناتها. توسلت إليهم أن يبطئوا، لأنها، كلما تعثر الحمار في حجر تعاني أشد ما

يكون الألم. كان الضوء الواهن قد فشل في أن يخترق الظلمة التي في داخل الكهف ولكن بحفنة قش وبعض الجمرات والكثير من النفخ واللهاث وبعض الأخشاب المشتعلة أوقدت العبدة ناراً تشع كما الفجر. ثم أوقدت المصباح الزيتي الذي كان يتدلى من صخرة ناتئة من الجدار، وبعد أن ساعدت مريم بأن تضطجع، ذهبت لجلب الماء من آبار سليمان القريبة. عند عودتها، وجدت يوسف قلقاً ومذهولاً لا يدري ما الذي يجب عليه أن يفعله، ولكن لابد لنا أن لا نقسو عليه فمن الصعب على الرجال تحمل مثل هذه الشدة، فأكثر ما يستطيعون عمله هو أن يمسكوا بأيدي زوجاتهم ويأملوا انفراج الحال على خير. على أية حال فمريم وحدها. كان العالم سينهار لو أن رجلاً يهودياً في تلك الأيام قد قام بأي عمل مشجع. دخلت العبدة، وهمست ببضع كلمات تدعو للاسترخاء، ثم انحنت إلى الأسفل بين ساقي مريم، ذلك لأن ساقي المرأة لابد أن ينفرجا في حال دخول شيء أو خروج آخر. لا تتذكر سالوم عدد الأطفال الذين ساعدت في مجيئهم إلى العالم لكن معاناة المسكينة مريم مختلفة تماماً عن أي امرأة أخرى، لأنه كما حذر الرب حواء بعد أن أذنبت، سأضاعف آلامك وحملك، وستلدين الأطفال بكرب شديد، وبعد قرون من الآلام والكرب الشديد، لم يهدأ الرب و لم تتوقف الآلام. لم يعد يوسف موجوداً، ولا حتى عند مدخل الكهف. فضّل الهروب على سماع صراخ مريم من الألم، لكن تلك الصرخات كانت تطارده وكأن الأرض بأكملها كانت تصرخ. كانت الضوضاء عالية حتى أنها حفزت ثلاثة رعاة كانوا مارين مع قطعانهم لأن يقتربوا من يوسف ويسألونه، ما الذي يجري، كأن الأرض تصرخ، وهو يقول لهم، زوجتي تلد في كهف بعيد. فسألوه، إنا نراك غريباً عن هذه الديار، فهل نحن محقون، أجل لقد جئنا من الناصرة في الجليل لكي نسجل، وما إن وصلنا حتى ساءت حالة زوجتي وهي الآن في مخاض. كان الضوء المتلاشي قد جعل من الصعوبة رؤية وجوه الرجال الأربعة وستختفي تماماً ملامحهم، إلا أن

أصواتهم لا تزال تُسمع. سأله أحد الرعاة هل لديك أي طعام، أجاب يوسف، القليل، وأخبره الصوت ذاته، ليتك تعلمني ساعة يولد الطفل كي أجلب لك بعض حليب الغنم، ثم سُمع الصوت الثاني يقول، سأعطيك بعض الجبن. ثم ساد صمت طويل حتى تكلم الراعي الثالث أخيراً. بصوت بدا كأنه يأتي من أحشاء الأرض، قال، سأجلب لك بعض الخبز.

ولد ابن يوسف ومريم مثل أي طفل آخر مغطى بدم أمه وتقطر منه الأغشية المخاطية ويتألم صامتاً. لقد صرخ لأنهم جعلوه يصرخ وسيصرخ لهذا السبب لا غيره. لفوه بالأقمطة ليستريح في المعلف والحمار واقف غير بعيد ولكن من غير المحتمل أن يعضه لأن الحيوان قد قُيد بحبل ولا يستطيع الحراك أكثر مما سمح له. كانت سالوم في الخارج تدفن مخلفات الولادة حين اقترب يوسف. إنها تنتظر حتى يدخل الكهف وتتباطأ في الخارج مستنشقة الهواء الليلي البارد العليل شاعرة بالإرهاق وكأنها هي نفسها قد ولدت للتو، لكن ذلك شيء بإمكانها تخيله فقط، فلم يحدث أبداً أن كان لها أطفال.

ثلاثة رجال كانوا يهبطون المنحدر. إنهم الرعاة. دخلوا الكهف معاً. تتكئ مريم مغمضة العينين. وجلس يوسف على حجر مريحاً ذراعه على حافة المعلف ويبدو أنه ينظر إلى ابنه. تقدم الراعي الأول وقال، هاك بعض الحليب من غنمي جلبته بيدي. ابتسمت مريم فاتحة عينها. وتقدم الراعي الثاني وقال بدوره، أنا مخضت الحليب بنفسي وعملت هذا الجبن. أومأت مريم برأسها وابتسمت مرة أخرى. ثم تقدم الراعي الثالث الذي ملأت هيئته الضخمة الكهف ودون أن يلقي نظرة طويلة إلى الأبوين الجديدين قال، لقد عجنت هذا الخبز بيدي وخبزته على النار التي تشتعل تحت الأرض. ولم يكد أن يتكلم حتى عرفته مريم.

منذ أن بدأ العالم، يموت شخص عند ولادة آخر. الشخص الذي يشرف على الموت هو الملك هيرودس، الذي يعاني، بالإضافة إلى كل الشرور المتخيلة، من الحكة الفظيعة التي تكاد أن تفقده عقله. إنه يشعر وكأن مئات الآلاف من النمل تلسعه دون توقف بفكوكها الصغيرة المتوحشة. بعد أن حاول الأطباء الملكيون تجربة كل أنواع الأدوية التي يعرفها البشر والعلاجات من مصر والهند شحذوا رؤوسهم بحثاً عن علاج، أو على الأصح، كانوا خائفين من خطر أن يفقدوا رؤوسهم وهم يحاولون مذعورين في تجربة غسولات وجرعات منزلية، خالطين أي أعشاب أو مساحيق مع الماء أو الزيت عرف عنها أنها جيدة، مهما كان تأثيرها متضاداً. يهدد الملك وفمه مزبد وكأن كلباً مسعوراً قد عضه، متألماً ومهتاجاً، بأن يصلبهم جميعاً ما لم يريحوه من آلامه التي هي، كما يتوقع المرء، أمضّ من الحساسية الحارقة على جلده والتشنجات التي تتركه غالباً متهالكاً يتمرغ على الأرض، عيناه جاحظتان من محجريهما بينما يستمر النمل بالتكاثر وينزل به الدمار تحت ثيابه. والأسوأ من ذلك هي الجانجرينا التي توطدت في داخله خلال الأيام القليلة الماضية، وهذا البلاء الغامض الذي أطلق القيل والقال في القصر، مع بدء الديدان في إتلاف الأعضاء التناسلية لجلالته وطفقت تلتهمه حياً. كان من الممكن سماع صدى صرخات هيرودس تتردد في غرف القصر وأروقته، ولم يُسمح للخصيان القريبين منه إلا أن يبقوا متيقظين ليلاً ونهاراً ويهرب العبيد الأوطأ درجة مذعورين حين يشعرون باقترابه. كان يجر جسده

الذي راح يتعفن، على الرغم من العطور التي تنشر بسخاء على ثيابه ويدهن بها شعره المصبوغ، ولا إشارة للحياة فيه غير الغضب. كان يحمل على حمالة من القش، محاطاً بالأطباء والحرس المدججين، ويجوب القصر من أقصاه إلى أقصاه بحثاً عن الخونة الذين يتخيلهم في كل مكان، ذلك الهاجس الذي استحوذ عليه حيناً من الزمن. ودونما تحذير سيشير بإصبعه فجأة إلى رئيس المخصيين الذي يتهمه بالنفوذ الكبير أو إلى المتمرد الفريسي ذاك الذي انتقد أولئك الذين لا يطيعون القانون بينما حري بهم أن يكونوا أول من يحترمه، ولا حاجة لذكر أية أسماء، وإن كان ذلك الإصبع يشير أيضاً إلى أبنائه، الاسكندر وأريستوبولوس، اللذين كانا في السجن وسرعان ما حكما بالموت من قبل محكمة النبلاء الذين اجتمعوا لهذا الغرض ولا غيره، أي خيار كان لذلك الملك المسكين عندما رأى ابنيه وهو في حالة من الهذيان يتقدمان نحوه ممتشقين لسيفيهما، والأكثر رعباً في كل الكابوس، أنهما شاهدا رأسه المتجهم في المرآة. لقد فلت من تلك النهاية المروعة وبإمكانه الآن أن يتأمل بهدوء ليدرك من هما ، كانا قبيل لحظة، لا يزالان وارثا العرش، ولكن ثبتت عليهما جريمة التآمر وسوء التصرف والعجرفة وشنقا حتى الموت.

ويأتي كابوس آخر من الأعماق المظلمة لعقله المضطرب لتقلق لحظات نومه المتقطعة تلك التي يخضع لها بسبب الإرهاق الشديد. فيأتي النبي ميخا ليطارده، ذلك النبي الذي عاش في زمن أشعيا والذي شهد الحروب المروعة التي شنها الآشوريون في السامرة واليهودية. ظهر ميخا أمامه ليحط من شأن الأغنياء والأقوياء، كما يليق بنبي أن يفعل ذلك، وخصوصاً في هذا العصر اللعين. يعصف ميخا وهو مغطى بتراب المعركة مرتدياً رداءً كهنوتياً ملطخاً بالدماء، في حلمه وسط زوبعة مدوية آتية من عالم آخر. ويظهر بيدين من بروق ليفتح

بوابات برونزية هائلة وهو يقدم تحذيراً مهيباً، سيهبط الرب من معبده المقدس ويتخطى فوق القمم العالية في الأرض. ثم بعد ذلك يهدد، الويل لهم أولئك الذين ينصحون بالإثم، ويقترفون الرذيلة على أسرتهم، حين يكون الصبح رقيقاً يقترفونها، لأنها تحت سلطة أيديهم، ويتهم أولئك الذين يشتهون ما ليس لهم من حقول ومنازل، يستولون عليها بالعنف والسرقة، لذلك فهم يضطهدون الإنسان ومنزله، وحتى الإنسان وميراثه. بقي يكرر مثل هذه الكلمات ليلة بعد ليلة وكأنه يستجيب لإشارة بعد أن يغيب ميخا في الهواء الشفيف. على أية حال، السبب الذي يجعل هيرودس متيقظاً وينضح عرقاً هو ليس الرعب المتأتي من قبل أصحاب الصرخات النبوية بل الفكر المهلك الذي يسترجعه ضيفه الليلي وهو يوشك أن يكشف المزيد. يرحل النبي في الحال فما إن يرفع يده ويفتح ثغره حتى يختفي، تاركاً الملك محبطاً مفارقاً بالنذير. يعرف الجميع الآن أن الملك من غير المحتمل أن يكون مرعوباً بالتهديدات لأنه لا يشعر بأي ندم إزاء كل الأموات الذين تسبب في موتهم. لأن هذا هو الإنسان الذي أحرق أخا ماريامن ، المرأة التي أحبها أكثر من أية امرأة أخرى، الإنسان الذي أمر بشنق جدها، وأخيراً بعد أن اتهمها بالزنا شنقها هي أيضاً. صحيح أنه بدأ يعاني من نوع من الإصابة في الدماغ أدت إلى أن ينادي ماريامن وكأنها لا تزال حية لكنه شفي من ذلك الجنون في الوقت الذي اكتشف فيه أن زوجة أبيه كانت تخطط، وليس للمرة الأولى، لتزيحه عن السلطة بلمح البصر، ولسوء حظ الجميع، فإن تلك المتطفلة الخطرة، قد أرسلت إلى مدفن العائلة الذي كان هيرودس قد اشترك فيه. ولذلك ورث العرش أولاد الملك الثلاثة. الاسكندر وأريستوبولوس، اللذان ذكرنا نهايتهما المأساوية، وأنتيبيتر الذي سيواجه المصير ذاته. ولكننا يجب أن لا ننسى، ما دامت الحياة راجحة أكثر من المأساة وسوء الطالع، فقد كان للملك هيرودس ليس أقل من عشر زوجات جميلات يمتعنه ويثرن

شهوته على الرغم من أنهن الآن ليس بإمكانهن أن يفعلن له سوى القليل، أما هو فلا يفعل إلا الأقل من ذلك. لذلك فإن الظهور الليلي لنبي غاضب عازم على مطاردة الملك القوي لليهودية والسامرة، البيريه والباتانيه، الجليل والغولانيتيس، تراكانيتيس، أورانيتيس وباتانيه والحاكم الجبار لهذه الأملاك الشاسعة، كان سيتأثر قليلاً بذلك التهديد الغامض الذي يقلق أحلامه فجأة ويتركه في شك، منتظراً التهديد الجديد، ولكن ما هو ذلك التهديد وكيف يكون ومتى يحدث.

خلال ذلك، هناك في بيت لحم، عند عتبة باب قصر هيرودس بالضبط، استمر يوسف وعائلته في العيش في الكهف. لم يتوقعوا البقاء هناك لوقت طويل، رغم شحة البيوت، وندرة وجود وسائل الراحة ولم توجد بعد العملية المفيدة في تأجير الغرف. في اليوم الثامن أخذ يوسف وليده الأول إلى الكنيس لإجراء عملية الختان له. قطع الكاهن قلفة الطفل الباكي بسكين صنعت من الصوان بمهارة عجيبة، ويستحق مصير تلك القلفة وحدها أن تكتب عنه رواية منذ اللحظة التي قطعت فيها، وهي ليست أكثر من حلقة جلد شاحب، خالية من الدم تقريباً، حتى تقديسها الباهر خلال بابوية باسكال الأول، الذي حكم في القرن التاسع من المسيحية. أي شخص يرغب في تبجيل تلك القلفة اليوم ليس له إلا أن يزور كنيسة كالكاتا الأبرشية القريبة من فايتريو في إيطاليا، حيث تحفظ في وعاء تحفظ فيه الذخائر الدينية لأغراض روحية للمؤمنين ولإشباع فضولهم أعلن يوسف أنه سيسمي ابنه يسوع، وكان هذا هو الاسم الذي قُيد في لائحة الرب بعد أن أضيف إلى السجل المدني لدى القيصر. طفق الرضيع يصرخ رافضاً الخضوع لذلك الانتهاك الذي أصاب شخصه دونما فائدة روحية يمكن تقديرها في المقابل إلى أن وصل الكهف حيث أمه، التي كانت دون حاجة للقول، قلقة على طفلها الأول. قالت له بلطف، يا صغيري المسكين، يا

صغيري المسكين وفتحت ثوبها لترضعه في البداية من الحلمة اليسرى، ربما لأنها قريبة من القلب. أما يسوع، على الرغم من أنه لا يزال غير واع لاسمه لأنه لم يزل رضيعاً، مجرد فرخ صغير، جرو أو حمل، كما كنا نقول، تنهد باطمئنان في اللحظة التي شعر فيها برقة ثدي مريم وهو يضغط على خده وبالدفء اللدن ما إن مس جلدها جلده. مع امتلاء فمه بحليب أمه الطيب المذاق أضحى الختان المهين والألم الذي لا يطاق بعيدين، تلاشيا في معنى غامض من البهجة التي تسطحت واستمرت في التسطح وكأنها كبحت عند العتبة أو اعترضت من قبل باب مغلق أو مانع ما. وعند نضوجه سينسى هذه الأحاسيس الأولية وسيجد من الصعوبة التصديق أنه قد جربها بالفعل، الشيء الذي يحدث لنا جميعاً، حيثما نولد ومهما يكن المصير الذي ينتظرنا. لو امتلكنا الشجاعة لسألنا يوسف مثل هذا السؤال وعسى الله أن لا يجعلنا نقترف مثل هذه الحماقة، فلسوف يخبرنا أن مخاوف الأب أشد جدية لأنه يواجه الآن مشكلة إطعام فم آخر، وهو تعبير ليس دقيقاً إلى حدٍ ما أو ملائماً، لأن الطفل يتغذى من ثدي أمه. من المؤكد أن ثمة سبباً فعلياً يجعله قلقاً فكيف سيعيشون حتى يصلوا الناصرة. فمريم واهنة القوة وليست قادرة على القيام بالرحلة وإضافة لذلك، لابد لها أن تنتظر حتى تتطهر وتبقى في دم نقائها للأيام الثلاثة والثلاثين القادمة التي تتلو ختان طفلها. المال القليل الذي جلباه من الناصرة يوشك على النفاد ولا يستطيع يوسف العمل في النجارة هنا دون أدوات أو مال كافٍ لشراء الخشب. كانت الحياة قاسية في ذلك الوقت بالنسبة للفقراء وكان من غير المتوقع أن يجهزهم الرب بشيء. وفجأة سُمع نشيج مفاجئ من داخل الكهف سرعان ما صمت، وهي إشارة على أن مريم قد حولت يسوع الصغير إلى ثديها اليمين، لكن ذلك الإحباط السريع كان كافياً لإعادة الألم من حيث ختن الطفل. وما إن رضع يسوع حتى شبع غط في النوم بين ذراعي أمه ولم يفتح عينيه حين وضعته

بلطف في المعلف وكأنها تضعه بين يدي مربية حنونة ووفية. كان يوسف لا يزال يحاول في ما يجب عمله بينما هو جالس عند مدخل الكهف. انه يعرف أن لا عمل له هنا في بيت لحم، ولا حتى مساعد نجار، لأنه حين سأل تلقى الجواب ذاته. لو احتاج لأية مساعدة سأبعث إليك، وعود فارغة لا تملأ معدة الإنسان، على الرغم من أن هذه السلالة ظلت تعيش على الوعود منذ أن جاءت إلى الوجود.

مرة بعد أخرى يرى المرء حتى بالنسبة للناس المعتادين على التفكير أن أفضل طريقة في إيجاد حل هي أن يدع الإنسان أفكاره تنساب بينما يبقى يقظاً حتى تقفز اللحظة المطلوبة، كما يقتنص النمر فريسته على حين غرة. هكذا قادت الوعود الكاذبة للنجارين المحترمين في بيت لحم يوسف لأن يفكر في حقيقة وعود الرب وتبعاً لذلك في هيكل أورشليم الذي كان لا يزال قيد الإنشاء ولابد أن تكون هنالك حاجة للعمال، ليس للذين منهم من يحملون الأحجار أو البنائين، بل أيضاً للنجارين، حتى لو كانت فقط لعمل الأعمدة المربعة والألواح المسطحة، التي هي من الأعمال الأساسية التي يجيدها يوسف. العقبة الوحيدة، لو افترضنا أنهم منحوه فرصة العمل، هو الوقت الذي يستغرقه في الوصول إلى موقع العمل، ساعة ونصف أو أكثر من المسير السريع لأن الطريق كله فوق التل وليس ثمة قديس راع لمتسلقي التل ليقدم لهم مساعدة، ما لم يركب يوسف إلى هناك، لكن ذلك يعني أن يجد مكاناً آمناً لحماره. ربما تكون هذه هي أرض الله المختارة ولكن لا يزال ثمة الكثير من المحتالين من حولنا لو أننا آمنا بالتحذيرات الرهيبة للنبي ميخا. كان يوسف يتأمل في هذه المشاكل العويصة حين ظهرت مريم من الكهف بعد أن أرضعت طفلها فأخلدته للنوم. تساءل الأب، كيف حال يسوع، مدركاً لحماقة مثل هذا السؤال لكنه كان غير قادرٍ على إخفاء افتخاره كونه أباً لولد له اسم قبل أن

يولد. أجابت مريم، التي لا يعني لها الاسم شيئاً، الطفل بخير. كان يكفيها سعادة أن تناديه بطفلها للبقية الباقية من حياتها لولا الحقيقة بأنها ستحمل أطفالاً آخرين ولتشير إليهم كلهم بأنهم أطفالها ذلك ما سيخلق فوضى كفوضى برج بابل. وسمح يوسف للكلمات بأن تخرج من فمه وكأنه كان يفكر بصوت عال، وهو أسلوب لا تبدو منه الثقة العالية بالنفس، قال، لابد لي أن أجد طريقة ما لكسب عيشنا ونحن هنا ولكن ليس ثمة عمل يناسبني في بيت لحم. لم تقل مريم شيئاً ولم نتوقع أن نتكلم، كانت هناك فقط لتصغي وكان زوجها قد اتخذ حقه المعروف بأن يتحمل مسؤوليته على عاتقه. نظر يوسف إلى الشمس، محاولاً أن يقرر فيما إذا كان ثمة وقت كاف له للذهاب والعودة. دخل الكهف ليجلب عباءته وحقيبته وعند خروجه أخبر مريم، إنني ذاهب متوكلاً على الرب في أن يجد عملاً لهذا الحرفي النزيه في هيكله لو قدّر أنه يستحق مثل هذا الشرف. لف يوسف عباءته على كتفه الأيسر، وثبت حقيبته على ظهره وانطلق دون أن يقول كلمة أخرى.

لا يمكن أن يهيمن التشاؤم على كل شيء حقاً. على الرغم من أن العمل في الهيكل ينمو باضطراد، فما زالت الحاجة ماثلة لتأجير العمال، خصوصاً الذين يتلقون أجوراً زهيدة. المدهش في الأمر أن يوسف لم يلاق صعوبة تذكر في اجتياز الاختبار التأهيلي البسيط من قبل رئيس النجارين، وهذا ما يدعونا للتفكير فيما إذا كانت تعليقاتنا التي تنتقص من مهارة يوسف الحرفية مبررة. وراح هذا الأجير الأخير في موقع الهيكل ليقدم شكره للرب. وفي الطريق أوقف عدداً من المارة وتضرع إليهم أن ينضموا إليه في تقديم الولاء لله فأطاعوه مستبشرين، لأن هؤلاء الناس يفرحون حين يشاركون في فرح أي شخص. نحن نشير بالطبع إلى أولئك المتواضعين من الناس. حين وصل يوسف إلى موضع قبر راحيل طرأت في ذهنه فكرة أو هي

بالأحرى جاءت من قلبه بالتحديد، بأن هذه المرأة التي كانت تتوق إلـى أن تلد طفلاً آخر حدث أن توفيت بين يديـه، إن سـمحتم لنـا، قبل أن تتعرف عليه. فلا أكثر من كلمة أو نظرة قد تسبب في فصل جسد عن الآخر، كما يحدث بلامبالاة حين تسقط ثمرة من شجرة. ثم فكر بفكـرة أكثر حزناً، أن الأطفال لابد أن يموتوا دائماً بسبب الآباء الذيـن تسببوا في مجيئهم والأمهات اللائى ولدنهـم فـي العـالم، وشـعر بـالعطف علـى ولده الذي أُدين وحكم بـالموت علـى الرغم مـن براءتـه. امتـلأ رأسـه بالفوضى والأسى وهو يقف هنـاك أمـام قبر زوجـة يعقوب الحبيبـة، حتى تهدل كتفاه ومال رأسه إلـى الأمـام، وراح جسده يتعـرق بغزارة عرقاً بارداً، وليس من أحد في الطريق ليطلب منه المساعدة. وأيقن أنه للمـرة الأولـى فـي حياتـه يشـك فيمـا إذا كـان للعـالم أي معنـى، ومثـل شخص فقد كل أمل، قال بصوت عالٍ، هذا هـو المكـان الـذي سـأموت فيه. ربما في ظروف أخرى وإن تحدثنا بشجاعة وقناعة مـن يقترفون الانتحار، فإن هذه الكلمات، المجردة من الحزن والنحيب، ستكون كافية لفتح الباب الذي نغادر مـن خلالـه أرض الحيـاة. ولكـن أغلـب الرجـال مضطربـون عاطفيـاً ومـن الممكـن أن تصـرف انتبـاههم غيمـة فـي الأعالي، أو عنكبوت ينسج شبكته، أو كلـب يطـارد فراشـة، أو دجاجـة تبحث في الأرض وتقوقي لفراخها، أو بوساطة شيء مألوف مثل حكة مفاجئة في الوجه يحكها الإنسان ثم يتعجب ، مـا الـذي كنـت أفكـر فيـه الآن. لهذا السبب عيّنـه أعيد قبر راحيل سـريعاً ليكـون بنـاءً صـغيراً أبيض بـالكلس، دون نوافذ ويشبـه زهـر النـرد المقـذوف، منسـي لعـدم الحاجة إليه في اللعب، وثمة إشارات على الحجر الذي يغطـي المدخـل تركتها الأيدي المتعرقة والمتسخة للحجـاج الذيـن جـاؤوا إلـى هنـا منذ العصور القديمة، وأحيط القبر بأشجار الزيتون التي ربمـا كـانت قديمـة مـن قبـل أن يختـار يعقـوب هـذه البقعـة لتكـون المكـان الأخـير الـذي استراحت فيه الأم المسكينة ثم سقطت مثل الكثير مـن الأشـجار حيث

كان من الضروري تنظيف الحقل. عندما يقال كل شيء ويعمل كل شيء، من الممكن أن نؤكد بثقة أن القدر يوجد وأن قدر كل إنسان يظل بأيدي الآخرين. ثم تحرك يوسف ولكن ليس قبل أن يؤدي الصلاة التي تلائم الوقت والمكان. قال، الحمد لك، أيها الرب، يا إلهي وإله أسلافنا. إله إبراهيم وإسحاق، إله يعقوب، ايها الرب العظيم والقادر والرائع، الحمد لك. وعند عودة يوسف إلى الكهف ذهب ليرى ولده الصغير النائم في المعلف حتى قبل أن يخبر زوجته بأنه عثر على عمل. قال في نفسه، سيموت، لابد أن يموت، وتأسى قلبه، لكنه استرجع في ذهنه، طبقاً للقوانين الطبيعية، أنه ذاته الذي سيموت أولاً، الشيء المتناقض، أبدية تسمح للإنسان الاستمرار لوقت أطول حينما يكون أولئك الذي نعرفهم ونحبهم في عداد الأموات.

حرص يوسف أن لا يذكر لرئيس النجارين أنه سيبقى معهم لبضعة أسابيع، خمسة أسابيع على الأكثر، الوقت الكافي الذي يسمح بأن يأخذ ولده إلى الهيكل، ولتكمل مريم فترة طهارتها ويعودان إلى ممتلكاتهما. لم يقل شيئاً بل استدار وذهب، وهذا ما يوضح أن النجار الذي جاء من الناصرة لم يكن يعلم بالشروط المعتادة في العمل في بلده، لأنه مما لا شك فيه قد فكر مباشرة بنفسه كونه سيد نفسه ولم يكن يهتم بباقي الجماعات يتحركون وسط الجموع أزواجاً أزواجاً أو مع بعض الانفصال عن قطعات هيرودس المرتزقة التي جندت من كل سلالة يمكن تخيلها، الكثير من اليهود، كما يمكن أن يتوقع المرء، ومن الأيديوميين أيضاً وجالاتيين وثراسيين وألمانيين وغوليين وحتى بابليين، أولئك الذين كانوا بارعين في رمي السهام. أما يوسف النجار المسالم الذي لم يكن يحمل غير أسلحة مثل المسحاج والقدوم ومطرقة خشبية وأخرى حديدية، أو المسامير القاعدية واللولبية فيصبح مرتبكاً جداً من الخوف والتغيرات المفاجئة حين يجري بين هؤلاء البهائم الغلاظ حتى

أنه لا يستطيع البقاء على نحو طبيعي ويخفي مشاعره الحقيقية. لذلك يخفض نظره، وتبقى مريم، التي مكثت محجوزة في ذلك الكهف لعدة أسابيع لا أحد يكلمها غير العبدة، تلقي النظر فيما حولها جيداً، وحنكها الصغير الوسيم مرفوع بافتخار معلوم، لأنها تحمل وليدها الأول، امرأة عادية لكنها كفوءة بما فيه الكفاية لأن تهب الرب وزوجها الأطفال. إنها تبدو متوهجة وسعيدة حتى أن بعض الغوليين من ذوي النظرات الحادة، وذوي الوجوه الجميلة ذات الشوارب الكثة، الذين يضعون أسلحتهم على أهبة الاستعداد، يبتسمون لمرور العائلة، لابد أن قلوبهم القاسية قد رقّت دون شك لمنظر الأم الشابة وطفلها الأول. وكشفوا وهم يبتسمون لهذا الكائن الجديد عن أسنان متآكلة، لكن الذي كان يهم هي الفكرة.

هاهو الهيكل. يُرى من الزوايا القريبة، من الأسفل حيث نحن واقفون، يصيبك بالدوار، جبل من الأحجار التي لا يبدو أن ثمة قوة أرضية قادرة على تهذيبها ورفعها ورصفها وتنظيمها، ومع ذلك فها هي ذي، مترابطة بوزنها، دونما أي ملاط وكأن العالم بأكمله ليس غير رصف لأحجار البناء، وعندما ترى الأفاريز العليا، من الأسفل ستبدو لك كأنها تمس السماء مثل برج بابل آخر مختلفٍ تماماً وهو الذي حتى الرب ذاته لم يقدر على إنقاذه لأن القدر شاء أن يصيبه بالدمار ذاته والفوضى وسفك الدماء. ستتساءل الأصوات، لماذا، ألف مرة، واثقة أن لابد هنالك من جواب، لكنها ستموت في آخر الأمر إذ من الأفضل أن يعم الصمت. ذهب يوسف ليقيد الحمار في الخان الذي خصص جانباً للحيوانات. خلال عيد الفصح اليهودي والأعياد الدينية الأخرى يزدحم المكان كثيراً حتى أن ليس ثمة مكان كافٍ يحمل أن يطرد الذباب عن نيله، ولكن الأمور أيسر الآن بعد أن انقضى آخر يوم للإحصاء وعاد المسافرون إلى بيوتهم وثمة مكان فسيح في هذه الساعة المبكرة. ومع ذلك في ساحة الجينتيلين المحاطة بالأشجار من جهاتها الأربع ومنطقة

الهيكل في مركزها، كان ثمة زحام كبير للناس من قبل، الصيارفة منهم، وبائعو الطيور، والتجار الذين يتاجرون بصغار الأغنام والأطفال، الحجاج الذين دائماً ما يتجمعون هنا لسبب أو آخر، والعديد من الأجانب الفضوليين الذين يتوقون لزيارة الهيكل الشهير الذي بناه الملك هيرودس. لكن الساحة كانت فسيحة جداً حتى إن أي أحد في الجانب البعيد منها يبدو لا أكبر من حشرة صغيرة. يبدو كأن معماريي هيرودس، وهم ينظرون من خلال عيون الرب، قد قرروا أن يبيّنوا ضآلة الإنسان في حضور الرب العظيم، خصوصاً لو حدث أنهم من الجينتيلين. أما اليهود، فما لم يكونوا قد جاؤوا لمجرد التجول، يظل هدفهم في وسط الساحة، فهذا هو مركز عالمهم، سرة السرر وقدس الأقداس. هذا هو المكان الذي يقصده النجار مع زوجته، وهو المكان الذي يحمل إليه يسوع ما أن اشترى أبوه طائري قمري من خادم الهيكل، إن يكن هذا المصطلح يلائم الشخص الذي يستفيد من احتكار هذه الإجراءات الدينية. لم يأبه الطائران المسكينان للمصير الذي ينتظرهما على الرغم من أن رائحة اللحم والريش المحروق التي تملأ الهواء لا تخدع أحداً، ناهيك عن الرائحة النتنة والأشد قوة للدم والبراز لأن الثيران يؤتى بها إلى هنا للأضاحي وتلوث نفسها من الرعب. وضع يوسف الحمامتين في راحتي يديه الصلبتين، وكان الطائران المسكينان قد نقراه ببراءة راضيين في أصابعه التي تقوست لتتخذ هيأة القفص. كانا كأنهما يقولان له، إننا سعيدان مع سيدنا الجديد. أما مريم المتناسية لكل شيء حولها، فلم تكن تنتبه لأبنها الصغير، بينما لم يشعر يوسف أو يعرف معنى النقر المحب للحمامتين بخشونة جلد يده.

دخلا من البوابة الخشبية، أحد المداخل الثلاثة عشرة إلى الهيكل. ومثل كل الآخرين، ففيه كتابة محظورة باليونانية واللاتينية نقشت على كتلة خشبية تقول، يمنع أي شخص جينتيلي من عبور هذه العتبة

وعمود الدرابزين الذي يحيط الهيكل. الذين ينتهكون الحرمات يحكم عليهم بالموت. دخل يوسف ومريم يحملان يسوع، وفي الوقت المناسب سيخرجان بأمان، إلا الحمامتين، فكما نعرف، لابد أن يذبحا وفقاً للناموس قبل أن يُقر ويِصّادق على طهارة مريم. أي حواري ساخر أو غير مبجل من حواري فولتير سيجد من الصعوبة مقاومة الإشارة الواضحة بأن الأشياء إن تكن هذه هي حالها، فسيظهر أن النقاء لا يمكن أن يتم ما لم تتم التضحية بمخلوقات بريئة في هذا العالم، سواء أكانت حمامات قُمري، أم حملاناً أو ما شابه. صعد يوسف ومريم السلالم الأربعة عشر إلى منبر الهيكل. هذه هي ساحة النساء، إلى اليسار المخزن المخصص للزيت والنبيذ الذي يستخدم في الطقوس الدينية ، وإلى اليمين القاعة المخصصة للناصريين، الكهنة الذين لا ينتمون إلى قبيلة لاوي ويمنعون من قص شعورهم وشرب النبيذ والاقتراب من أية جثة. في الجانب المقابل إلى اليسار واليمين على التوالي للباب الذي ينهي هذه الجهة، ثمة قاعة للبرص الذين يؤمنون أنهم في انتظار الشفاء على أيدي الكهنة الذين ينتظرونهم ومخزن يخزن فيه الخشب حيث يفحص كل يوم لأن الخشب المتآكل والمنخور يرمى في نار المذبح. لم يكن أمام مريمٍ من مكان تذهب إليه أكثر من ذلك. عليها أن تصعد خمسة عشر سلماً نصف دائرية تقود إلى بوابة نيكانور، التي تسمى أيضاً بالبوابة الجميلة، لكنها ستقف هناك، إذ لا يسمح للنساء بأن يدخلن الساحة الإسرائيلية التي تقع بعد هذه البوابة. في المدخل يستقبل اللاويون أولئك الذين يأتون لتقديم الأضحية، لكن الجو يكون أقل ورعاً ما لم يكن للتقوى في ذلك العصر معنى آخر. إنه ليس فقط دخان يرتفع من الدهن المحترق أو رائحة الدم الطازج والبخور، بل أيضاً صراخ الرجال، والعويل والثغاء وطرح الحيوانات إلى الأرض في انتظار دورها في الذبح، والصوت الأخير الصارخ الأجش لطير تمكن من الغناء. تخبر مريم اللاوي

الحاضر أنها قد جاءت لتتطهر ويرفع يوسف الحمامتين. ولمرة واحدة وجيزة تضع مريم يديها على الطيرين، الحركة الوحيدة التي تقوم بها: قبل أن يبتعد اللاوي مع زوجها ويختفيان عبر البوابة. ولن تتحرك مريم حتى يعود يوسف، إنها تنسحب فقط جانباً كي لا تقطع المرور وتنتظر هناك حاملة طفلها بين ذراعيها.

ضمن ساحة الإسرائيليات ثمة فرن وغرفة للذبح. وعلى بلاطتين صخريتين كبيرتين تقتل الحيوانات الكبيرة كالثيران والعجول، إضافة إلى الخراف والنعاج والماعز من الذكور والإناث. ثمة أعمدة طويلة إلى جانب الطاولات حيث تعلق الذبائح من خطافات ثبتت في الصخر، وهنا يمكن للمرء أن يشاهد حركة الاهتياج حالما يسل الجزارون سكاكينهم وسواطيرهم وفؤوسهم ومناشيرهم اليدوية. تضوع من المكان روائح من الخشب والجلود المحروقة، ومن تبخر الدم والعرق. كل من يرى ذلك المنظر كان يتمنى أن يكون قديساً ليدرك كيف يغفر الرب هذه المجزرة المروعة إن يكن هو، كما يدعي، أباً لكل البشر والحيوانات. على يوسف أن ينتظر خارج الدرابزين الذي يفصل ساحة الإسرائيليات عن تلك المخصصة للكهنة، ولكنه كان يمكنه من المكان الذي يقف فيه أن يرى المذبح العالي، أعلى أربع مرات من أطول رجل، ويرى الهيكل أسفل منه تماماً، ذلك لأن المخرج مثل واحد من الصناديق الصينية حيث تتداخل الغرف فيه الواحدة في الأخرى. نرى البناية من بعيد ونفكر، آها، الهيكل، ثم ندخل ساحة الجنتيلين ونفكر مرة أخرى، آها، الهيكل، والآن يوسف النجار، متكئ على الدرابزين ينظر للأعلى ويقول، آها، الهيكل، وهو على حق، ثمة الواجهة العريضة بأعمدتها الأربعة المنظمة في الجدار، تيجانها مزينة بأوراق الغار على الطراز اليوناني والمدخل الكبير العريض الذي هو في الواقع من غير باب، ولكن أن تدخل هيكل

الهياكل ذاك الذي يسكنه الرب سيكون أن تتحدى كل المحرمات، بأن تمر عبر ذلك المكان المقدس الذي يسمى هيريل ، وتدخل أخيراً ديبير، التي هي آخر غرفة، قدس الأقداس، غرفة ذات حجر صلد فارغة كالكون، دونما نوافذ ومظلمة كالقبر وحيث لم يدخل ضوء النهار أبداً ولن ينفذ إليها، حتى تحين ساعة دمارها حين تتحول أحجارها إلى شظايا. كلما يكون بعيداً، كلما يزداد ألوهية، فبينما يكون يوسف أباً بسيطاً لطفل يهودي بين الكثيرين، و يوشك أن يشاهد التضحية بحمامتين بريئتين، أو تقول بالأحرى، أنه الأب وليس الابن، لأن الأخير لا يزال بريئاً، و بين ذراعي أمه، ولربما يفكر، إن يحدث شيء كهذا في زمانه، فلابد أن يكون العالم هكذا دائماً.

عند المذبح المصنوع من البلاطات الحجرية الهائلة التي لم تلمسها الآلات أبداً منذ أن اقتلعت ووصفت في هذا الصرح الواسع، ثمة كاهن عاري القدمين يرتدي رداءً كهنوتياً حريرياً ينتظر أن يسلمه اللاوي حمامتي القمري. يأخذ الأولى، يحملها إلى زاوية من المذبح وبضربة واحدة يفصل رأسها من جسدها. يتفجر الدم في كل مكان. ينشر الكاهن الدم فوق الجزء السفلي من المذبح ثم يضع الطائر المقطوع الرأس في صحن ليفرغ ما تبقى من دمه. وسيأخذه في آخر النهار، لأن الطائر المقتول صار ملكاً له. أما الحمامة الأخرى فلسوف تنال شرف التضحية الكاملة، وذلك يعني أنها ستحرق حتى تمسي رماداً. يرتقي الكاهن السلم الذي يؤدي إلى قمة المذبح حيث تتقد النار المقدسة. على الحافة اليمنى من المذبح، يقطع رأس الطير، ينشر دمه على القاعدة المزينة في كل زاوية بقرون الخراف، ثم يقتلع الأحشاء. لا أحد ينتبه لما يحدث لأن مثل هذا الموت لا عاقبة له. يحاول يوسف، ماداً عنقه، أن يميز دخان ورائحة أضحيته وسط كل ذلك الدخان والروائح والكاهن يقذف بالأشلاء في النار بعد أن يسكب الملح

على رأس الطائر وجثته. من غير الممكن ليوسف أن يتأكد فيما إذا كانت جثة لحمامة صغيرة رخوة منزوعة الأحشاء وهي تطقطق وسط النيران المستعرة التي اتقدت بها سوف تشبع حشوة سن واحد من أسنان الرب. عند أسفل السلم ثمة ثلاثة كهان ينتظرون. أسقط عجل على الأرض بعد أن ضُرب بساطور. يا إلهي يا إلهي، كيف خلقتنا بهذه الهشاشة وكم نحن لقمة سائغة للموت. لم يبق ليوسف شيء ما ليفعله، ولابد له أن ينسحب، يأخذ زوجته وطفله ويعود إلى بيته. هاهي مريم طاهرة مرة أخرى، ليس بالمعنى المحدد للكلمة، ذلك لأن الطهارة شيء من الصعب أن يطمح أغلب البشر تحقيقه، وخصوصاً النساء. مع الوقت وخلال فترة من العزلة، استقرت السوائل في جسدها، وعاد كل شيء إلى الطبيعي، الاختلاف الوحيد الآن أن العالم نقص حمامتين وزاد طفلاً تسبب في موتهما. غادرت العائلة الهيكل من البوابة ذاتها التي دخلت منها، وذهب يوسف ليأتي بالحمار، واعتلت مريم صخرة كبيرة كي تصعد إلى ظهر الحمار بينما حمل يوسف الطفل. لم تكن هذه هي المرة الأولى، ولكن ربما تكون ذكرى رؤيته لأحشاء حمامة القمري وهي تقتلع هي التي جعلته يتباطأ قبل أن يعيد يسوع إلى أمه، وكأنه كان متيقناً أن لا ذراعين يمكن أن يحميا ابنه أفضل من ذراعيه. رافق زوجته وطفله إلى بوابة المدينة قبل أن يعود إلى موقع الهيكل. سيكون غداً هنا أيضاً كي يكمل أسبوع عمله، ثم سينطلقون، إن شاء الله، إلى الناصرة بأسرع ما يمكن.

في الليلة ذاتها، كشف النبي ميخا ما كان ممسكاً عنه حتى ذلك الوقت. عندما كان الملك هيرودس، الذي تسلطت عليه الكوابيس الآن، ينتظر اختفاء الشبح بعد الهذيان والصخب، اللذين لم يؤديا إلى نتيجة، راح الشكل المرعب للنبي يكبر فجأة ونطق بكلمات لم ينطقها من قبل، منك أنت يا بيت لحم، أيتها المغمورة من بين أُسر يهوذا، يأتي الحاكم

الجديد لإسرائيل. وعند تلك اللحظة استيقظ الملك. وراحت كلمات النبي تتردد في الغرفة مثل أشد أنغام القيثارة عمقاً. استلقى هيرودس وعيناه مفتوحتان على وسعهما، محاولاً إدراك المعنى الكلي لذلك البوح، إن كان هنالك معنى حقاً، وظل مستغرقاً تماماً في التفكير حتى أنه لم يكد يشعر بالنمل يحفر تحت جلده وتعفّن الديدان أحشاءه. كانت هذه النبوءة معروفة لدى كل اليهود ولم تبح بشيء لم يكن يعرفه من قبل. إضافة إلى ذلك، لم يكن هو من النوع الذي يبدد وقته في القلق بشأن أقوال الأنبياء. الذي كان يُشعره بالضيق في هذه اللحظة هو الصخب الغامض، إحساس بالنفور المعذب بشدة، وكأن كلمات النبي لها معنى آخر، وأن ثمة في مكان ما بين المقاطع والأصوات يكمن تهديد مخيف وهائل. حاول أن يخلص نفسه من تلك الفكرة المتسلطة عليه ويعود إلى النوم، بيد أن جسده قاوم وتألم حتى النخاع. يقدم التفكير له نوعاً من الحماية. عبثاً بحث عن إجابة وهو يحدّق إلى الأعلى نحو أعمدة السقف حيث ظهرت له زخرفة السقف وكأنها تهتز من أضواء المشاعل ذات الرائحة التي تحجبها الواقيات. ثم أوعز لرئيس الحاشية التي كانت تقف إلى جانب فراشه وأمره بأن يأتي بالكاهن من الهيكل في الحال، حاملاً معه كتاب ميخا.

كان هذا المجيء والذهاب من القصر إلى الهيكل ومن الهيكل إلى القصر قد استمر لساعة تقريباً. انبثق الفجر حين دخل الكاهن غرفة منام الملك، إقرأ، أمره هيرودس، وبدأ الكاهن، كلمة الرب كما قالها لميخا المارشيتي في أيام جوثام، وآهاز وحزقيال ملوك يهوذا. استمر في القراءة حتى أمره هيرودس، إقرأ ما بعد ذلك، وقلب الكاهن إلى صفحة أخرى وهو متحير من السبب الذي جعله يستدعيه، الويل لأولئك الذين يحوكون الشر ويخططون للأعمال الخبيثة وهم يضطجعون في أسرتهم، ولكنه توقف هنا، مرعوباً من هذه الحماقة

التي كان مرغماً عليها، وانعقد لسانه، متأملاً أن ينسى هيرودس ما كان قد قرأه للتو، واستمر، وفي النهاية سيتقرر أن يرتفع بيت الرب عالياً فوق التلال. بعد ذلك زمجر هيرودس، نافد الصبر من العثور على المقطع الذي يريده، وأخيراً توصل إليه الكاهن، ولكن منك أنت يا بيت لحم، أيتها المغمورة من بين أُسر يهوذا، يأتي الحاكم الجديد لإسرائيل: رفع هيرودس يده، كرر هذه القطعة، ألح، وأطاعه الكاهن. مرة أخرى، أمره، وقرأها الكاهن للمرة الثالثة. هذا يكفي، قال الملك بعد صمت طويل، لك أن تنسحب. كل شيء واضح الآن. أعلن الكتاب الولادة الجديدة، ولا شيء آخر، بينما جاء شبح ميخا ليحذره أن هذه الولادة قد تمت. كلماتك، مثل كلمات كل الأنبياء، لا يمكن أن تكون أوضح مما هي عليه، حتى لو أسأنا تفسيرها. فكر هيرودس ملياً، وازداد تجهم وجهه وراح ينذر بالخطر. ثم استدعى قائد الحرس وأصدر له أمراً لينفذه في الحال، وأصدر أمراً آخر لينفذ عند الفجر، بعد سويعات. وسنعرف سريعاً ما هو ذلك الأمر، على العكس من الكاهن الذي قتل بوحشية من قبل الجنود قبل أن يصل الهيكل. ثمة الكثير من الأسباب التي تجعلنا نوقن أن ذلك كان هو الأمر الأول من الاثنين، نتيجة للسبب القريب الاحتمال والنتيجة الضرورية عنه. أما بالنسبة لكتاب ميخا فقد اختفى، وتصوروا الخسارة التي وقعت، حينما لم تكن هناك غير نسخة واحدة.

نجار بين نجارين، أنهى يوسف غداءه ولم يزل له ولرفاقه بعض الوقت قبل أن يعطي المشرف على العمل الإشارة لاستئناف العمل. وجلس يوسف في مكان قريب لبعض الوقت، ليستلقي قليلاً ويغفو أو ينغمس في أفكار تجلب له السرور، يتخيل نفسه خارجاً في الطريق المفتوح يتجول في الريف بين تلال السامرة، السكينة التي يفضلها، ينظر إلى الأسفل من الارتفاع العالي إلى قرية الناصرة التي يتوق إليها بشدة. وانتعشت روحه وهو يحدث نفسه بأن هذا الفصل الطويل سينتهي قريباً وسيكون في طريقه وحيداً مع نجمة الصباح في السماء، ويغني المدائح للرب الذي يحمي وطننا ويقود خطانا. فتح عينيه، مذعوراً، خشية أن يكون قد غفا ولم ينتبه لإشارة المشرف، لكنه كان مجرد حلم يقظة، رفاقه لا يزالون هناك، البعض منهم يتحدثون، وآخرون في قيلولة، ومزاج مراقب العمال المرح يوحي بأنه قد يقرر أن يمنح عماله إجازة لبقية النهار دون أن يتراجع عن كلمته. الشمس فوق الرأس تماماً، ثمة رشقات قوية من الريح تسوق الدخان من نيران التضحية نحو الاتجاه المعاكس. في هذا الوهد الذي يطل على الموقع حيث يبنى ميدان لسباق الخيل، لم تكن تسمع حتى ثرثرة الباعة في الهيكل. تبدو ماكينة الزمن وكأنها قد توقفت، أيضاً، في انتظار إشارة من المراقب العظيم للمكان والزمان الكونيين. شعر يوسف فجأة بالضيق بعد أن كان يشعر بالسعادة قبل هنيهة. نظر فيما حوله ورأى الموقع المألوف للبناية التي أمسى معتاداً عليها في الأسابيع الماضية ورأى البلاطات الحجرية والألواح

الخشبية، والطبقة السميكة من الغبار الأبيض في كل مكان ونشارة الخشب التي لا يبدو أنها ستجف أبداً. انغمر في كآبته المفاجئة، محاولاً العثور على توضيح ما، ليستنتج أن ذلك لابد أن يكون رد فعل طبيعي لأي شخص أجبر على ترك عمله دون أن يتمه، كما أنه غير مسؤول عن عمله هذا الذي يؤديه الآن وله العذر الكافي للمغادرة. نهض ليقف على قدميه محاولاً حساب الوقت المتبقي. لم يبد على المراقب أنه سينظر باتجاهه، لذلك قرر أن ينظر نظرة أخيرة على جانب البناية الذي عمل فيه، ليلقي عليه الوداع ،و ليلقي الوداع على الألواح التي سحجها وللأعمدة التي ثبتها، وإن صح التطابق هنا، فأين تلك النحلة التي يمكنها الادعاء، أن هذا العسل صنعته بنفسي.

بعد أن ألقى يوسف نظرة فيما حوله، عاد ليتجه نحو الموقع وتوقف للحظة مبدياً إعجابه بالمدينة التي تقف على المنحدر المقابل وقد بنيت على شكل مدرجات بأحجار فخرت بلون الخبز. لابد أن المراقب قد أعطى الإشارة الآن، لكن يوسف لم يكن على عجل، حدق في المدينة ولا أحد يعلم ماذا كان ينتظر. مرت الدقائق ولم يحدث شيء. كان يوسف يتمتم مع نفسه، حسناً، عليَّ أن أعود إلى العمل، عند ذلك سمع أصواتاً على الممر الذي يقع أسفل الموقع حيث كان يقف ورأى وهو يتكئ على الجدار الحجري ثلاثة جنود. لابد أنهم كانوا يسيرون في ذلك الممر وقرروا الوقوف قليلاً لينالوا قسطاً من الراحة، إتكأ اثنان منهما على رمحيهما وأصغيا للثالث الذي بدا أكبر سناً ومن المحتمل أن يكون ضابطهما، على الرغم من أن ليس من السهل تحديد الاختلاف ما لم يكن الإنسان قد ألف الأزياء المختلفة وأدرك دلالة التمايزات الكثيرة من الأشرطة والجدائل التي تشير إلى المنزلة. الكلمات التي استطاع يوسف سماعها بالكاد كانت كأنها سؤال مثال ذلك، ومتى سيكون ذلك، وأجاب أحد الشابين بصوت واضح،

عند بداية الساعة الثالثة حين يكون الجميع في بيوتهم.، فتساءل الجندي الآخر، وكم منا سوف يُرسلون، لست أدري حتى الآن ولكن ما يكفي لتطويق القرية. هل صدر الأمر بقتلهم جميعاً. كلا، ، بل فقط أولئك الذين دون الثالثة من العمر. من الصعب تحديد الاختلاف بين سن الثانية والرابعة من العمر، وكم سيكونون، أراد الجندي الثاني أن يعرف. وأخبرهما الضابط، طبقاً للإحصاء لابد أن يكونوا خمسة وعشرين تقريباً. اتسعت عينا يوسف وكأنهما كانتا تفهمان هذا الحديث أسرع من أذنيه وكان يرتعد من الرأس إلى القدم، إذ من الواضح أن هؤلاء الجنود كانوا يتحدثون عن قتل الناس. ناس وأي ناس، سأل نفسه مندهشاً ومبتئساً، كلا، كلا، لم يكونوا أناساً، أو بالأحرى كانوا أناساً، ولكن من الأطفال. تحت سن الثالثة، قال الضابط المناوب، أو ربما كان ذلك هو أحد الجنود الشبان، ولكن أين، أين يمكن أن يكون ذلك، بعد هذا، لم يتمكن يوسف أن يتكئ جيداً على الجدار وتساءل، أثمة حرب ستقوم. تفجر جسده بالعرق وشعر أن ساقيه تهتزان. وتناهى إلى سمعه أن أحد الرجال يقول بحزن دون أن يتمكن من إخفاء ارتياحه، كم نحن محظوظون مع أطفالنا لأننا لا نعيش في بيت لحم. هل يعلم أحد لماذا اختاروا قتل أطفال بيت لحم، تساءل أحد الجنود، كلا، لم يخبرني القائد وسأراهن أنه هو ذاته لا يعرف السبب، لقد صدر الأمر من الملك، وهذا كل ما علينا معرفته. قال الجندي الآخر وهو يرسم خطاً على الأرض برمحه، وكأنه يشطر ويقسّم قدراً، كم نحن تعساء فلسنا فقط ننفذ الشر الذي هو من طبيعتنا، بل لابد لنا أيضاً أن نخدم على أننا أداة الشر لأولئك الذين يسيئون استعمال سلطتهم. مرت هذه الكلمات دون أن يسمعها يوسف الذي انسحب من ذلك الموقع المتميز، بحذر في أول وهلة، وبعد ذلك في اندفاع جنوني، مثل ماعز مذعور، ناثراً الحصى في كل الاتجاهات. ودون شهادة يوسف لنا الحق في التشكيك بإمالة الخطاب الفلسفي للجندي، في شكله

ومضمونه، لأنه يبين لنا التناقض الواضح بين تلك العواطف الشديدة الذكاء والحالة المتواضعة للشخص الذي عبر عنها.

هرع يوسف مهتاجاً، مصطدماً بكل شيء يراه، أكشاك الفاكهة وأقفاص الطيور، وحتى مكتب مغيري العملة، غير عابئ تقريباً بصرخات الغضب الآتية من الباعة في الهيكل، فما كان يهمه فقط أن حياة طفله في خطر. ولا يمكنه تخيل لماذا يتوجب على أي أحد أن يفعل شيئاً كهذا، ورطته تدعو لليأس، لقد اختار أن يكون أباً لطفل ويريد شخص آخر أن يأخذه منه، رغبة مشروعة كالأخرى، أن تفعل ولا تفعل، أن تحل وتشد، أن تخلق وتدمر. يتوقف فجأة، مدركاً الخطر الذي سيرتكبه لو استمر في انطلاقه الذي لا تحمد عقباه، فقد يظهر حراس الهيكل ويقبضون عليه وهو يتعجب أنهم ليسو في حالة إنذار لهذا الاضطراب. ثم تظاهر، بأقصى ما يمكنه، مثل قملة تختبئ في طيات ثوب، فاختفى في الزحام وسرعان ما غاب فيه، الشيء الوحيد الذي يميزه أنه كان يسير أسرع، لكن أحداً لا يكاد يلاحظ ذلك في متاهة الناس تلك. إنه يعرف أن عليه أن لا يجري حتى يصل بوابة المدينة، لكنه يضيق بفكرة أن الجنود قد يكونون في طريقهم قبله، متسلحين على نحو مشؤوم بالرمح والخنجر وكراهية لا حدود لها، وإن يشأ سوء الطالع أن يكونوا مسافرين على الخيول فلن يلحق بهم وما أن يصل إلى هناك سيجد طفله ميتاً، يسوع الصغير الجميل المسكين. في هذه اللحظة من الكرب الشديد طرأت بباله فكرة حمقاء تضيف الإهانة إلى الجرح، يتذكر أجوره، الأجور الأسبوعية التي يقاوم خسارتها، هذه هي قوة الأشياء المادية التافهة، حتى أنها في إلحاحها، جعلته يبطئ في سيره ليفكر ملياً إن كان قادراً على إنقاذ ماله وحياة طفله في آن واحد. لكن هذه الفكرة الحقيرة سرعان ما تلاشت كالبرق دون أن تترك أي أثر للندم، ذلك الشعور الذي كثيراً ما، ولكن ليس كثيراً بما فيه الكفاية،

يبرهن على أنه ملاكنا الحارس الذي نلوذ به.

أخيراً خلّف يوسف المدينة وراءه ولم يعد يرى جنوداً على الطريق، فعلى مدى البصر ليس ثمة زحام لبشر يتجمعون كما يتوقع المرء في حالة الرتل العسكري، لكن المشهد الذي يعزز الاطمئنان هو العرض البريء للأطفال الذي يعرضونه دون عنف عندما تمر الأعلام والطبول والأبواق، أو تلك العادة في ذلك الزمان في السير خلف الرتل العسكري. فلو مر أي جنود بهذا الطريق لما كان ثمة أولاد في الطريق، لأنهم سيرافقون ذلك الفصيل العسكري على الأقل حتى المنعطف الأول للطريق، ولربما الواحد القريب منهم، الذي تهيأ ليكون جندياً في أحد الأيام، قد قرر مرافقتهم في مأموريتهم ولذلك يكتشف المصير الذي ينتظره، إما أن يقتل أو يُقتل. بإمكان يوسف الآن أن يجري بأقصى ما يستطيع واستقاد من المنحدر، لا يعيقه غير ثوبه الذي رفعه إلى ما فوق ركبتيه. وكما في الحلم، تسلّط عليه الإحساس المضني بأن ساقيه غير قادرتين على الاتساق مع اندفاع الأجزاء الأخرى من جسده، كالقلب والرأس والعيون واليدين التي تتلهف لتقديم الحماية لكنها رغم ذلك بطيئة إلى حد مؤلم في حركاتها. البعض من الناس يقفون على الطريق ويهزون رؤوسهم باستنكار لهذا الاهتياج غير اللائق، لأن هؤلاء الناس معروفون بهدوئهم ونبل مظهرهم. التبرير الوحيد للسلوك الغريب ليوسف في أعينهم ليس لأنه يجري لإنقاذ حياة طفلة، بل لأنه جليلي، وهو سيئ السلوك إذ لم يتلق التربية الحقيقية كما هو ملحوظ غالباً. كان قد مر من أمام قبر راحيل، ومما لا شك فيه أن تلك المرأة الطيبة كان لها السبب الكافي لأن تنتحب من أجل أطفالها، وأن تملأ التلال القريبة بالصرخات والعويل، وأن تخدش وجهها وتقطع شعرها وتلطم جمجمتها العارية. قبل الوصول إلى أول البيوت في ضواحي بيت لحم يترك يوسف الشارع الرئيسي ويسير عبر الحقول، إنني أختصر الطريق،

هكذا كان سيجيبنا لو كنا قد سألناه عن هذه التحويلـة المفاجئـة التـي ربمـا تكون أقصر ولكنها من المؤكد أكثر إرهاقاً. كان حذراً من مواجهة أيٍّ من العاملين في الحقول ويختفي خلف الصخور الضخمة ما إن يرى أي راعي أغنام في الجوار ، وتحتم على يوسف أن يتخذ طريقاً دائرياً قبل الوصول إلى الكهف الذي كانت زوجته تنتظره فيه في هذه الساعة، ولكن ابنه لم يكن يتوقع حضوره مطلقاً لأنه كان يغط في النوم. في منتصف الطريق في أعلى منحدر لآخر تل، حيث كان بإمكانه رؤية الهوة المظلمة للغار، يُهاجم يوسف من قبل فكرة مخيفة، مفترضاً أن زوجته قد ذهبت إلى القرية ومعها الطفل، وكما هي حال النساء، ما أن وجدت نفسها وحيدة، فلا شيء أكثر طبيعية من أنها تذهب في زيارة توديع لسالوم والعديد من العائلات التي تعرفت بها خلال الأسابيع الماضية، تاركة ليوسف مهمة شكر مالكي الكهف وفق الأصول. وخلال لحظة شاهد نفسه يجري في الشوارع يطرق كل باب، هل زوجتي هنا. سيكون من الحماقة التساؤل بقلق. هل ولدي هنا، في حالة مثلاً أن امرأة ما تحمل طفلاً بين ذراعيها وتدرك مغزى حزنه فتسأله، أ ثمة خطب ما، وكان سيجيبها، كلا، لا شيء، لا شيء مطلقاً، كل ما في الأمر أننا لابد أن نسافر مع الفجر ولم نرزم حاجياتنا حتى الآن. كانت السطوح المتشابهة لبيوت القرية التي يراها يوسف من هنا تذكره بموقع البناء، والأحجار المتناثرة في كل مكان حتى يجمعها العمال واحدة فوق الأخرى لإنشاء برج مراقبة، أو مسلّة للاحتفال بذكرى إحد الانتصارات أو جدار للبكاء. نبح كلب عن بعد، ونبح الآخرون استجابة له، لكن صمت الأمسية الدافئة يستمر كي يخيم على القرية مثل بَركة منسية تكاد تفقدنا تأثيرها أو مثل خيط غيمة يوشك على التلاشي.

لبث هذا التوقف قليلاً. وفي قفزة أخيرة واحدة وصل النجار مدخل الكهف ونادى، مريم هل أنت هناك. وأجابته منادية، أدرك يوسف أن

ساقيه ترتعشان، ربما بعد كل تلك الجري، ولكن أيضاً من مجرد ارتياحه من معرفة أن طفله بخير وبأمان. في الداخل كانت مريم تقطع الخضار لوجبة العشاء، الطفل نائم في المعلف. تداعى يوسف من الإرهاق إلى الأرض ولكنه سرعان ما انتصب على قدميه، لابد لنا من المغادرة، يجب أن نبرح هذا المكان. نظرت إليه مريم برعب وسألته، هل نحن راحلون، أجل وفي هذه اللحظة، ولكنك قلت، إهدأي ولمي حاجياتك بينما أهيء الحمار. ألا نأكل أولاً، كلا، سنأكل في طريقنا، ولكن الظلام سيحل وقد نضل الطريق، عند ذاك نفد صبر يوسف، إهدأي يا امرأة، لقد قلت لك إننا راحلون، فافعلي كما أقول لك. اغرورقت عينا مريم بالدموع. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرفع فيها زوجها صوته عليها، ودونما كلمة أخرى بدأت بجمع حاجياتها الضئيلة. أسرعي، أسرعي، راح يكرر وهو يحمّل الحمار ويشد الأشرطة وطفق يحشر كل ما يقع في يده في السلال، بينما بدت مريم مذهولة من هذا الزوج الذي لا تكاد تفهمه. إنهم مستعدون للرحيل، لم يبق سوى إخماد النار بالتراب. وأشار يوسف لزوجته أن تنتظر حتى يلقي نظرة في الخارج. كانت الظلال الرمادية للفجر تفصل السماء عن الأرض. لم تبزغ الشمس بعد، لكن الضباب الكثيف، ذاك الذي لم يكن عالياً بما فيه الكفاية ليخفي الحقول المحيطة، قد منع الضياء من النفاذ. أصغى يوسف بانتباه، خطا بضع خطوات، وانتصب شعر رأسه فجأة عند سماعه لصرخة بعيدة من القرية، كانت حادة حتى أنها تكاد أن لا تكون صرخة بشرية، وسُمعت أصداؤها من تل لتل وتبعت بصراخ أشد وعويل يمكن سماعه في كل مكان. لم يكن ذلك نحيب ملائكة يتأسون لسوء طالع البشر، بل تلك كانت صرخات الرجال والنساء سعّر الكرب جنونها تحت سماء خاوية. عاد يوسف إلى مدخل الكهف واصطدم بمريم التي لم تأبه لتحذيره. كانت ترتعش من الرأس حتى القدم، ما هذه الصرخات، تساءلت، ولكنه دفعها إلى الداخل دون أن يجيبها وراح

يرمي التراب على النار بعجالـة. توقف قليلاً ثم قال هامساً، الأطفال، بأمر من هيرودس، تهدج صوته ببكاء جاف، لهذا قلت أن علينا الرحيل. ثمة صوت مكبوت للثياب والتبن الذي تبعثر حين رفعت مريم طفلها من المعلف وقربته إلى صدرها، يا يسوع الصغير الجميل، من ذا الذي يريد إيذاءك، غرقت كلماتها بالدموع، إهدأي، قال يوسف، اصمتي، قد لا يعثر الجنود على هذا المكان، لقد صدر لهم الأمر بأن يقتلوا الأطفال في بيت لحم من كان دون سن الثالثة. كيف عرفت ذلك، لقد تناهى ذلك إلى سمعي حين كنت في الهيكل ولهذا عدت مسرعاً، فماذا نفعل الآن، إننا في ضواحي القرية، من المستبعد أن يبحث الجنود في كهوف كهذه، لقد أمروا بأن يبحثوا في المنازل الواحد بعد الآخر، أملنا أن لا يشي بنا أحد فنبقى. وعاد ليلقي نظرة أخرى حذرة في الخارج. توقف الصراخ ولم يعد يسمع شيئاً سوى العويل الجماعي الذي راح يخبو تدريجياً. كانت مذبحة الأبرياء قد انتهت. ما زالت السماء متجهمة. الظلمة المنتهكة والضباب العالي قد مسحا بيت لحم من أفق أولئك الذين يسكنون السماء. حذر يوسف مريم، لا تتحركي من هنا أنا خارج إلى الطريق لأرى إن كان الجنود قد رحلوا. كن حذراً، قالت مريم، متناسية أن لا خطر على زوجها، بل فقط على الأطفال دون سن الثالثة، ما لم يخرج أحد الناس إلى الطريق وهو ينوي الخيانة، فيخبر الجنود، هذا هو يوسف، النجار، الذي لم يبلغ ابنه الثانية من العمر، ولد صغير اسمه يسوع، الذي ربما يكون هو الطفل المذكور في النبوءة، فلم نقرأ أبداً ولم نسمع أن قدر لأطفالنا المجد، إن ذلك من أبعد الاحتمالات، ومع ذاك فها هم الآن موتى.

في داخل الكهف بإمكان المرء أن يمسك الظلمة. مريم التي دائماً ما تخشى الظلام، كانت قد اعتادت أن تنير المنزل، إما بالنار أو بالمصباح الزيتي أو بكليهما، فأكثر ما يهددها الآن أنها تختبئ هنا بعيداً في

الأرض، وتشعر كأن أصابع الظلام قد تمتد وتلمس شفتيها المذعورتين. لم تكن لديها الرغبة في عدم إطاعة زوجها أو لأن تعرض طفلها لأي خطر بمغادرتها للكهف، لكن ذعرها ازداد في اللحظة ذاتها. وسرعان ما يخرق الرعب المتصاعد الدفاعات المتخلخلة للإحساس السليم، من غير الملائم أن تقول لنفسها، إن لم يكن هنالك شيء في الكهف قبل إطفاء النار فلماذا يكون ثمة أي شيء الآن، على الرغم من أن الفكرة قد منحتها الشجاعة الكافية بأن تتلمس طريقها نحو المعلف حيث وضعت طفلها، ثم زحفت بحذر فيما حولها حتى وجدت موقع النار، قلبت الرماد بعود من القش حتى ظهرت بعض الجمرات التي لم تخمد تماماً. وتلاشت مخاوفها في الحال، وفكرت بالتراب المضيء حالما شاهدت التوهج المرتعش ذا الالتماعات المتقاطعة للضوء مثل ضوء ملتهب يومض فوق حافة الجبل. كانت صورة الشحاذ قد ظهرت ثم اختفت بعد أن أزاحتها الحاجة الملحة لمزيد من الضوء في ذلك الكهف المخيف. وتلمست مريم طريقها نحو المعلف لتأتي بقبضة من القش. وعادت في الحال مستنيرة بالضياء الشحيح الذي على الأرض وسرعان ما أوقدت المصباح الزيتي في الزاوية حيث يمكن أن يبعث ضوءاً شاحباً ولكنه جدد الطمأنينة هناك على الجدران القريبة دون أن يجلب انتباه أي أحد في الخارج. ذهبت مريم إلى طفلها الذي استمر في نومه، غير مبالٍ بالمخاوف، والقلق وأحداث الموت العنيفة. أخذته بين ذراعيها وذهبت لتجلس قريباً من المصباح وانتظرت. مر الوقت، استيقظ طفلها بعد أن فتح عينيه كاملاً وحين رأت أنه يوشك على البكاء تحركت غريزة الأمومة لديها ففتحت رداءها وقربت شفتي الطفل الشرهتين إلى ثديها. كان يسوع لا يزال يرضع من ثدي أمه حين سمعت خطوات. كاد قلبها يتوقف عن النبض. أيمكن أن يكونوا جنوداً في جولاتهم العادية أزواجاً أزواجاً يقومون بالتفتيش، كي يدافع الواحد عن الآخر في حالة أي هجوم مفاجئ. وفكرت، لابد أنه يوسف،، وخشيت أن يوبخها لأنها

أشعلت المصباح. اقتربت الخطوات، كان يوسف قد دخل الكهف. وفجأة سرت في عمود مريم الفقري رعشة، ليست هذه خطوات يوسف الثابتة والثقيلة، ربما يكون أحد الشغيلة المتجولين يبحث عن مأوى يقضي فيه الليل، كما حدث مرتين من قبل، وعلى الرغم من أن مريم لم تخش شيئاً حينذاك، إذ لم يحدث لها أبداً أن أحداً ما، مهما كان فظاً وقاسي القلب، يمكن أن يؤذي امرأة تحتضن طفلاً بين ذراعيها. ونسيت أمر أولئك الأطفال الصغار الذين ذبحوا في بيت لحم، ولربما كان البعض منهم بين أذرع أمهاتهم، كما يستلقي يسوع الآن بين ذراعيها، أطفال أبرياء لا يزالون يرضعون حليب الحياة بينما اخترقت السيوف أجسادهم الغضة، لكن أولئك القتلة كانوا جنوداً وليسوا متشردين وهذا شيء مختلف تماماً. كلا، فذلك ليس يوسف، وليس جندياً يبحث عن مأثرة عسكرية لم يتسن له الاشتراك فيها، أو واحداً من الشغيلة الطارئين يبحث عن عمل أو مأوى. لقد جاء ذلك الرجل الذي ظهر على هيأة شحاذ عدة مرات والذي ادعى أنه ملاك دون أن يفصح، على أية حال، إن كان من الفردوس أو الجحيم، جاء هذه المرة متخفياً بهيأة راع. ظنت مريم لأول وهلة أنه لا يمكن أن يكون هو، لكنها أدركت الآن أنه هو ولا أحد سواه.

قال الملاك، السلام عليك يا زوجة يوسف، والسلام على طفلك، كم أنتما محظوظان إذ التجأتما في هذا الكهف، وإلا لكان أحدكما قد تحطم وقتل وتحطم الآخر وبقي حياً. قالت مريم، سمعت نداءات استغاثة. وأخبرها الملاك، أجل، لقد سمعتها فقط في هذه المرة، ولكن في يوم ما سترتفع تلك الصرخات إلى السماء باسمك، وحتى قبل ذلك ستسمعين آلاف الصرخات إلى جانبك. وأخبرته مريم، لقد ذهب زوجي ليرى إن كان الجنود قد ذهبوا، لابد أن ترحل قبل مجيئه. فقال الملاك، لا تقلقي، سأذهب حالما يقترب، لقد جئت فقط لأنبهك أنك لن تريني في الأيام القريبة القادمة وأن مشيئة السماء ستتحقق، وأن أحداث الموت هذه حتمية

كما هي جريمة يوسف، فتساءلت مريم، أية جريمة، لم يقترف زوجي جريمة، إنه رجل شريف. ليست لديك فكرة عن عدد الشرفاء الذين اقترفوا جرائم في الماضي، لأن عدد جرائمهم لا يحصى، وعلى النقيض مما هو متعارف عليه فإنها الجرائم الوحيدة التي لا تغتفر. فتساءلت مريم، أية جريمة اقترفها زوجي. أجاب الملاك، لست مجبراً على إخبارك، فمن المؤكد أنك لا تنوين مقاسمته ذنبه. قالت مريم، أقسم أنني بريئة. وأخبرها الملاك، أقسمي إن كان عليك ذلك، ولكن أي يمين يقسم به أمامي مثل هبة ريح لا تعرف أين تمضي. فتوسلت مريم، أية جريمة اقترفنا. أجاب الملك، سلت قسوة هيرودس تلك الحراب، ولكن أنانيتكما وجبنكما كانا الحبال التي قيدت سيقان وأيدي أولئك الضحايا. فتساءلت مريم، ما عسانا نفعل. وأخبرها الملاك، لم يكن بيديك شيء تفعلينه لأنك أدركت ذلك متأخراً، ولكن النجار كان يمكنه أن يفعل شيئاً، كان بإمكانه أن ينذر القرويين بأن الجنود آتون لقتل أطفالهم عندما كان ثمة وقت للآباء بأن يأخذوا أطفالهم ويهربوا، أو يختبئوا في البرية مثلاً، أو يفروا إلى مصر حتى تحين وفاة هيرودس الوشيكة. قالت مريم، يوسف لا يفكر. فرد الملاك مسرعاً، صحيح، أنه لا يفكر، لكن ذلك لا يكاد يعد عذراً. فناشدته مريم دامعة العين، فلتسامحه ما دمت ملاكاً. فأجاب الملاك، لست الملاك الذي يمنح الغفران. فتوسلت مريم، إغفر له. كان الملاك عنيداً، لقد قلت لك من قبل، هذه الجريمة لا تغتفر، سيغفر لهيرودس أسرع من زوجك، مسامحة الخائن أسهل من المرتد. سألته مريم، وما هو المطلوب منا. أخبرها الملاك، سوف تعيشين وتعانين كباقي الناس. فتساءلت مريم، وماذا عن ولدي. فقال الملاك، يسقط ذنب الأب على رأس أطفاله وقد لطخ ظل ذنب يوسف جبين ابنه من قبل ذلك. فتنهدت مريم، يا لبؤسنا. فأجاب الملاك، بالتأكيد، ولا شيء لدينا لنفعله. أخفضت مريم رأسها وقربت الطفل إلى صدرها أكثر وكأنها كانت تحميه من الشرور الموعودة وحين التفتت كان الملاك قد تلاشى.

لكنه في هذه المرة تلاشى دون وقع خطوات. لابد أنه طـار بعيداً، هكذا فكرت مريم في نفسها. نهضت وسارت إلى مدخل الكهف لترى إن كـان ثمة أية آثار لطيران الملاك في السماء أو أيـة علامـة لاقتراب يوسـف. انقشع الضباب، وتلألأت النجوم الأولى كالمعادن، ولا يزال من الممكن سماع أصوات النحيب المتأتية من القرية. عند ذلك تفشت فكرة مشـؤومة كـالازدراء الكنسـي ذاتـه فـي نـذر الشـر السـوداء التـي أتـى بهـا المـلاك فأصابت رأس مريم بالدوار. فلنفرض أن خلاص ابنهـا كـان إشـارة مـن الرب، فبالتأكيد أن نجاة ابنها من الموت العنيف لابد أن تشير إلـى شـيء ما حين لا يستطيع الكثيرون من الذين نفقوا أن يفعلوا شيئاً غير الانتظار لفرصة ملائمة ليسألوا الرب ذاته، لماذا قتلتنا، ويقتنعـون بـأي جـواب قد يختاره لهم. سرعان ما انتهى هذيان مريم وكذلك الفكرة التي طرأت فـي بالهـا بأنهـا ترضـع طفـلاً ميتـاً مثـل كـل أولئـك الأمهـات فـي بيـت لحـم، وذرفت الدموع الغزيرة لتريح نفسـها ولتخلـص روحهـا. كـانت لا تـزال تبكـي عندمـا وصـل يوسـف. شـعرت بمجيئـه ولـم تتزحـزح، فمـا الـذي يجعلهـا تهتـم لـو كـان عليـه أن يوبخهـا، فمريـم تبكـي الآن مـع النسـاء الأخريات، كلهن جالسات في دائرة وأطفـالهن فـي أحضـانهن وينتظـران البعث. لاحظ يوسف أنها كانت تبكي، ففهم ولم يقل شيئاً.

لم يظهر على يوسف أنه لاحظ اشتعال المصبـاح الزيتـي فـي داخـل الكهـف. ثمـة طبقـة خفيفـة مـن الرمـاد تغطـي الآن الجمـرات ولكـن فـي الوسط كان لا يزال ثمة وميض واهن للهـب يجـاهد فـي البقـاء. وطمـأن يوسف مريم وهو ينزل الحمل من الحمار، لم نعد فـي خطـر، لقد غـادر الجنود ولذلك سنمضي الليل هنا. سنغادر قبل الفجر مبتعدين عن الطريق الرئيسي ونتخذ طريقاً أقصر، وحيـث لا طـرق سـالكة لابد لنـا أن نعثر على ممر. تمتمت مريم، كل أولئك الأطفـال الموتـى، وهـذا مـا حـرض يوسف لأن يتساءل بفظاظة، كيف علمت، هل عددتهم، واستمرت مريم،

وكنت أيضاً أعرف البعض منهم. عليك أن تشكري الرب لأنه أبقى ابنك، سأفعل، ولا تحدقي في هكذا وكأنني اقترفت جريمة، لم أكن أحدق فيك، لا تجيبي بنغمة الاتهام هذه، حسناً، لن أتفوه بكلمة أخرى، أيضاً. ربط يوسف الحمار عند المعلف حيث ثمة لا يزال بعض التبن. لم يكن جائعاً تماماً، وقد أكل جيداً في الحقيقة، الكثير من العلف والهواء النقي، لكن الحمار يعد نفسه لرحلة العودة المضنية وهو محمل بأقصى ما يمكنه. وضعت مريم ابنها على الأرض وقالت، سأزيد من إضرام النار، لماذا، لأعد شيئاً للعشاء، لا أريد أية نار هنا. قد تجذب انتباه أي عابر سبيل، دعينا نأكل أي شيء لا يحتاج إلى طبخ. وهكذا أكلا. جعل ضياء المصباح من سكان الكهف الأربعة يبدون كالأشباح، كان الحمار ثابتاً مثل تمثال، أنفه مدفون في القش دون أن يأكل بالفعل، الطفل في نعاس وسد الرجل والمرأة رمقهما بالقليل من التين الجاف. فرشت مريم البسط على الأرض الرملية ورمت الغطاء فوقها، كالعادة، وانتظرت أن ينام زوجها. ذهب يوسف أولاً ليلقي نظرة أخرى على سماء الليل، كل شيء كان في سلام في السماء وعلى الأرض، ولم تعد تُسمع أية صرخات نحيب آتية من القرية. راحيل هي الوحيدة التي كانت لديها القوة الكافية لأن تنتهد وتنشج في داخل البيوت حيث مكثت الأرواح والأبواب مغلقة بإحكام. تمدد يوسف على بساطه وشعر بالإرهاق الشديد بعد كل ذلك القلق والرعب ولم يكن بإمكانه حتى الإيماء أن مطاردته الضارية قد أنقذت حياة ابنه. لقد أطاع الجنود الأوامر بدقة وهي أن يقتلوا أطفال بيت لحم، دون أن يقوموا بمبادرة أخرى كالبحث في كل الكهوف المجاورة لاصطياد أي لاجئ مختبئ، أو حتى كامل الأسر التي تسكن هناك. وفي العادة لم يكن يوسف يعبأ إن أوت مريم إلى الفراش بعد أن يغط هو في النوم، ولكنه هذه المرة لم يستطع تحمل التفكير أنها تراقبه ودونما شفقة بينما هو نائم. فقال لها، لا أريدك أن تنتظري، آوي إلى فراشك. ولم تعترض مريم. وكالعادة، بعد أن تأكدت مريم من ربط الحمار

اضطجعت متنهدة على فراشها وأغمضت عينيهـا بقوة وانتظـرت تسلل النوم إليها. في منتصف الليل، حلم يوسف بحلم. كـان يركـب الطريـق المؤدي إلى قرية ولاحت لـه أولـى المنـازل. كـان يرتـدي بـزة عسكرية ومتسلحاً بسيف ورمح وحربة، جندي بين الجنـود. فسـأله الضـابط، إلـى أين تظن نفسك ذاهباً أيها النجار، وأجاب على هـذا السـؤال، وهـو يفخـر لأنه استعد جيداً للمهمة التي أوكلت إليه، إنني منطلق إلى بيت لحم كـي أقتل ولدي، وما أن قال هذه الكلمـات حتـى اسـتيقظ يدمـدم مـن الرعـب، وجسده يرتعش ويتلوى من الخوف. سألته مريم مذعورة، ماذا بك، مـاذا حصل، كان يوسف يختض من الرأس إلى القدم ويردد، كلا، كلا، كـلا. وفجأة انهار وراح يبكي بحرقة. نهضت مريم وجاءت بالفانوس ورفعتـه قريباً من وجهه وسألته، هل أنت مريض. فصـاح وهـو يغطـي وجهـه بيديه، أبعدي هذا الفانوس أيتها المرأة، وظـل ينتحـب عاليـاً وذهـب نحـو المعلف ليرى إن كان ابنه بسلام. انه بخير يا سـيدي يوسـف، فـلا تقلـق، وفي الحقيقة فإن الطفل لا يجلب المتـاعب، إنـه ذو طبيعـة طيبـة وهـادئ وكل ما يريده هو أن يتغذى وينام ويرتـاح هاهنـا بسـلام، متناسياً المـوت الرهيب الذي هرب منه بأعجوبة، يفكر فقط، بأن يحكم عليه بالموت مـن قبل الأب الذي منحه الحيـاة، فـإن يكـن المـوت هـو القـدر الـذي ينتظرنـا جميعاً فثمة طرق أخرى للموت. ولم يعد يوسـف بعـد ذلـك للنـوم، خوفـاً من عودة ذلك الحلم. فـالتف بملاءتـه وجلـس فـي مدخـل الكهـف تحـت صخرة معلقة إتخذت شكل الشرفة وفي الاعالي يبعث القمر ظـلاً معتمـاً فوق فتحة الكهف لم يستطع الشعاع الواهن للانوس الذي فـي الداخـل أن يطرده. لو أن هيرودس نفسه المحمول من قبل عبيده قد مرّ، برفقة جمع غفير مـن البرابرة المتعطشين للدمـاء، كـان سيقول بهـدوء، لا تهتمـوا بتفتيش هذا المكان، وأبقوا سائرين، فلا شيء هنا غير الصـخور والظلال وما نريده هو اللحم الطري للأطفال الحديثي الولادة. كان مجـرد التفكيـر بذلك الحلم يجعل يوسـف مرتعشاً. تساءل، ما الذي يمكـن أن يعنيـه ذلـك،

إذ، تشهد السماء، أنه جاء مسرعاً هابطاً المنحدر مثل رجل مجنون، مثل فايا دولوروزا إن يكن ثمة أحد بهذا الاسم، تسلق صخوراً وجدراناً وهو في طريقه المتعجل لإنقاذ طفله كـأبٍ حنون، ورغم ذلك يرى نفسه مرسوماً كعفريت شرير ينوي القتل. كم هو حكيم ذلك القول الذي يذكرنا أن ليس ثمة ثبات في الاحلام. لابد أن ذلك من عمل الشيطان. هكذا جزم، مشيراً إلى طرد الأرواح الشريرة.الارتعاش الخاطف لطائر لا مرئي قد شق الهواء، ولربما ثمة راعٍ يطلق الصفير، ولكن ليس في مثل هذه الساعة، حين تنام القطعان وليس سوى الكلاب التي تقوم بواجب الحراسة. ولكن الليل الساكن والنائي عن كل المخلوقات والأشياء قد خدع تلك اللامبالاة الهائلة التي نوحدها مع الكون، أو تلك اللامبالاة الصارمة للفراغ الذي سيبقى، إن يكن ثمة شيء فارغ، وقد امتلأ كل شيء مرة واحدة. أهمل المساء المعنى والنظام العقلي الذي راح يهيمن على العالم في تلك اللحظات حين لا يزال بإمكاننا أن نؤمن أنه قد وجد كي نلجأ إليه ويلتجئ إليه جنوننا. وأمسى ذلك الحلم كاذباً وعبثياً، مطروداً من الليل، وبين القمر الساطع ومن حضور طفله النائم في المعلف. كان يوسف مستيقظاً وواعياً تماماً مثل أي رجل لنفسه ولأفكاره، تلك الأفكار الخيرة والمسالمة، وهي القادرة مع ذلك على توليد تهويلات مثل إقراره بالعرفان للرب لإنقاذ ولده الحبيب، مما لا شك فيه عن طريق التغاضي أو الاهمال، من قبل الجنود الذين قتلوا الكثير من الأبرياء. الليل ذاته يهبط على يوسف النجار وأمهات أطفال بيت لحم، متناسين آباءهم وحتى مريم للحظة، لأنهم لا يقومون بدور متميز هنا لسبب غريب. مرت الساعات بهدوء، وعند أول الضياء نهض يوسف، وراح ليضع الحمل على الحمار، مستفيداً من آخر أشعة للقمر قبل أن تتكشف السماء، لتكون العائلة بأكملها، يسوع ومريم ويوسف متعجلين في طريق عودتهم إلى الجليل.

في ذلك الصباح ذاته، جاءت العبدة سالوم إلى الكهف، متسللة من منزل سيدها حيث قتل رضيعان، وهي في قناعة أن القدر الحزين ذاته لابد أن يكون قد أطاح بذلك الطفل الذي ساعدت في أن يأتي إلى العالم. لكنها وجدت المكان مقفراً، لم يبق غير آثار أقدام وآثار حوافر الحمار وجمرات خامدة تحت الرماد... وليس ثمة بقع دم. قالت، لقد رحلوا، وفر يسوع الصغير من هذا الموت الأول.

مرت ثمانية شهور منذ اليوم السعيد الذي وصل فيه يوسف إلى الناصرة مع عائلته بأمان وسلامة، على الرغم من المخاطر الكثيرة، أقلها ما حصل للحمار، لأنه كان يعرج قليلاً من حافره اليمين، حين انتشرت الأخبار بأن الملك هيرودس قد مات في جيروكو، في أحد قصوره حيث التجأ هارباً من البرد القارس لأورشليم الذي لا يبقي على الضعفاء ولا العاجزين. وثمة أيضاً الشائعات التي تسللت مرة من بلاطه العظيم، أن المملكة توشك أن تقسم بين أبنائه الثلاثة الذين سلموا من جز الرقاب والدمار، وهم بالتحديد، هيرودس فيليب، الذي سيحكم المقاطعات التي تقع شرقي الجليل، وهيرودس آنتيباس، الذي سيرث الجليل والبيرية، وآركيلاوس، الذي سيحكم اليهودية والسامرة والأيدوميه. في أحد هذه الأيام مر أحد راكبي البغال من عابري السبيل من الذين يميلون لسرد القصص، الواقعي منها والمتخيل، وسيقدم وصفاً حياً لمراسم دفن هيرودس، التي سيقسم أنه قد شهدها. ولقد وضعت الجثة في تابوت هائل صنع من الذهب الخالص وطعم بالأحجار الكريمة ونقل على عربة طليت بالذهب وكسيت بقماش أرجواني وسحبت بثورين أبيضين. ولفت الجثة أيضاً بقماش أرجواني، وكل ما يمكن أن يرى هو هيكل بشري يستقر التاج على موضع الرأس فيه. في الخلف يتبعه الموسيقيون الذين يعزفون بأبواقهم والمعزون الرسميون الذين لم يتمكنوا من تجنب استنشاق الرائحة النتنة البالغة القوة، وبينما كنت أقف على جانب الطريق شعرت أيضاً بالغثيان، ثم جاء حرس الملك على ظهور الخيول، يتبعهم

المشاة المتسلحون بالرماح والسيوف والحراب وكأنهم سائرون إلى الحرب، قافلة لا تنتهي ماضية في طريقها المروع مثل أفعى دونما رأس أو ذيل. شاهدت أولئك الجنود مرتعباً، كانوا يسيرون على شكل قافلة خلف الجثة لكنهم كانوا يسيرون أيضاً إلى حتفهم، إلى الموت الذي سيطرق باب كل إنسان اليوم أو غداً. أزف وقت الرحيل، يأتي الأمر دون إبطاء للملوك والخدم سوية، لا يميز بين جثة نتنة عند أول القافلة أو أولئك الذين في المؤخرة منها المخنوقين بغبار الجيش بكامله، إنهم أحياء هذه اللحظة، لكنهم متجهون إلى مكان سيمكثون فيه إلى الأبد. من الواضح أن راكب البغلة هذا كان باحثاً أرسطوياً يتجول العواصم الكورنيثية كي يعثر على أكاديمية أكثر ما يكون سائق حمير على طرق إسرائيل، وينام في خانات عفنة ويحكي القصص للسذج مثل أولئك الناس من الناصرة.

كان يوسف من بين الناس المزدحمين في الساحة أمام الكنيس، إذ حدث أن كان ماراً من هناك وتوقف ليستمع. لم يهتم كثيراً لتفاصيل وصف قافلة الجنازة وسرعان ما فقد الاهتمام حين بدأ الشاعر بإلقاء مرثية، ذلك لأن التجربة قد جعلت النجار يشعر بحساسية شديدة إزاء نغمات القيثارة على الأخص. ما على الواحد إلا أن ينظر إليه ليتفحص ذلك الوجه. شيء واحد كان يجعله رابط الجأش، عندما يخفي حداثة سنه بأن يبدو هادئاً ومفكراً، والشيء الثاني هو تعبير المرارة الذي يشكل علامات من خطوط أعمق من الندب المفتوحة. لكن الذي يجعل وجه يوسف مضطرباً حقاً هي تلك العيون التي تبدو بلهاء ولا تعبير فيها سوى لمعان باهت من أثر الأرق. وذلك شيء صحيح لأن يوسف لا يكاد ينام. النوم هو العدو الذي يواجهه كل ليلة وكأنه يقاتل من أجل حياته، وهي معركة يخسرها حتماً، إذ حتى حين يبدو أنه انتصر وينام من أثر الإرهاق، فما أن يغمض عينيه حتى يرى فصيل الجنود يظهر

من لا مكان في الشارع، ويوسف نفسه يركب الجواد في وسطهم، وفي بعض الأحيان يلوح بسيفه فوق رأسه، وعند تلك اللحظة بالضبط، يبدأ الخوف بالاستيلاء عليه، يسأله قائد الحملة، أين تظن نفسك ذاهباً، أيها النجار، عند ذاك يقاوم الرجل المسكين، و يفضل السكوت، بكل ما بقيت له من قوة. لكن الأرواح الخبيثة في ذلك الحلم قوية جداً بالنسبة له إذ يفتحون فمه بقوة أيدٍ فولانية، ليجبروه على البكاء واليأس حتى يعترف، أنا في طريقي إلى بيت لحم كي أقتل ابني. لن نسأل يوسف إن يكن يتذكر كم من الثيران سحبت العربة التي تحمل جثة هيرودس أو فيما إذا كانت بيضاء أو مرقطة. وبينما هو متجه إلى البيت، علقت في ذهنه العبارات المكثفة في حكاية راكب البغل، عندما وصف الحشد الهائل الذي يراق الموكب من عبيد وجنود وحرس ملكي ومعزين رسميين وموسيقيين ورجال دولة وأمراء وملوك مستقبل وكل البقية منا، أياً ما نكن، ممن لا نفعل شيئاً في الحياة سوى البحث عن ذلك المكان حيث سنبقى إلى الأبد. وتأمل يوسف بكل المرارة التي لا تخطئ لمن فقد كل أمل، ليت ذلك كان صدقاً. ليت ذلك كان صدقاً، كرر لنفسه. مفكراً بكل أولئك الذين لم يغادروا أماكن ولادتهم أبداً وعلى الرغم من ذاك ذهب الموت إلى هناك ليعثر عليهم، وهذا ما يثبت أن القدر هو الحقيقة الوحيدة. إنه من السهل تماماً، يا إلهي العزيز، فلا نحتاج غير أن ننتظر أن يمتلئ كل شيء في الحياة كي نكون قادرين على أن نقول، لقد كان ذلك هو القدر. لقد قدر أن يموت هيرودس في جيروكو وأن ينقل على عربة إلى قلعة هيروديوم، لكن الموت استثنى أطفال بيت لحم من المغادرة إلى أي مكان. وتحولت رحلة يوسف، التي بدت أولاً كأنها جزء من خطة إلهية لإنقاذ أولئك الأبرياء المقدسين، إلى أن تكون رحلة لا جدوى منها. أصغى النجار ولم يقل شيئاً، بل هرع لإنقاذ ابنه وترك الآخرين يواجهون مصيرهم الرهيب، وليس ثمة أبداً أصدق من هذا التعبير. لهذا تعرف الآن سبب أرق يوسف.، وحين ينام فمن أجل أن

يصحو مهتاجاً مصدوماً بالواقع الذي لا يسمح له نسيان حلمه، لذلك فحتى في يقظته يحلم بالحلم ذاته الذي يطارد منامه ليلة بعد ليلة، وحين يكون نائماً، حتى حين يحاول يائساً أن يتجنبه، فهو يعرف أنه سيواجه ذلك الحلم مرة بعد مرة، ذلك لأنه يحوم على العتبة بين النوم واليقظة، ولابد ليوسف أن يواجهه في الدخول والخروج. وأفضل تعريف لحالة الاضطراب هذه هو الندم. ومع ذاك، فإن التجربة البشرية وممارسة التواصل قد بينا خلال العصور أن التركيب مجرد وهم، إلغاء للغة، أو تقريباً مثل خلل في الكلام مثل محاولة التفوه بالحب دون القدرة على نطق الكلمة، مثل امتلاك اللسان في الرأس والعجز عن قول الحب.

ها هي مريم حبلى مرة أخرى. لم يتخف ملاك على أنه شحاذ ليطرق الباب هذه المرة ويعلن وصول الطفل، وليس ثمة هبة ريح مفاجئة قد قامت بمسح جبال الناصرة، ولم يكتشف تراب مضيء في الأرض. أخبرت مريم يوسف بأبسط الكلمات، إنني حبلى. ولم تقل له، مثلاً، أنظر في عيني لترى كم يشع ابننا الثاني هناك، ولم يجب هو في هذه المرة، لا تظني إنني لم ألاحظ، كنت أنتظر منك أن تخبريني. أصغى فقط وبقي صامتاً، وقال في الأخير، آه، أهكذا الأمر، واستمر في سحج قطعة خشب بلامبالاة واضحة، لكننا نعرف بعد ذلك أن أفكاره كانت في مكان آخر. ومريم تعرف أيضاً، فمنذ ليلة العذاب تلك عندما أفشى زوجها السر الذي كان قد احتفظ به لنفسه، ولم تكن هي لتندهش، فقد كانت تتوقع شيئاً كهذا بعد أن قال لها الملاك في الكهف، ستحاطين بألف صرخة. الزوجة المخلصة كانت ستقول لزوجها، فلترحل وحدك، فما حدث قد حدث ثم أن واجبك الأول هو إنقاذ طفلك. لكن مريم تغيرت، ولم تعد تلك التي يشار إليها كالعادة بأنها زوجة مخلصة، ربما سمعت الملاك يتحدث بتلك الكلمات القاتمة التي من الواضح أنها لا تستّبعد أحداً، لست الملاك الذي يمنح الغفران. لو سُمح لمريم أن تناقش

تلك الأشياء الحميمة مع يوسف، المتضلع بأمور الكتاب المقدس، لكان قد استغرق في التفكير بطبيعة هذا الملاك الذي ظهر من لا مكان ليعلن أنه لا يمنح الغفران، الكلام الذي يبدو غير ضروري لأن الجميع يعلمون أن الله هو الوحيد الذي يغفر للناس. لذلك فأن يقول ملاك أنه لا يمنح الغفران فهذا إما أن يكون لا معنى له أو يكون عميق المعنى. ربما يكون ملاكاً حاكماً، الذي ربما يكون مستغرباً تماماً، تتوقع مني أن أغفر لك، أية فكرة بلهاء هذه، ليس من واجبي أن أغفر، أنا هنا فقط لأعاقب. ولكن الملائكة، حسب التعريف، إن وضعنا جانباً الملائكة الذين يحملون سيوف اللهب والواقفين إلى جانب الرب ليحرسوا شجرة الحياة حتى لا يعود والدينا الأولين أو نحن، أحفادهم، ونحاول سرقة الثمر، الملائكة كما كنا نقول، هم ليسوا أعضاء لجنة يعهد بالفاسدين إليهم بل هم تعزيز اجتماعي ضروري للكبح. وجد الملائكة ليجعلوا حياتنا أسهل، إنهم يحموننا عندما نوشك على السقوط في بئر، يعينوننا على عبور الجسر فوق شفا الكارثة، يسحبوننا إلى حيث الأمان كأننا نوشك أن نسحق من قبل عربة شاردة أو سيارة مسرعة فلتت منها الفرامل. الملاك الذي يستحق الاسم كان من الممكن بسهولة أن يوفر على يوسف كل ذلك العذاب، وأن يظهر ببساطة في الحلم لآباء الأطفال في بيت لحم ليحذرهم، خذ زوجتك وطفلك واهرب إلى مصر وابق هناك حتى أخبرك بيوم العودة، لأن هيرودس ينوي قتل ابنك. وبهذه الطريقة يكون كل أولئك الأطفال قد أنقذوا، ويكون يسوع مختبئاً بعيداً في الكهف مع والديه، والآخرون في طريقهم إلى مصر حيث سيبقون حتى يعود الملاك ذاته ليخبرهم ويطمئنهم، خذ زوجتك وطفلك وعد إلى إسرائيل، فأولئك الذين حاولوا قتل أطفالك قد ماتوا. بهذه الطريقة من التحذير كان الملاك سيتأكد أن الأطفال قد عادوا إلى الأماكن التي جاؤوا منها، وحيث كانوا سيقابلون في الأخير موتهم في الساعة الموقوتة، ذلك لأن الملائكة، مهما كانوا أقوياء، فلهم حدودهم مثل الرب تماماً، ولا يمكنهم رد الموت.

وبعد تفكير طويل ربما توصل يوسف إلى خلاصة أن الملاك الذي ظهر في الكهف كان مخلوقاً جهنمياً، وكيلاً للشيطان متخفياً هذه المرة بهيأة راعٍ، وهو برهان آخر على ضعف وسذاجة النساء، اللائي من الممكن أن يتضللن بملاك ساقط. لو تمكنت مريم من الكلام، لو كانت أقل كتماناً ومستعدة للبوح بتفاصيل عن ذلك الظهور الغريب، لكانت الأشياء ستختلف، وكان يوسف سيستخدم حججاً أخرى ليعزز نظريته، والشيء الحاسم أكثر، هي الحقيقة بأن ذلك الذي يسمى ملاكاً لم يدع، أنني ملاك من الرب، او، أنني جئت باسم الرب. لقد قال ببساطة، أنا ملاك، قبل أن يضيف بحذر، احتفظي بذلك لنفسك، وكأنه يخشى أن يعلم شخص آخر بالأمر. قد يناقش شخص ما أن تلك التفاصيل الصغيرة لا تضيف جديداً لفهمنا لتلك القصة التي باتت معروفة جداً، ولكن فيما يتعلق بهذا الراوي، فمن الضروري معرفة فيما إذا جاء الملاك من السماء أم من الجحيم عند تفسير أحداث الماضي والمستقبل. بين ملائكة النور والظلام ثمة اختلافات ليست في الشكل فقط بل في الجوهر أيضاً، وفي المادة والمحتوى، وبينما يكون من الصحيح أن من خلق الأولى قد خلق التالية فلابد أنه حاول أن يصحح خطأه لاحقاً.

تبدو مريم غالباً، مثل يوسف، ومن الواضح لأسباب مختلفة، مذهولة، فتعابيرها شاحبة، تسقط يداها بإرهاق، حركاتها تضطرب فجأة، وتحدق في البعيد، وذلك شيء ليس غريباً لامرأة في حالتها، وخصوصاً بالنسبة للأفكار التي تشغل بالها والتي يمكن أن تلخص بتغيرات لا حدود لها في السؤال التالي، لماذا أعلن الملاك نبأ ولادة يسوع، ولم يقل شيئاً عن هذا الطفل الثاني. تنظر مريم إلى وليدها الأول وهو يزحف على الأربع كباقي الأطفال الذين في عمره، فتتفحصه وتحاول أن تدرك الميزة الخاصة، إشارة أو علامة، نجمة على جبينه، إصبع سادس في يده، ولكن كل ما تراه هو طفل كالآخرين، يسيل لعابه ويتسخ ويصرخ،

الاختلاف الوحيد، كونه ابنها، الذي شعره أسود مثل شعر والديه، أن القزحيتين في عينيه فقدتا من قبل ذلك البياض الخفي الذي يوصف على نحو غير دقيق بالأبيض الحليبي، وأتخذتا لونهما الطبيعي، البني الداكن الذي جاء بالوراثة، والذي يتحول تدريجياً إلى الأخضر المعتم ما إن يبتعد عن البؤبؤ، إن يكن بالإمكان وصف النوعية اللونية، بيد أن هذه المميزات لا تكاد تكون متفردة وهي مهمة فقط حين ينتمي الطفل إلينا او، كما في هذه الحالة، إلى مريم. خلال أسابيع سيقوم هذا الطفل بأولى محاولاته في الوقوف والمشي، وسيسقط على يديه لمرات لا تعد، ويبقى محدقاً أمامه، رافعاً رأسه ببعض الصعوبة وهو يسمع أمه تقول، تعال إلى هنا، تعال إلى هنا يا ولدي. ثم يبدأ بالاحساس الباعث للكلام، ستتشكل الأصوات في حنجرته ولن يعرف في البداية ما الذي سيفعله إزاء هذه الأصوات، سيخلطها مع الأصوات التي يعرفها من قبل ويقوم بمثل القرقرة والصراخ، حتى يدرك أنها لابد أن تنطق بطريقة مختلفة ومضبوطة، وسيحرك شفتيه مثل أبيه وأمه حتى ينجح في نطق أول كلمة له التي ربما تكون دا أو دادا أو دادي، أو ربما حتى مامي، لكن ما نعرفه أن يسوع الصغير لن يتحتم عليه منذ الآن أن تقع سبابة يده اليمنى في راحة يده اليسرى لو أن أمه وجاراتها سألنه لمرات عديدة، أين تضع الدجاجة بيضتها. هذه إهانة أخرى من الإهانات التي يخضع لها الإنسان، بأن يعامل مثل كلب الحضن ويدرب كي يستجيب لأصوات معينة، مثل نغمة صوت أو صافرة أو طقطقة حلوى. الآن بإمكان يسوع الإجابة بأن الدجاجة تستطيع أن تضع البيضة أينما ترغب ما دامت لا تضعها في راحة يده. تنظر مريم إلى ولدها الصغير وتتنهد، مكتئبة إذ ليس ثمة احتمال بعودة الملاك. لقد أخبرها، لن ترينني ثانية إلا بعد مدة، ولكنه لو حدث وظهر الآن فلن تخشاه كما في المرات السابقة، بل سوف تمطّره بالأسئلة حتى يجيبها. فبعد أن أصبحت مريم أماً وتنتظر ولادة طفلها الثاني، لم تعد ذلك الحمل البريء لقد تعلمت بثمن باهض ما تعنيه

المعاناة والأخطار والقلق، وبكل تلك التجربة التـي خبرتها بإمكانهـا الآن بسهولة أن تجعل الموازنة لصالحها. فلن يكفيها أن يجيب الملاك، ليت الرب لا يسمح لك برؤية طفلك كما ترينني الآن حيث لا مكان لـي أضجع فيه رأسي. أولاً، سيكون على الملاك أن يحدد هوية ذلك الرب الذي يدعي أنه يتكلم باسمه، وثانياً، عليه أن يقنعها أنه كان يقول الحقيقة عندما قال انه لا مكان لـه يضجع فيه رأسـه، التـي بدت غير محتملة لملاك، ما لم يكن يقول ذلك فقط حين يقوم بدور الشحاذ، وثالثاً، ما الـذي كانت تتبئ به للمستقبل تلك الكلمات المهددة القاتمة التي كان قد نطق بها، وأخيراً، ما هو الغموض الذي يحيط بذلك التراب المضيء المدفون قرب الباب، حيث نمت نبتة غريبة بعد عودتهم من بيت لحم، لا شـيء فيها غير ساق وأوراق والتي كفوا عن تشذيبها بعد أن فشلوا فـي قلعها من جذورها، بعد أن وجدوا إنها تعود لتظهر من جديد بقوة أشد. جاء اثنان من الكنيس، زاكيوس ودوثان ليتفحصا هذه الظـاهرة، وعلى الرغم من أنهما يعلمان القليل عن علم النبات، فقد اتفقا أن البذرة لابد أن تكون قد امتزجت مع التربة العجيبة ثم ظهرت في اللحظة المناسبة، إذ كما لاحظ زاكيوس، هكذا يكون ناموس الحياة عند الرب. وحين اعتادت مريم على تلك النبتة العنيدة رأت أنها قد أضافت لمسة احتفالية عند مدخل المنزل، بينما استمر يوسف في ريبه واضطـر لتغيير طاولـة نجارتـه إلـى مكان آخر في الباحة كي لا يضطر إلى النظـر إلـى ذلـك الشـيء النحس. بعد المحاولة الفاشلة في قطعها بالفأس والمنشار، صب عليها مـاءً مغلياً بل حتى نثر جمرات مشتعلة حول الساق، لكن إيمانه الغيبي منعه من تنـاول مجرفة وإخراج إناء التراب المضيء الذي سبب الكثير من المتاعب. هكذا كانت الأحوال عند ولادة ابنهما الثاني الذي أسمياه يعقوب.

بعد سنوات قليلة لم تحدث تغيرات مهمة في العائلة عدا ولادة المزيد من الأطفال، بضمنها بنتان، بينما فقد الأبوان آخر آثار الشباب. فيما

يتعلق الحال بمريم لم يكن ذلك غريباً، لأننا نعلم ظروف الحمل، وقد ولدت الكثير من الأطفال، تستنزف الحيوية والجمال اللذين قد تمتلكهما المرأة وتسبب شيخوخة وجهها وجسدها وذبولها، يكفي أن نقول أن بعد يعقوب جاءت ليزا، وبعد ليزا جاء يوسف وبعد يوسف جاء يهوذا، وبعد يهوذا جاء سمعان، ثم ليديا، ثم جوستس، ثم إسماعيل، وإن جاء أي أحدٍ بعدهم كانوا يهلكونه دونما أثر. الأطفال هم مسرة وفرح الوالدين، هكذا يقول المثل، وفقد قامت مريم بأقصى ما تستطيع لتبدو قانعة، ولكن بعد حمل كل تلك الثمار لشهور عديدة والتي استهلكت قوتها، قد شعرت غالباً بنفاد الصبر والامتعاض، ولكن في تلك الأيام لم يحدث لها أبداً أن لامت يوسف، ناهيك عن الرب العظيم الذي يحكم بالحياة والموت لمخلوقاته ويؤكد لنا أن كل شعرة في رأسنا معدودة. لا يملك يوسف فهماً واضحاً عن أسباب ودواعي إنجاب الأطفال، وبعيداً عن المبادئ العملية التي تحيل كل الألغاز إلى حقيقة واضحة واحدة، هي بالتحديد، إن تلاقى رجلاً وامرأة معاً، في كل الاحتمالات سوف تلقح المرأة وبعد تسعة أشهر، وفي النادر بعد سبعة أشهر، يولد طفل عندما تنفك بذرة الذكر في رحم الأنثى تنقل الكائن الصغير الذي لا يرى بالعين باختبار من الرب من أجل أن يمد العالم الذي خلقه بالبشرية. ولكن مع ذلك فإن هذا الفشل أحياناً، وتكون حقيقة هذا الانتقال لبذرة الذكر في رحم الأنثى التي هي الشيء الأساسي غير كافية في جميع الأحوال لخلق طفل، وهذا شاهد آخر على الطبيعة المستغلقة لتصاميم الرب. وإذ تسمح القوانين للبذور بأن تبذر على الأرض، كما حدث مع أونان غير المحظوظ، الذي عاقبه الرب بالموت عندما رفض أن يمنح أرملة أخيه أطفالاً، فإنها تبعد أية إمكانية للمرأة بأن تحمل، بل تعيدها مرة بعد أخرى، كما قال المثل، ذهب الإبريق إلى النبع وانتظر حتى نفد الماء ثم عاد فاضياً. فقد ثبت أن الرب هو الذي وضع إسحاق في المني القليل، الذي كان إبراهيم لا يزال قادراً عليه، والرب هو الذي سكبه في رحم سارة، لأنها بصراحة لم تعد

قادرة على احتواء الأطفال، وقد نستخلص من خلال الملاك اللاهوتي، دون أن نهين المنطق، الشيء الذي لابد أن يعلو فوق كل شيء في هذا العالم وكل عالم، أن الرب ذاته كان دائماً ما يحث يوسف على مضاجعة مريم كي يكون لهما أطفال كثيرون ويساعده، بذلك على تهدئة الندم الذي ظل يطارده منذ أن سمح، أو رغب في ذلك، دون تقدير للعواقب، بتلك المذبحة لأولئك الأطفال الأبرياء في بيت لحم. ولكن أغرب الأشياء كلها، والتي تبين أن تصاميم الرب ليست مبهمة فقط بل هي أيضاً مربكة، أن يوسف، في لا شعوره، قد آمن أنه كان يتصرف طوعاً ومطيعاً رغبة الرب، حين سعى بأقصى ما يمكنه لأن ينجب المزيد المزيد من الأطفال كي يعوض عن كل أولئك الذين قتلوا من قبل جنود هيرودس كي يتطابق العدد في الإحصاء التالي. كان ندم الرب وندم يوسف واحداً متطابقاً،وكان الناس في تلك الأيام متآلفين مع التعبير: إن الرب لا ينام، فنحن نعرف الآن أنه لا ينام أبداً لأنه اقترف ذنباً لا يغتفر لرجل. كان الرب يرفع رأسه مع ولادة كل طفل ليوسف، ولكن لن يكون بإمكانه أن يرفعه تماماً، لأن سبعة وعشرين طفلاً قد ذبحوا في بيت لحم ولن يعيش يوسف المدة الكافية ليلقح امرأة واحدة بالكثير من الأطفال، وأن مريم المتهالكة روحاً وجسداً، لا يمكن لها أبداً أن تتحمل ذلك العدد من الإنجاب. كان منزل وباحة النجار مليئين بالأطفال ورغم ذاك فقد يكونان أيضاً فارغين.

عند بلوغ ابن يوسف الخامسة بدأ في الذهاب إلى المدرسة. في كل صباح تأخذه أمه إلى الكنيس وتتركه ليتعهد به المشرف على تعليم المبتدئين. وهناك في مدرسة الكنيس تلقى يسوع وأقرانه الصغار من الناصرة ممن هم دون العاشرة من العمر وصية الرجل الحكيم، لابد للطفل أن يتعلم بالتوراة كما يتربى الثور في الزريبة. انتهى الدرس في الساعة السادسة التي نشير إليها الآن منتصف النهار. وستكون مريم في

انتظار طفلها إذ لم يسمح للمرأة المسكينة بأن تسأله كيف كان يعود، فحتى مثل هذا الحق البسيط حرمت منه، فوفقاً لما يصرح به مبدأ الرجل الحكيم على نحو بات، لو تحتم أن يحرق الناموس بالنار أفضل من أن يثق بالنساء. بالإضافة إلى ذلك، فلو حدث بالمصادفة أن يسوع الصغير قد تعلم من قبل الحالة الحقيقية للنساء في هذا العالم، وبضمنهن الأمهات، فلربما كان سيضطر إلى أن يرد عليها بالجواب الخاطئ، وهو نوع الجواب الذي يمكن أن يعيد أي أحد إلى التفاهة. لو أخذنا هيرودس، على سبيل المثال، مع كل تلك الثروة والسلطة، و استطعنا رؤيته الآن ما كنا لنقول انه ميت ويتفسخ، لأنه ليس غير تراب وغبار وعظام ورقع بالية. عندما وصل يسوع إلى البيت، سأله أبوه، ما الذي تعلمته اليوم، ولأن يسوع وهب ذاكرة فريدة، فقد أعاد عليه دروس اليوم كلمة بكلمة دون لحظة تردد واحدة. لقد تعلموا في البداية حروف الألفباء، ثم الكلمات الأكثر أهمية وفي الأخير جملاً كاملة ومقطوعات من التوراة التي رافقه فيها يوس، وهو ينقر إيقاعها بيده اليمنى ويهز رأسه ببطء. نظرت إليهما مريم وهي تقف جانباً وتعلمت أشياء لم يُسمح لها أبداً بأن تطلب تعلمها مناورة ذكية من بين النساء وبارعة حد الكمال عبر العصور. فحين يمنعن من اكتشاف تلك الأمور بأنفسهن يسترقن السمع وفي الحال يتعلمن كل شيء، إلى أقصى ما يمكن معرفته من اختلاف بين الصدق والكذب، وتلك أبلغ كلمة. ولكن الذي لم تفهمه مريم، أو تفهمه إلى حد كاف، هو العقد الغامض بين زوجها ويسوع، على الرغم من أن حتى القريب كان سيلاحظ تلك النظرة الرقيقة والحزينة على محيا يوسف عندما كان يتكلم إلى ولده الأول وكأنه كان يفكر في نفسه، ولدي الحبيب هذا هو حزني. كل ما عرفته مريم أن كوابيس يوسف، ترفض هجرانه وكأنها سوط على روحه، وتلك المصائب الليلية قد ازدادت الآن حتى أنها أصبحت عادة مثل النوم على الجنب الأيمن أو الاستيقاظ ظمآناً عند منتصف الليل. أما مريم، فلأنها زوجة طيبة وتحترم واجبها، فقد كفت

عن القلق بشأن زوجها، لأن الشيء الأهم لها هو أن ترى ابنها في صحة وحيوية، وتلك علامة على أن جريمة يوسف ليست بتلك الخطورة وإلا لكان الرب قد عاقبه دونما رحمة، كما هي عادته. خذ مثلاً قضية أيوب، الذي تحطم وأصيب بالجذام لكنه ظل نزيهاً دائماً ومستقيماً ويخشى الرب، وينحصر سوء طالعه لأنه أصبح السبب الإلزامي للجدل بين الشيطان والرب ذاته، كلاهما متشبث بعناد بأفكاره وتفوقه المميز. وبعد ذلك اندهشا أن على الإنسان أن ييأس ويطلب الغوث منادياً، فَلْيَفْنَ النهار الذي ولدت فيه والليل الذي حُملت فيه، ليت ذلك النهار تحول إلى ظلام ويلغى من التقويم، وليت ذلك الليل أمسى عقيماً ومجدباً من كل سعادة. صحيح أن الرب قد كافأ أيوب بأن أعطاه ضعف ما كان يملك، ولكن ماذا عن أولئك الناس الذين لم يكتب بشأنهم كتاب، الذين سلبوا كل شيء ولم يمنحوا شيئاً، لم يحصلوا إلا على وعود لم تتحقق. ومع ذلك فإن الحياة كانت مطمئنة في منزل النجار، وعلى الرغم من زهد حياتهم، كان ثمة دائماً خبز على المائدة وطعام يكفي لحفاظ الروح والجسد معاً. أما من ناحية الممتلكات فالذي كان يجمع بين يوسف وأيوب هو عدد الأولاد. فكان لأيوب سبعة أولاد وثلاث بنات، بينما ليوسف سبعة أولاد وبنتان، مانحاً النجار فائدة نقصان امرأة واحدة من العالم. على أية حال، فقبل أن يضاعف الرب ممتلكات أيوب، كانت له سبعة آلاف من الخراف وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة نير من الثيران وخمسمائة حمار، ناهيك عن عدد العبيد الذين كان لديه الكثير منهم، بينما لم يملك يوسف إلا حماراً واحداً. ومما لا شك فيه، أن إطعام فمين ثم ثالث، حتى ولو كان ذلك على نحو غير مباشر خلال السنة الأولى، شيء مختلف تماماً إذ يجد الإنسان نفسه مرهقاً بأطفال يملأون المنزل ويتطلبون الكثير الكثير من الطعام ما إن يبدأوا بالنمو. ولأن إيرادات يوسف لم تكن كافية لأن يؤجر عاملاً، فكان من الطبيعي أن يجعل أطفاله يعملون معه، بالإضافة إلى ما يدعوه واجب الأبوة إليه،

إذ كما يقول التلمود، مثلما يتحتم على الرجل أن يغذي أطفاله، عليه أيضاً أن يعلمهم العمل، وإلا سيحول أبناءه إلى أناس لا جدوى منهم. ولابد أن يوضع في البال الفكرة المحسوسة لدى الحاخامات بأن على الحرفي أن لا يفكر أبداً أنه قليل الشأن إزاء أعظم الدارسين، فلنا أن نتخيل كيف أن يوسف بدأ يعلم أولاده الواحد بعد الآخر مفتخراً، بعد أن كبروا، يسوع أولاً، ثم يعقوب. بعد ذلك يوسف ولحقه يهوذا، راح يعلمهم أسرار مهنة النجارة، متذكراً دائماً المثل القديم، أن عون الطفل ضئيل، ولكنه يكون أقل حماقة في ازدرائه. وبعد أن عاد إلى العمل بعد تناول وجبة الغداء، ساعده أولاده، ليكون مثالاً طيباً للاقتصاد المنزلي، قادرون على إنتاج سلالة كاملة من النجارين للأجيال القادمة، لو أن الرب بحكمته لم يقدر سوى ذلك.

لكأن الإذلال الذي أصاب السلالة العبرانية لأكثر من سبعين عاماً لم تكن كافية لإقناع غرور الإمبراطورية الرومانية التي لا حياء لها فقررت عصرنة الإحصاء السابق مستخدمة تقسيم المملكة السابقة لهيرودس ذريعة. وفي هذه المرة، على أية حال، لا يتحتم على الرجال أن يسجلوا في أماكن ولادتهم، وذلك ما يجعلهم يتجنبون التأثير السيئ على الزراعة والتجارة وكل تلك الجيشانات التي شهدناها في السابق، كما في حالة يوسف وعائلته. يقر القانون الجديد على أن موظفي الإحصاء بعملهم من قرية لقرية، ومن مدينة صغيرة لمدينة صغيرة ومن مدينة كبيرة لأخرى مثلها حيث يستدعون كل الناس، مهما كانت حالتهم، إلى الساحة الرئيسية أو إلى حارة مناسبة مفتوحة للهواء الطلق حيث تقيد أسماؤهم ومهنهم والثروة الخاضعة للضريبة في سجلات كبيرة وبحماية الحراس. الآن لابد من القول أن مثل هذه الإجراءات لم تلاق أي ترحيب في هذا الجزء من العالم، وهذا ليس شيئاً جديداً، إذ يحكي الكتاب المقدس عن ذلك القرار المشؤوم للملك داود عندما أمر قائد جيشه يوآب بأن يقوم بإحصاء لبني إسرائيل ويهوذا فأصدر له الأمر بالكلمات التالية، اذهب عبر كل قبائل إسرائيل من دان إلى بئر السبع وأحص عدد الناس ولأن الأمر الملكي لا يناقش أبداً، فإن يوآب أسكت شكوكه، فجمع جيشه وانطلق ينفذ أمر الملك. وبعد تسعة أشهر وعشرين يوماً عاد يوآب إلى أورشليم بنتائج الإحصاء الذي حُسب باعتناء وتأكدوا من دقته. في إسرائيل كان ثمة ثمانمائة ألف جندي مسلح وخمسمائة ألف

في يهوذا. ونحن نعلم جميعاً أن الرب لا يحب أن يغتصب أي أحد سلطته، خصوصاً عندما يحصل ذلك للناس الذين اختارهم هو والذين لا يسمح لهم أبداً بأن يحكموا من قبل أي إله آخر أو سيد، وأدنى ذلك كله من قبل روما، التي تحكم من قبل آلهة ورجال مزيفين، أولاً لأن مثل هؤلاء الآلهة لا وجود لهم، وثانياً لأن الغرور المجرد لتلك الديانة الوثنية يعمل فقط على عرض الكذب لأتباعها. ولكن دعونا ننسى روما للحظة ونعود إلى الملك داود الذي غطس قلبه في اللحظة التي بدأ فيها قائده بقراءة تقريره، ولكن كان الوقت قد فات كي يشعر بالأسف واعترف، أنني اقترفت ذنباً، ولكن أتوسل إليك، يا إلهي، فلتسامح خادمك الذليل على حماقته. وفي الصباح التالي، جاءه النبي جاد، الذي كان، في مسألة التكلم، كاهن الملك والوسيط بين الملك والرب العظيم بينما كان داود ناهضاً وقال له، يرغب الإله الطيب أن يعرف فيما إذا كنت تفضل ثلاث سنوات من المجاعة على الأرض، أو ثلاثة أشهر من الاضطهاد بأيدي أعدائك، أو ثلاثة أيام من الطاعون عبر البلاد. ولم يتساءل داود عن عدد الناس الذين سيموتون في كل حالة، إذ خمن أن في ثلاثة أيام، حتى مع الطاعون، فإن الناس الذين سيموتون سيكونون أقل من الحرب أو الجوع في ثلاثة سنين. لذلك صلى، يا مشيئة الرب، فليكن الطاعون. فبعث الرب الطاعون ومات سبعمائة رجل، ناهيك عن عدد النساء والأطفال الذين لم يسجلوا. بعدها وافق الرب على إخماد الطاعون ليكون له مذبحاً عوضاً عن ذلك، لكن الموتى كانوا موتى، إما أن يكون الرب قد نسيهم، أو ربما كان من غير المقنع أن يبعثوا من جديد، لأننا من الممكن أن نفترض بثقة أن عدداً لا محدود من الورثة والانقسامات في الممتلكات قد نوقشت من قبل وفندت ، إذ لا سبب يدعو شعب الله المختار لأن يتنصلوا من الممتلكات الدنيوية التي تعود إليهم شرعاً، سواء كسبوها بعرق جبينهم، أو برفع دعوى قانونية أو كونها غنائم حرب. فالنتيجة هي الأهم.

ولكن قبل أن نصدر حكماً على الإنسان والأفعال الإلهية، علينا أيضاً أن نضع في أذهاننا أن الرب، الذي لم يدخر وقتاً في أن يجعل داود يدفع ثمن غلطته، يبدو الآن وكأنه غير منتبه للإذلال الذي تكيله روما على أطفاله المختارين وعلى اسمه وسلطته. الآن، عندما يحدث شيء مثل هذا، أي عندما يتضح أن الرب لا يبدي أية علامة في الظهور، فلا يكون للإنسان أي خيار آخر إلا أن يضع نفسه في مكان الرب، بأن يتخلى عن منزله ويعيد النظام إلى عالمنا القديم المسكين هذا الذي يعود إلى الرب. بعد ذلك، وكما أسلفنا القول، فإن أولئك المراقبين كانوا يتبخترون فيما حولهم بكل غرور الذين آلت السلطة إليهم، مدعومين من قبل الحرس العسكري، وهو تعبير قد يكون استعارة مضللة تعني ببساطة أن الجنود كانوا يحمونهم من الإهانات والاعتداء ما أن يبدأ الناس في الجليل أو اليهودية بالتمرد. وكي يختبر بعض الناس قوتهم، احتجوا في البداية، ثم تدريجياً جعلهم اليأس أكثر عدوانية وتحدياً ، فقد ضرب حرفيّ طاولة المراقب بقوة وأقسم أنهم لن يتمكنوا من أخذ اسمه، والتجأ تاجر إلى خيمته مع عائلته كلها وهدد بأن يحطم كل شيء ويقطع ثيابه كلها، وأضرم فلاح النار في الحصاد وجلب سلة رماد قائلاً، هذا هو المال الذي ستدفعه إسرائيل لأولئك الذين ينلونها. ألقي القبض على أولئك المشاغبين في الحال، وألقوا في السجن، ليجلدوا ويهانوا، ولكن لأن المقاومة البشرية لها حدودها، ولأننا مخلوقات هشة، فسرعان ما خانتهم شجاعتهم، فقد كشف الحرفيّ أغلب أسراره الخاصة على نحو مخز، وصار التاجر مستعداً للتضحية بالعديد من بناته بالإضافة إلى دفع الضرائب، أما الفلاح فقد غطى نفسه بالرماد وعرض نفسه ليكون عبداً. القليلون الذين قاوموا أعدموا بينما الآخرون، الذين تعلموا منذ وقت طويل أن الغازي القوي هو الميت أيضاً، فقد حملوا أسلحتهم وهربوا نحو الجبال. والأسلحة المقصودة هي الأحجار والمقاليع والعصي والهراوات والنبوتات وبعض الأقواس والسهام، وهي لا تكاد تكفي للبدء

بانتفاضة، والسيف الوحيد أو الرمح يسلب في المناوشات السريعة، ولكنه من غير المحتمل أن يكون قد قدم الكثير من الفائدة، ذلك لأنهم قد اعتادوا منذ عهد داود على الأسلحة البدائية للرعاة الرابطي الجأش أكثر ما اعتادوا على أسلحة المحاربين المدربين. على أية حال، فيما إذا كان الرجل يهودياً أم لا، فهو متكيف للحرب أكثر من السلم، خصوصاً إذا وجد قائداً يشترك معه في تطلعاته. بدأ هذا العصيان ضد الرومانيين عندما بلغ الابن الأول ليوسف الحادية عشرة، وقد قاده رجل يدعى يهوذا الذي جاء من الجليل وسمي لذلك بيهوذا الجليلي أو يهوذا من الجليل. هذا الأسلوب البسيط في تسمية الناس كان شائعاً في ذلك الوقت، كما نرى من أسماء مثل يوسف من أريماثيا، وسمعان من سيرين أو السريني ومريم المجدلية أو مريم من مجدلة. ولو أن ابن يوسف قد عاش وازدهر، لكان من أرجح الاحتمالات قد سمي يسوع من الناصرة أو الناصري، أو ربما شيئاً آخر أكثر بساطة. ولكن هذه حالة بسيطة ولابد لنا أن لا ننسى أبداً أن القدر مثل صندوق جواهر لا مثيل له، مفتوح ومغلق في الوقت ذاته. بإمكاننا أن ننظر ونرى كل ذلك الذي يحدث، تحول الماضي إلى قدر حادث، ولكن لا سبيل لنا لرؤية المستقبل، بعيداً عن المعرفة السابقة المتفردة أو الحدس كما في حالة هذا الإنجيل الذي لم يكن ليكتب لولا تلك العلامات المذهلة التي تنبيء بقدر أعظم ربما من الحياة ذاتها. ولكن إن عدنا إلى ما كنا نقوله، إن يهوذا الجليلي يجري التمرد في دمه. فأبوه، العجوز حزقيا قد اشترك في الثورات الشعبية التي نشبت ضد وارثي هيرودس المزعومين بعد موته وقبل أن تعترف روما بتقسيم المملكة والسلطة للأمراء الأربعة الجدد. وهذه الأمور بعيدة عن إدراكنا ذلك لأننا بينما نكون جميعاً من المادة البشرية ذاتها، اللحم ذاته والعظام والدم والجلد والضحك والدموع والعرق فإن البعض منا يكونون جبناء والآخرين أبطالاً، البعض منا عدائيون والآخرون سالمون. المادة ذاتها التي استخدمت لخلق يوسف قد خلقت يهوذا ايضاً، وبينما أورث

الأخير لبنيه التعطش للحرب الذي ورثه عن أبيه، وضحى بالوجود المسالم من أجل الدفاع عن حقوق الرب، فقد بقي يوسف النجار في بيته مع أطفاله التسعة الصغار مع أمهم، مقيداً إلى مقعد عمله ليكسب عيشه ويوفر الطعام لعائلته. ولأن لا أحد يمكنه الجزم من سينتصر غداً، البعض يقول الرب، وآخرون يقولون لا أحد، فرضية مقنعة كالأخرى لأن الحديث عن الأمس واليوم وغداً هو ببساطة أن تمنح أسماءً مختلفة للوهم ذاته.

لكن الرجال من قرية الناصرة، أغلبهم من الشباب، من الذين ذهبوا للالتحاق بجيش عصابات يهوذا الجليلي، قد اختفوا تقريباً دونما أي إنذار، لقد تلاشوا ببساطة دونما أثر بين لحظة وأخرى، وقد أقسم أهاليهم على الكتمان، وكان ذلك الكتمان منضبطاً بوضوح حتى أن لا أحد قد حلم بالتساؤل، أين ناثانيال، لم أره لعدة أيام، إن لم يظهر ناثانيال في الكنيس أو بين الحاصدين في الحقول، فكل ما في الأمر أن ثمة رجلاً مفقوداً بينما يستمر الآخرون في عملهم كأن لم يكن ثمة وجود لناثانيال أبداً، ولكن ليس تماماً، لأن البعض يعرف أن ناثانيال قد شوهد يدخل القرية تحت جنح الظلام وغادرها ثانية قبل الفجر. العلامة الوحيدة على وصوله ومغادرته هي الابتسامة على وجه زوجته. ابتسامة من الممكن أن تكشف بوضوح، وقد تقف امرأة محدقة في الفراغ، باتجاه الأفق أو باتجاه جدار أمامها، ثم تبتسم فجأة، ابتسامة بطيئة حالمة، مثل صورة تظهر للسطح وتتهادى على مياه مضطربة، لابد أن يكون المرء أعمى لو صدق أن زوجة ناثانيال قد قضت الليل دون زوجها. والطبيعة البشرية فاسدة جداً حتى أن بعض النساء، اللائي لم ينفصلن أبداً عن أزواجهن، رحن يتنهدن وهن يحاولن تخيل تلك اللقاءات غير المتوقعة ويحوّمن حول زوجة ناثانيال مثلما يحوم النحل حول زهرة مليئة باللقاح. أما وضع مريم فمختلف، فهي وسط تسعة أطفال يحتاجون إلى الرعاية

و زوج يقضي لياليه يتقلب في فراشه من الكرب والرعب، وغالباً ما يوقظ الصغار ويخيفهم حتى يفقدوا الصواب. لكنهم تعودوا على ذلك بعد مدة من الزمن، إلا الولد الكبير، الذي تضطرب أحلامه ببعض الحضور الغامض، فقد كان مستيقظاً دائماً، وكان يسأل أمه في البداية، ما الذي حصل لأبي، وكانت هي تتجنب الإجابة، مطمئنة إياه، إنه كابوس ليس إلا. لم تكن تستطيع أن تخبر ولدها، لقد حلم أبوك أنه كان يسير مع جنود هيرودس على الطريق المؤدي إلى بيت لحم. من هيرودس؟ إنه والد الملك الآن. ألهذا كان يتميز غيظاً ويصرخ؟. أجل لهذا السبب. لا أفهم كيف تأتي الكوابيس لأحد يكون جندياً لملك ميت. لم يكن أبوك أبداً واحداً من جنود هيرودس، لقد كان نجاراً طوال حياته العملية. فلماذا إذن تأتيه الكوابيس. لا يختار الناس أحلامهم. الأحلام تختار الناس، لم أسمع أحداً يقول هذا، ولكن لابد أن تكون الأمور هكذا. وماذا عن كل ذلك الغيظ والأنين يا أماه. ذلك لأن أبيك يحلم أنه ذاهب في طريقه كي يقتلك. من الواضح أن مريم ما كانت تسمح لنفسها أن تقول تلك الأشياء أو أن تكشف عن سبب الكابوس الذي يطارد زوجها إلى يسوع الذي هو، مثل إسحاق ابن إبراهيم، قد أعطي دور الضحية الذي هرب، ولهذا أدين بشدة. في أحد الأيام وهو يساعد أباه في صناعة باب، استجمع يسوع قوته وسأله. وبعد توقف طويل ودون أن يرفع يوسف عينيه قال له، يا ولدي، أنت مدرك لواجباتك والتزاماتك، فنفذها وستكون مرضياً عليك في عيون الرب، ولكن اختبر ضميرك واسأل نفسك إن تكن هناك واجبات والتزامات أخرى تنتظر منك تنفيذها. أهذا ما تحلم به يا أبي. كلا، إنني أخشى أن أكون قد نسيت واجباً ما أو فعلت ما هو أسوأ وهو سبب أحلامي. ما الذي تقصده بالأسوأ. لم أفكر به. والحلم ذاته. الحلم هو الفكرة التي لم أفكر فيها عندما حري بي أن أفكر فيها، وهي الآن تطاردني ليلة بعد ليلة ولا أستطيع نسيانها.وما الذي كان حري بك أن تفكر فيه. حتى أنت ليس من حقك أن تسألني كل هذه الأسئلة، وليس

عندي جواب لك. كانا يعملان في الظل في الباحة، إذ كان الوقت ضيقاً والشمس لاهبة. كان إخوة يسوع يلعبون بالقرب منهما إلا أصغرهم الذي كان في الداخل يتغذى من صدر أمه. كان يعقوب يقدم المساعدة لكنه سرعان ما يشعر بالتعب والملل، ومما يدعو للدهشة قليلاً، أن فارق السن بينهما، عمل كل ذلك الاختلاف، فيسوع سيكون متأهلاً لنيل المزيد من التقدم في الدراسة الدينية بعد أن أنهى مدرسته الابتدائية. بالإضافة إلى الدراسة المستفيضة في التوراة أو الناموس المكتوب، فقد تلقن الناموس الشفاهي، وهو الأصعب والأشد تعقيداً. وهذا يوضح لماذا حتى في مثل هذا العمر المبكر كان قادراً على القيام بمناقشة جادة مع والده، مستخدماً الكلمات على نحو مناسب ومجادلاً بإمعان ومنطق. يكاد يسوع أن يبلغ الثانية عشرة، وعندما يصبح رجلاً لربما سيستأنف هذه المناقشة المنقطعة، إن وجد يوسف في نفسه الشجاعة لأن يثق بابنه ويقر بذنبه، تلك الشجاعة التي خذلت إبراهيم يوم واجهه إسحاق، ولكن حتى هذه اللحظة كان يوسف مقتنعاً في أن يشكر ويحمد قدرة الرب. لم يكن ثمة شك أن استقامة خط يد الرب ليس لها مثيل في الأسطر المكتوبة التي لدى البشر. فكر فقط بإبراهيم، الذي ظهر إليه الملاك وقال له في اللحظة الأخيرة، لا تضع يدك على الطفل، وفكر بيوسف الذي فشل في أن يستغل الفرصة لإنقاذ أطفال بيت لحم عندما أرسل الرب ضابطاً وثلاثة جنود مهذارين بدلاً من الملاك لينذروه. ولكن إن استمر يسوع كما بدأ، لربما سيلتفت ليتساءل في يوم ما لماذا أنقذ الرب إسحاق ولم يفعل شيئاً لحماية الأطفال المساكين الذين كانوا أبرياء كطفل إبراهيم، ورغم ذلك لم تبد أية رحمة من لدن العرش الإلهي. وبعد ذلك سيكون يسوع قادراً على أن يقول ليوسف، أبتاه، لست وحدك الملام، ومن يدري، فقد يجرؤ في أعماقه على أن يتساءل، متى، يا إلهي، ستأتي أمام البشر وتقر بأخطائك.

بينما يتجادل يوسف النجار وابنه يسوع في تلك الأمور الهامة خلف الأبواب المغلقة، كانت الحرب ضد الرومان قد استمرت. كانت قد استمرت لأكثر من عامين، وبين الحين والآخر كانت الأخبار عن إصابات أخرى قد وصلت الناصرة. فقتل أفرايم، ثم أبيزار ثم نافتالي، ثم اليزار، ولكن لا أحد متيقن أين دفنت جثثهم، بين صخرتين على جبل أو عند قاع وهدة، جرفت بتيار أو ضجعوا تحت الظل العقيم لشجرة ما. ولأن فلاحي الناصرة كانوا غير قادرين على إقامة عزاء لأولئك الموتى، فقد حاولوا أن يقنعوا أنفسهم بأصرار، أننا لسنا السبب ولا الشهود على هذه المذبحة. ووصلت الأخبار أيضاً عن انتصارات عظيمة. لقد طرد الرومان من مدينة سبغوريس القريبة، وطردوا أيضاً من أنحاء واسعة من اليهودية والجليل حيث لم يجرؤ العدو على المخاطرة، وحتى في قرية يوس لم ير أحد الجنود الرومان منذ أكثر من عام. من يدري، لربما ذلك ما حفز جار النجار، الفضولي والميال إلى المساعدة أنانياس، الذي لم نأت إلى ذكره منذ حين، أن يظهر في باحة البيت في أحد الأيام ويهمس في أذن يوسف، اتبعني إلى الخارج، واستغرب قليلاً، ذلك لأن تلك البيوت صغيرة جداً إلى حد أنه من المستحيل أن تحافظ على خصوصيتك، فكل واحد محشور في حيز واحد ليلاً ونهاراً، مهما حدث وفي كل الظروف، لذلك ما أن يهل يوم الحكم أخيراً، لن يجد الرب صعوبة في التعرف على حيزه. ولم يستغرب يوسف من الطلب، ولا حتى حين أضاف أنانياس بمكر، دعنا نذهب إلى الصحراء. و، كما نعرف، فالصحراء ليست ببساطة هي المكان القاحل، أو متسع كبير من الرمل أو هي ذلك البحر من الكثبان الملتهبة الذي يرد في أذهاننا ما أن نقرأ أو نسمع بالكلمة صحراء. وكما هو مفهوم هنا، فإن الصحراء يمكن أن توجد في أرض الجليل الخضراء، وتعني الكلمة الأراضي غير المزروعة وليس ثمة علامات على أن الناس سكنوها أو زرعوها، ومثل هذه الأماكن لن تبقى صحراء

ما إن يظهر البشر في المشهد. ولكن لأن هنالك رجلين فقط يتمشيان في تلك الأرض ذات الأشجار الخفيضة غير بعيدين عن الناصرة بينما يتجهان نحو صخور الجلمود الثلاثة التي تتوج قمة التل، ليس ثمة مقترح بأن يستوطن هذا المكان، وما إن رحل كل الناس فإن هذه الصحراء سترجع صحراء. كان أنانياس جالساً على الأرض ويوسف إلى جانبه. فارق السن الذي بينهما باقٍ كما هو دائماً، ولكن مع مرور الأيام لكل واحد منهما، فإن النتائج يمكن أن تكون مختلفة تماماً. ولذلك فإن أنانياس، الذي لم يبد في سنه عندما قابلناه لأول مرة، يبدو الآن أكبر سناً، على الرغم من أن السنين قد ألقت بعلاماتها على يوسف. أنانياس متردد قليلاً، الاسلوب الذي دخل فيه منزل النجار قد تغير في الحال حين سارا في الطريق وكان على يوسف أن يلاطفه ليحثه على الكلام دون أن يظهر له أي فضول. قال لأنانياس ليدعوه إلى البدء بالكلام، لقد سرنا مسافة طويلة. فوضح له أنانياس، هذا ليس شيئاً من الممكن أن نناقشه في بيتك أو بيتي، أما الآن فبأمكانهما أن يتحدثا بحرية دونما أي خشية من أن يسمعهما أحد في هذا امكان المنعزل. طلبت مني مرة أن أرعى منزلك خلال غيابك، هكذا ذكّره أنانياس. فاجاب يوسف، أجل، وأنا أقدر مساعدتك بعمق، ثم استأنف أنانياس، والآن حان الوقت لي لأن أطلب منك بأن ترعى منزلي خلال فترة رحيلي. هل ستصطحب معك زوجتك، كلا، أنا ذاهب وحدي، ولكن من المؤكد إن بقيت شوا فلا حاجة لأن تبقى في البيت، ستذهب عند بعض الاقارب الذين سيكونون في قرية تعمل في الصيد، هل يعني هذا أنك تقول لي أنك طلقت زوجتك، كلا، إن لم أطلقها عندما وجدتها عاقراً، فلماذا أطلقها الآن، كل ما في الأمر أنني سأرحل لبعض الوقت وأفضل أن تمكث شوا لدى أقاربي. هل ستطول رحلتك. لا أدري، ذلك يعتمد كثيراً على المدة التي ستطول فيها الحرب. فسأله يوسف مندهشاً، وما علاقة الحرب بغيابك. إنني راحل للبحث عن يهوذا والجليليين. وما الذي تريده منه. لأسأله إن كان

يسمح لي للالتحاق بجيشه. لا أصدق أن رجلاً مسالماً مثلك يا أنانياس يتورط في الحرب ضد الرومان، هل نسيت ما الذي حصل لأفرايم و أبيزار وأيضاً لنفتالي وإليازر، بالتحديد، فإصغ إلى صوت العقل. كلا، إصغ إليّ أنت يا يوسف، وإلى الصوت الذي يأتيك من بين شفتي، لقد وصلت الآن إلى السن الذي مات فيه والدي، وقد أنجز أشياء في الحياة أكثر من إبنه الذي لم يستطع حتى أن ينجب ذريّة، لست متعلماً مثلك، أو من المحتمل أن أكون شيخاً من شيوخ الكنيس، كل ما أتطلع إليه هو الموت وأنا مرتبط بإمرأة لا أحبها. لماذا لا تطلقها إذن. طلاق شوا لا مشكلة فيه، المشكلة الحقيقية هي كيف أطلّق نفسي، وذلك شيء مستحيل. ولكن كيف ستقاتل وأنت في مثل هذا السن. لا تقلق بشأن ذلك، سأنخرط في المعركة بإصرار وكأنني أوشك أن أجعل امرأة حُبلى، لم أسمع بمثل التعبير من قبل. ولا أنا، لقد خطر ببالي في هذه اللحظة، حسناً، يا أنانياس، بإمكانك الاعتماد علي في رعاية منزلك حتى تعود. إن استحالت عليّ العودة ووصلتك الأخبار بانني قد قتلت، عدني بأنك ستبعث إلى شوا لتطالب بممتلكاتي. أعدك بذلك. دعنا نعود الآن كي يبقى عقلي بسلام. بسلام وأنت قررت الذهاب إلى الحرب، أنني لا أفهمك حقاً. آه، يوسف يا يوسف، كم من القرون سنحتاج لدراسة التلمود قبل أن نبدأ في فهم أبسط الأشياء. لماذا تحتم علينا أن نمضي في كل هذا الطريق. أردت أن أحدثك بحضور شهود. وكل ما تحتاجه من شهود هم الرب القادر وهذه السماء التي تغطينا حيثما نكون. وماذا عن كل هذه الصخور. هذه الصخور خرساء وصماء ولا يمكن أن تكون شاهدة. ربما تكون محقاً، ولكن لو تحتم علينا أنا وأنت أن نقرر بأن نقدم تقريراً مغلوطاً عن حديثنا، فإن هذه الصخور سوف تتهمنا وستستمر في إتهامنا حتى تتحول هي إلى تراب ونتحول إلى هباء. ألا نعود. بلا، دعنا نعود. وعند ذهابهما إلتفت أنانياس حوله عدة مرات لينظر إلى الصخور حتى اختفت في الأخير خلف الرابية، وعند ذلك بالتحديد سأله يوسف هل تعلم

شوا، أجل إنها تعلم، وماذا لديها لتقوله، في البداية لم تقل شيئاً، لكنها بعد ذلك قالت لي أنني كان حرياً بي أن أنفصل عنها منذ سنوات وأتركها لمصيرها، المسكينة شوا، حين ستمكث مع الأقارب ستنساني سريعاً، وإن تحتم عليّ الموت في المعركة ستنساني إلى الأبد، إن النسيان لسهل جداً، هكذا هي الحياة. دخلا القرية وحين وصلا منزل النجار، الذي كان أول المنزلين من هذه الجهة قال يسوع، الذي كان يلعب في الطريق مع يعقوب ويهوذا أن أمه عند الجيران. وحين التفت الرجلان إلى البعيد، كانا يسمعان صوت يهوذا وهو يعلن بهيبة، أنا يهوذا الجليلي، حيث التفت أنانياس حوله وقال مبتسماً ليوسف، أنظر، ها هو قائدي، وقبل أن يتمكن يوسف من الاجابة على ذلك سمعا صوت يسوع وهو يقول، أنت إذن لا تنتمي إلى هذا المكان. وشعر يوسف بسيف يخترق قلبه، وكأن تلك الكلمات موجهة إليه وكأن اللعبة التي يلعبها إبنه قصد بها أن تنقل حقيقة أخرى. ثم فكر بصخور الجلمود الثلاث وحاول، دون أن يعلم السبب، تخيل ما ستكون عليه الحياة لو أنه أجبر منذ الآن بأن يتكلم بكل كلمة وأن يقوم بأي فعل بحضورهم، وتذكر الرب فجأة، فشعر أنه مصقوع بالرعب. في منزل انانياس وجدا مريم تواسي شوا المكتئبة، التي حفضت دموعها في اللحظة التي وصل فيها الرجلان، ليس لأنها كفت عن البكاء بل لأن النساء يعرفن متى يكبتن دموعهن. ومن هنا فإن القول المأثور، بأنهن إما يضحكن أو يبكين، ليس حقيقياً لأنهن يبقين يبكين بهدو في انفسهن. ليس ثمة أي شيء هاديء في حزن شوا، وحين رحل أنانياس تقطع قلبها من النشيج. بعد أسبوع جاء الأقارب ليأخذوها معهم. ورافقتها مريم إلى ضواحي القرية حيث تعانقتا وتوادعتا. ولم تبك شوا في هذه المرة، لكن عينيها لم تجفا ثانيةً. لا شيء يمكن أن يبدد حزنها أو يطفيء اللهيب المستعر الذي يشيط دموعها قبل أن تظهر وتتدحرج على خديها.

وهكذا مرت الشهور واستمرت أخبار الحرب في الوصول، سارة أحياناً وحزينة في أخرى، ولكن بينما لا تذهب الأخبار السارة أبعد من التلميحات الغامضة بالانتصارات التي دائماً تتقلب لتكون متواضعة، فإن الأخبار الحزينة تحدثت عن مذابح كثيرة وخسائر كبيرة في صفوف الجيش المتمرد ليهوذا الجليلي. وجاءت الأخبار في أحد الأيام أن ألداد قد قتل عندما أخفى الرومان كميناً وهذا ما رمى بالسحر على الساحر وتسبب في إصابات ثقيلة، ولكن ألداد كان الجندي الوحيد من الناصرة الذي قتل. وفي يوم آخر قال أحدهم أنه سمع من صديق سمع من شخص آخر أن فاروس الحاكم الروماني لسوريا في طريقه مع فيلقين ليضع نهاية حاسمة لذلك العصيان المسلح الذي لا يطاق والذي استمر ثلاث سنوات. الغموض في هذا الخبر هو، أن فاروس قادم في طريقه، ونقص المعلومات الدقيقة ينشر الرعب بين الناس. كانوا يخافون أن الأشارة المرعبة للحرب قد ظهرت في أية لحظة معلنة وصول القوة الضاربة، حاملة تلك الحروف الأولى التي تقر وتصادق على العمليات العسكرية، SPQR وتعني، مجلس شيوخ وشعب روما. تحت هذا الرمز وذلك العلم يرحل الرجال لقتال بعضهم البعض، والشيء ذاته يمكن أن يقال عن تلك الحروف الأولى الشهيرة الأخرى، INRI، يسوع الناصري، ملك اليهود، لكننا يجب أن لا نسبق الأحداث، ذلك لأن النتائج الرهيبة لموت يسوع ستظهر فقط على المدى الكامل للزمن.ثمة حديث في كل مكان عن معارك طاحنة، بينما يتنبأ المؤمنون بالله أن الرومان سوف

يطردون من الأرض المقدسة لإسرائيل قبل انتهاء العام، ولكن آخرين، أقل إيماناً منهم، يهزون رؤوسهم بحزن ولا يرون المستقبل إلا كئيباً ومدمراً. وهكذا جرت الأحوال. فبعد الأخبار عن قدوم فيلقي فاروس، لم يحدث شيء لعدة أسابيع، مما سمح للمتمردين بتكثيف هجوماتهم على الفصائل المتناثرة التي كانوا يقاتلونها، لكن سرعان ما ظهرت الخطط المرسومة من وراء ذلك التراخي الواضح عندما أوردت مصادر يهوذا الجليلي أن أحد الفيلقين يتجه نحو الجنوب في حركة التفاف محاذية لضفة نهر الأردن، ثم تستدير إلى اليمين في جيروكو لتعيد المناورة بإتجاه الشمال، مثلما تلقى شبكة في الماء وتسحب بيد خبيرة، أو مثلما ترمى الانشوطة لاقتناص أي شيء يُرى، بينما يقوم الفيلق الآخر بمناورة مشابهة تتجه نحو الجنوب. يمكن أن توصف هذه الاستراتيجية بحركة الكلاّب، ولكنها أشبه ما تكون بجدارين يتقاربان من بعضهما البعض في آن واحد ليطيحا بأولئك الذين لا يستطيعون الهروب ثم يسحقانهم. كان تقدم الفيلقين فوق التلال والوديان عبر اليهودية والجليل يتمظهر بالصلبان حيث يُسمَّر رجال يهوذا من رسوغهم وأقدامهم. وكي يعجلوا موتهم كانوا يكسرون عظامهم بالمطارق. استباح الجنود القرى واستمروا في النهب من منزل لآخر. ولم تكن ثمة حاجة لاثبات دامغ من أجل القاء القبض على مشتبه بهم وأدانتهم ليحكم عليهم بالموت. هؤلاء التعساء السيئو الطالع، لو عذرتمونا على هذه المفارقة، كانوا محظوظين لأنهم صلبوا قريباً من بيوتهم كي يتمكن أهاليهم من دفن جثثهم. وأي جمهور حزين من أمهات متفجعات وأرامل وعرائس ويتامى ناحبين يشاهدون الجثث المتكسرة العظام وهي تنزل برفق من الصليب، إذ ليس ثمة أكثر مأساوية للكائن الحي من الرؤية الصادمة لجثة مهجورة. الرجل المصلوب ينقل إلى قبره حيث ينتظر يوم البعث، ولكن هنالك آخرين ممن جرحوا في المعارك إما في الجبال أو في بقعة أخرى منسية حيث تركهم الجنود وهم لا يزالون أحياء في أكثر

الصحاري قفراً، ليواجهوا ذلك الموت المنعزل، ويمكثوا هناك، تحرقهم الشمس ببطء، معرضين للطيور الجارحة التي تتغذى على الفطائس، وبعد وقت تتجرد عظامهم من لحومها، لينتهوا إلى بقايا رثة دونما شكل أو مظهر مما يتنافر مع أرواحهم الحقيقية. أولئك المتسائلون، ولا تقول الأرواح المتشكلة، الذين يُمنعون من معارضة القبول السهل لأناجيل مثل هذه في مناسبات أخرى، سيودون أن يعرفوا كيف كان من الممكن للرومانيين أن يصلبوا مثل هذا العدد الكبير من اليهود، وخصوصاً في تلك البقاع الشاسعة المقفرة الخالية من أية أشجار، بعيداً عن الأجمة النادرة القميئة حيث يمكنك بالكاد أن تصلب فزاعة. ولكنهم ينسون أن الجيش الروماني له كل المهارات المحترفة والنظام لجيش حديث. فثمة تجهيز ضخم بالصلبان الخشبية بقي طوال الحملة، كما كان واضحاً من خلال كل تلك الحمير والبغال التي تبعت القوات، والتي حملت بالأعمدة والقصبات المستعرضة التي كان من الممكن أن تحضر على الفور في أيما بقعة، وبعد ذلك لا يتعدى الأمر أن يكون مجرد الرجل المدان وهو ممتد الذراعين إلى الرافدة المستعرضة ، جاعلاً العمود في وضع منتصب وبعد ذلك، وبعد أن يجبروه على أن يجمع رجليه بانحراف جانبي ليضما القدمين معاً، واحدة فوق الأخرى ليمسمروا بمسمار واحد طويل. أي جلاد مرتبط بالفيلق سوف يخبرك أن هذه العملية قد تبدو معقدة، وفي الحقيقة فإن تفسيرها أشد عسرة من تنفيذها.

أولئك المتشائمون الذين تنبأوا بالكارثة كانوا على حق. فقد فر الرجال والنساء والأطفال مذعورين من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال من قبل أن يصل الفيلقان المتقدمان، البعض من الناس كانوا يخشون أن يتهموا بمساعدة المتمردين، والبعض الآخر كانوا يخشون الإرهاب، إذ كما نعلم، أنهم يخشون ، أن يلقي عليهم القبض ويعدمون من غير أن تثبت إدانتهم. وها هو، أحد أولئك اللاجئين يقطع انسحابه لبضع دقائق ليطرق باب يوسف لتسليمه رسالة من جاره، أنانياس، الذي جرح جرحاً بليغاً في سبفوريس. أراد أنانياس أن يعلم يوسف، أن الحرب خاسرة وليس ثمة أمل للنجاة، فابعث لزوجتي وأخبرها بأن تطالب بممتلكاتي. تساءل يوسف، أهذا كل الذي قاله. أجاب حامل الرسالة، لا شيء غير ذلك. ولماذا لم تستطع أن تجلبه معك إلى هنا عندما علمت أن عليك أن تمر من هذا الطريق. سيكون عائقاً لي وهو في تلك الحال وعليّ أولاً أن أنقذ عائلتي. ربما يكون هذا أولاً، ولكن من المؤكد ليس لدرجة استثناء أي أحد آخر. ما الذي تود أن تقوله، أنت نفسك محاط بالأطفال وإن بقيت هنا فذلك فقط لأنك بعيد عن الخطر. لا وقت لمزيد من الخسائر، سر في طريقك وليكن الله معك، فبدونه يبقى الخطر ماثلاً أبداً. تبدو رجلاً لا إيمان لديك، عليك أن تعلم أن الرب موجود في كل مكان. بالتأكيد، ولكنه غالباً ما ينسانا، لا تتكلم عن الإيمان بعد أن تركت جاري يواجه مصيره. حسناً، لماذا لا تذهب لإنقاذه بنفسك. هذا ما أزمع عمله. حدثت هذه المحاورة في منتصف

النهار. كان يوماً مشمساً جميلاً وثمة بضع غيوم تتساق عبر السماء مثل مراكب تسير على وهن. ذهب يوسف يفك حبل الحمار، نادى زوجته وأخبرها دون فائض توضيح، أنا ذاهب إلى سبفوريس للبحث عن جارنا أنانياس الذي جرح جرحاً بليغاً ولا يمكنه السفر بمفرده. وأجابت مريم بأن هزت رأسها ببساطة، لكن يسوع تعلق بوالده، وتوسل إليه، خذني معك. نظر يوسف إلى ولده، وضع يده اليمنى على رأسه وقال له، ابق أنت هنا، سأعود سريعاً، سأسافر على عجل وسأعود قبيل الفجر، وقد يكون محقاً، فكما نعرف أن المسافة بين الناصرة وسبفوريس ليست أكثر من خمسة أميال، وهي تقريباً تساوي المسافة بين أورشليم وبيت لحم، وهذا دليل آخر على أن العالم مليء بالمصادفات. لم يمتط يوسف الحمار لأنه أراد أن يحافظ الحيوان على نشاطه عند العودة ويكون ثابتاً وقوياً مستعداً لحمل رجل مريض بتؤدة على ظهره، أو على نحو دقيق، لحمل جندي جريح، وليس الأمر سيان. عند حافة التل حيث يكون قد مضى ما يقارب العام على قرار أنانياس بالانضمام إلى جيش التمرد الذي قاده يهوذا الجليلي، نظر النجار عالياً إلى صخور الجلمود الثلاث الهائلة التي على القمة التي ذكّرته بفصوص من الفاكهة. بعد أن استقرت عالياً، بدت كأنها تنتظر جواباً من السماء والأرض عن أسئلة طرحتها كل مخلوقات وأشياء هذا العالم على الرغم من أنها لم تتفوه بها، مثل ماذا أنا، لماذا أنا هنا، ما الذي يخبئه لي العالم الآخر، هذا الكائن ما هو. لو كان لأنانياس أن يسأل هذه الأسئلة، لكان بإمكاننا أن نخبره أن الصخور الجلاميد على الأقل تبقى سالمة، رغم الرياح والمطر والحرارة ومن المحتمل أن تبقى هنا لعشرين قرناً قادماً، ولعشرين قرناً من بعد ذلك، بينما يتغير العالم من حولها. على أية حال، فيما يخص السؤالين الأولين ليس ثمة جواب. كان يمكن رؤية حشود من اللاجئين في الطريق، على وجوههم نظرة الذعر ذاتها كما كان حال الذي حمل رسالة أنانياس. كانوا ينظرون إلى يوسف مندهشين، وأخذه أحد الرجال من ذراعه متسائلاً، الى أين ذاهب،

فأجابه النجار، إلى سبفوريس لإنقاذ صديق، لو تعرف صالحك لـن تقـوم بفعل كهذا، لماذا، الرومانيون يقتربون ولا أمل في الدفاع عن المدينة، لابد لي من الذهاب، جاري مثل أخي ولا أحد غيري يمكنه الذهاب للإيتاء به، انتبه لنصيحتي، وبهذه الكلمات ذهب الناصح الحكيم في طريقه، تاركاً يوسف واقفاً هناك في منتصف الطريق، حائراً في تفكيره، متسائلاً فيما إذا كانت حياته تستحق المحافظة عليها أو أنه يشمئز ويحتقر ذاته، وبعد أن فكر عميقاً في المسألة، قرر أنه يشعر باللا أبالية تماماً، مثلما يواجه أحد خلاءً ليس قريباً ولا بعيداً، حيث لا مكان يمكن للإنسان أن يريح ناظريه، إذ من ذا الذي بإمكانه التركيز على الفراغ. لكن ما صدمه أنه بوصفه أباً عليه واجب حماية أطفاله، وحري به أن يعود إلى بيته فذلك أجدى من الذهاب بحثاً عن جار، ولم يعد أنانياس كذلك، لأنه هجر منزله وبعث بزوجته إلى مكان بعيد. لكن أطفاله بأمان، ولن يؤذيهم الرومان، لالتزامهم في مطاردة المتمردين. وأخيراً وهو يتوصل إلى هذا الاستنتاج سمع نفسه وهو يصرخ بصوت عال، وكأنه كان يتصارع مع أفكاره، ألستُ متمرداً أيضاً. لذلك ودونما جلبةٍ أخرى ضرب حماره على وركه، متعجباً، أصابك الدوار أيها الحمار، واستمر في طريقه.

وصل سبفوريس في آخر المساء. كانت الظلال الممتدة للبيوت والأشجار، التي من الممكن تمييزها في البداية، قد تلاشت حتى عادت للظهور في الأفق مثل مياه متساقطة معتمة. ثمة القليل من الناس في شوارع المدينة، ليس بينهم نساء ولا أطفال، بل رجال يضطجعون تحت أسلحتهم المستنفرة وهم يتمددون لاهثين، ومن الصعب القول فيما إذا كانوا مرهقين من الصدام أو الفرار. سأل يوسف أحد أولئك الرجال، هل يقترب الرومانيون، أغمض الرجل عينيه وعاد ليفتحهما ببطء وقال، سيصلون غداً، ثم قال ليوسف وهو يتفادى نظرته، ابتعد من هنا، خذ

حمارك وأترك هذا المكان، لكنني أبحث عن صديق جريح، هكذا وضح له يوسف، لو كنت تحسب كل أولئك الذين جرحوا أصدقاءك لكنت أغنى رجل في العالم، أين الجرحى، هنا، هناك، في كل مكان، ولكن هل ثمة مكان آخر في المدينة يعالجون فيه، أجل، خلف تلك البيوت ستجد حامية حيث يرقد فيها الكثير من الجرحى، ربما ستجد صديقك هناك، ولكن عجّل فالجثث التي تخرج أكثر من الأحياء الداخلين. كان يوسف يعرف المكان جيداً، لقد جاء إلى هنا عدة مرات لأغراض العمل التي كانت كثيرة في مدينة غنية ومزدهرة مثل سبفوريس، وأيضاً لحضور بعض الأعياد الدينية الصغيرة التي كانت تعوض بالكاد عن السفر إلى أورشليم. كان العثور على الحامية سهلاً، فكل ما على الإنسان أن يفعله هو تتبع الرائحة الشديدة النتانة للدم والصديد التي تملأ الهواء. كان الأمر يشبه لعبة الاختباء، سخونة وبرودة وسخونة وبرودة، إنها تؤلم، كلا، كلا، إنها ليست كذلك، ولكن تلك الآلام لا تطاق. ربط يوسف الحمار إلى عمود طويل وجده قريباً منه ودخل المخزن الذي تحول إلى ملجأ كبير. بين الأفرشة على الأرض ثمة مصابيح صغيرة توفر ضوءاً شحيحاً ولم تكن غير النجوم الصغيرة التي تصدر وميضاً صغيراً إزاء السماء السوداء هي التي كانت تقود الخطى المتعثرة. سار يوسف ببطء بين صفوف الرجال الجرحى بحثاً عن أنانياس. كانت ثمة روائح أخرى قوية في الهواء، هي روائح الزيت والكحول التي تستخدم في تضميد الجروح ورائحة العرق والغائط والبول، فالبعض من أولئك التعساء كانوا غير قادرين وكانوا يحاولون عبثاً أن يمنعوا أنفسهم من التغوط هناك ولكن أجسامهم لم تعد تستطيع التحكم بذلك. إنه ليس هنا، فكر يوسف في نفسه ما إن وصل إلى نهاية الصف. وعاد من حيث أتى، ببطء أكثر هذه المرة ونظر بروية ليرى إن كان بإمكانه تمييزه. واحسرتاه، إنهم جميعاً متشابهون، بلحاهم الطويلة، وخدودهم الضامرة وعيونهم الغائرة والأجساد القذرة المغطاة بالعرق. تبعه بعض الجرحى وعلى وجوههم

تعابير القلق، آملين أن يكون هذا الرجل القوي البنية قد جاء لإنقاذهم، لكن ذلك اللمعان اللحظوي سرعان ما خبا في عيونهم واستمر تطلعهم لمنقذ. وتوقف يوسف فجأة أمام رجل مسن ذي لحية بيضاء وشعر أبيض، إنه هو، هكذا فكر، على أن مظهره قد تغير بنوع ما منذ سار بهذا الطريق للمرة الأولي، لحيته وشعر رأسه قد أصبحا أبيضين كالثلج، لكنه الآن يبدو متسخاً بينما بدت عيناه، اللتان مازالتا سوداوين، غير طبيعيتين تماماً. كان الرجل العجوز مغمض العينين ويتنفس بصعوبة. ناداه يوسف بصوت منخفض انانياس، ثم تحرك مقترباً منه وكرر الأسم بصوت أعلى، وشيئاً فشيئاً، وكأن العجوز كان يخرج من أعماق الأرض، بدأت عيناه بالحركة، وحين فتح عينيه تماماً لم يعد ثمة أي شك بأن هذا هو أنانياس لا محالة، الجار الذي تخلى عن بيته وزوجته ليذهب إلى مقاتلة الرومان، وهاهو يرقد بجروح شنيعة في بطنه ورائحة لحمه النتنة تزكم الأنف. لم يعرف أنانياس يوسف في الوهلة الأولى، فلم يساعده في ذلك الضياء الواهن في هذا المشفى المؤقت كما أن قدرته على النظر ضعفت بشدة، ومع ذلك فقد تعرف عليه تماماً عندما كرر النجار أسمه بنغمة أخرى تنم عن تعاطف. تمتلئ عيون العجوز بالدموع وهو يقول مرة بعد أخرى، هذا أنت، هذا أنت، ما الذي تفعله هنا، لماذا جئت إلى هنا، ويحاول أن يرفع نفسه إعتماداً على أحد مرفقيه ويمد ذراعه، ولكنه لا يقوى على ذلك، جسده يتراخى، كيانه كله يتلوى من الألم. قال النجار، جئت للبحث عنك، حماري مربوط في الخارج ويمكننا العودة إلى الناصرة في أقل وقت. لم يتوجب عليك الحضور إلى هنا، الرومان على وشك الوصول في أية لحظة، وأنا لا أستطيع الحركة، لقد انتهيت، وفتح رداءه بأيد مرتعشة. تحت الرقع الناقعة بالكحول والزيت ثمة جرحان كبيران فاغران تفوح منهما رائحة العفن التي تصيب بالغثيان مما جعل يوسف يقطع نفسه ويبعد ناظريه. غطى الشيخ نفسه، وأرخى ذراعيه إلى جانبه وكأن الجهد كان كبيراً عليه، هاأنت قد علمت السبب الذي

يمنعني من مغادرة هذا المكـان، وإن حـاولت أن تحركنـي فـإن شـراييني ستعاود النزف، ستكون بخير لو شـددت بطنك بقوة بضمـاد وإن سـرت ببطء، أصر يوسف غير مقتنع، فمن الواضـح أنـه حتـى إذا أخذ الشيخ ووضعـه علـى ظهر الحمـار فلن يتمكنـا من الوصـول إلـى النـاصرة. أغمض أنانياس عينيه ثانية ودون أن يفتحهما قال ليوسف، لابـد لـك مـن العودة، إنني أحذرك، سرعان ما يصل الرومانيون، لا تقلق، لن يهجمـوا في الليل، عد إلي البيت، عد إلى البيت، تمتم أنانيـاس، وقـال لـه يوسـف مجيباً، خذ قسطاً من النوم.

ظل يوسف إلى جانبه طوال الليل محاولاً البقاء متيقظاً، ووجد نفسـه يتساءل لماذا جاء إلى هذا المكان، مادامت لم تكن أبداً أية صداقة حميمـة بينه وأنانياس. وثمة فارق واضح في السن بينهمـا، بالإضافـة إلـى ذلك، فله تحفظات معينة على أنانيـاس وزوجتـه اللذيـن يحدقـان بفضـول حتـى عندما يقدمان معروفاً، ودائماً ما يوحيان بأنهما يتوقعان التعويض. وفكـر يوسـف فـي نفسـه، ولكنـه جـاري، ولـم يستطع التفكير بـأكثر مـن هـذا الجواب لإسكات مؤاخذاته، إنه صاحبي، رجل يحتضر بعد أن أغمض عينيه قبل ذلك، ليس لأنه لا يرغب في رؤيتي بل لأنه يرغب في تـذوق كل دقيقة في اقترابه من الموت، ولم أعد قـادراً علـى التخلـي عنـه الآن. كان يجلس في البقعة الضيقة بين الفـرش الـذي يضطجـع عليـه أنانيـاس وفرش ذلك الشاب الذي لم يكن أكبر من إبنه يسوع، كان الفتى المسـكين يئن بهدوء ويهذي مع نفسه، وشفاهه متشققة من الحمـى . رفـع يوسـف يده ليريحه مثلما بدأت يد أنانياس تتلمس المكـان وكأنـه ينـوي الوصـول إلى سلاح للدفاع عن نفسه، وبقـي الثلاثـة هنـاك، يوسـف حـي وبصحـة جيدة بين رجلين يحتضران، حياة بين موتين. خلال ذلك أظهـرت سمـاء الليل الساكنة النجوم والكواكب في مـدار وطغـى قمر أبيض مشـع عبر الفضاء من النهاية الأخرى للعالم، ذارفاً البراءة علـى الجليل كلهـا. كـان

الوقت متأخراً جداً حين قام يوسف من سباته الذي وقع فيه رغماً عنه. استيقظ مستريحاً هذه المرة لأنه لم يحلم هذه المرة بشارع بيت لحم. عندما فتح عينيه رأى أنانياس، الذي كان أيضاً مفتوح العينين، قد مات. كان في آخر لحظة غير قادر على مقاومة رؤيا الموت وكانت يده تقبض على يد يوسف بقوة حتى أنه شعر أن عظامه قد تحطمت. وكي يخلص نفسه من هذا الإحساس المؤلم، حرر يده التي كانت تمسك بيد الفتى، وفي حالة من نصف الوعي لاحظ أن حرارة الفتى قد خمدت. نظر يوسف عبر الباب المفتوح، كان القمر قد غاب وأنتشر ضوء النهار في سماء لا نهائية ذات ظلال داكنة. كان يمكن رؤية الشواخص البشرية وهي تتحرك في المخزن، وكان الجرحى من الذين يمكنهم النهوض دونما مساعدة قد خرجوا لمشاهدة شروق الشمس. ربما كانوا يسألون بعضهم البعض أو ربما السماء ذاتها، ما الذي سيجليه هذا الفجر الجديد. في يوم ما ستتعلم عدم طرح أسئلة لا معنى لها، ولكن حتى يأتي ذلك اليوم دعنا نغتنم الفرصة ونسأل أنفسنا، ما الذي سيأتي به هذا الفجر الجديد. فكر يوسف في نفسه، قد أذهب أيضاً، فليس لدي ما أعمله هنا، وثمة فكرة تساؤل في تلك الكلمات التي حفزته للتفكير، قد أخذ جثته معي إلى الناصرة، وبدت الفكرة معقولة جداً حتى أنه كاد يقنع نفسه إنه جاء إلى هنا لهذا السبب، أن يجد أنانياس حياً ويحمله ميتاً. طلب الفتى ماءً. حمل يوسف إناءً من الفخار إلى شفتيه، وسأله، كيف تشعر، أفضل يبدو أن الحمى قد تلاشت على الأقل، دعني أرى إن كان بإمكاني الوقوف، قال الفتى، وأجابه يوسف محاولاً منعه، وبعد ذلك جالت في رأسه فكرة مفاجئة، كل ما يستطيع عمله لأنانياس هو أن يدفنه في الناصرة، أما حياة الفتى فيمكن إنقاذها لو شاء أن يخلصه من مستودع الجثث هذا، لذلك يمكن القول أن مخلوقاً آخر يمكن أن يحل محله . ولم يعد يشعر بالتعاطف إزاء أنانياس الذي بات جسده صدفة فارغة، روحه تبتعد في كل مرة ينظر إليه . وظهر أن الفتى أحس بأن شيئاً ما قد يحدث له مما

جعل عيناه تبرقان، ولكنه قبل أن يسأل أي سؤال كان يوسف قد ذهب لإحضار الحمار. مبارك هو الرب الذي وضع مثل هذه الأفكار الهائلة في رؤوس البشر. لكن الحمار كان مفقوداً كل ما بقي منه هي قطعة الحبل المشدودة إلى العمود. لم يبدد السارق الوقت في فك عقدة الحبل فاستخدم سكيناً حادة وقطعه.

كان سوء الطالع الأخير هذا قد أمتص القوة من جسد يوسف. ومثل تلك العجول المتساقطة التي شاهدها تذبح أضاحي في الهيكل، فقد سقط على ركبتيه، وغطى وجهه بيديه، وذرف الدموع التي تجمعت منذ ثلاثة عشر عاماً وهو ينتظر اليوم الذي يكون فيه قادراً على أن يسامح نفسه أو يواجه الإدانة الأخيرة. إن الله لا يسامحنا على الذنوب التي يجعلنا نقترفها. لم يعد يوسف إلى المخزن لأنه أدرك أن أفعاله أمست لا معنى لها ذلك لأن العالم ذاته لا معنى له. كانت الشمس توشك على البزوغ، ولكن لماذا يا إلهي، ألم تكن ثمة الآلاف من الغيوم الصغيرة المتناثرة عبر السماء مثل الاحجار في الصحراء. كل من شاهد يوسف هناك، وهو يمسح الدموع بكمه، كان سيظن أنه يتأسى لموت أحد أقربائه الذي عاد مع الرجال الجرحى في المخزن، عند ذاك، لو شئنا قول الحقيقة، كان يوسف قد ذرف للتو آخر دمعة من دموعه الطبيعية، دموع أسى الحياة. بعد التجول عبر المدينة لأكثر من ساعة، وهو يأمل في الأخير العثور على حيوانه المسروق، وكاد ييأس من البحث ويعود إلى الناصرة، لولا ان حدث والقى الجنود الرومان القبض عليه بعد أن طوقوا سبفوريس. سألوه عن أسمه، أنا يوسف، إبن هيلي، ثم أين يسكن، في الناصرة، وأين ذاهب، عائد إلى الناصرة، وما الذي جاء به إلى سبفوريس، أخبرني أحدهم أن جاري كان هنا، من هو هذا الجار، أنانياس، وهل وجده، أجل، وأين وجده، في مخزن مع آخرين، ومن يكون هؤلاء، رجال جرحى، وفي أي مكان من المدينة، هناك في تلك

الجهة. أخذوه إلى ساحة جمع فيها الناس، إثنا عشر أو خمسة عشر رجلاً يجلسون على الأرض، من الواضح أن البعض منهم جرحى، وأمره الجنود، إنضم إلى الآخرين. فاحتج بعد أن أدرك أن هؤلاء الرجال من المتمردين، أنا نجار ورجل سلم، وتحدث أحد المتمردين وقال، نحن لا نعرف هذا الرجل، لكن الضابط المسؤول عن الأسرى رفض الأصغاء، ثم دفع يوسف دفعة قوية جعلته يطير لينتهي إلى حيث يكون بين الآخرين. قال له الضابط المكان الوحيد الذي ستذهب إليه هو مواجهة موتك. وجعلته الصدمة المضاعفة لسوء طالعه الرهيب والمصير الذي ينتظره مذهولاً لكنه ما إن فاق إلى رشده، حتى شعر بهدوء تام، قانعاً أن ذلك لم يكن غير كابوس سيمر سريعاً ولا حاجة به لأنه يعذب نفسه من تلك التهديدات لأنها ستتلاشى ما إن يفتح عينيه. ثم تذكر أنه حين حلم بالطريق المؤدي إلى بيت لحم كان متيقناً من الاستيقاظ، وفجأة بدأ بالارتعاش حين لاح له أخيراً اليقين القاسي لمصيره، سوف أموت، سوف أموت على الرغم من أنني بريء. وشعر بأن يداً وضعت على كتفه، هي يد أسير بجانبه، عندما يأتي الضابط القائد سنوضح له أنك لست واحداً منا وسيأمر بإخلاء سبيلك، وماذا عنكم، لقد صلب الرومانيون أي متمرد قبضوا عليه حتى الآن وليس من المحتمل أن يعاملونا بأفضل من ذلك، سينقذك الرب، ولكنك تنسى بالتأكيد أن الرب ينقذ الأرواح لا الأبدان. جاء الجنود بالمزيد من الأسرى، أزواجاً وثلاثات، ثم مجموعة كبيرة تقارب العشرين. جمع سكان سبفوريس في الساحة وثمة حتى نساء ورجال في الزحام، كانت تسمع همهمة قلقة ولكن لا أحد يجرؤ على الحركة دون أن يسمح له الجنود الرومانيون الذين ما زالوا يبحثون عن أي أحد ربما يكون قد ساعد المتمردين. بعد قليل، جرجر رجل آخر إلى الساحة وأعلن الجنود الذين أمسكوا به، هذا يكفي حتى الآن، وعند ذاك صاح الضابط المسؤول، أنهضوا جميعاً. ظن الأسرى أن قائد الكتيبة يقترب حتماً وقال

الرجل الذي بجانب يوسف له، هيا إستعد، وكان يقصد، إستعد لإخلاء سبيلك، وكأن الإنسان كان بحاجة إلى أن يهيئ نفسه للحرية، ولكن أي أحد وصل إلى هناك سيدرك أنه لم يكن القائد ولم يكتشف أحد أبداً من يكون، لأن الضابط المسؤول أعطى الأمر باللاتينية. ولا حاجة للقول أن كل كلام الرومان كان باللاتينية لأنه كان سيكون شيئاً لا يصدق لسليلي الذئبة أن يتحدثوا بألسنة بربرية، فلديهم مترجموهم لهذا الغرض، ولكن مادامت المحاورة هنا بين الجنود أنفسهم فلا حاجة للترجمة. أطاع الجنود قائدهم وأحاطوا بالأسرى على عجل، سيروا إلى الأمام، وسار جمع المدانين مع زحام الناس الذين يتبعونهم إلى خارج المدينة. لم يكن ثمة مكان ليوسف يتجه إليه طلباً للرحمة وهو يسير مع الأسرى. رفع يديه إلى السماء ونادى، أنقذني، لست واحداً منهم، أنا بريء فأعني، عند ذاك جاء جندي ونخسه من الخلف بنتوء رمحه وكاد يطيح به إلى الأرض. كل ذلك كان ضياعاً. ولم يعد يشعر وهو يائس إلا بالكراهية لأنانياس الملام على وقوعه في هذا المأزق، لكن هذا الشعور سرعان ما زال عنه مخلياً السبيل للشعور بالفراغ. فكر في نفسه، لا مكان آخر إلتجيء إليه، لكنه كان مخطئاً، وسيذهب إلى هناك حالاً. وعلى الرغم من غرابة ذلك، فان يقينه بالموت جعلته يهدأ. نظر حوله إلى رفاقه في سوء الطالع هذا يبدون رابطي الجأش، البعض منهم كانوا كئيبين طبيعياً، لكن الآخرين كانوا يرفعون رؤوسهم عالياً بتحد. أغلبهم كانوا من الفرّيسيين. ثم تذكر يوسف أطفاله للمرة الأولى وفي لحظة سريعة تذكر حتى زوجته، لكن كل تلك الوجوه والأسماء كانت عبئاً ثقيلاً على ذهنه المتعب. ولأنه لم ينم ولم يأكل شيئاً شعر بالوهن ولم يستطيع التركيز، الصورة الوحيدة التي مكثت هي صورة يسوع، ولده البكر، وعقابه المحتوم. تذكر محاورتهما عن حلمه وتذكر نفسه وهو يقول ليسوع، لا يمكنك أن تسألني مثل هذه الأسئلة ولا يجدر بي أن أجيبك بكل الأجوبة، ولكن الآن لم يعد ثمة وقت للإجابة.

نصب أربعون عموداً سميكاً على أرض عالية ممتدة تطل على المدينة في ثمانية صفوف، كل واحد منها قوي بما فيه الكفاية لحمل رجل. وعند أسفل العمود وضعت رافدة طولها يكفي لمد ذراعي رجل . عند رؤية أدوات التعذيب هذه حاول بعض الاسرى الهرب، لكن الجنود أعادوهم بالسيوف. وحاول أحد المتمردين أن يخوزق نفسه بواحد من تلك الأسلحة لكنه فشل في ذلك وأقتيد مباشرة إلى الصلب. وبعد ذلك بدأت العملية المضنية في مسمرة رسغ كل رجل من المدانين إلى الصليب قبل أن يرفعوهم على الأعمدة المنتصبة. كان الصراخ والعويل يسمعان عبر القرية وبكى الناس في سبفوريس أمام هذا المشهد المأساوي إذ أجبروا على مشاهدته على أنه تحذير لهم. رفعت الصلبان الواحد بعد الآخر وعلى كل واحد منها علق رجل، وسحبت الأرجل كما رأينا من قبل، من يدري لماذا، ربما كان ذلك بأمر من روما لتسهيل الأمر وللاقتصاد بالمواد، إذ ليس ثمة الكثير لمعرفته عن عملية الصلب ليرى أن الصلب الذي صنع وفق قياسات الرجل المتوسط سيحتاج إلى المزيد من العمل ويكون ثقيل الحمل وعند الإمساك به، ولا حاجة لذكر عدم فائدته الحقيقية للضحايا، لأنه كلما كانت الأقدام قريبة من الأرض كلما سهلت عملية إنزال الجثة بعد ذلك، دون الحاجة لاستخدام السلالم، وذلك ما يسمح لهم بالمرور بسهولة من أذرع الصليب إلى أذرع أقاربهم، إن كان لهم أقارب، أو إلى أيدي حفاري القبور الذين لن يتركوهم ممدين هناك. وحدث أن يوسف كان آخر رجل يصلب، وذلك يعني إنه تحتم عليه أن ينظر إلى رفاقه المجهولين وهم يعذبون حتى الموت الواحد بعد الآخر. وحين قربت نهايته أخيراً كان قد أذعن لقدره ولم يعد يمتلك القدرة على الاحتجاج ببراءته ولربما فقد آخر فرصة له لانقاذ نفسه عندما قال الجندي الذي يدق المسامير للضابط المسؤول، هذا هو الرجل الذي إحتج بأنه كان بريئاً، توقف الضابط للحظة ممهلاً يوسف الوقت الكافي ليصيح، أنا بريء، لكن يوسف بقي صامتاً. نظر

الضابط إلى الأعلى ولربما قرر أن المقبرة سوف تحطم إن لم ينتصب آخر صليب وأن الأربعين سيكون رقماً دائرياً جميلاً، فأشار بيده، ومضت المسامير، وعند ذلك أطلق يوسف صرخة واستمر في الصراخ، ثم رفعوه إلى الأعلى، حملت ثقله المسامير التي اخترقت رسغيه، وأطلق صرخات ألم كثيرة مع نفاذ المسمار في كعبيه. يا إلهي العزيز، هذا هو الإنسان الذي خلقته، تبارك اسمك المقدس، مادام شتمك محرم. وفجأةً وكأن أحداً ما أعطى الإشارة، وقبض الرعب على سكان سبفوريس، ليس بسبب الصلبان التي يشاهدونها الآن بل لرؤية اللهيب الذي ينتشر سريعاً في المدينة حين دمرت النيران البيوت والمباني العامة، وحتى الأشجار في الباحات. وتحرك أربعة جنود من الكتيبة غير مبالين بالنيران التي أضرمت برفاقهم بين صفوف الموتى وراحوا يكسرون بانتظام عظام سيقانهم بقضبان حديدية. كانت سبفوريس كلها تحترق أينما نظرت، بينما سُحب المصلوبون الواحد بعد الآخر. وكان النجار، الذي اسمه يوسف، ابن هيلي، رجلاً في عز الشباب، فقد تجاوز للتو سن الثالثة والثلاثين.

عندما تنتهي هذه الحرب، ولن يطول ذلك، لأننا كما نرى إنها في مراحلها الأخيرة، سيكون ثمة حساب أخير لأولئك الذين فقدوا حيواتهم، الكثير هنا، والكثير هناك، البعض منهم قريب، والبعض بعيد، وإن يكن ذلك صحيحاً فمع مرور الوقت يفقد عدد أولئك الذين قتلوا في الكمائن أو في ساحات المعركة كل أهميته وسريعاً ما ينسى، وأولئك الذين صلبوا الذين يقارب عددهم الألفين طبقاً إلى أكثر الاحصاءات الموثوقة، سيبقى سكان اليهودية والجليل يتذكرونهم إلى مدى طويل، حتى بعد حروب أخرى إندلعت وسفح فيها المزيد من الدم. ألفا رجل مصلوب عدد كبير ولكنه سيبدو أكبر لو كنا قد تخيلناهم يوضعون كل واحد على بعد ميل بمحاذاة الطريق الخارجي، أو يطوقون، مثلاً البلاد التي ستعرف في يوم ما بالبرتغال، التي لها محيط أكثر أو أقل من هذا الحجم. بين نهر الأردن والبحر يجلس الأرامل واليتامى ينتحبون، تلك عادة قديمة، من أجل هذا هم أرامل ويتامى، ولذلك ينتحبون، وما إن يكبر أولادهم ويضطرون لخوض حرب جديدة، سيكون هناك المزيد من الأرامل واليتامى يحلون محلهم وإن تغيرت العادة في غضون ذلك، وأصبح اللون الأسود هو لون الحداد بدل الأبيض أو العكس بالعكس، قُدّر للنساء أن يرتدين الأوشحة السوداء، فلا تتغير أبداً دموع الحزن عندما يكن مخلصات، قبل أن يقصصن شعرهن.

لم تنتحب مريم، حتى الآن، لكن في روحها شعور سابق بالموت، لأن زوجها لم يعد للبيت وثمة إشاعة في الناصرة عن آثار حمار

زوجها، لأن الموسم لم يكن موسم أمطار وليس سوى النسيم العليل يلاعب التربة. من الممكن أن تضيع آثار أقدام يوسف وسط آثار بعض الحيوانات قبل التأريخ التي سكنت هذه الأنحاء في عصر سحيق. نحن نقول، إنه ليس إلا أمس، وقد تقول أيضاً، قبل ألف عام، ذلك لأن الزمن ليس خيطاً واحداً. يمكننا أن نقيسه من عقدة لعقدة، الزمن سطح مائل ومتموج لا يمكن إلا للذاكرة أن تحركه وتقربه. رافق مجموعة من أهالي الناصرة مريم ويسوع، البعض منهم حركتهم العاطفة، وتحرك الآخرون لمجرد الفضول، وثمة بعض الأقارب البعيدين من أنانياس، لكن الأخيرين سيعودون إلى بيوتهم لأنهم كانوا في شك ما إن خرجوا، فما داموا لم يجدوا جثة فلربما لا يزال حياً. لم يحدث لهم أبداً أن بحثوا وسط بقايا المخزن حيث من الممكن أن يتعرفوا على جثته بين البقايا المتفحمة. كان أولئك الناصريون قد اجتازوا نصف الرحلة حين التقوا بمفرزة جنود كانت في طريقها إلى تفتيش قريتهم، لذلك عاد البعض منهم لقلقهم عما سيحدث لممتلكاتهم، لأن أحداً لا يمكنه أن يخمن ما الذي سيفعلونه عندما يطرقون الباب ولا يجدون أحداً هناك. أراد الضابط المسؤول معرفة السبب الذي جعل هؤلاء القرويين يتوجهون إلى سبفوريس، وأجابوه، إننا ذاهبون لرؤية الحريق، وهو تبرير وافق عليه الضابط ذلك لأن للحرائق جاذبية لا تقاوم من قبل البشر منذ أن بدأ العالم وثمة حتى من يقول أن النار نوع من النداء الداخلي غريزية وتذكار للنار الأولى، وكأن الرماد احتفظ بما حرقه، ذلك ما يبرر، تبعاً إلى هذه النظرية، نظرة الانبهار تلك على وجوهناونحن نراقب اللهب في مخيم أو وميض الشمعة في غرفة مظلمة. أنكون نحن البشر طائشين أو جريئين مثل تلك الفراشات أو بقية الحشرات المجنحة، نرمي بأنفسنا إلى النار، ثم من يدري، يكون الوهج ضاريا والضياء باهراً حتى أن الرب يفتح عينيه وينهض من سباته، متأخراً جداً، بالطبع، كي يتعرف علينا، ولكن في وقت رؤية الخواء الوشيك حين نكون قد ذبنا في الدخان. على

الرغم من أن مريم قد تركت خلفها منزلاً مليئاً بالأطفال دونما أحد يرعاهم، فقد رفضت العودة وهي مرتاحة الضمير لأن الجنود لا يغزون القرية كل يوم ويذبحون الأطفال. ثم بالإضافة إلى ذلك فإن الرومانيين عموماً لا يرغبون فقط بل يتوقون لرؤية أولئك الأطفال وهم يكبرون ما داموا يبقون أذلاء يدفعون ضرائبهم بانتظام. سارت الأم وولدها بمحاذاة الطريق بمفردهما بينما كان أقارب أنانياس، نصف دزينة منهم، منشغلين بالحديث حتى أنهم راحوا يجرجرون بخطاهم في الخلف. لم يكن لمريم ويسوع غير كلمات الأسى يتبادلانها لذلك فضلاً أن يبقيا صامتين أفضل من أن يحزنا بعضهما البعض، فخيم صمت غريب في كل مكان، ولم تسمع طيور تغني، وسكنت الريح تماماً، لا شيء سوى صوت الخطوات، وحتى هذا تراجع، مثل متطفل دخل في منزل خالٍ بنية حسنة، ظهرت سيفوريس فجأة للعيان ما إن استداروا من آخر منعطف في الطريق. ما زالت البعض من المنازل تحترق، وترتفع هنا وهناك أعمدة نحيفة من الدخان، لجدران مسودة والأشجار متفحمة من الأسفل حتى القمة، لم تلمس أوراق النباتات غير لون الصدأ. وهنا على اليمين تنتصب الصلبان.

طفقت مريم تجري، ولكنهم ما زالوا بعيدين واضطرت إلى أن تبطئ لتسترد أنفاسها. فبعد أن ولدت كل أولئك الأطفال بلا فترات للراحة أمسى قلبها أكثر ضعفاً. وكان يسوع، ابنها الذي تتشرف به قد فضل مرافقة أمه والبقاء إلى جانبها، الآن وفيما بعد، كي يتشاطرا الأفراح والأحزان ذاتها، لكنها كانت تمشي ببطء شديد تسحب بقدميها، لن نصل إلى هناك يا أمي على هذا المنوال، وأشارت كأنها تريد القول أن، اسبقني أنت وسأتبعك، وانطلق يسوع بأقصى سرعته تاركاً الطريق ليسير عبر الحقول ليختصر الطريق منادياً أبي، أبي، آملاً أن لا يكون هناك، خشية أن يكون قد وجده من قبل. وصل الصف الأول، لا يزال

هناك بعض المصلوبين معلقين على صلبانهم بينما أخذ آخرون ووضعوا على الأرض في الانتظار. ثمة القليل ممن لديهم أقارب قريبون منهم ليأخذوا جثثهم ذلك لأن أغلب المتمردين جاؤوا من أماكن بعيدة، فهم ينتمون إلى فرقة خليطة قامت بآخر هجوم متحد لها، ثم تبعثرت الآن في الأخير، كل واحد ترك ليواجه مصير موته منفرداً في عزلة لا مثيل لها. لم ير يسوع أباه، يرى قلبه لكن عقله يخبره، انتظر، لم نصل بعد إلى آخر الصف ولكن، في حقيقة الأمر، هذه هي النهاية. ممدد على الأرض هذا هو الأب الذي يبحث عنه، ثمة القليل من الدم، ليس سوى تلك الجروح التي في رسغيه وقدميه، قد تكون نائماً، يا أبتي، ولكن لا، لست نائماً، كيف يمكن أن تكون نائماً ورجلاك مثنيتان هكذا، كانوا لطفاء معك إذ أنزلوك من الصليب، ولكن ثمة الكثير من الجثث هنا حتى أن الأرواح الصالحة التي اهتمت بك لم يتسن لها الوقت بأن تقوم عظامك المتكسرة. الفتى الذي اسمه يسوع يركع إلى جانب أبيه المتوفى وينتحب، ولم يستطع إعانة نفسه على لمس الجثة، إذ رغب في ذلك بشدة، ولكن جاءت لحظة انتصر فيها حزنه على خوفه وعانق ذلك الجسد الهامد. أبتاه، أبتاه، نشج بصوت عال ورافقت صرخته صرخة أخرى، ما الذي فعلوه بك، يا يوسف، إنه صوت مريم التي وصلت تواً، مرهقة وتنشج من قلبها لأنها مذ رأت ابنها يتوقف عن بعد، أدركت ما كان متوقعاً. انهمرت دموع مريم ما إن رأت الحالة الكارثية التي عليها حال سيقان زوجها. نحن في الحقيقة لا نعرف ما الذي يحدث لأحزان الحياة بعد الموت، وخصوصاً تلك اللحظات الأخيرة من المعاناة، ربما يكون من الممكن أن ينتهي كل شيء مع الموت ولكننا لا نستطيع التأكد أن تذكر المعاناة لا يقوى على البقاء عدة ساعات على الأقل في هذا الجسد الذي نصفه بالميت، ولا يمكننا إلغاء الإمكانية بأن المادة تستخدم التعفن على أنه المحاولة الأخيرة في تخلص نفسها من المعاناة. سحبت مريم رداء يوسف إلى الأسفل برقة لم تكن تسمح لنفسها أبداً أن تظهرها في حياة

زوجها بعد محاولة تقويم رجليه المتكسرتين اللتين منحتاه المظهر الغريب لدمية تجمع أجزاؤها. وساعد يسوع أمه دون أن يلمس الجسد في سحب الرداء على عظام القصبة النحيفة، الاجزاء الأكثر هشاشة في الجسم البشري والأكثر ألماً مما يذكرنا بحالتنا الهشة. عظام القصبة المتكسرة تلك جعلت الأقدام معلقة جانباً وراح الذباب بعد أن انجذب برائحة الدم يتجمع حول الجراح التي تأثرت بالمسمار. كان خُفا يوسف قد سقطا إلى الأرض إلى جانب ذلك الجذع السميك الذي كان آخر ثمرتين فيه. وكانا متهرئين ومغطيين بالتراب، وكان من الممكن أن يمكثا هناك منسيين لولا أن يسوع أنقذهما دونما تفكير. وكأنه يطيع أمراً ودون أن تلاحظ مريم مد ذراعه وشدهما تحت حزامه، وهي الاشارة الرمزية المثالية بأن الأبن الأول ليوسف يطالب بوراثة أبيه، فمن المؤكد أن الأشياء تبدأ بمثل هذه البساطة وحتى اليوم يقول الناس، في حذاء أبي أنا أيضاً أصبح رجلاً، أو يُعبر عن ذلك بتعابير أكثر إيجازاً، أنا رجل في حذاء أبي.

ظل الجنود الرومانيون يراقبون الأمر على بعد حذر، مستعدين للأختراق في أية لحظة يرون فيها أي سلوك غير منضبط بين أولئك الذين يندبون موتاهم ويهيئونهم للدفن. لكن أولئك الناس لم يبدوا أية إشارة على إقامة شغب، ولم يكونوا يفعلون شيئاً غير الصلاة وهم يتنقلون من جثة لأخرى الأمر الذي استغرق أكثر من ساعتين. مزقوا ثيابهم وتلوا صلواتهم من أجل الموتى أمام كل جثة، الأقارب على اليسار، والآخرون على اليمين، وكانت أصواتهم تحطم صمت المساء وهم ينشدون مبتهلين كالآتي، يا إلهي، من يكون الإنسان الذي أنت رحيم به، وإين الإنسان الذي تتفقده ليس الإنسان سوى هبة ريح، تمر أيامه كما يمر الظل، أنه يوجد ثم يسقط ليرى الموت، وينقذ روحه بالهروب إلى القبر، الإنسان الذي تلده امرأة يمنح القليل من الوقت والكثير من

الجلبة، إنه يتبرعم مثل زهرة ويذوي مثل زهرة، إنه يتلاشى كظل ولا بقاء له، من يكون الإنسان الذي تفكر فيه، وابن الإنسان الذي تتفقده، وبعد التسليم باللاشيئية المطلقة للإنسان في عيون الرب، وبنغمات عميقة حتى أنها بدت تأتي من الوعي الداخلي أكثر ما يكون من الصوت ذاته، إنغمر الجميع في إبداء التعظيم للرب الكلي القدرة، القيمة التي لا شك فيها، لا تنس يا إلهي، أنك خلقت الإنسان أدنى قليلاً من الملائكة وتوجته بالمجد والشرف. وحينما وصل المعزون إلى يوسف الذي لم يستطيعوا التعرف عليه، والذي كان آخر الأربعين. مروا به سريعاً، لكن النجار كان قد أخذ معه إلى العالم الآخر كل ما يحتاجه، وكانت عجلتهم مبررة لأن القانون لا يسمح بأن يبقى المصلوب غير مدفون حتى اليوم التالي وكانت الشمس قد غابت من قبل. ولأن يسوع كان محدداً بشبابه، فلم يكن مجبراً على تمزيق ثيابه، كان مستثنى من مشهد التعزية هذا، لكن صوته القوي والصافي يمكن أن يسمع فوق كل أصوات الآخرين حين رتل، تبارك الرب، ربنا، ملك الكون، الذي خلقكم بالعدل، وحفظ حياتكم بالعدل، وأطعمكم بالعدل، والذي بالعدل هداكم إلى معرفة هذا العالم، والذي سيبعثكم بالعدل، تبارك الرب، الذي يبعث الموتى. ربما كان يوسف، الممدد على الأرض، إن كان لا يزال يشعر بألم تلك المسامير، قد سمع هذه الكلمات، ولابد أنه يعرف أي دور لعبته عدالة الرب في حياته، وهو الآن لم يعد أبداً يتوقع أي شيء آخر من هذا أو ذاك. بعد أن أنهوا صلاتهم، توجهوا لواجب دفن موتاهم، بيد ان ثمة الكثير من الموتي ومع الاقتراب السريع لليل كان من المستحيل إيجاد مكان يكفيهم جميعاً، مما يعني قبراً حقيقياً يغطى بالحجر، وبالنسبة للف الجثث بقماش أو حتى بكفن بسيط، فلا أمل في ذلك بتاتاً. لذلك قرروا أن يحفروا حفرة طويلة تكفيهم جميعاً، ولم تكن تلك هي المرة الأولى ولن تكون الأخيرة بأن تدفن الجثث في مكانها. كان يسوع هو الآخر قد امسك بمجرفة وراح يحفر بنشاط إلى جانب الكبار. حكم القدر بحكمته أن يدفن يوسف

في قبر يحفر من قبل إبنه، ذلك ما يحقق النبوءة، إبن الإنسان سيدفن الإنسان بينما سيبقى هو دون دفن. على الرغم من أن هذه الكلمات قد تبدو ملغزة لأول وهلة، فهي ببساطة تنص على الوضوح، وهو بالتحديد أن آخر إنسان، بسبب بقائه في الأخير، لن يجد من يدفنه. الآن لن تكون هذه هي حالة الفتى الذي دفن والده للتو، فلن ينتهي العالم به وسنكون هنا لآلاف وآلاف من السنين في تتابع ثابت من الولادات والموت، وإن يكن الإنسان دائماً الخصم العنيد والقاتل للانسان، فهو من أجل هذا السبب حري به أن يستمر بأن يكون حفّار قبر نفسه.

كانت الشمس قد غابت خلف الجبل. تحركت غيوم هائلة داكنة فوق وادي الأردن ببطء باتجاه الغرب وكأنها سحبت بهذا الضياء المتلاشي الذي جعل حافاتها العليا مشوبة باللون القرمزي. وفجأة أمسى الجو أكثر برودة وبدا المطر محتملاً الليلة على الرغم من أنه من غير المعتاد في هذا الوقت من السنة. كان الجنود قد انسحبوا من قبل، مستفيدين من الضياء المتلاشي ليعودوا إلى معسكرهم الذي يبعد مسافة ما وحيث يكون من المحتمل أن رفاقاً لهم في السلاح قد وصلوا من قبل بعد أن قاموا بتفتيش مماثل في الناصرة. هكذا يجب أن تخاض الحرب الحديثة، بتآزر تام، وليس بالأسلوب العشوائي الذي كانت تتخذه قوة يهوذا الجليلي، وتكون النتيجة، كما يراها الجميع، تسعة وثلاثون رجلاً صلبوا، والرجل الأربعون، رجل بريء جاء بكل النوايا الطيبة ولاقى ذلك الموت التعس. سيبحث سكان سبفوريس عن مكان آخر يقضون فيه الليل بين حطام المدينة المحترقة وعند الفجر سوف تنقذ كل عائلة أية ممتلكات يمكنها إنقاذها من بقايا لبيوت ثم ينطلقون لبدء حياة جديدة في مكان آخر، ذلك لأن سبفوريس لم تدمر فحسب، بل أن روما لن تسمح بإعادة بنائها حالياً. مريم ويسوع ظلان وسط غابة معتمة ليس فيها بقايا جذوع الأشجار، تحضن الأم ولدها، روحان مذعورتان تبحثان كروح

واحدة طلباً للشجاعة، ويبدو أن الموتى الذين تحت الأرض يتوقون إلى إعاقة الحياة. اقترح يسوع على أمه، دعينا نقضي الليلة في المدينة، لكن مريم أخبرته، لا نستطيع، فأخوتك وأخواتك وحدهم ولابد أن يكونوا جائعين. فهم لا يكادون يعرفون أين يمشون. بعد الكثير من الزلل والتعثر، وصلا أخيراً إلى الشارع الممتد في الظلام مثل قاع نهر متيبس. وما كادا يغادران سبفوريس حتى بدأت الأمطار تهطل عليها، بادئة بقطرات ثقيلة جلبت صوتاً ناعماً وهي تتصل بالغبار السميك الذي على الأرض. ثم صار المطر شديداً وأكثر غزارة، وسرعان ما تحول الغبار إلى طين وتحتم على مريم وابنها أن يحملا خفيهما حتى لا يفقداهما في الطريق. سارا بصمت، وغطت الأم ولدها بوشاحها، لم يكن لديهما ما يقولانه لبعضهما البعض، ربما كانا يفكران بغموض أن يوسف لم يمت أبداً، وأنهما عند وصولهما إلى البيت سوف يجدانه عند الأطفال في أبهى ما يكون ولسوف يسأل زوجته مؤنباً، ما الذي جعلك تخرجين دون أن تأخذي إبناً مني بحق الشيطان، لكن عيني مريم اغرورقتا بالدموع ثانية، ليس بسبب حزنها وأساها فقط ولكن أيضاً بسبب الإرهاق الذي لا حدود له، وبسبب هذا المطر المستمر والعنيد، وهذه العتمة الكئيبة، كل شيء حزين جداً وأسود إزاء أي أمل متبق بأن يوسف قد لا يزال يكون حياً. في أحد الأيام سيخبر أحد ما هذه الأرملة عن المعجزة التي شاهدها عند بوابات سبفوريس عندما تجذرت جذوع الأشجار التي استخدمت لصلب الأسرى ثانية وأينعت أوراق جديدة، وكلمة معجزة هي الكلمة المناسبة، أولاً لأن الرومان كانوا معتادين على أخذ الصلبان معهم حين يرحلون، وثانياً لأنه كان من المستحيل لجذوع الأشجار المتفحمة من الأعلى إلى الأسفل أن يبقى فيها أي نسغ أو قناة بإمكانها أن تحول الأعمدة السميكة الملطخة بالدماء إلى أشجار حية. الذين يصدقون ذلك يعزونه إلى دم الشهداء، ويفضل المتشككون أن يعزوه للمطر، ولكن لا أحد قد سمع أبداً عن دم أو مطر يعيد الحياة في

الأشجار حين تتحول إلى صلبان وتترك هناك على منحدرات الجبال أو في سهول الصحراء. وما الذي لا يجرؤ أحد على البوح به أن تلك كانت مشيئة الرب، ليس فقط بسبب أنها مشيئته، مهما تكن غامضة، ولكن أيضاً لأن لا أحد يمكنه التفكير بأي تبرير معقول لماذا يتحتم على مصلوبي سبفوريس أن يكونوا مستفيدين من هذا التصريح الانفرادي للقدرة السماوية، التي تتشابه تماماً مع تلك التي لدى الآلهة الوثنية ستعود الحياة لهذه الأشجار هنا لوقت طويل وسيأتي اليوم الذي ستنسى فيه هذه الواقعة، ولأن البشر دائماً ما يبحثون عن تفسير لكل شيء، سواء أكان حقيقياً أم مزيفاً، فلسوف تختلق الحكايات والأساطير، تبدأ بداية واقعية قليلاً أو كثيراً، ثم تتحرك تدريجياً إلى ما هو أبعد فأبعد عن الحقيقة حتى يتحول كل شيء إلى فنتازيا صافية. ثم سيحين الوقت الذي ستموت فيه الأشجار من الشيخوخة أو ربما تقطع لفسح المجال لشارع جديد أو مدرسة أو منزل أو مركز تجاري أو حصن عسكري، سيحفر الآثاريون التربة ويخرجون تلك الجماجم المدفونة هناك بعد ألفي عام. وسيظهر الأنثروبولوجيون في المشهد وسيتفحص خبير في التشريح تلك الآثار ليعلن للعالم المصدوم أن ثمة شهادة قاطعة بأن الناس قد صلبوا في تلك الأيام وسيقانهم مثنية إلى الركب. وعندما لا يستطيع الناس أن يوثقوا تلك الموجودات على أساس علمي سيجدونها بائسة من الناحية الجمالية.

عندما وصلت مريم ويسوع إلى البيت، وهي ناقعة حتى الجلد ومغطاة بالطين وترتجف من البرد، وجدا أن الأطفال في أحوال أفضل مما كانا يتوقعان، ويعود الفضل لحيلة يعقوب وليزا اللذين كانا أكبر من الآخرين. عندما ازدادت البرودة في الليل، تذكروا إشعال النار، حيث جلسوا محتشدين إزاء بعضهم البعض وحاولوا نسيان ضربات الجوع. وعند سماع طرقات على الباب الخارجي ذهب يعقوب لفتح الباب. كان المطر يزداد غزارة ومع دخول أمهم وأخوهم من العتبة أصبح المنزل

في فيضان. كان الأطفال يحلقون بعيونهم وأدركوا أن أباهم لن يعود عندما أغلق يسوع الباب، ولكنهم لم يقولوا شيئاً حتى تساءل يعقوب في الأخير، أين أبي. امتصت الأرض الماء المتساقط من ثيابهما المبللة، لم يقطع الصمت سوى صوت الخشب الرطب وهو يتفرقع في الموقد. ظل الأطفال يحلقون بعيونهم تجاه أمهم. وكرر يعقوب تساؤله، أين أبي، وفتحت مريم فمها لتتكلم، لكن تلك الكلمة المشؤومة، التي تشبه أنشوطة المشنوق، كادت تخنقها، مما أجبرت يسوع لأن يبادر في الكلام، مات أبي، هكذا أخبرهم، ودون أن يعلم السبب، ربما ليقدم الدليل الذي لا جدال فيه بأن يوسف قد مات حقاً، أخرج الخفين الرطبين من حزامه وعرضهما على إخوته، لقد استرجعت هذين. كان الأطفال الكبار قد اغرورقت عيونهم بالدموع من قبل ولكن رؤية ذينك الخفين المهجورين شاقة عليهم جميعاً مما جعل الأرملة وأطفالها التسعة يشتركون في نحيب من القلب. ولأن مريم لم تكد تعرف أيهم تواسي، وقعت إلى الأرض على ركبتيها في حالة من الإرهاق الشديد فتجمع الأطفال حولها مثل عنقود عنب من الكرمة التي لم تكن بحاجة لأن تعصر كي يتسرب منها دم الدموع الذي لا لون له، بقي يسوع واقفاً وحده، ممسكاً بالخفين قريباً من صدره، منشرحاً إلى أنه في يوم ما سيرتديهما، أو حتى في هذه اللحظة، لو استجمع ما يكفي من الشجاعة. وانسحب الأطفال واحداً بعد الآخر عن أمهم، وترك الأطفال الكبار بروية أمهم لأساها، وتبعهم الصغار. ولأنهم لم يستطيعوا مشاركة أمهم في حزنها، فقد بكوا ببساطة والأطفال في هذه الحالة يشبهون الشيوخ الذين يبكون بلا سبب، حتى وإن لم يعودوا يشعرون بأي شيء أو لأنهم غير قادرين على الشعور بأي شيء. بقيت مريم راكعة هناك في وسط الغرفة، وكأنها تنتظر قراراً ما أو حكماً. وحين بدأت ترتجف، أحست برطوبة ثيابها، فقامت وفتحت صندوقاً وأخرجت رداءً قديماً مرقعاً كان يعود لزوجها الفقيد. أعطت يسوع وقالت له، إخلع ثوبك المبلل وارتد هذا واذهب لتجلس إلى جانب

النـار. ثم استدعت بنتيها ليزا وليديا وجعلتهما ترفعان بساطاً لتعمـل حاجزاً بينما تغير ثوبها هي أيضاً، قبل أن تبدأ في تحضير شيء للعشـاء بالمؤونة القليلة المتبقية في البيت. جلس يسوع إلى جانب النـار وهو يرتدي ثوب والده. كان طويلاً جداً عليه عند الحاشية والكمين، ولو كانوا في ظرف آخر لسخر إخوته منه لأنه يبدو مثل فزاعة، لكن الوقت غير مناسب للمزاح، ليس فقط لأنهم كانوا في حداد، بل أيضاً لأن الفتى تنبعث منه روحية التفوق، والذي بدا فجأة ذا مكانة ناضجة، وعظم لديه هذا الإحساس عندما حمل ببطء وروية خفي أبيه الرطبين أمام النـار، العلامة التي من غير المحتمل أن تخدم أي غرض ذي مغزى ما دام مالكهما قد غادر العالم. كان يعقوب، الذي هو الثاني في الترتيب بين الأطفال، ذهب ليجلس إلى جانب يسوع وسأله بصوت منخفض، ما الذي حصل لأبي، لقد صلبوه مع المتمردين الآخرين، هكذا همس له يسوع، ولكن لماذا، من يدري، كان ثمة أربعون رجلاً وأبي أحدهم، ربما هو، أيضاً، كان متمرداً، عمن تتكلم، عن أبي، بالطبع، مستحيل، كان هنا دائماً في البيت، يكدح على مصطبته، وماذا عن الحمار، هل وجدته، لم أره في أي مكان، حياً أو ميتاً. وما أن انتهوا من الطعام حتى راحت رؤوس الصغار تتمايل من النعاس، مما لا شك فيه أنهم ما زالوا متعكرين روحياً، لكن أجسادهم كانت بحاجة إلى الراحة. فرشت بُسط الأولاد، بمحاذاة الجدار في النهاية البعيدة من الغرفة، وقالت مريم للبنتين، سوف تنمن هنا إلى جانبي كل واحدة من جانب تفادياً للغيرة. هبّ الهواء البارد من الهوة التي في الباب لكن المنزل بقي دافئاً. شيء من الحرارة لا يزال ينبعث من النار، وتجمع الأطفال بعضهم إلى بعضهم وغطوا تدريجياً في نوم عميق على الرغم من تنهداتهم الحزينة. كانت مريم قد كبحت جماح دموعها وحثتهم على النوم لأنها كانت تتوق إلى أن تنوح على فقدان زوجها دون أن يعكر ذلك أحد، واتسعت عيناها وهي تتأمل مستقبلها دونما زوج وعليها أن تطعم تسعة أفواه. ودون أن

تنتبه غادر الحزن روحها واستسلم جسدها للإرهاق ورقدوا جميعاً.

عند منتصف الليل أيقظ مريم صوت أحد ما يئن. وظنت أنها تحلم حتماً، لكنها لم تكن تحلم، فقد سمعته للمرة الثانية وكان صوته أعلى في هذه المرة. فجلست حذرة كي لا تقلق نوم بنتيها ونظرت حولها، غير أن ضوء المصباح الزيتي لم يكن يصل إلى النهاية البعيدة من الغرفة، لمن يكون هذا الصوت، تساءلت مندهشة، لكنها في أعماقها أدركت أن ذلك هو يسوع الذي يئن. نهضت بهدوء، وذهبت لتأتي بالمصباح المعلق بمسمار على الباب ورفعته فوق رأسها لتحصل على مزيد من الضوء، تفحصت الأطفال واحداً بعد الآخر، كان يسوع يتمايل ويتقلب ويتمتم مع نفسه وكأنه في كابوس، لابد أنه يحلم بأبيه، لم يزل صبياً لكنه شهد الكثير من الأهوال والموت وسفك الدماء والعذاب. شعرت مريم أن عليها إيقاظه، لتقطع هذا الشكل الآخر للهلاك، ثم غيرت رأيها، لم ترغب في معرفة ما الذي يحلم به ابنها، ولكن حتى هذه الفكرة غابت عن تفكيرها حين لاحظت أن يسوع كان يرتدي خفي أبيه. وجدت أن ذلك شيئ غريب أثار فيها القلق، أية فكرة حمقاء، لا معنى لها على الإطلاق ومشينة بأن يرتدي خفي أبيه في اليوم الأول من وفاة الرجل المسكين. فارتبكت ولم تعرف ما الذي عليها التفكير فيه، وعادت إلى فراشها. ربما بسبب ذينك الخفين والرداء يعيش ولدها ثانية في حلم مغامرة أبيه المميتة منذ اليوم الذي ترك فيه المنزل ولذلك فقد تحول إلى عالم الرجال، الذين ينتمي إليهم من خلال ناموس الرب، ولكنه الآن ربما يدخل بثقة أكبر كونه وريث يوسف لممتلكاته البسيطة، رداءً مرقعاً وخفين متهرئين، وأحلامه، حتى أنه ارتأى أن يتتبع فقط خطى والده الأخيرة على الأرض. ولم يخطر ببال مريم أبداً أنه قد يحلم بشيء آخر.

جاء الفجر بسماء صافية. وعندما ظهرت الشمس كانت دافئة وبراقة وليس ثمة أية علامة للمطر. انطلقت مريم مبكراً مع كل أبنائها الذين

بعمر المدرسة، يصحبها يسوع الذي كان، كما ذكرنا من قبل، قد أنهى دراسته. كانت في طريقها إلى الكنيس لتخبر الشيوخ بوفاة يوسف والظروف التي قادت إلى صلبه، مضيفة بحذر شعائر الدفن التي لاحظتها في حينها، على الرغم من العجالة والارتجال التي عُملت بها كل الأشياء. وحين وجدت نفسها وحيدة مع يسوع بينما هما متجهان إلى البيت، فكرت أن هذه ربما تكون فرصتها كي تسأله عن السبب الذي جعله يقرر ارتداء خفي أبيه لكن شيئاً ما ثناها في اللحظة الأخيرة. في كل الاحتمالات فأن يسوع سيكون غير قادر على تفسير ذلك وكان سيشعر بارتباك عميق. وعلى العكس من الطفل الذي ينهض في منتصف الليل ليسرق الطعام ويمسكون به فلا يمكنه تبرير فعلته بأنه كان يشعر بالجوع ما لم يكن يتكلم عن جوع آخر مجهول لدينا. ثم طرأت فكرة أخرى لمريم. بعد أن أصبح ابنها رجل البيت، من حقه عليها كونها أمه التي تعتمد عليه أن تبين له احترامها وتقديرها له وتهتم بأمر الحلم المشؤوم الذي يقض مضجعه في الليالي فسألته، هل كنت تحلم بأبيك، وتظاهر يسوع بعدم السمع، وأشاح بوجهه إلى البعيد، لكن ذلك لم يثن والدته عن تكرار السؤال، هل كنت تحلم. كانت قد تراجعت إلى الوراء حين أجاب ولدها في البداية، أجل، ثم أردف على الفور، كلا، وتجهمت تعابير وجهه وكأنه كان يرى أباه الميت مرة أخرى. سارا بصمت وحين وصلا البيت راحت مريم تمشط بعض الصوف وتفكر في نفسها أنها لابد أن تتقن مهاراتها وتقوم بعمل إضافي لإعالة أسرتها. عند ذاك وبعد أن نظر يسوع إلى السماء ليرى إن كان الجو الرائع يوشك على الأنتهاء، جلب مصطبة عمل أبيه من المظلة، ودقق بالأعمال التي بحاجة إلى إكمال ثم تفحص الأدوات المختلفة. إنشرحت مريم لرؤية إبنها وهو يتحمل مسؤوليته الجديدة بهذه الجدية. عندما عاد الأولاد الصغار من الكنيس وجلسوا جميعاً لتناول الطعام ليس سوى المشاهد اليقظ جداً سيتشكك أن هذه العائلة قد فقدت للتو زوجاً وأباً، وعدا

يسوع، الذي كشفت حواجبه الداكنة عن قلقه، فإن الأخرين، وبضمنهم مريم ظهروا هادئين ومتماسكين، فقد كتب، إبك بمرارة وقم بعويل مؤثر، ودع حدادك يكون طبقاً إلى استحقاقه ليوم واحداً واثنين، وإلا فإن الشر سيتكلم عنك ولذلك كن مواجهاً لحزنك، لأنه كتب أيضاً، لا تمنح قلبك للحزن، بل ضعه بعيداً متذكراً النهاية الأخيرة، ولا تنساها إذ ليس ثمة من عودة، فلن تربح منه شيئاً، وستؤذي نفسك ليس إلا. سيكون ثمة وقت للضحك والمتعة ولكن ليس بعد كما هو مؤكد وكما يتبع يوم آخر، ويتبع فصل آخر، وأفضل الدروس جميعها يأتي من الكتاب الكنيسي حيث كتب ذلك، ليس ثمة أفضل للأنسان في هذا العالم من أن يأكل ويشرب ويكون سعيداً حتى وإن كان يكدح. ذلك لأن الرب يعطي الإنسان الذي يتجلى الفضيلة في عينيه الحكمة والمعرفة والسعادة. في ذلك العصر ذاته ذهب يسوع ويعقوب إلى الدكة ليصلحا السقف الذي كان يترشح منه الماء أثناء الليل، وإن تساءل أحد لماذا لم تذكر مثل هذه المشكلة المنزلية الصغيرة، فدعوني أذكره بموت الإنسان، سواء أكان بريئاً أم غير ذلك، إذ أنه يتقدم على أي شيء آخر.

عاد الليل وسيشرق يوم آخر في الحال، وتعشت الأسرة بأفضل ما لديها ثم تمدد كل واحد على بساطه لينام. أستيقظت مريم جافلة في الساعات المبكرة من الصباح، كلا، لم تكن مريم هي التي حلمت، بل كان يسوع . كان الاصغاء لأنينه وتأوهه يشق القلب والذي سرعان ما أيقظ الاطفال الكبار، لكنه أستغرق وقتاً أطول في إيقاظ الصغار الذين كانوا يتمتعون بنوم البراءة العميق. وجدت مريم إبنها يتمايل ويتقلب على بساطه، ذراعاه مرفوعتان وكأنه يتقي ضربات سيف أو رمح،لكنه هدأ تدريجياً إما لأن مهاجميه قد انسحبوا أو لأن حياته تنحسر، ثم فتح يسوع عينيه وبكي في حضن أمه مثل طفل صغير، فحتى الرجال يعودون أطفالاً عندما يكونون مذعورين أو مضطربين، ولا يحبون أن يقروا

بذلك، إنهم مساكين، ولكن لا شيء أحلى من البكاء الحار للراحة من الحزن. تساءلت مريم مضطربة، ما الذي حصل يا بني، ما الذي يقلقك، ولم يستطع يسوع ولم يرغب حتى في إجابتها. لم تكن ثمة طفولة في نينك الشفتين المزمومتين، والحّت مريم، أخبرني بماذا كنت تحلم، وعادت لتسأله لتستحثه على الكلام، هل رأيت أباك، عند ذاك هز الفتى رأسه، فك نراعيه وعاد ليتمدد على بساطه قال لها، حاولي أن تنالي قسطاً من النوم، ثم التفت إلى أخوته، لاشيء، عودوا إلى النوم، سأكون بخير. إنضمت مريم إلى بنتيها لكنها استلقت متيقظة حتى الصباح، كأنها تتوقع أن يعود حلم يسوع في أية لحظة. تساءلت ما هذا الحلم الذي تسبب في الكثير من الكرب، على أن شيئاً غير ذلك لم يحدث. لم يحدث لمريم أبداً أن يكون ولدها أيضاً مستلقياً متيقظاً هناك ليتفادى الحلم مرة أخرى، لكن الذي ينفذ في عقلها تلك المصادفة الغريبة، بأن يسوع كان ينام بسلام وبدأت تنتابه تلك الكوابيس بعد وفاة والده مباشرة، لا سمح الله أن يكون ذلك هو الحلم ذاته، هكذا صلت في داخلها. إن يكن حسها السليم يحاول أن يؤكد لها أن الحلم لا يوصى به و لا يورث، فقد كانت مخدوعة تماماً بذلك لأن الرجال ليسوا بحاجة إلى أن يعهدوا بأحلامهم الواحد للآخر ذلك لأن الآباء والبنين لهم الأحلام ذاتها في الساعة ذاتها. بزغ الفجر أخيراً وتسرب الضياء عبر شق الباب. عندما فتحت مريم عينيها لاحظت أن يسوع لم يكن مستلقياً على فراشه، فسألت نفسها، أين ذهب. نهضت وذهبت لتنظر في الخارج. كان يسوع جالساً على فراش من التبن في السقيفة دافناً رأسه بين ذراعيه. ذهبت نحوه وقد أرتعشت من برودة الصباح، ، ودون أن تدرك مغزى وجود ابنها في تلك العزلة، سألته، هل تشعر بوعكة. رفع الفتى عينيه، كلا لست مريضاً، ما الذي يؤلمك إذاً، إنها تلك الأحلام التي تنتابني، تقول أحلام، كلا، الحلم ذاته الذي يجيئني منذ ليلتين، هل حلمت بأبيك على الصليب، كلا، لقد قلت لك من قبل، إنني أحلم بأبي لكنني لا أراه، قلت لي أنك لم تكن تحلم به، ذلك

لأنني لا أراه، بيد أنني متأكد أنه في حلمي، وما ذلك الحلم الذي لا يفتأ يعذبك. لم يجب يسوع مباشرة، نظر إلى أمه بادياً عليه العجز، وشعرت مريم أن إصبعاً قد لمس قلبها، فها هو ابنها ولد صغير وعلى وجهه وهن من لم ير النوم، والعلامات الأولى للحية التي تثير الضيق، كان هذا هو ابنها البكر الذي كانت ستعتمد عليه بقية حياتها، فتوسلت إليه، أخبرني بكل شيء، وتحدث إليها يسوع أخيراً، أحلم أنني في قرية ليست الناصرة وأنتِ معي، ولكنك لست أنتِ، ذلك لأن المرأة التي هي أمي في الحلم تبدو مختلفة، وثمة أولاد في عمري، من الصعب إحصاء عددهم، مع نساء من الممكن أن يكن أمهاتهم، شخص ما جمعنا في ساحة ونحن في انتظار جنود يأتون لقتلنا، بإمكاننا أن نسمعهم وهم يسيرون في الطريق، كانوا قد اقتربوا منا لكننا لا نستطيع رؤيتهم. في تلك اللحظة كنت لا أزال مذعوراً، مع علمي أنه مجرد حلم، ثم أشعر متيقناً أن أبي يأتي مع الجنود، التفت نحوك لتحميني، غير متأكد فيما إذا كنت أمي الحقيقية، لكنك لم تعودي هناك، ذهب الأمهات كلهن، وتركننا وحدنا نحن الأولاد، حتى أننا لم نعد فتياناً، بل أطفال رضع، أنا ملقى على الأرض وأبدأ في البكاء ويبكي الأطفال الآخرون أيضاً، لكنني كنت الوحيد الذي يرافق أبوه الجنود، نحن ننظر إلى الفتحة التي في الساحة التي كنا نعلم أنهم سيدخلون منها ولكن ليس ثمة علامة على ذلك، لذلك بقينا ننتظر ظهورهم ولم يحدث شيء، ومما جعل الأمور أسوأ، أننا كنا نسمع خطاهم تقترب أكثر فأكثر، هاهم هنا، كلا، لم يأتوا، ثم رأيت نفسي كما أنا الآن، وقعت في فخ في داخل ذلك الرضيع وأجاهد للخروج. وكأنني كنت مقيداً من اليدين والرجلين، ناديتك، لكنك لم تكوني هناك، ناديت أبي الذي جاء ليقتلني، وفي تلك اللحظة بالذات استيقظت في الليلة الماضية وكذلك الليلة التي قبلها. بينما كان يسوع يتكلم كانت مريم ترتعش من الرعب وعندما أدركت معنى الحلم أخفضت عينيها من الألم، فتوشك أشد مخاوفها أن تتحقق، لسبب لا يمكن تفسيره ورث

يسوع حلم أبيه، وعلى الرغم من الاختلاف البسيط، فكأن للأب والإبن منفصلين يحدث الحلم ذاته. وبينما كانت لا تزال ترتعش سمعت ابنها يتساءل، ما الحلم الذي اعتاد أبي أن يحلمه كل ليلة، كان كابوساً كأي كابوس ولكن ما كان فحواه، لا علم عندي، لم يخبرني أبوك به أبداً، هيا يا أمي، لا تخفي الحقيقة عن ولدك، من الأفضل نسيانها، ما أدراك إن كان سيصيبني الخير أم الشر، إحترم أمك، إنني أحترمك بالطبع، ولكن لماذا تخفين عني أشياء تخصني، لا تجبرني على الحديث أكثر من ذلك، في يوم ما سألت أبي لماذا كان مطارداً من قبل ذلك الحلم، وقد أخبرني إنني لا أملك الحق في السؤال وأن لا شيء لديه ليقوله لي. حسناً، لماذا لا تقنع بكلمات والدك، إنني أقنع بها ما دام في الحياة، لكنني الآن أتحمل المسؤولية، لقد ورثت رداءه، وخفيه وحلمه، وبهذه الأشياء بإمكاني أن أخرج إلى العالم ولكن لابد من معرفة المزيد عن الحلم، فلربما لن يعود. قال يسوع لأمه وهو يحدق في عينيها، لن ألح على المعرفة ما دام ذلك الحلم بعيداً، ولكن إن جاءني، أقسمي لي أنك ستخبرينني بكل شيء، فأجابته مريم، أقسم لك، وخضعت لإصرار ابنها وسلطته. ومن خلال قلبها المتكدر طار تضرع صامت الى الرب، صلاة بلا كلمات ربما كانت فحواها كالتالي، يا إلهي، إبعث ذلك الحلم كي يطاردني في الليالي حتى يحين يوم موتي، لكنني أتوسل إليك، استثن ولدي، استثن ولدي. وحذرها يسوع، لا تنسي وعدك، وأكدت له مريم، لن أنسى، وظلت تكرر لنفسها، استثن ولدي، يا إلهي، استثن ولدي.

لكن ولدها لم يستثن. جاء المساء. صاح ديك أسود عند الفجر، عاد الحلم وظهر رأس الحصان الأول حول الزاوية. سمعت مريم ابنها يئن، ولكنها لم تذهب لتهدئته. كان يسوع وهو يختض من الخوف وجسده مغطى بالعرق يعلم أن أمه تستلقي هناك متيقظة وتستمع إليه. فتساءل، ما الذي لديها لتخبرني به، بينما فكرت أمه من جانبها، ما الذي سأقوله

له، وحاولت أن تفكر يائسة كيف ستتهرب من إخباره بكل شيء. في الصباح التالي استعدت لأخذ أبنائها إلى الكنيس وعندها قال لها يسوع، إنني آت معك، كي نتحدث في البرية. وشعرت مريم أنها مستثارة الأعصاب حين كانت الأشياء تسقط من بين يديها وهي تحضر بعض الطعام، لكن نبيذ البلوى قد فعل فعله ولابد أنها الآن مغمورة به. حين وصل الأطفال الصغار إلى المدرسة، غادر يسوع ومريم القرية وهناك في البرية جلسا تحت شجرة زيتون حيث لا يتوقعان وجود أحد سوى الرب، هل يمكن أن يكون في الجوار، ربما كان يصغي لحديثهما. إذ كما نعرف، لا تستطيع الأحجار الكلام، حتى لو ضربنا الواحدة بالأخرى، وفيما يخص الأرض التي تحتها، فذلك هو المستودع الذي تصمت فيه الكلمات. قال يسوع، عليك الآن أن تفي بوعدك، وأخبرته مريم فوراً، حلم أبوك أنه كان جندياً يسير مع الجنود الذين في طريقهم لقتلك، لقتلي، أجل لقتلك، لكن ذلك هو حلمي، أعلم ذلك، أخبرته متنهدة؛ كان ذلك أسهل مما تخيلته، هكذا فكرت مع نفسها قبل أن تجهر بالقول، الآن وقد علمت، دعنا نعود إلى البيت، فالاحلام كالغيوم، تأتي وتذهب، أنت ورثت هذا الحلم لأنك كنت مولعاً بأبيك، لم يرد أن يقتلك وما كان ليفعل ذلك أبداً، وحتى لو أمره الرب ذاته أن يفعل ذلك فإن ملاكاً كان سيمنع يده، كما حدث لإبراهيم عندما أوشك أن يضحي بإبنه إسحاق. فقال لها يسوع بفظاظة، لا تتحدثي عن أشياء لا تعرفين عنها شيئاً وأدركت مريم أن النبيذ اللاذع كان لابد أن يشرب حتى الثمالة. الشيء الأكيد الذي أعرفه يا بني، أن مشيئة الرب لابد من تنفيذها، مهما كانت، وإن كان عليه أن يقضي بشيء آخر مختلف تماماً فيما بعد، فليس بأيدينا شيء لنفعله. وحين أنهت مريم حديثها جلست هناك متصالبة اليدين تنتظر. سألها يسوع، هل أنت مستعدة للإجابة عن كل اسئلتي، فأجابته، بالتأكيد. متى بدأ أبي يحلم بهذا الحلم، قبل سنوات طويلة، كم من السنوات، منذ يوم ولادتك، هل كان يحلم به كل ليلة، أجل، أنا متأكدة من

ذلك، وبعد فترة كف عن مناداتي، شيئاً فشيئاً يعتاد الناس على الكوابيس، أخبريني يا أماه، هل ولدتُ في بيت لحم في اليهودية، هذا صحيح، ماذا حدث حين ولدت مما استدعى أبي إلى أن يحلم أنه ذاهب لقتلي، لم يحدث حين ولدت، لقد قلت ذلك تواً، لقد انبثق الحلم بعد عدة أسابيع من ذلك، بعد ماذا، بعد أن أمر هيرودس بذبح كل الأطفال دون الثالثة، لماذا، ليتني كنت أعرف، هل كان أبي يعرف، إن كان يعرف فلم يقل لي ذلك أبداً، كيف حصل إذن ولم يعثر عليّ جنود هيرودس، كنا نعيش في كهف في أطراف القرية، هل تقصدين أن الجنود لم يقتلوني لأنهم لم يجدوني، أجل، هل كان أبي جندياً، أبداً، ما الذي كان يعمله حينذاك، لقد عمل في موقع الهيكل، لا أفهم، إنني أحاول الاجابة على أسئلتك، ولكن إن لم يجدني الجنود لأننا كنا نعيش خارج القرية، وإن أبي لم يكن جندياً وهو لذلك غير مذنب، ولا تعرف السبب الذي جعل هيرودس يوعز بقتل الاطفال، هذا الصحيح، فوالدك لم يفهم لماذا أمر هيرودس بموت أولئك الاطفال، ولذا، ليس ثمة المزيد مما يقال، ولا تسألني أكثر من ذلك، فقد أخبرتك بكل الذي أعرفه، أنت تخبئين عني شيئاً ما، ربما تكون أنت هو الأعمى. لم يقل يسوع المزيد، بعد أن شعر أن سلطته تبخرت كما تجف الرطوبة في التراب، بينما أحس بحضور فكرة تافهة تحل في ذهنه، ولا تزال تتذبذب، ولكنها مشوهة منذ الوهلة الأولى. رأى قطيع الأغنام يعبر المنحدرات في الجهة المقابلة للتل، وكان الراعي والأغنام بلون التراب، فكان ذلك يشبه أرضاً تتحرك على أرض. زحف الاستغراب إلى تعابير وجه مريم المشدود، ذلك الراعي الطويل، تلك الطريقة في المشي، بعد عدة سنوات وفي هذه اللحظة بالذات، كان هذا هو البشير، لكنها حدقت بقوة بعد ذلك وشعرت بيقين ضعيف، فقد بدا الراعي مثل أي قروي آخر من الناصرة وهو يقود قطيعه الصغير إلى المرعى، والحيوانات تبدو كسيحة مثل مالكها. وطرأت فكرة مفاجأة ليسوع، فكرة تصارع بالانبثاق لو أنه فقط حث نفسه على الكلام، وفعلاً

انفجر أخيراً وقال بعصبية ودون تفكير، كان أبي يعلم أن أولئك الأطفـال سوف يقتلون. لم يكن ذلك سؤالاً لذلك لم تكن مريم بحاجة إلى أن تجيب عليه. كيف علم، وكان هذا سؤالاً في هذه المرة. كان أبوك يعمل في موقع الهيكل في أورشليم وسمع من بعيد بعض الجنود يتناقشون بالأمر الذي طلب منهم، وعند ذاك، هرع لإنقاذك، ثم، قرر أن لا حاجة بنا لأن نهرب ما دمنا لا نترك الكهف، ثم ماذا، لا شيء غير ذلك، نفذ الجنود واجبهم وغادروا، ثم ماذا، ثم عدنا إلى الناصرة، ومتى بدأ الحلم، بدأ أولاً في الكهف. غطى يسوع وجهه محتدماً من الغيض وصرخ بعنف، لقد قتل أبي أطفال بيت لحم، ما الذي تقوله، يا بني، لقد ذبحوا من قبل جنود هيرودس، كلا، فأبي هو الملام، يوسف، إبن هيلي، كان مسؤولاً لأنه علم أن أولئك الأطفال على وشك أن يقتلوا ولم يفعل شيئاً لتحذير آبائهم. مع قول هذه الكلمات إنتهى إلى الأبد أي أمل في العزاء. رمى يسوع نفسه على الأرض وراح ينتحب. قال بمرارة، كان أولئك الأطفال أبرياء، أبرياء، وكم كان من الغريب أن صبياً بعمر الثالثة عشرة يكون رد فعله بهذه القوة عندما يفكر الإنسان كيف يكون الأطفال أنانيين في مثل هذا العمر وكيف يكون أغلبهم غير مبالين بمآسي غيرهم. لكن الناس ليسوا سواء، ثمة استثناءات للأفضل وللأسوأ، ومن الواضح أن هذا أفضل الأستثناءات، صبي يبكي بحرقة لأن أباه أخطأ بعد كل تلك السنوات التي مضت، ولكنه من الممكن أيضاً أن يكون يبكي على نفسه لأنه، وكما ذلك واضح، قد أحب أباه الذي أذنب مرتين. رفعت مريم يدها محاولة التخفيف عنه لكن يسوع إنسحب إلى البعيد، لا تلمسيني، إنني مجروح جرحاً عميقاً. يسوع يا بُنَيّ، لا تدانيني بابنك، فأنت أيضاً مذنبة. هكذا هي الأحكام المتسرعة للمراهقين، فلو شئنا قول الحقيقة، كانت مريم بريئة كأولئك الأطفال القتلى، وهم الرجال، كما تعرف ذلك كل امرأة، الذين يصدرون القرارات، لقد وصل زوجي إلى هنا وقال، إننا راحلون، ثم غير رأيه ودون أن يوضح وأخبرني، كلا، لن نرحل

علـى الرغم مـن كـل شـيء، حتـى أننـي اضطـررت لأن أسـأله، مـاذلك الصراخ الذي أسمعه في الخارج. لم تكن مريم تحاول الدفاع عن نفسـها. كان من السهل جداً إثبات براءتها، لكنها فكّرت أيضاً بزوجها المصلـوب الذي قتل على الرغم من أن لا لوم عليه، وأدركت وهي خجلـة وحزينـة أنها تحبه الآن أكثر مما كان حياً، لذلك لم تقل شيئاً لأن ذنب الشـخص من الممكن أن يقوم به آخر. فقالت مريم ببساطة، دعنا نعود إلى البيت، فلم يعد لدينا شيء نقوله هنا، وأجابها إبنها، إذهبي أنتِ، ودعيني وحـدي. لم تكن ثمة آثار لراعٍ وقطيع، كانت البريّة قاحلة حقاً وحتى تلك البيوتات القليلة التي عند أسفل المنحدر بدت مثل بلاطات حجرية كبيرة في موقـع بناء مهجور، توشك تدريجياً أن تغطس في داخل الأرض. حيـن اختفت مريم عن الأنظار في أعماق الوادي الرمادية، سقط يسـوع علـى ركبتيـه ونادى، كان جسده بأكمله يحترق وكأنـه كـان يتعرق دمـاً، أبـي يـا أبـي، لماذا تخليت عني، هكذا شعر الصبي المسكين، مهجوراً ويائسـاً، ضائعـاً في عزلة البرية الأخرى التي لا حدود لها، بلا أب أو أم أو أخ أو أخت، وهو يتتبع طريقه المرسوم نحو الموت. كان الراعـي جالسـاً يراقبـه مـن بعيد وهو مختبيء خلف شياهه.

غادر يسوع البيت بعد يومين. خلال ذلك الوقت كان من النادر أن يتكلم، ولم يستطع النوم، وقد قضى الليلتين مستيقظاً. كان يتصور تلك المذبحة المرعبة، يدخل الجنود المنازل ويفتشون عن المهود، تضرب سيوفهم وتطعن تلك الأجساد الرقيقة الصغيرة، أمهاتهم في يأس وآباؤهم يجأرون مثل ثيران مكبلة، وهو أيضاً يرى رؤيا لنفسه في كهف لم يره من قبل، وفي مثل هذه اللحظات وكأن أمواجاً عاتية تحيطه ببطء، ودونما سبب رغب في أن يكون ميتاً، أو على الأقل، لا يعيش طويلاً. شعر بالضيق من سؤال لم يذكره لأمه، كم من الأطفال فقدوا حيواتهم، وفي عقله كانوا كثيرين، متراكمين الواحد فوق الآخر، مثل حملان مذبوحة مرمية في ركام وعلى وشك أن يحرق في نار كبيرة، وحين يتحولون إلى رماد سيصعدون إلى السماء على هيئة دخان. ولكن ما دام لم يتفوه بهذا السؤال عندما باحت له أمه بكل ذاك، شعر أنه من غير اللائق، إن يكن مثل هذا التعبير مستخدماً في ذلك الوقت، أن يذهب إلى أمه ويقول، بالمناسبة، يا أمي، لقد نسيت أن أسألك يوم أمس كم من أولئك الأطفال في بيت لحم انتقلوا إلى الحياة الأفضل، حينذاك سيكون رد أمه، آه، يا ولدي، حاول أن لا تفكر في ذلك، لم يكونوا أكثر من ثلاثين وإن كانوا قد ماتوا فتلك هي مشيئة الرب، فقد كان قادراً على أن يمنع حدوث تلك المجزرة لو رغب. لكن يسوع لم يكن ليتوقف عن التساؤل، كم منهم، كان سينظر إلى أخوته ويسأل نفسه، كم منهم، كان يريد أن يعرف كم من الجثث أريدت لموازنة كفة خلاصه. في صباح

اليوم التالي قال يسوع لأمه، لا أجد الراحة والسلام لعقلي في هذا البيت، ابق أنتِ هنا مع أخوتي، أما أنا فراحل بعيداً. رفعت مريم يديها إلى السماء، خائفة وتوشك على البكاء، ما الذي تقوله، أنت، ولدي البكر، وتستعد للتخلي عن أمك الأرملة، من مِن الناس سمع بهذا، ما الذي حصل في العالم، كيف تفكر بهجر بيتك وعائلتك، ما الذي سيصيبنا دون مساعدتك. لا يصغرني يعقوب إلا بعام واحد، سيحل محلي وسيعينكم جميعاً كما كنت أفعل بعد وفاة زوجك. زوجي هو أبوك، لا أريد التحدث بشأنه، ليس عندي أكثر من ذلك، باركيني كي أنطلق في سفري ولكن، مهما قلتِ، فأنا قد قررت الرحيل. وأين أنت ذاهب يا بني، لست متأكداً، ربما إلى أورشليم، أو ربما بيت لحم لرؤية الأرض التي ولدت فيها. ولكن لا أحد يعرفك هناك، من المحتمل أن يكون ذلك أفضل، ولكن أخبريني يا أماه، ماذا تعتقدين سيحصل لو تعرف عليّ أي أحد، أخفض صوتك، قد يسمعك أخوتك، في يوم ما سيتحتم عليهم أن يعرفوا الحقيقة، ولكن هل فكرت بالمخاطر بأن تسافر في وقت كهذا، حيث الجنود الرومانيون في كل شارع يبحثون عن متمردي يهوذا الجليلي، الرومانيون ليسو أسوأ من الجنود الذين خدموا تحت إمرة هيرودس المتوفى، ومن غير المحتمل أن يقتلوني بسيوفهم أو يسمروني على صليب، فأنا في آخر الأمر، لم أفعل شيئاً، أنا بريء. كذلك كان أبوك وانظر ما الذي حدث له، ربما يكون قد صلب خطأ ولكن لم تكن ثمة براءة في حياته. يسوع، يا ولدي، تملّك الشيطان لسانك، لم لا يكون ذلك هو الرب، لا تتحدث باسم الرب جزافاً، من ذا الذي يمكنه أن يحكم عندما يتكلم أحد باسم الرب جزافاً، لا أنتِ ولا أنا، الرب وحده يمكنه أن يقرر الفرق وأشك فيما إذا كنا ستفهم أبداً مبررات الرب، اسمع يا ولدي، من أين لك هذه الأفكار بحق الشيطان وأنت في هذا السن، من يدري، قد يولد الناس وهم يحملون الحقيقة في داخلهم ولكنهم يفشلون في الإفصاح عنها لأنهم غير متأكدين مع أنفسهم أنها الحقيقة، أنت قد قررت أن

ترحل عنا، أجل، هل ستعود، لا أدري، إن يكن هذا الحلم يشعرك بالضيق فاذهب على أية حال إلى بيت لحم، إذهب إلى الهيكل في أورشليم واستشر المعلمين، لسوف ينصحونك وسيريحون عقلك، وعند ذاك بإمكانك أن تعود لأمك وأخوتك الذين بحاجة إليك، لا يمكنني أن أعدك بالعودة، ولكن كيف ستعيش، لم يعش أبوك المسكين طويلاً بما فيه الكفاية ليعلمك كل الاشياء التي أحسنها، لا تقلقي، سأعمل في الحقول أو رعي الأغنام أو أقنع بعض الصيادين ليأخذونني معهم إلى البحر، هل ستفضل أن تكون راعياً للأغنام، لماذا، لا أعلم، شعور مفاجئ، ليس إلا، سنرى ما تدور فيه الأيام؛ والآن، يا أمي، لا بد لي أن أنطلق، ولكن لا يمكنك الذهاب هكذا، دعني أهيئ لك بعض الطعام للرحلة، لا نملك الكثير من المال، ولكن يمكننا تدبر بعض الأشياء، وخذ جراب أبيك الذي تركه لحسن الحظ، سآخذ الطعام ولا آخذ الجراب، إنه الوحيد لدينا، ولم يكن أبوك مصاباً بالجذام أو أي مرض معدٍ، كلا، لا أستطيع، في يوم ما ستبكي على أبيك، وستتأسف لأنك لم تأخذه، لقد بكيت عليه من قبل، ستبكي عليه مراراً، ولن تسأل بعد ذاك أي ذنوب قد اقترفها. لم يحاول يسوع الرد على هذه الكلمات. تجمع الأطفال الكبار حول يسوع دون أن يعلموا بالحديث الذي دار بينه وأمهم وسألوه، هل أنت راحل حقاً، وقال يعقوب، ليتني أذهب معك، ذلك لأن الفتى قد حلم بالمغامرة، بالسفر، وتعلم شيء مختلف يدعو للتحدي. أخبره يسوع، عليك أن تبقى هنا، فلابد لأحد منا أن يتولى رعاية أمنا التي ترملت، كانت كلمة ترملت قد انزلقت منه لا إرادياً فعض شفته محاولاً كتمها، ولكن ما لم يستطع كتمه هي دموعه، والذكرى الماثلة لأبيه التي استحوذت عليه صدفة مثل شعاع ضياء يصيب بالدوار.

بعدما تناولت العائلة الطعام معاً غادر يسوع. وراح يحيي أخوته مودعاً الواحد بعد الآخر، وعانق أمه الباكية وأخبرها، دون أن يعرف

السبب، سأعود دائماً بطريقة ما أو أخرى، ورتب الجراب على كتفه ثم عبر الباحة وفتح البوابة التي تؤدي إلى الشارع ووقف هناك وكأنه يفكر بما سيعمله، وهو يستعد لمغادرة بيته والتخلي عن أمه وأخوته، كم مرة نجد أنفسنا عند نقطة لعبور عتبة أو إتخاذ قرار عندما تجعلنا إعتبارات أخرى نغير آراءنا ونعود أدراجنا. وطرأت الفكرة لمريم أيضاً واتقد وجهها باندهاش مبهج، لكن فرحتها سرعان ما ذابت، فقد توقف يسوع قليلاً قبل أن يعود، طرح الجراب على الأرض وهو يقف هناك ليفكر ملياً بهذا المأزق المضجر. ثم مر من بين اخوته دون أن ينظر إليهم كثيراً ودخل البيت. وحين عاود الظهور بعد قليل كان يحمل خفي أبيه في يده. وبصمت، وعيناه منخفضتان وكأن التواضع أو نوعاً من الخجل الخفي قد منعه من أن ينظر لأي أحد في عينه، وضع الخفين في الجراب، وسار، دونما كلمة. هرعت مريم إلى البوابة، وتبعها أطفالها، كان الأطفال الكبار يبدون غير مبالين، لم يلوح أحد بالوداع لأن يسوع لم ينظر خلفه ولا حتى مرة واحدة. وتساءل أحد الجيران الذي كان ماراً في طريقه وهو يرى يسوع مغادراً، إلى أين يتجه إبنك يا مريم، وأجابت مريم، لقد عثر على عمل في أورشليم، وسوف يمكث هناك لبعض الوقت، وهذه كذبة سافرة كما نعلم، لكن مسألة الكذب هذه أو قول الحقيقة معقدة، ومن الأحرى عدم التعجل بإصدار الأحكام الأخلاقية بشأنها لأن الإنسان لو تريث بما فيه الكفاية فأن الحقيقة ستصبح أكاذيب وتصبح الأكاذيب حقيقة. في تلك الليلة، بينما رقد جميع من في البيت نائمين ظلت مريم متيقظة وطفقت تتساءل كيف وأين يمكن لإبنها أن يكون في مثل هذه الساعة، هل هو في أمان في خان ما، هل إلتجأ إلى ظل شجرة، يتمايل بين صخور وهدٍ معتم، أو، لا سمح الله، ربما يكون قد اخذ أسيراً لدى الرومانيين. سمعت البوابة الخارجية تئز، فقفز قلبها، لقد عاد يسوع، هكذا فكرت في نفسها، وقد غمرتها الفرحة والإرتباك لبعض الوقت. ماذا سأفعل، تساءلت وهي تتردد في فتح الباب. فأن تبدو متهللة وهي

تحييه بكلمات مثل، لم تستغرق وقتاً طويلاً حتى عدت بعد أن جعلت أمك تمضي ليلتها متأرقة، سيكون ذلك مذلاً جداً، لذلك من الأفضل لها أن تبدو هادئة ولا تقول شيئاً، تتظاهر بأنها كانت نائمة، وتدعه يدخل خلسة، وإن تمدد على فراشه دون أن يقول أكثر من، لقد عدت، فسأتظاهر غداً أنني أستغربت حين وجدت الولد المبذر قد عاد. على الرغم من غيابه القصير، ستكون فرحتها كبيرة، ذلك لأن الغياب، أيضاً، نوع من الموت، الاختلاف الوحيد المهم فيه هو بعض الأمل المتبقي. لكنه كان بطيئاً جداً في الوصول إلى الباب، من يدري، ربما غير رأيه في اللحظة الأخيرة، لا تقوى مريم على تحمل الشيء المؤجل أكثر من ذلك، بإمكانها النظر من خلال الشق الذي في الباب دون أن يراها أحد ثم تهرع إلى بساطها ما إن يقرر إبنها الدخول، وحين يُظهر علامات العودة فلسوف تكون متهيأة لإيقافه. ذهبت مريم وهي تمشي على أطراف أصابعها نحو الباب ونظرت من هناك إلى الخارج. كان القمر لامعاً وتبدو أرض الباحة مشعة كالماء. تقدم شبح معتم طويل ببطء تجاه الباب، وفي اللحظة التي رأته مريم وضعت يديها على فمها لتمنع نفسها من الصراخ. لم يكن ذلك هو ولدها. فذلك هو الشبح الهائل الذي يعود للشحاذ، المغطى بالرقع كما رأته أول مرة، والآن، وكما حدث بعد ذلك، ربما بسبب ضوء القمر، تحولت تلك الرقع فجأة إلى رداء مترف راح يتخافق في النسيم القوي. أغلقت مريم التي أصابها الرعب الباب، وتمتمت بشفاه مرتعشة، ومرتبكة ترتقب شراً، ما الذي يريده مني. تحرك الرجل، الذي يدعي بأنه ملاك، إلى إحدى الجهات، وهو الآن عند الباب مباشرة، ولكنه لم يحاول الدخول، كان بإمكان مريم ان تسمع لهاثه وبعد ذلك سمعت صوت شيءٍ ما ينشق لينفتح، وكأن الأرض كانت تنشطر لتتفتح هوةً سحيقةً. لم تضطر مريم لفتح الباب ولا للسؤال عمن هناك. ظهر الشبح الضخم للملاك ثانية، وللحظة شاردة حجب ظله الكبير الرؤية عن مريم، ثم، دون أن يقوم بأكثر من إلقاء نظرةٍ على

البيت، ابتعد نحو البوابة، بعد أن أخذ معه جذوراً وغصوناً، من الشجرة الغريبة التي نمت خارج الباب قبل ثلاثة عشر عاماً، عند البقعة التي دفن فيها الإناء خلال وقت فتح وغلق البوابة، تحول الملاك إلى شحاذٍ واختفى، أياً كان، خلف الجدار، ساحباً الغصون ذات الأوراق معه مثل ثعبان مزود بالريش، بصمتٍ تام هذه المرة. فتحت مريم الباب بحذر ونظرت إلى الخارج وكأنها كانت تحلم أو تتخيل الأشياء. كان العالم مضاءً تحت السماء البعيدة. ثمة فتحة في الأرض إزاء جدار البيت حيث تجذرت النبتة، ومن هناك وحتى البوابة إنتشر نيلٌ من التربة المتلألئة يشبه «الطريق الحليبي»، إن كان مثل التعبير معروفاً في تلك الأيام. من المؤكد أنه لم يكن الطريق إلى سانتياغو، لأن الشخص الذي كان سيطلق أسمه على الشارع لا يزال فتىً صغيراً يعيش في الجليل، الذي لا يزيد أو ينقص عمره عن عمر يسوع إلا القليل، والله يعلم أن كان أولئك الاثنين في تلك الساعة. فكرت مريم في ولدها ولكن دون أن يؤلمها قلبها، فلا ضير يمكن أن يصيبه تحت هذه السماء الجميلة والساكنة التي لا يسبر غورها، وهذا القمر، الذي يشبه المن مصنوعٌ من الضياء، مغذياً جذور الأرض والينابيع. كانت روحها مطمئنة، فعبرت الباحة، وداست النجوم التي على الأرض دونما خوف، وذهبت لفتح البوابة. نظرت في الخارج ورأت النيل ينتهي على بعد مسافةٍ ما، وكأن الأوراق الملونة بألوان القوس قزح قد إنطفأت أو، ان ذلك ضربٌ من الوهم من جانب هذه المرأة التي لم تعد تستطيع أن تقدم العذر لأنها حُبلى، وكأن الشحاذ قد تحول إلى ملاك وأستخدم جناحيه في الأخير ليميز مثل هذه الحادثة الخاصة. تأملت مريم في تلك الأحداث الغريبة وبدا لها انها أحداث بسيطة وطبيعية مثلما تتأمل يديها تحت ضوء القمر. عادت بعد ذلك إلى البيت، ورفعت المصباح الزيتي من المسمار الذي يتعلق به على الجدار وراحت تلقي نظرة فاحصة على الهوة العميقة التي اجتثت منها النبتة. في القاع يكمن الإناء الفارغ. مدت يدها وأخذته، إنه الاناء

المسطح ذاته الذي تتذكره وفيه القليل القليل جداً من التراب ولم يعد يلمع، مجرد وعاء منزلي يعاد إلى وضيفته المعتادة. ومنذ الآن سوف يستخدم لتقديم الحليب والماء والنبيذ طبقاً إلى ذوق الإنسان وظروفه، وكم هو صحيح ذلك المثل الذي يذكرنا بأن كل شخص له ساعته وكل شيء له وقته.

في الليلة الأولى من سفره وجد يسوع ملجأً. كان الغسق يهبط ما أن اقترب من كوخ صغير خارج مدينة جنين وكان القدر، الذي بشر بالكثير من سوء الطالع منذ يوم ولادته، قد رق له هذه المرة. كان مالكو البيت الذي إلتجأ إليه ودون أن يتوقع، أناس كرماء والذين ما كانوا يسامحون أنفسهم لو أنهم تركوا صبياً في عمره في العراء طوال الليل، وخصوصاً في وقتٍ كهذا حيث الكثير من الصراع العنيف في كل مكان، وحيث يصلب الرجال وتقطع رؤوس الأطفال دونما سبب. أخبر يسوع المحسنين إليه العطوفين أنه إنطلق من الناصرة وهو في طريقه إلى أورشليم، وعلى أية حال فقد حجم عن تكرار الكذبة المخجلة التي سمع أمه تقولها بأنه كان ذاهباً للعمل. وأخبرهم ببساطة أنه ذاهب ليستشير معلمي الهيكل عن أمر في الناموس المقدس يتعلق بعائلته. وعبر صاحب البيت عن دهشته بمثل هذه المهمة الخطيرة التي أوعزت لصبي ليس إلا، مهما كان متقدماً في الدراسات الدينية وأوضح يسوع أنه تبنى هذا الأمر لأنه أكبر الأبناء في العائلة ولم يشر إلى والده. أكل مع بقية أفراد العائلة ثم استقر تحت منحدر السطح في الباحة، وهي أفضل مكان يمكن أن يضيفوا فيه أي مسافر. في منتصف الليل عاد الحلم ليطارده على الرغم من أن والده هذه المرة لم يقترب كثيراً من الجنود ولم يظهر أنف الحصان عند الزاوية. على أية حال، لا تتخيل أن الحلم كان أقل رعباً. دعنا نضع أنفسنا في مكان يسوع. إفرض أننا كنا نحلم بأن الأب الذي منحنا الحياة كان يطاردنا بسيف مسلول. أولئك الذين كانوا نائمين

في داخل البيت لا يعلمون مطلقاً بالدراما التي تحدث في الباحة. كان يسوع قد تعلم كبت مخاوفه حتى في منامه, وحينما تصبح لا يمكن تحملها كان يغطي فمه بيده على نحو غريزي في محاولة أخيرة لأخماد الصرخات المرعبة من الألم والتي تدق في رأسه بصمت. عند الصباح رافق العائلة في تناول الافطار، ثم شكرهم لكرمهم ولطفهم وللفصاحة التي تتحلى بها العائلة، دونما استثناء، حتى أنهم يشتركون حالياً في الطمأنينة الإلهية التي لا توصف، على الرغم من أنهم سامريون متواضعون. حياهم يسوع مودعاً وغادر، وكانت كلمات الوداع التي قالها له أولئك المحسنون ترن في اذنيه، مبارك أنت، أيها الرب إلهنا، ملك الكون، يا منْ تقود خطانا، كلمات كررها هو ذاته، حامداً الرب ذاته والإله والملك، الذي أعطانا كل ما نحتاج إليه، كما نرى ذلك بوضوح في أية تجربة يومية، بالانطباق مع تلك القاعدة الأكثر عدالة عن النسبة المباشرة التي تنص على ان الكثير لابد أن يمنح لأولئك الذين يمتلكون الكثير.

كانت بقية الرحلة قبل الوصول إلى اورشليم غير سهلة. في المحطة الأولى، ثمة سامريون وسامريون وذلك يعني حتى في ذلك الوقت أن سنونواً واحداً لم يكن كافياً لخلق الصيف، فتتحتم الحاجة إلى إثنين، أي، سنونوين أفضل من صيفين، شرط أن يتوفر ذكر وأنثى خصيان ولديهما ذرية. حين طرق يسوع الأبواب لم يفتح له أحد بابه وكل ما فعله مسافرنا أنه وجد مكاناً ما في الخلاء ينام فيه، مرة تحت شجرة تين، ذات نوعية كبيرة منتشرة تشبه تنورة الدرندل، وفي مرة أخرى ينضم إلى قافلة تتمكن، لحسن حظ يسوع، من ان تنصب الخيام في الريف المفتوح لأن الخان القريب يغص بالناس. نحن نقول لحسن الحظ لأن في هذا الوقت، بينما كان المسكين يعبر جبالاً جرداء وحده، هاجمه لصان جبانان وسلبا منه المال القليل الذي يملكه، وكان ذلك يعني أن لا أمل

لديه في أن يلتجيء إلى أي نُزُل حيث لابد من دفع أجور. لو أن أي أحد شاهد تلك الحادثة لكان قد عطف على ذلك الصبي المسكين، الذي ترك لقدره من قبل ذينك الوغدين اللذين فرا هازئين من المصيبة التي جلباها له. اضطجع هناك بحالة يرثى لها لا شيء فوقه غير السماء والجبال التي تحيطه، والكون الشاسع الخالي من أية دلالة أخلاقية بل احتشد بالنجوم واللصوص والقتلة. قد تحاول المناقشة وتقول أن فتى في الثالثة عشرة لا يمكن أبداً أن تكون له معرفة كافية بالعلوم أو الفلسفة أو حتى تجربة كافية بالحياة لأن أياً من هذه الأفكار وهذا الفتى بالتحديد، ناهيك عن دراسته الدينية في الكنيس وميله الطبيعي للجدال ، ستكون عاجزة إزاء الأقوال والأفعال التي تنسب إليه. ليس ثمة نقص في أبناء النجارين في تلك الأنحاء، أو في أبناء من أعدم آباؤهم، ولكن حتى افتراض أن ابن رجل آخر قد اختير، فنحن لا نشك أنه أياً كان، لسوف يمنحنا الكثير من الغذاء للتفكير كما فعل يسوع الشاب. أولاً لأنه من المعروف أن كل إنسانٍ عالم بذاته أما عبر ممرات سامية أو أخرى متوقعة الحدوث، وثانياً لأن هذه الأرض كانت مختلفة دائماً عن أي أرض أخرى، ولا يحتاج المرء إلا ليقدر كم من الناس، الأغنياء منهم والفقراء، قد ساحوا فيها مبشرين ومنبئين من أشعيا إلى ملاخي والنبلاء والكهنة والرعاة، رجال من كل مسار للحياة يمكن تصوره، ممن علمونا الحذر قبل أن نتسرع في أي استنتاجات، إن الأصول المتواضعة لإبن النجار لا تمنحنا الحق للقيام بأية أحكام متسرعة قد تعرض مستقبلة للخطر. هذا الفتى الذي في طريقه إلى أورشليم وهو في عمر يكون فيه أغلب الأطفال لا يقومون بأية مغامرة خارج أبواب بيوتهم، قد لا يكون نابغة أو عبقرياً، لكنه يستحق احترامنا. إن روحه، كما يعرف بنفسه، قد جرحت بعمق، ومنذ ذاك، ولأنه وهب تلك الطبيعة التأملية، فإن من غير المحتمل أن تندمل الندوب سريعاً، لقد خرج إلى العالم ربما ليضاعف تلك الجروح ويجمعها في حزن واحد ونهائي. لربما يبدو من غير الملائم تماماً وضع

نظريات العقدة لمفكري العصـر الحديث فـي رأس فلسطيني عـاش قبـل سنين سحيقة قبـل فرويد ويونـج وغروديـك ولا كـان الذين ظهـروا فـي المشهد. ولكن إن سمحتم لنا بالافتراض، فإن مرور الزمن هذا ليس بتلك الحماقـة أو الشـناعة فـالكتب التـي يستمد منهـا اليهـود غذاءهـم الروحـــي تكشف بجـلاء أن الإنسـان، فـي أي عصـر عـاش أو ربمـا عـاش، هـو المعـاصر لكـل البشـر فـي المسـائل العقليـة. ولا غـير آدم وحـواء همـا الاستثناء في هذا، ليس فقط لأنهما كانا أول رجل وامـرأة، ولكـن لأنـهمـا ليست لهما مرحلة طفولة، وبينما يتوصل علم البايولوجيا وعلم النفس إلى أن العقـل البشـري كمـا نعرفـه اليـوم يمكـن أن يعـود إلـــى الإنســان الكرومـانيوني، فـإن ذلك الجدل ليـس لـه مكـان هنـا مـا دام الإنســان الكرومانيوني لم يذكـر فـي 'كتـاب التكويـن'، والـذي هـو كـل مـا درسـه يسوع عن أصل العالم.

ونحن مذهولون بهذه التأملات التي هي غير بعيدة تماماً عن جوهر الإنجيل الذي نرويه، فقد نسينا، ويـا للعـار، أن نرافق ابـن يوسـف فـي المراحل الأخيرة من سفرته إلى أورشليم التي يوشك أن يصلها، لا يملك شيئاً إلا صحته، لكن قدميه قد تقرحتـا بعـد تلـك الرحلـة الطويلـة، ورغـم ذلك فهو رابط الجأش مثلما غادر وطنه قبل ثلاثة أيام. كان هنا من قبل، لذلك فإن فرحتـه ليسـت أعظـم ممـا يمكـن أن يتوقعهـا المـرء مـن رجـل مخلص أصبح أو يوشك أن يصبح إلهاً مألوفاً. من هذا الجبل الذي يسمى غيثسمان أو جبل الزيتون، يمكن للإنسان أن يرى منظر العمارة الرائعـة لأورشليم، وهيكل المدينة والأبراج والقصور والمنازل التي تهب انطباعاً بالقرب، لكن هذا يعتمد على درجة الحماسة الصوفية التـي تقـود المؤمـن إلـى الإضطـراب بيـن محدوديـات الجسـد مـع القـدرة اللامحـدودة لـلروح الكونية. المساء يقترب وقد حطت الشمس فوق البحر البعيد، كان يسـوع قد بدأ بالهبوط في الوادي، متسائلاً أين سيقضـي الليل، هل سيقضيه داخل

أو خارج أسوار المدينة. في مناسبات سابقة، حينما صحب والديه خلال عيد الفصح، قضت العائلة الليل خارج أسوار المدينة في خيمة كانت قد جهزت باهتمام من قبل السلطات المدنية والعسكرية لاستقبال الحجاج، كلهم منفصلون، دون الحاجة إلى القول، الرجال مع الرجال والنساء مع النساء وحتى الأطفال، يقسمون تبعاً إلى جنسهم. عندما وصل يسوع إلى أسوار المدينة كان هواء الليل قد أمسى بارداً. وصل والبوابات توشك أن توصد ورغم ذلك سمح له البواب بالدخول، ومع اصطفاق تلك الأعمدة الخشبية الكبيرة، لربما بدأ يشعر بالندم بسبب خطأ قديم أو لأنه تخيل نفسه واقعاً في فخ، توشك أسنانه الحديدية أن تقضمه، غشاء من اللعاب يوقع في شركه ذبابة. على أية حال في عمر الثالثة عشرة لا يمكن أن تكون ذنوبه كثيرة أو كبيرة، إنه ليس بعمر من يقتل أو يسرق أو يكون شاهد زور، أو يشتهي زوجة جاره أو منزله أو حقله، يأخذ خادم جاره أو خادمته، حماره أو ثوره أو أية سلع تعود له، لذلك يسير هذا الفتى طاهراً وغير مدنس على الرغم من أنه قد فقد براءته من قبل، إذ لا أحد يمكن أن يشاهد الموت دون أن يتأثر. أمست الدروب مقفرة في هذه الساعة التي تتجمع فيها العائلات لتناول العشاء ولا يبقى أحد في الخارج غير الشحاذين والمتشردين. لكنهم أيضاً سيتراجعون إلى أوكارهم ومسالكهم الخفية، فخلال أية لحظة من الآن سيجوب الجنود الرومانيون الشوارع بحثاً عن الشريرين الذين يغامرون حتى في عاصمة مملكة هيرودس أنتيباس ليقترفوا أية جريمة أو إثم، ولا حاجة للكلام عن الأحكام القاسية التي تنتظرهم إن حدث وألقي القبض عليهم، كما رأينا ذلك في سبفوريس. في نهاية الطريق ثمة دورية ليلية تحمل مشاعل متوهجة وتسير وسط رنين السيوف والدروع ومع إيقاع أقدامهم المكسوة بالأحذية العسكرية. اختفى الفتى في زاوية معتمة في انتظار اختفاء الجنود، ليبحث عن مكان ينام فيه. وكما توقع، فقد وجد مكاناً جيداً من مواقع البناء الكثيرة التي حول الهيكل، هوة بين صخرتي جلمود كبيرتين

وثمة جلمود أخرى فوقهما لتشكل سقفاً. هناك مضغ ما بقي من خبز متخشب ومتعفن، مع بعض ثمرات التين اليابس التي وجدها في قاع جرابه. شعر بالعطش ولكنه أرضخ نفسه ليبقى دون ماء. ثم استلقى على بساطه وغطى نفسه بملاءة خفيفة جلبها معه ثم، قرفص جسده ليحمي نفسه من البرد الذي اخترق جهتي ملجئه غير المستقر، وتمكن من أن يغط في النوم. ولأنه في أورشليم فلا يعني ذلك أنه محمي من الحلم، ولكن ربما لأنه قريب من الحضور المقدس للرب فإن حلمه لم يكن غير تكرار للمشاهد المعتادة التي تندمج مع وصول الدورية التي واجهها من قبل. استيقظ مع ارتفاع الشمس. سحب نفسه ملتفاً بملاءته من ذلك الجحر، البارد كالقير، ورأى بيوت أورشليم أمامه، بيوت واطئة بنيت من الحجر جدرانها مشوبة بالقرمزي الشاحب من ضوء الصباح. ثم، وبإجلال عظيم، متأت من شفاه من هو ليس إلا فتى لا يزال، راح يصلي صلاة الشكر، الشكر لك، أيها الرب يا إلهنا، ملك الكون، يا من بقوة رحمتك حفظت روحي متحمسة ومخلصة. ثمة لحظات معينة في الحياة لابد لها أن تحفظ من الزمن، ولا تكتب فقط في إنجيل أو رسم او، كما يحدث في هذا العصر الحديث، في صورة فوتوغرافية أو فلم أو فيديو. كم سيزيد في المتعة لو أن الإنسان الذي عاش تلك اللحظات أو أعاد لها الحياة قد بقي دائماً مرئياً لسليليه، كم يتمكن أولئك الأحياء منا اليوم أن يذهبوا إلى أورشليم ويروا بأعينهم يسوع الشاب، ابن يوسف، متلفعاً بأكمله بملاءته الصغيرة الرثة وهو يرى بيوت أورشليم ويشكر الرب الذي يحفظ برحمته روح الفتى. ولأن حياته تبدأ للتو في عمر الثالثة عشرة، فيمكن للمرء أن يفترض أن ثمة ساعات مدخرة له منها الأكثر بهجة ومنها الأشد حزناً، لحظات من الفرح العظيم واليأس، متعة وأسى، ولكن هذه هي اللحظة التي نختارها بأنفسنا، بينما تهجع المدينة، الشمس واقفة، والضوء غير ملموس، ثمة فتى صغير ينظر محدقاً في البيوت وهو متلفع بملاءة، وجراب عند قدميه، والعالم كله، القريب

والبعيد، ينتظر مترقباً: واحسرتاه، كان قد تحرك، اللحظة تـأتي وتذهب، الوقت قد حملنا إلى ميادين الذاكرة،هكـذا كـان، كـلا، لـم يكـن، يغدو كـل شـيء مـا نختـار ابتكــاره. يســير يســوع الآن عـبر الشــوارع الضيقــة المزدحمة، ما زال الوقت مبكراً للذهاب إلى الهيكل، الأطباء، كما يحـدث فـي كـل العصـور والأمـاكن، لا يظهـرون إلا متـأخرين. لـم يعد يسـوع يشعر بالبرد لكن معدته تدمدم، فذينك التينتـان المتبقيتـان قد حملتـا علـى إثـارة شـهيته وابـن يوسـف الآن يتضـور جوعـاً. فـي هذه اللحظـة كــان سيستفيد من تلك النقود التي سرقها منــه الأوغـاد، فحيـاة المدينـة لا تشـبه أبداً الرخاء الموجود في الريف حيث يتجول الإنسان ليصفر متطلعاً إلـى مـا يمكـن أن يبقيـه الكـادحون الذيـن يخشــون الــرب ويطيعـون أوامــره بالحرف الواحد. عندما تحصد حقولك وتترك خلفك حزمـة، فـلا تلتفت لتستردها، عندما تجني ثمار الزيتون فلا تعد لجني أي واحدة ظلت معلقة على الغصون، عندما تقطف العنب من كرمتك، فلا تنقب في أي عنقود رأيته، دعها للقريب يقطفها أو اليتيم أو الأرملـة، وتذكـر دائمـاً أنـك مـرة كنت عبداً في أرض مصر. الآن، ولأنها مدينة كبيرة، فعلــى الرغـم مـن حكم الرب بأن يبني مسكنه الأرضي هناك، فـإن تلـك المبـادئ الإنسـانية غير ملحوظة في أورشليم لذلك فأي أحد يصل دون ثلاثين أو ثلاثة قطع فضية في جيبه، فإن الحل الوحيد هو أن يشـحذ ومـن المؤكـد تقريبـاً أنـه سيطرد، أو يسرق أو يهرب من خطر الجلد أو يلقى في السـجن أو شيئاً آخر أسوأ من ذلك. هذا الشاب غير قادر علـى السـرقة بأيـة حـال، وهـو خجل جداً من التسول. لعابه يسيل حيـن يحـدق بركـام الخـبز وإهرامـات الفواكه واللحوم المطبوخة والخضار المعروضــة علـى المنـاضد بمحـاذاة الطرق، كان يرى كل ذلك الطعام بعد ثلاثـة أيـام مـن الصيـام، ولـو أننـا اختزلنا ضيافة السامريين، لكان قد تهـالك. انـه يتجـه فعـلاً إلـى الهيكـل، ولكن على الرغم من أولئك المتصوفة الذين يؤمنون بالصيام، فإن جسـده كان سيكون بأفضل حال في استلام كلمـة الـرب لـو أن عقلـه قد تغذى

بالطعام. ولحسن الحظ لاحظ أحد الفريسيين صدفة الحالة الواهنة التي عليها الصبي وعطف عليه. سيهب الرخاء على نحو غير عادل الفريسيون أسوأ سمعة ممكنة، ولكنهم طيبو القلب، كما تبين لنا هذه المواجهة بوضوح، فتساءل الفريسي، من أين أنت، وأجاب يسوع، أنا من الناصرة في الجليل، هل أنت جائع، سأله الفريسي فأخفض الصبي عينيه، لم تكن ثمة حاجة كي يقول أي شيء لأن الجوع مكتوب على وجهه. أليس لديك عائلة، بلا، ولكنني أسافر منفرداً، هل فررت، كلا، وهذا صحيح، فهو لم يفر. وعلينا أن لا ننسى أن أمه وإخوته قد جاؤوا ليحيوه تحية الوداع عند البوابة، وحقيقة أنه لم ينظر خلفه أبداً لا تعني أنه قد فر. الكلمات نستخدمها هكذا: أن تقول نعم أو لا هو ليس الجواب المباشر لها، ومبدئياً فإن الحقيقة الواضحة والأكثر إقناعاً تتطلب أن تبدأ بإعطاء جواب غير أكيد نوعاً ما، حسناً لا، في الحقيقة، لم أفر بالضبط، على أية حال، وفي هذه الحالة سيتحتم علينا الاستماع للقصة بأكملها مرة أخرى. ولكن ليعم الهدوء، فذلك غير ضروري، أولاً لأن الفريسي، الذي سيعاود الظهور في إنجيلنا، ليس بحاجة لأن يسمعها، وثانياً، لأننا نعلم بالقصة أفضل من أي أحد. فكروا فقط كم قليلاً ذلك الذي تعرفه كل شخصية رئيسية من شخصيات هذا الإنجيل عن بعضها البعض، فلا يعرف يسوع كل شيء عن أمه وأبيه، ولا تعرف مريم كل شيء من زوجها وابنها، ويوسف، الذي مات، لا يعرف شيئاً عن أي شيء. بينما نعرف نحن كل ما حصل، ما قيل منه وما فكر فيه، من قبلهم أو من قبل غيرهم، على الرغم من أن علينا أن نتصرف وكأننا، أيضاً، في العتمة، وبهذا المعنى فنحن مثل الفريسي الذي تساءل، هل أنت جائع، عندها قرص الجوع يسوع، وتحدث الوجه الواهن بنفسه، لا حاجة بك لأن تسأل، هب لي فقط شيئاً لآكله. وهذا بالضبط ما فعله ذلك الرجل الطيب، فاشترى رغيفين ما زالا ساخنين من الفرن وصحناً من الحليب، ودون أن يتفوه بكلمة، ناولهما ليسوع، وعند مرور الصحن بينهما حدث أن

انسكب بعض الحليب على يديهما، عند ذلك قاما كلاهما بالحركة ذاتها، التي لابد أنها جاءت من عصور سحيقة، فقد رفعا يديهما الرطبتين ليمتصا الحليب، ذلك ما يشبه تماماً تقبيل الخبز عندما يسقط على الأرض. للأسف الشديد فإن هذين الاثنين لن يلتقيا ثانية بعدما وقعا مثل هذا العهد الباهر والرمزي. ذهب الفريسي في شأنه، ولكن ليس قبل أن يخرج من جيبه عملتين نقديتين من المعدن وقال، خذ هذه النقود معك وعد إلى البيت، العالم كبير جداً على واحد مثلك. وقف ابن النجار هناك متشبثاً بالإناء والخبز، لم يعد جائعاً أو ربما لا يزال جائعاً ولكنه عاجز عن الشعور بأي شيء. راقب الفريسي وهو يبتعد وعند ذاك فقط قال شكراً لك، ولكن بصوت خفيض حتى أن الفريسي لم يتمكن من سماعه، وإن كان يتوقع الإمتنان فإنه لابد أن فكر في نفسه، أي فتى جحود هذا. عند ذاك بالضبط وفي وسط الطريق عادت ليسوع شهيته فجأة. فلم يدخر وقتاً في أكل خبزه وشرب حليبه ثم سلم الإناء الفارغ إلى البائع الذي أخبره، لقد دُفع ثمن الإناء، فاحتفظ به، أهي العادة في أورشليم أن يباع الإناء مع الحليب، كلا، ولكن هذا ما أراده الفريسي ولا تعرف أبداً ما الذي في ذهن الفريسي. أستطيع الاحتفاظ به إذاً، لقد قلت لك ذلك من قبل، لقد دُفع ثمنه. يلف يسوع الإناء بملاءته ويدسه في جرابه بينما يفكر أن عليه أن يعتني به منذ الآن فصاعداً. فهذه الأواني الفخارية هشة ومن السهولة أن تتكسر، فلم تصنع إلا من بعض الطين الذي منحه القدر بعض التناسق القلق، ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن الإنسان. بعد أن تغذى جسد يسوع وانتعشت روحه انطلق باتجاه الهيكل.

ثمة حشد كبير تجمع من قبل في الساحة التي تواجه السلم المائل الذي يؤدي إلى المدخل. انتظمت خيم الباعة المتجولين وتجار الماشية التي تذبح للأضاحي على كلا الجانبين بمحاذاة الجدار، وانتشر هنا وهناك الصرّافون في أكشاكهم، وثمة جماعات من الناس منشغلون بالحديث، وتجار يشيرون لبضاعتهم، وجنود رومانيون راجلون وعلى ظهور الخيول يراقبون الحال، ثمة احتمالات يحملها عبيد وجمال وحمير محملة بالبضاعة وتصرخ مهتاجة في كل مكان ويتقاطع مع صياحها الثغاء الواهن للأغنام والماعز التي يحملها البعض من الناس على أذرعهم أو على ظهورهم كالأطفال المتعبين، والبعض تسحب بحبل حول العنق، وكلها قدر لها أن تهلك بالسيف أو النار. مر يسوع بغرفة الحمام التي تستخدم للتطهير، وارتقى السلالم، ودون توقف، عبر الساحة المخصصة للوثنيين. دخل باحة للنساء عبر الباب التي بين غرفة الزيوت المقدسة وقاعة الناصريين وهناك وجد ضالته، حيث مجمع الشيوخ والنُساخ الذين يتجمعون هنا منذ وقت بعيد كالعادة لمناقشة الناموس المقدس أو لإسداء النصح أو للإجابة عن الأسئلة. إنهم يقفون جماعات في دوائر، والتحق الفتى في أصغرِ مجموعة منها تماماً في الوقت الذي رفع فيه رجل يده ليسأل سؤالاً. سمح له الناسخ بالكلام وسأل الرجل، هل بإمكانك أن تخبرني إن يتحتم علينا القبول، حرفياً، بأوامر الرب إلى موسى على جبل سيناء عندما وعده بالسلام على الأرض وأن لا أحد سيقض مضاجعنا أثناء نومنا، حين أعلن أنه سيبعد

الحيوانات المفترسة عنا، وأن السيف لن يمر عبر أرضنا وإن حدث وتبعنا أعداؤنا فلسوف يسقطون تحت سيفنا، إذ كما قال الرب نفسه، خمسة منكم سيطاردون خمسمائة رجل، مائة منكم مقابل عشرة آلاف، وسيسقط أعداؤكم أمام سيفكم. حدق الناسخ في الذي سيسأله متشككاً، وفكر أنه ربما يكون متمرداً متخفياً بعث به يهوذا الجليلي ليثير المشاكل بالتلميحات الشريرة عن مقاومة الهيكل السلبية للهيمنة الرومانية. فأجاب حذراً، تلك الكلمات التي قيلت من قبل الرب عندما كان آباؤنا في الصحراء وكانوا مضطهدين من قبل المصريين. فرفع الرجل يده ثانية، وسأل سؤالاً آخر، هل نفهم إذاً، أن كلمات الرب على جبل سيناء كانت ذات مغزى ما دام أسلافنا لا يزالون يبحثون عن الأرض الموعودة، إن فسرتها هكذا فلست بإسرائيلي حقيقي، إذ أن كلمة الرب لابد أن تعمّ في كل عصر، في الماضي والحاضر والمستقبل، ذلك لأن تلك الكلمات كانت في عقل الرب من قبل أن ينطقها وستبقى خالدة حتى بعد أن قالها. ولكنك أنت كنت بنفسك من قال بما تمنعني من التفكير فيه، وماذا تعتقد هل يوافق الرب بأن لا ترفع سيوفنا ضد هذه القوة العسكرية التي تضطهدنا فإن مائة من رجالنا ليست لديها الشجاعة لمواجهة خمسة منهم، وأن عشرة آلاف يهودي أجبرت على الخضوع أمام مائة روماني، دعني أذكرك بأنك في هيكل الرب ولست في ميدان معركة، إن الرب هو إله الجيوش، صحيح، ولكن لا تنس أن الإله قد فرض شروطه، أية شروط، قال الإله كلما حافظتم على نواميسي وأطعتم اوامري، ولكن أية نواميس وأية أوامر تلك التي خالفناها، إنها قبول الهيمنة الرومانية بالضرورة، ومعاقبة مذنبينا. لا بد أن الرب يعلم، أجل لا بد أن الرب يعلم، وكم مرة يذنب الإنسان دون أن يعلم، ولكن هلا تفضلت بأن توضح لي لماذا يتحتم على الرب أن يستخدم الرومان لمعاقبتنا بدل أن يواجه شعبه المختار ويعاقبنا بنفسه. الله أعلم بنواياه واختياراته ووسائله، إذاً فأنت تحاول أن تقول لي أن الرب يريد من الرومانيين أن يحكموا

إسرائيل، أجل، حسناً، إن يكن الأمر كذلك فمن المؤكد أن المتمردين الذين يقاتلون الرومانيين هم أيضاً يضادون الله ومشيئته المقدسة، أنت تتوصل إلى استنتاج خاطئ، وأنت أيها الناسخ، تناقض نفسك، قد تكون مشيئة الرب أن لا تشاء وأن لا تشاء هي مشيئته، لذلك، ليست سوى مشيئة الإنسان هي المشروعة ولكنها ليست بذات قيمة في عيون الرب، ذلك صحيح، فالإنسان إذاً حر، أجل، حر ولذلك قد يعاقب. سرت همهمة بين صفوف الواقفين، البعض يحدقون في الشخص الذي سأل الأسئلة، فمما لاشك فيه أنها وثيقة الصلة بالنصوص ولكنها من الناحية السياسية ليست في وقتها المناسب. نظروا إليه باتهام وكأنه كان المجرم الذي عليه أن يجيب عن كل ذنوب الإسرائيليين، وتأكد المتشكك مجدداً بانتصار الناسخ عليه، الذي شكرهم على مديحهم له وإطرائهم بابتسامة رضا. وبعد أن بانت على الناسخ الثقة بالنفس نظر حوله وتساءل إن يكن ثمة أية أسئلة أخرى، وكان مثل مُنازل، بعد أن أجهز على نده الضعيف راح يطلب المزيد من التحدي لينال مجداً أعظم. رفعت يد أخرى وسمع سؤال مختلف، تحدث الرب إلى موسى وقال له، الغريب الذي وسطكم سوف يعامل كواحد منكم ولسوف تحبونه كما تحبون أنفسكم لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر كما أخبر الرب بنفسه موسى. ولكن قبل أن ينهي الرجل حديثه، كان الناسخ الذي لا يزال مزهواً بنصره السابق، قد قاطعه بنغمة ساخرة، آمل أن لا توشك على القول لماذا لا نعامل الرومانيين كأنهم أبناء بلد ما داموا أيضاً أجانب، كلا، ما أريد السؤال عنه هو فيما إذا كان الرومانيون سيعاملوننا بأننا أبناء بلدهم لو حدث أن كلا الطرفين تحتم عليهما أن يقضيا وقتاً أقل في المناقشة حول الاختلافات بين نواميسنا، وآلهتنا، إذاً أنت أيضاً جئت إلى هنا لتغضب الرب بتفسيرات مجدفة لكلامه المقدس، هكذا سخر منه الناسخ، على العكس من ذلك، كل ما أريد السؤال عنه هو فيما إذا كنت تؤمن حقاً أننا نطيع كلمات الرب المقدسة، عندما يكون هؤلاء الناس ليسوا غرباء

كثيراً عن الأرض التي نعيش فيها مثلما هم غرباء عن الدين الذي نؤمن به، إلى أي غرباء تشير، لمن هم في أيامنا وعصرنا، إلى الكثيرين في الماضي ومن المحتمل إلى أكثر من ذلك في السنوات المقبلة، ليس لدي وقت أبدده في الألغاز والأمثال، لذلك حاول أن تجعل من نفسك واضحاً، حين وصلنا من مصر، كان ثمة شعوب أخرى تعيش في الأرض التي نسميها إسرائيل، والتي تحتم علينا محاربتها، وفي تلك الأيام كنا نحن الغرباء وأمرنا الرب بذبح وإبادة الذين يعارضون مشيئته، فالأرض قد خصصت لنا ولكن كان علينا أن تأخذها بالغزو، فلم نشتر الأرض ولم تعط إلينا، ونحن الآن نجد أنفسنا نعيش تحت حكم أجنبي، ولقد فقدنا الأرض التي جعلناها لنا، إن صورة إسرائيل تعيش أبداً في روح الرب، لذلك حيثما يكون شعبه، فيما إذا كانوا متحدين أو منتشرين، ستكون هناك أرض إسرائيل، وهذا قد يعني أن حيثما نجد نحن اليهود أنفسنا فإن الآخرين سيكونون دائماً هم الأجانب، في عيون الرب، ولكن الغريب الذي يعيش بيننا وفقاً لكلام الرب، سيكون ابن بلدنا وعلينا أن نحبه كما نحب أنفسنا لأننا، أيضاً، كنا غرباء مرة في مصر، هذا ما قاله الرب، والآن في تلك الحالة، فإن الغرباء الذين من المتوقع لنا أن نحبهم لابد أن لا يكونوا أقوياء جداً كي يتسنى لهم أن يعارضونا حتى وإن كانوا بيننا، كما هو الأمر اليوم تحت حكم الرومانيين. أجل، أنا موافق، وقل لي بعد ذلك، هل تؤمن أننا لو أصبحنا أقوياء في يوم ما، لسوف يسمح لنا الرب باضطهاد أولئك الغرباء الذين أمرنا هو نفسه بأن نحبهم، ما على الإسرائيليين الا طاعة مشيئة الرب ولأن أطفال إسرائيل هم شعبه المختار، فلا يشاء لهم الرب إلا الخير، حتى لو كان معنى ذلك أن لا نحب أولئك الذين علينا محبتهم، أجل، إن شاء ذلك. من ذاك الذي يشاء، أهو الرب أم شعب إسرائيل، الاثنان، لأنهما واحد وهما متشابهان، لن تنتهك حرمات الغريب، وعندما تكون لذلك الغريب أية حقوق فنحن لا نصادرها، هكذا أجاب الناسخ. ومرة أخرى همهم الحاضرون باستحسان

مما جعل عيون الناسخ تلمع مثل عيون بطل المصارعة، أو رامي القرص، أو المقاتل أو سائق العربة. رفع يسوع يده. لم يجد أحد من الحاضرين أن من الغريب على صبي في عمره أن يتقدم لسؤال الناسخ أو الطبيب في الهيكل، لقد ابتلى الشباب بأن يشكك بهم منذ وقت قابيل وهابيل، فهم يودون أن يسألوا أسئلة يرد عليها الكبار بابتسامة تعاطف ونقرة على الكتف، عندما تكبر أيها الشاب، ستكف عن القلق إزاء هذه الأشياء، بينما الذي يفهم من ذلك سيقول، عندما كنت في عمرك فكرت بالشيء ذاته. تحرك بعض الحاضرين وهم آخرون بأن يفعلوا كذلك، مما أزعج الناسخ لأن جمهوره المنتبه يوشك أن يتفرق لكن سؤال يسوع أدى إلى رجوع البعض منهم فأصغوا، ما أريد أن أناقشه هو الخطيئة، تقصد خطيئتك، كلا، الخطيئة عموماً، ولكن أيضاً الخطيئة التي قد يشعر بها الإنسان دون أن يكون قد أذنب فعلاً، أوضح قولك، قال الرب أن الوالدين يموتان من أجل أطفالهما أو أن الأطفال يموتون من أجل والديهم، وأن كل إنسان يحاكم وفق جرائمه، صحيح، ولكن عليك أن تعلم أن ذلك مدرك حسي لتلك العصور القديمة عندما كانت العائلة بأكملها، مهما كانت بريئة، تدفع ثمن جريمة اقترفها أحد أفرادها، ولكن إن يكن كلام الرب خالداً وليس ثمة نهاية تبدو للعيان للذنب، وكما قلت أنت نفسك للتو، أن الإنسان حر ولذلك قد يعاقب، فمعنى هذا أن للإنسان الحق بأن يؤمن أن خطيئة الأب، حتى بعد أن تمت معاقبته بشأنها، تظل ماثلة ويتوارثها أطفاله، كما هو حالنا نحن الأحياء اليوم الذين ورثنا خطيئة آدم وحواء، أول آبائنا. إنني مندهش أن فتى بعمرك وظروفك المتواضعة يعرف الكثير مما في الكتب ويمكنه مناقشة مثل هذه المسائل بهذه السهولة، إنني أعرف فقط ما تعلمته، من أين أنت، من الناصرة في الجليل، أدركت ذلك من طريقة كلامك، أرجوك أجب عن سؤالي، قد نفترض أن أكبر خطيئة لآدم وحواء هي عندما لم يطيعا الرب ولم تكن أكثر من أكلهما لفاكهة من شجرة معرفة الخير والشر، بحساب ذلك

أموراً حتمية، لأن خطيئتهما منعت الرب من تطبيق الخطة التي كان قد وضعها في ذهنه عندما خلق الرجل الأول ثم المرأة. عند ذاك سأل المتفرج الثاني سؤالاً تحدى به الناسخ بجوهرة أخرى من السفسطة ما كانت لابن النجار أبداً الشجاعة لأن يقولها أمام الجميع. هل تريد القول أن كل فعل بشري، مثال ذلك التمرد الذي حصل في الفردوس أو ما شابهه، من المحتمل أن يتداخل مع مشيئة الرب التي يمكن مقارنتها تماماً بجزيرة في وسط المحيط والتي تتقاذفها أمواج الإرادات البشرية العاتية. ليس ذلك بالضبط، أجاب الناسخ بحذر، إن إرادة الرب لا تهيمن ببساطة على كل الأشياء، إن أرادته تجعل كل شيء كما يكون، ولكنك أنت بنفسك قلت أنه بسبب عصيان آدم صرنا لا نعرف الخطة التي وضعها الرب له، هذا ما يقوله عقلنا لنا، لكن إرادة الرب، خالق وحاكم الكون، تتشبث بكل الإرادات الممكنة، إن إرادته بالإضافة إلى إرادة كل إنسان قد ولدتا في هذا العالم، إن يكن ذلك كذلك، تدخل يسوع بوحي ساطع ومفاجئ، فهذا يعني أن كل إنسان هو جزء من الرب، من المحتمل، ولكن حتى لو حدث واتحد كل البشر في إنسان واحد، فإن ذلك لن يكون إلا مجرد حبة رمل في الصحراء التي لا حدود لها التي هي الرب. بدا على الناسخ أنه غير راضٍ تماماً وهو يجلس على الأرض محاطاً بالمتفرجين الذين يراقبونه بمشاعر مزدوجة من الخوف والروع، وكأنهم كانوا في حضرة ساحر قد استحضر ببلاهة قوىً أقوى منه بكثير. وبدا عليه بأكتافه المتهدلة وتعابيره الحزينة واستقرار يديه المستفزتين على ركبتيه أن يرجو البقاء وحيداً مع تكدره. وبدأ الناس برفع أقدامهم ساعين للذهاب، اتجه البعض منهم إلى باحة الإسرائيليات بينما انضم آخرون إلى مجاميع أخرى لا تزال في حمى النقاش. قال له يسوع، لم تجب عن سؤالي. فعدل الناسخ جلسته ببطء، وحدق فيه مثل شخص يفوق من الإغماء ثم وبعد صمت طويل ومتوتر أجاب، الخطيئة هي الذئب الذي يأكل جروه بعد أن افترس أباه، الذئب الذي تتحدث عنه قد التهم أبي،

وسيحين دورك في الحال، وماذا عنك أنت، ألم يفترسك أحد، لم أُفترس فقط، بل لفظت أيضاً.

رفع يسوع قدميه وغادر. اتجه نحو البوابة التي جاء منها، توقف ونظر خلفه. كان عمود الدخان الذي يتصاعد من نيران التضحية يرتفع إلى السماء حيث ينتشر ويتلاشى، وكأنه يُمتص من قبل رئات الرب الهائلة. كان الوقت في منتصف الصباح، ويصل الناس أفواجاً أفواجاً، وفي داخل الهيكل جلس رجل قد تحطم وتهشم بإحساسه بالفراغ، وهو ينتظر أن يستعيد تركيبته الأولى، ليكون قادراً على أن يستجيب بهدوء لأي أحد يبحث ويريد معرفة إن كان عمود الملح الذي تحولت إليه زوجة لوط كان ملحاً صخرياً أو ملحاً بحرياً، أو إن كان نوح قد سكر بنبيذ أبيض أو أحمر. حين خرج يسوع من الهيكل، سأل عن الطريق المؤدي إلى بيت لحم حيث وجهته التالية. كان قد ضل طريقه مرتين وسط اختلاطات الشوارع والناس قبل أن يجد البوابة التي كان قد مر من خلالها عندما كان في رحم أمه قبل ذلك بثلاثة عشر عاماً وهو يوشك أن يدخل إلى هذا العالم. على أية حال، لا تتخيل أن هذا هو ما يعتمل في ذهن يسوع، إذ كما نعرف جميعاً، أن تجليات الضربة العنيفة هي أجنحة طائر الخيال الذي لا يكل. لنأخذ مثالاً واحداً، لو أن أي قارئ لهذا الإنجيل، حدث أن نظر إلى صورة فوتوغرافية لأمه وهي حبلى به، هل كان يمكنه تخيل نفسه في داخل ذلك الرحم. هبط يسوع باتجاه بيت لحم، الآن بإمكانه تأمل أجوبة الناسخ ليس على أسئلة فقط، بل أيضاً على تلك التي تقدم بها الآخرون. على أية حال، الذي كان يقلقه، هو ذلك الشعور بالضيق لأن جميع تلك الأسئلة وخصوصاً الأخير منها الذي يختصر كل الأسئلة الباقية، ألا وهو الجوع النهم للذئب نحو الخطيئة فهو دائماً ما يقرض ويلتهم ويتقيأ. الشكر لطبيعة الذاكرة التي لا يمكن الاعتماد عليها التي لا نعرفها غالباً أو نعرفها بينما نحاول النسيان، وهذا ما سبب أو

حث مشاعر الذنب، أو لو تحدثنا استعارياً مثل الناسخ، هي الوجار الذي ينطلق منه الذئب لمطاردتنا. لكن يسوع يعرف وهو متجه إلى ذلك. ليست لديه أية فكرة ما الذي سيفعله حين يصل إلى هناك، ولكن أن يكون فقط في طريقه إلى هناك هي فكرة طيبة مثل التجوال والإعلان للجميع ولمختلف الناس، أنني هنا وانتظر أحدا ما يظهر لأسأله، ما الذي تريده، عقاباً، عذراً أم نسياناً. ومثل أمه وأبيه توقف عند قبر راحيل ليصلي. ثم، وبعد أن شعر بضربات قلبه تسرع أكثر فأكثر، استأنف رحلته. بدت المنازل الأولى لبيت لحم تظهر للعيان، كان هذا هو الطريق الرئيسي في القرية الذي ينبثق منه أبوه القاتل بصحبة الجنود في حلمه ليلة بعد ليلة. في النهار، لا يكاد يبدو ساحة لمثل ذلك الرعب، وحتى الغيوم البيضاء الهادئة المنسابة عبر السماء هي مثل علامات خير من الرب وتبدو الأرض هاجعة تحت الشمس، لكأنها تدعونا بأن نبقي الأشياء على حالها فلا شيء يجتنى من تقليب الماضي، وفي الأمام امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها وتسأل، من ذا الذي تبحثون عنه، من الأفضل لكم أن تعودوا، نمحو آثارنا، ونصلي أن الحركة الدائبةلمصفى الوقت قد تطمس سريعاً بالغبار الكثيف الذكرى البعيدة لتلك الأحداث. ولكن سبق السيف العذل. فها قد جاءت اللحظة عندما تكاد الذبابة أن تمس الشبكة برفق وهي لا تزال تملك الفرصة للانفلات ولكونها لم تظن أنها ما أن تلمس الشبكة حتى تجد أن جناحها قد علق، فبعد ذاك تكون أية حركة كافية لأن توقعها في الفخ وتشلها، لتقع في الضياع الأبدي، مهما كره العنكبوت ضحيته الأخيرة. فيما يخص يسوع، فقد مرت هذه اللحظة. في وسط ساحة ومع شجرة تين منفرشة تقف بناية صغيرة مربعة لا حاجة للمرء لأن ينظر ثانية كي يعرف أنها قبر. اقترب، وسار حوله ببطء، وتوقف لقراءة الكلمات المضمحلة على إحدى الجهات، وكان هذا كافياً ليقتنع أنه عثر على ما كان يبحث عنه. مرت من الساحة امرأة تقود طفلاً في الخامسة من عمره من يده. توقفت وهي تنظر بفضول إلى

الغريب وسألته، من أين أتيت، ثم، وهي تحاول أن تبرر سؤالها، فأضافت، لست من هذه الأنحاء، كلا، أنا من الناصرة في الجليل، هل لديك أقارب هنا، كلا، كنت في زيارة لأورشليم، وبدت لي فرصة طيبة أن أرى بيت لحم، هل أنت عابر سبيل، نعم، وسأعود إلى أورشليم بعد ظهر اليوم مع انخفاض حرارة الجو. فقالت المرأة وهي تحمل الطفل على ذراعها الأيسر، فليكن الله معك، ثم بدت وكأنها تنسحب، لكن يسوع أعاقها بالسؤال، لمن هذا القبر. ضغطت المرأة الطفل إلى صدرها وكأنها كانت تريد حمايته من تهديد ما، وأجابت، لخمسة وعشرين صبياً ماتوا قبل سنوات طويلة ودفنوا هنا، كم قلت، خمسة وعشرون، أقصد كم من السنين مضت، أوه، من المحتمل أربعة عشر عاماً، سنوات طويلة، أظن ذلك صحيحاً، كان أولئك الأطفال سيكونوا في سنك الآن لو أنهم ما زالوا يعيشون حتى اليوم، أجل بالطبع، ولكن ماذا عن أولئك الأطفال الصغار، أوه، كان أخي واحداً منهم، هل لديك أخ دفن هنا، نعم، وهذا الطفل الذي بين ذراعيك، أهو ولدك، إنه ولدي البكر، لماذا قتلوا الأولاد الصغار فقط، لا أحد يعلم، لم أكن إلا في السابعة عند ذلك الوقت، ولكن لابد لك أن سمعت من والديك والبالغين الآخرين عن أمرهم، لم أكن بحاجة لذلك، فأنا نفسي رأيت البعض منهم وهم يقتلون، حتى أخوك، أجل حتى أخي، ومن قتلهم، جاء البعض من جنود الملك وهم يبحثون عن الأولاد الصغار حتى سن الثالثة. قتلوهم جميعاً، لكنكم لا تعرفون سبب ذلك، لم يعرف أحد السبب حتى الآن، وبعد أن مات هيرودس، هل حاول أحد متابعة القضية عند الهيكل ليسأل الكهنة كي يتقصوا الحقيقة، لا أدري حقاً، إن يكن الجنود من الرومانيين، فذلك شيء قد يكون مفهوماً، ولكن أن يأمر ملكنا بقتل شعبه، وهم ما زالوا رضعاً، فيبدو الأمر غريباً جداً ما لم يكن هنالك سبب ما، إن إرادة الملوك أبعد من استيعابنا، ليكن الرب معك ويحميك، كان ذلك منذ وقت طويل حين كنت في الثالثة، في ساحة الموت يعود الرجال ليكونوا

أطفالاً، هكذا أجابت المرأة قبل أن تذهب. حين أضحى يسوع وحيداً ركع على الأرض إلى جانب الصخرة التي تغطي المدخل المؤدي إلى القبر،أخذ آخر قطعة خبز تفهة المذاق بقيت في جرابه، قطعها إلى فتات بين يديه ونثرها بمحاذاة المدخل وكأنه كان يطعم الأفواه اللامرئية للابرياء الذين دفنوا هنا. لم يكد ينتهي من ذلك حتى ظهرت امرأة أخرى من الزاوية القريبة، لكن هذه المرأة كانت عجوزاً جداً ومنحنية وتسير متكئة على عصا. لم تعد ترى الأشياء بوضوح، فألقت بنظرة غامضة على هيأة الفتى. توقفت، وراقبته بانتباه، ورأته يقف على قدميه ويحني رأسه وكأنه كان يصلي من أجل راحة رقود أرواح أولئك الرضع السيئي الطالع، وعلى الرغم من ان ذلك من المعتاد، فإننا سنمتنع عن إضافة كلمة الخالدين، ذلك لأن مخيلتنا قد خانتنا في فرصة واحدة ووحيدة عندما حاولنا تخيل الراحة الخالدة. أنهى يسوع صلاته ونظر فيما حوله، جدران صماء، وأبواب مغلقة، لاشيء سوى العجوز التي تقف هناك مرتدية رداء العبيد وتنحني على عصاها، الصورة الحية لذلك الجزء الثالث من اللغز الشهير للعنقاء عن الحيوان الذي يسير على أربع في الصباح وعلى اثنين في منتصف النهار وثلاث في المساء، إنه الإنسان أجاب أوديب الذكي، الذي نسي ان البعض منهم لا يصلون حتى منتصف النهار، وفي بيت لحم وحدها، إختفى خمسة وعشرون رضيعاً في إنقضاضة واحدة. إقتربت العجوز أكثر، وهي تعرج في خطوة حلزونية وهاهي تقف أمام يسوع، وثنت رقبتها لتنظر إليه عن قرب وتسأله، هل تبحث عن شخص ما. لم يجب الفتى مباشرة ولم يكن في الحقيقة يبحث عن الناس، فمن قابلهم حتى الآن هم الموتى، دفنوا متقاربين، ولا يمكن للمرء حتى ان يسميهم ناساً، فهم ليسوا إلا رضعاً نائمين والدمى في أفواههم، ينشجون وأنوفهم مزكومة، ومع ذلك فقد صعقهم الموت وحولهم الى حضور لا يمكن أبداً ان يدخر في أية معظمة للعظام أو مذخر، الجثث التي تخرج كل ليلة من قبورها، إن يكن

ثمة عدالة لتظهر جروحها المميتة، تلك الفتحات الفاغرة التي فتحت بحد السيف فتسربت منها الحياة، كلا، أجاب يسوع، لا أبحث عن أي شخص. لم تحاول العجوز الانصراف، بل بدت كأنها تنتظر منه ان يستمر في الكلام، مما حث يسوع على البوح دون ان يدري، لقد ولدت في هذه القرية، في كهف، وكان صوتها يرتعش وهي تسأله، ما اسمك، ومن أين أتيت ومن هما والداك. لا أحد يشعر انه مجبر على ان يجيب على أسئلة عبدة، لكن كبار السن، مهما انخفض مستواهم، فإنهم يستحقون إحترامنا، علينا أن لا ننسى أن لا وقت بقي لديهم لإلقاء الاسئلة وسيكون من القسوة جداً ان نتجاهلهم، في الأخير قد يتوصلون إلى الجواب الحقيقي الذي ينتظرونه. إسمي يسوع وأنا من الناصرة في الجليل، أخبرها الفتى بذلك، ويبدو انه لم يقل شيئاً غير ذلك منذ أن غادر وطنه. فتقدمت العجوز أكثر وسألته، وما إسم والديك، كان إسم أبي يوسف، وأمي تدعى مريم، كم عمرك. أنا في حوالي الرابعة عشرة نظرت المرأة حولها وكأنها تبحث عن مكان تجلس فيه، ولكن ساحة في بيت لحم اليهودية لا تشبه أبداً حديقة في ساوباولو دو الكانترا، بمقاعدها ومنظر القلعة الجميل، هنا علينا أن نجلس على الأرض الترابية، أو في أفضل الأحوال على عتبة باب، أو إن يكن ثمة قبر، فعلى الحجر الذي بجانب المدخل الذي وضع لراحة الأحياء الذين يزورون قبور أحبائهم، أو ربما أيضاً للأشباح الذين يغادرون قبورهم ليذرفوا ما بقيت لهم من دموع، كما هي حال راحيل التي دفنت في قبر قريب كتب عليه، هنا ترقد راحيل التي تبكي على أطفالها وهي لا تبحث عن عزاء لأنهم لم يعودوا موجودين، وليس المرء بحاجة لأن يكون داهية كأوديب ليرى أن هذا المكان يناسب الظروف، وأن حزن راحيل هو سبب كل كارثتها. أجلست المرأة العجوز نفسها على حجر ببعض الجهد وأظهر الفتى أنه هب لمساعدتها، ولكنه تأخر عن فعل ذلك، فالأفعال الفاترة لا تأتي أبداً في الوقت المناسب. قالت له العجوز، إنني أعرفك، وأجابها يسوع، لابد

أنك مخطئة، فلم آت إلى هنا أبداً من قبل ولم أرك أبداً في الناصرة، أول يدين لمستاك لم تكونا يدا أمك بل يداي، كيف ذلك أيها العجوز، إسمي سالوم وكنت القابلة التي جلبتك إلى العالم. فتحرك يسوع باندفاع ينم عن الإخلاص وركع على ركبتيه عند قدمي العجوز وهو متذبذب غريزياً بين رغبته في المعرفة مرة واحدة إلى الأبد وبين الحاجة ليبدي إمتنانه لهذه المرأة التي، بحضورها عند ولادته قد أخرجته من نسيان دونما ذاكرة كي تحرره في عالم لولاه لما كان يعني شيئاً. قال يسوع، لم تذكرك لي أمي أبداً، لم تكن ثمة حاجة لذلك، لقد جاء والداك إلى باب سيدي وقدمت لهما أنا المساعدة لأنني كانت لدي بعض الخبرة في إنجاب الأطفال. هل كان ذلك في الوقت الذي ذبحوا فيه الأبرياء، هذا صحيح، كنت محظوظاً لأنهم لم يجدوك، لأننا كنا نعيش في كهف، إما لذلك السبب أو لأنكم كنتم قد غادرتم قبل ذلك، لم أستطع معرفة السبب أبداً، لأنني حين ذهبت لأرى ما الذي حدث لكم وجدت الكهف خالياً. هل تذكرين أبي، أجل أتذكره جيداً، كان في أوج شبابه في ذلك الوقت، رجل ذو هيأة بهية، ونزيه، لقد توفي، يا للمسكين، لم يعمر طويلاً، ولكن إن تكن وريثه فما الذي تفعله هنا لأنني أظن أن أمك ما زالت حية، لقد جئت لأرى المكان الذي ولدت فيه، وأيضاً لأبحث في أمر أولئك الأطفال الذين ذبحوا هنا، الرب وحده يعلم لماذا كتب عليهم الموت، لقد تخفى ملاك الموت في جنود هيرودس، وهبط في بيت لحم وحكم عليهم بالموت، أنت إذاً تؤمنين أنها كانت إرادة الرب، لست إلا عجوزاً من العبيد، ولكن طوال حياتي سمعت الناس يقولون إن كل شيء يحدث في هذا العالم، حتى المعاناة والموت، لا يمكن أن يحدثا إلا بإرادة الرب، هكذا كُتب. يمكنني أن أفهم أن الرب قد يقرر أنني لابد أن أموت في أي يوم الآن، لكن كان أولئك أطفالاً أبرياء وصغاراً، سيكون موتك مقرراً من قبل الرب في الوقت الذي يشاءه، ولكنه الإنسان هو الذي أمر بوجوب قتل أولئك الأطفال. لذا عندما يقال كل شيء ويُعمل، فإن يد

الرب لا تفعل إلا القليل جداً، عندما لا يستطيع الحلول بين السيف وأولئك الذين حكموا بالموت، أيتها المرأة الطيبة لا يجب عليك أن تهيني الرب، ان امرأة عجوزاً مثلي ليس بمقدورها أن تسبب أي إهانة، في هذا اليوم بالذات سمعت في الهيكل أن كل فعل بشري، مهما كان ضئيلاً، يتقاطع مع إرادة الرب، وأن الإنسان حر فقط من أجل أن يعاقب، إن عقابي لا يأتي من كوني حرة، إنه يأتي من كوني عبدة، هكذا أخبرته العجوز. سكت يسوع، ولم يكد يسمع كلمات سالوم لأنه فجأة خطر بباله أن الإنسان مجرد لعبة بين يدي الرب وهو دوماً خاضع لإرادته، مهما تخيل نفسه يطيعه أو لا يطيعه في كل الأشياء.

كانت الشمس تهبط، واستطال الظل الشرير لشجرة التين وراح يقترب. تراجع يسوع قليلاً ونادى العجوز. فرفعت سالوم رأسها ببعض الجهد، وسألته، ماذا تريد، خذنيني إلى الكهف الذي ولدت فيه، أو على الأقل أرشديني إليه إن يكن من الصعب عليك السير إليه. لا أستطيع الثبات على قدمي ولكنك لا تستطيع أن تجده ما لم أريك إياه، أهو بعيد عن هنا، كلا، ولكن ثمة الكثير من الكهوف حوله وكلها متشابهة، دعينا نذهب إذاً، فأجابته، كما تريد. في ذلك اليوم كل من شاهد سالوم وذلك الفتى وهما يمران، لابد وأن كان يسأل نفسه أين التقى هؤلاء الاثنان. ولكن كان من المستحيل أن يعرفوا لأن العجوز العبدة لم تكشف ذلك حتى يوم وفاتها، ولم يعد يسوع أبداً إلى مسقط رأسه. في الصباح التالي ذهبت سالوم إلى الكهف حيث تركت الفتى. ولم تجد له أثراً. وفي أعماقها كانت مسرورة لأنها لم تجده. فلم يكن ثمة شيء آخر يقولانه لبعضهما البعض.

لقد قيل الكثير حول مصادفات الحياة ولكن قيل القليل أو لا شيء حول المواجهات اليومية التي تكاد تقود وتتحكم بالحياة دائماً، على الرغم من أنه، ودفاعاً عن هذا الإدراك الجزئي للاحتمالات الحيوية، يمكن للمرء أن يناقش أن المواجهات، إن تحدثنا على نحو صارم، هي مصادفة، رغم أن ليس كل المصادفات يتحتم أن يكن مواجهات. خلال هذا الإنجيل ثمة الكثير من المصادفات، وإن نظرنا بدقة إلى ما يسمى بحياة يسوع، وخصوصاً بعد أن غادر وطنه، يمكننا أن نرى أنها ليست قليلة. وإن تجاوزنا المغامرة المشؤومة مع اللصوص، ما دام من المبكر جداً التنبؤ ما يمكن أن تكون عليه النتائج في المستقبل القريب والبعيد، فإن رحلة يسوع الأولى منفرداً قد نتجت عنها الكثير من المواجهات، مثال ذلك الظهور الذي بعثته العناية الإلهية للفريسي الطيب، الذي يعود الفضل له ليس فقط لأن يشبع الفتى المحظوظ جوعه، بل أيضاً لأن يأكل على عجل ليصل الهيكل في الوقت الملائم وليصغي إلى الأسئلة والأجوبة التي هيأت له الفرصة، كما حدث، ليلقي سؤاله عن الخطيئة والندم، السؤال الذي جاء به طوال الطريق من الناصرة. عندما يناقش النقاد أصول السرد المؤثر، فإنهم يصرون على أن المواجهات المقررة، في الأدب القصصي كما في الحياة، لابد أن تتداخل وتتقاطع مع أحداث أخرى لا أهمية حقيقية لها، لذلك لا يجد بطل القصة نفسه متحولاً إلى إنسان منفرد لم تحدث له أبداً حوادث عادية. وهم أيضاً يرون أن هذه هي العملية السردية التي تخدم التأثير المطلوب دائماً للمحتمل على أكمل

وجه، إذ لو أن الحادثة المتخيلة والموصوفة من غير المحتمل أبداً أن تكون أو تحل محل الواقع الحقيقي، فلابد على الأقل من نوع من المشابهة. وليس كما هو الحال في السرد الحالي، الذي يوضع فيه تصديق القارئ على المحك بوضوح، فيأخذ يسوع نفسه إلى بيت لحم حيث يكاد يصل حتى التقى وجهاً لوجه سالوم التي ساعدت في ولادته وكأن المواجهة الأخرى مع المرأة التي كانت تحمله طفلاً بين ذراعيها، والتي أتيناها هنا لحشو القصة باعتراضاتها، لم تكن قد نالت الانحراف الفني الكافي. على أية حال، إن الجزء الأبعد عن التصديق من قصتنا لم يأت بعد، حين رافقت العبدة سالوم يسوع إلى الكهف وتركته هناك وفقاً لطلبه، اتركيني هنا وحدي بين هذه الجدران الداكنة لربما أسمع صرختي الأولى في هذا الصمت العميق إن استطالت الأصداء حتى هذا الوقت. هذه هي الكلمات التي ظنت المرأة أنها سمعتها وهكذا سُجلت هنا، مجازفين مرة أخرى من دحر المحتمل، ولكننا فيما بعد يمكننا دائماً أن نخطّئ الشهادة التي لا يعتمد عليها لعجوز خرفة. عرجت سالوم متأرجحة على قدميها، وهي تتحرك بحذر، خطوة في كل مرة وتتكيء على عصاها التي تتمسك بها بيديها الاثنتين. كانت ستكون التفاتة طيبة من ذلك الفتى بأن يقوم بمساعدة تلك المخلوقة المسكينة المتألمة وهي عائدة إلى بيتها، ولكن هذا هو الشباب، أناني ولا عقل له، وليس ثمة ما يوحي بأن يسوع كان مختلفاً عن الفتيان في مثل سنه.

إنه يجلس على حجر، وثمة مصباح زيتي يستقر على حجر إلى جانبه باثاً ضوءه الكابي على جدران الكهف الخشن، وعلى ركام الفحم الداكن حيث كانت ثمة نار في وقت من الاوقات وعلى يديه الرخوتين ووجهه الحالم الحزين، فكر في نفسه هذا هو المكان الذي ولدت فيه، لقد نمت مرة في ذلك المعلف، وجلس أبي وأمي مرة على ذلك الحجر بالذات حيث أجلس أنا الآن، هنا التجأنا بينما كان جنود هيرووس

يبحثون في القرية وذبحوا الاطفال الرُضع. ولكنني مهما حاولت فلن أفلح في سماع تلك الصرخة التي صرختها عند الولادة، أو صرخات أولئك الاطفال الذين كانوا يذبحون والآباء الذين يرونهم ينفقون أمام أعينهم، ليس سوى الصمت في ذلك الكهف حيث البداية والنهاية يأتيان معاً. وكما تعلمت في الهيكل، فالآباء يدفعون ثمن الذنوب التي اقترفوها، وأطفالهم يدفعون ثمن الذنوب التي قد يقترفونها يوماً ما، ولكن إن تكن الحياة مقررة وليس الموت سوى عقاب، فليس ثمة أبداً أكثر براءة من شعب بيت لحم، وأولئك الأطفال الذين ماتوا بكل براءة والآباء الذين لم يذنبوا بشيء، وليس ثمة من هو أكثر ذنباً من أبي الذي بقي صامتاً عندما كان حرياً به أن يتكلم، وها أنا الآن، من أنقذت حياته كي أتعلم من الجريمة التي أنقذت حياتي، وحتى لو أنني لم أقترف إثماً آخر، فإن هذا كافٍ كي يقتلني. بين ظلال الكهف نهض يسوع على قدميه وكأنه يتوق للفرار، ولكنه بعد أن قام ببعض الخطوات المتعثرة إنهارت ساقاه فجأة، ووضع يديه على عينيه ليمسح دموعه، يا للمسكين، إنه ينوي في الغبار وكأنه يشرف على الهلاك، يعذبه الندم على جريمة لم يقترفها، ومع ذلك، حكم عليه أن يشعر بالذنب لبقية حياته. هذا الفيضان من الدموع المرة سيترك ندبة إلى الأبد في عيون يسوع، لمعان باهت من الحزن واليأس وكأنه قد توقف لتوه من البكاء. مر الوقت وراحت الشمس تغرب في الخارج، واستطالت ظلال الأرض استهلالاً لذلك الظل الهائل الذي يهبط من السماوات عند الغسق. إخترقت العتمة المنتهكة الكهف حيث الظلال كانت تهدد من قبل بإطفاء شعلة المصباح الصغيرة، من الواضح أن الزيت قد نفد وهذا ما سيبدو عليه الحال حين تختفي الشمس تماماً في الأخير، عندما يقول الناس لبعضهما البعض، إننا لا نرى شيئاً، غير مدركين أن عيونهم لم تعد بذات فائدة. يسوع الآن نائم، غلبه الارهاق الرحيم للأيام الماضية، حلم أبيه الفظيع، والكابوس الموروث، واستسلام أمه، ثم بعد ذلك الرحلة المتعبة إلى أورشليم،

والرؤيا المروعة للهيكل، والكلمات غير المشجعة التي قالها الناسخ، والهبوط في بيت لحم، والمواجهة القدرية مع سالوم التي ظهرت من أعماق الزمن لتكشف مرة والى الأبد كل ظروف ولادته، لذلك ليس من الغريب أن يهدىء جسده المرهق، فبدا أنه يريح جسده وروحه، لكن روحه كانت تتحرك من قبل ورفعت في الحلم جسده ليذهبا معاً إلى بيت لحم وهناك، في وسط الساحة العامة يعترفان بجريمتهما الشنيعة. وبوساطة آلة صوتية بدنية ستعلن روحه، أنا من جلب الموت لأطفالكم، فحاكموني، ادينوا هذا الجسد الذي جئت به أمامكم، هذا الجسد الذي أنا فيه قلباً وروحاً، كي يتسنى لكم أن تؤنوه وتعذبوه، فكما هو معروف، بإماتة الجسد والتضحية به فقط يمكننا أن ننال الغفران وتنال الروح مكافآتها. كان بامكان يسوع أن يرى في حلمه أمهات بيت لحم وهن يحملن الجثث الصغيرة، واحد فقط من أولئك الرُضع حي وأمه هي المرأة التي ظهرت ليسوع والطفل بين ذراعيها، وهي التي تجيب، إذا لم تستطع الابقاء على حيواتهم، إبق صامتاً، فمن ذا الذي يحتاج الكلمات في حضور الموت. وتراجعت روحه إلى نفسها بإذلال مثل رداء يطوى ثلاث مرات، قبل أن يسلم جسده المكشوف إلى رحمة أمهات بيت لحم، لكن يسوع لم يكن يعلم أبداً أن جسده سيبقى أذ في الوقت الذي كانت فيه المرأة التي تحمل طفلاً بين ذراعيها توشك أن تخبره، لا لوم عليك، لك أن تذهب، ملأ الكهف نور ساطع وأيقظه بذعر، أين أنا، كانت أول رؤيا يراها، وهو يحاول سحب رجليه من الارض الترابية والدموع في عينيه، رأى إنساناً عملاقاً يشمخ فوقه وفي رأسه لهب، لكنه أدرك فيما بعد أنه كان مخطئاً، كان الرجل يحمل مشعلاً في يده اليمنى التي كادت تلمس سقف الكهف. كان الرأس منحنياً قليلاً وكبيراً جداً ربما يكون لغول، ومع ذلك فليس ثمة عدوانية في وجهه بتعابيره المسرورة التي تكشف عمن كان يبحث عن شيء وعثر عليه. نهض يسوع على قدميه واستند إزاء جدار الكهف حيث استطاع أن يرى العملاق بوضوح والذي

لم يبد له بعد ذاك بتلك الضخامة، وربما أطول من أطول رجل في الناصرة بشبر. تلك هي الأوهام البصرية، التي بدونها ليس ثمة أعاجيب أو معجزات قد أكتشفت في العصور الماضية، والسبب الوحيد الذي منع الغول ذاته من أن يكون لاعباً في كرة السلة هو أنه ولد قبل زمانه. سأله الرجل، من تكون، لكن يسوع رأى أنه كان يريد الحديث فقط. فوضع مشعله على قطعة ناتئة من صخرة وأوقف العصاتين اللتين كان يحملهما معه إزاء الجدار، واحدة ذات عقد كبيرة تنعمت بالاستعمال الكثير، والأخرى لا تزال مغطاة باللحاء إذ قطعت للتو من شجرة ما. ثم وهو يجلس على أكبر صخرة، بدأ يسحب الملاءة الواسعة التي يلفها على كتفيه. أجاب الفتى، أنا يسوع الناصري. ما الذي تفعله هنا إن كنت من الناصرة، على الرغم من أنني من الناصرة فقد ولدت هنا في هذا الكهف وقد جئت لرؤية المكان الذي ولدت فيه، لقد ولدت، يا بني، في بطن أمك ولن تستطيع الزحف عائداً إلى هناك. ولأن يسوع لم يكن معتاداً على مثل هذه اللغة الفظة، فقد جعلته كلمات الرجل يتورد خجلاً ولم يستطع أن يقول شيئاً. هل أنت هارب من البيت، هكذا سأله الرجل. تردد الفتى وكأنه كان يبحث في قلبه إن كان خروجه يوصف بالهروب قبل أن يجيب، نعم. هل تشاجرت مع والديك، والدي متوفٍ، ولم يقل الرجل سوى، أوه، ولكن كان ليسوع شعور غريب بأن الرجل كان واعياً من قبل لهذا وغيره وأنه كان يعرف ما الذي قيل وما سيقال. لم تجب عن سؤالي، ألحّ الرجل، أي سؤال، هل تشاجرت مع والديك، هذا ليس من شأنك، لا تكن فظاً معي أيها الفتى، ما لم تكن تريد جلدة قاسية، ولن يسمع حتى الرب صرخاتك في هذا المكان. الرب هو العين والأذن واللسان. إنه يرى ويسمع كل شيء، كل ما في الأمر أنه لا يشاء، ولا يقول كل شيء، ما الذي يعرفه فتى في مثل سنك عن الرب، ما تعلمته في الكنيس، هل سمعت أحداً في الكنيس يقول أن للرب عيناً واحدة وأذناً واحدة ولسان واحد، أنا نفسي قررت ذلك وإلا لن يكون الرب رباً،

ولماذا تظن أن للرب عيناً واحدة وإذناً واحدة وليس عينين وأذنين مثلنا، كي لا تخدع الواحدة الأخرى، أما اللسان فلا مشكلة هناك لأننا لدينا لسان واحد فقط. للسان الإنسان جهتان أيضاً وهو يخدم الحقيقة والزيف معاً، لا يمكن للرب أن يكذب، فمم يخشى، الرب وذاته، وإلا سينكر ذاته، هل رأيته من قبل، أرى من، ترى الرب، البعض قد رأوه وأعلنوا عن قدومه. حدق الرجل في الفتى بصمت وكأنه يبحث عن سمة مألوفة ثم قال، صحيح، يؤمن البعض أنهم رأوه. سكت، ثم استأنف كلامه بابتسامة جارحة، لم تجب عن سؤالي حتى الآن، أي سؤال، هل تشاجرت مع والديك، لقد غادرت البيت كي أرى العالم، لقد أصبحت محترفاً بالكذب، يا فتاي، لكنني أعرف تماماً من أنت، لقد ولدت لنجار بسيط إسمه يوسف وغازلة للصوف إسمها مريم، كيف تعرف، لقد عرفت ذلك يوماً وتذكرت منذ ذلك الوقت، لا أفهم، إنني راعي أغنام قضيت أغلب حياتي في العناية بأغنامي وماعزي وصادف أنني كنت قريباً من هنا عندما جاء الجنود لذبح أطفال بيت لحم، لذلك كما ترى فأنا أعرفك منذ يوم ولادتك. نظر يسوع إلى الرجل باهتياج وسأله، ما أسمك، إن أغنامي لا تعرفني بالاسم، ولكنني لست واحداً من أغنامك، من يدري، أخبرني ماذا تدعى، إن أصررت على أن تمنحني إسماً فسمني (باستور) الراعي، فذلك كاف لأن يستدعيني لو حدث وكنت بحاجة إلي، هلا أخذتني معك لأساعدك في قيادة القطيع، كنت أنتظر منك أن تطلب ذلك، حسناً إذاً، أجل، تعال لتنظم إلى القطيع. وقف الرجل على قدميه، رفع مشعله، وخرج. وتبعه يسوع. كانت أشد الليالي حلكة ولم يرتفع القمر حتى ذلك الحين. كانت الأغنام والماعز محتشدة عند مدخل الكهف وصامتة، ما عدا رنين أجراسها الذي يرن من وقت لآخر. كانت تنتظر بصبر نتيجة الحديث بين الراعي ومساعده الأخير. رفع الرجل المشعل ليستعرض رؤوس الماعز السوداء والخطوم المبيضة للأغنام، البعض منها ضامر ذو شعر متناثر والأخريات منها ممتلئة

الجسم بأكسية صوفية، قال له، هذا هو قطيعي، حافظ على أن لا تفقد حتى واحداً من هذه الحيوانات. جلس يسوع والراعي عند مدخل الكهف تحت وميض ضوء المشعل وأكلا جبناً وخبزاً قديماً من الجراب. ثم ذهب الراعي إلى الداخل وعاد بالعصا الجديدة التي كانت مغطاة باللحاء. أشعل ناراً وراح يقلب الخشبة برشاقة وسط اللهب وسفع اللحاء ببطء حتى بدأ يتقشر في أشرطة طويلة وبعد ذلك عمل على تنعيم العقد بقوة. وبعد أن ترك العصا لتبرد عاد وغمرها في النار ولكنه قلبها بخفة هذه المرة ليتفادى حرقها ليجعل سطحها داكناً وقوياً حتى اتخذت شكل خشبة ملائمة. سلم العصا إلى يسوع حين أصبحت جاهزة، وأخبره، هذه هي عصا الراعي، قوية ومستقيمة ومفيدة مثل ذراع ثالثة. على الرغم من أن يديه لم تكونا رقيقتين فقد أسقط العصا من يده صارخاً. سأل يسوع نفسه، كيف لراعٍ أن يحمل شيئاً ساخناً هكذا، ولكنه لم يجد جواباً لذلك. عندما ظهر القمر أخيراً، دخلا الكهف لينالا قسطاً من النوم. وتبعتهما بعض الأغنام واضطجعت إلى جانبهما. عند أول الضياء أيقظ الراعي يسوع، حان وقت النهوض، لا بد من إطعام القطيع، من الآن فصاعدا ستأخذه أنت إلى المرعى، الواجب المهم الذي من المحتمل أن يوعز إليك بثقة. تحرك القطيع بأسرع ما كانت تسمح به خطواته الصغيرة، الراعي يسير في المقدمة ومساعده في الأخير. لم يبد على الفجر الشفيف البارد أنه كان متعجلاً في إظهار الشمس، كان حاسداً لذلك البشير البهي الذي ولده العالم من جديد. بعد ساعات، كانت امرأة عجوز تسير ببطء بمساعدة عكازتها وقد ظهرت من بين بيوت لحم ودخلت الكهف. لم يبد عليها أنها تفاجأت بعدم وجود يسوع، ولربما لم يبق لأحد منهما كلام يقوله للآخر. ومن بين الظلال الخالدة داخل الكهف استمر لهب صغير بالإشعاع، لابد أن الراعي قد ملأ المصباح بالزيت.

بعد ذلك بأربع سنوات، سيقابل يسوع الرب. هذا الايحاء غير

المتوقع، الذي ربما يكون قد جاء قبل أوانه تبعاً إلى أصول السرد المؤثر الذي ذكرناه آنفاً، فهو ببساطة قصد منه تهيئة القاري لمشاهد يومية من حياة الرعي التي ستزيد القليل من المادة لخيط القصة الرئيسي، وهذا ما يعذر أي قارئ قد حاول القفز إلى الأمام. رغم ذلك فالأربع سنوات هي أربع سنوات، خصوصاً في عمر عندما يكون ثمة الكثير من التغيرات الجسدية والعقلية لدى شاب، حين نما جسده سريعاً، وظهرت العلامات الأولى للحيته، وتصبح السحنة الداكنة داكنة أكثر، ويتحول صوته إلى صوت عميق وأجش مثل صوت تدحرج حجر إلى الأسفل على سفح منحدر جبلي وتلك النظرة الذاهلة وكأنها في حلم يقظة، التي هي دائماً تستحق الشجب خصوصاً عندما يتوجب على المرء أن يكون محترساً، كالخفراء في المتاريس والقلاع والمعسكرات أو، قبل أن نشت عن قصتنا، مثل هذا الولد الراعي الذي حذر بأن يبقى يقظاً ليحرس أغنام وماعز سيده. رغم أننا، لو شئنا حول الحقيقة، لا نعلم حقاً من هو ذلك السيد. إن رعاية الأغنام، في هذا الزمن وفي هذه الأنحاء، هي عمل خادم أو عبد، مجبر، تحت ألم العقاب، بأن يجمع كمية معلومة من الحليب والجبن والصوف، ولا حاجة لذكر عدد الحيوانات التي من المفروض أن تزداد كي يتسنى للجيران أن يروا عيون الرب تنظر للأسفل بالمغفرة للمالك التقي لمثل هذه الأملاك الغزيرة، وهو الذي، إذا يرغب في أن يعمل وفق قواعد هذا العالم، فلابد أن تكون له ثقة أعظم بنزعة الخير لدى الرب أكثر من القوة الوراثية للخرفان المجدولة في قطيعه. ولكن كم هو غريب ذلك الباستور، كما طلب أن يسمى، فلا يبدو أن هنالك سيداً أعلى منه. فخلال السنوات الأربع التالية لا أحد سيأتي إلى الجزيرة لجمع الصوف أو الحليب أو الجبن، ولن يترك باستور القطيع كي يقدم كشفاً بأعماله. كان كل شيء سيكون أفضل لو أن باستور هو المالك، في القبول المعتاد للكلمة، لهذه الماعز والأغنام. ولكن من الصعب التصديق أن المالك الحقيقي كان سيسمح بالضياع الذي لا

يصدق لهذه الكمية من الصوف، فهو يجز صوف غنمه ليمنعها من الاختناق بالحرارة ليس إلا، أو يستخدم الحليب لصنع الجبن فقط ثم يبادل البقية منه بالتبن والتمور والخبز، وأكثر الأشياء غموضاً، أنه لا يبيع أبداً الحملان والصغار من قطيعه، ولا حتى في عيد الفصح، عندما يزداد الطلب عليها وترتفع أسعارها. والأقل عجباً، أن القطيع يكبر، وكأنه يطيع، بمثابرة وحماس أولئك الذين يشعرون أن امتداد حياتهم مرهون بذلك الأمر الشهير ابتعد وتكاثر الذي يشرعه الرب، الذي ربما يكون غير راضٍ عن فعالية الغرائز الطبيعية الجميلة. في هذا القطيع العاصي والغريب تميل الحيوانات إلى أن تموت من الشيخوخة ويقدم باستور ذاته يد المساعدة بهدوء لقتل تلك الحيوانات التي لا تتوافق مع الحيوانات الأخرى بسبب المرض أو الشيخوخة. حدث مثل ذلك لأول مرة بعد أن بدأ عمل يسوع مع باستور، فاحتج على مثل هذه القسوة العابثة، فقال الراعي ببساطة إما أن أقتلهم، كما أفعل دائماً، أو أتركهم يموتون وحيدين في هذه البرية، أو أعيق القطيع، في انتظار أن يموت كبار السن والمرضى وأجازف بأن أدع الحيوانات الصحيحة تموت جوعاً بسبب فقدان المرعى. فقل لي إذاً، ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني وفي يدك الحياة والموت لقطيعك هذا. لم يعرف يسوع بماذا يجيب وغير الموضوع بالسؤال، ما دمت لا تبيع الصوف ولديك ما يزيد عن حاجتنا من الحليب والجبن ولا نأخذ الحملان إلى السوق، فلماذا تسمح لهذا القطيع بأن يتكاثر أكثر فأكثر. في أحد الأيام سوف تغطي أغنامك وماعزك كل تل تراه، ولن يكون ثمة أرض تكفي لمرعاهم. فأخبره باستور، كان القطيع هنا، ولا بد لأحد أن يرعى الحيوانات ويحميها من اللصوص، وذلك الشخص الذي صادف وكان أنا، ما الذي تقصده بهنا، هنا، هناك، في كل مكان، إذاً فأنت تطلب مني أن أومن أن هذا القطيع كان دائماً هنا، قليلاً أو كثيراً، هل اشتريت أول خروف وماعز، كلا، فمن أين لك إذاً، لقد وجدته ببساطة، لا أدري إن كان أحد ما قد اشتراه،

ولكن في الوقت الذي كنت فيه هنا كان ثمة قطيع من قبلي، هل أهدي لك، لم يهده أحد لي، لقد وجدته، ووجدني، فأنت المالك إذاً. كلا لست المالك، لا شيء في هذا العالم يعود لي، ذلك لأن كل شيء يعود إلى الرب كما لا بد لك أن تعلم، صحيح، كم مضى عليك وأنت راعٍ، كنت راعياً قبل أن تولد، كم من السنوات، من الصعب القول، لربما لو ضربنا عمرك بخمسين، البطاركه وحدهم قبل الطوفان العظيم عاشوا ذلك العمر الطويل ولا أحد في مثل هذه الأيام يأمل أن يصل إلى عمرهم، لا حاجة بك لأن تخبرني بذلك، حسناً إن رضيت بذلك، وأصررت على قولك أنك عشت ذلك العمر الطويل، فلا تتوقع مني أن أؤمن أنك بشر، لست كذلك. الآن لو أن يسوع، الذي كان حاذقاً في التساؤل كأي واحد من حواريي سقراط، قد تساءل، فمن أنت إذاً، ما دمت لست بشراً، فأكثر الاحتمال أن باستور قد أجابه غير مكترث، أنا ملاك، ولكن لا تخبر أحداً. وهذا ما يحدث غالباً، فنحن نمتنع عن التساؤل لأننا نكون غير مهيئين أو أننا ببساطة نخشى سماع الأجوبة. وحين تستدعينا الشجاعة لأن نسأل، فلا نلقى الأجوبة، مثلما سيرفض يسوع في أحد الأيام أن يجيب حين سؤل، ما هي الحقيقة. السؤال الذي بقي دون إجابة حتى هذا اليوم.

مهما حدث، فإن يسوع يعلم دون أن يكون مجبراً على التساؤل أن هذا الرفيق الغامض ليس ملاكاً للرب لأن ملائكة الرب تغني دائماً في تمجيده، على العكس من البشر الذين يمجدونه فقط بالإكراه وفي حالات مشرّع بها، على أن من الجدير بالذكر أن الملائكة لها السبب الأعظم في إنشاد مدائحه ذلك لأنهم يعيشون في حميمية مع الرب في مملكته السماوية. الذي أدهش يسوع حقاً منذ البداية حين خرجا من الكهف مع الضياء الأول، لم يشكر باستور، على العكس من يسوع، الرب عن كل النعم المعتادة، مثل الحفاظ على روح الإنسان ومنح

الديك الفطنة، وحين اختفى خلف صخرة ليفرغ نفسه، لم يشكر الرب عن كل الفتحات والأعضاء التي وهبتها العناية الإلهية لتساعد الجسم البشري كي يقوم بوظيفته ولولاها لكنا في حالة مزرية. نظر باستور إلى السماء والأرض كما يفعل المرء حين ينهض من فراشه، تمتم بشيء حول اليوم الجميل القادم، ثم وضع إصبعين في فمه ليصفر صفيراً حاداً جعل القطيع كله ينهض مرة واحدة. هذا كل ما فعله. ظن يسوع أنه ربما نسي، فذلك ممكن دائماً عندما ينشغل الذهن بأشياء أخرى، مثال ذلك كيفية تعليم هذا الفتى، الذي ألف الحياة السهلة لنجار، المبادئ الأولية في رعاية الأغنام والماعز. الآن وكما تعرف فإن يسوع ما كان في موقف عادي بين ناس عاديين عليه أن ينتظر طويلاً ليكتشف مدى تقوى سيده، ذلك لأن اليهود في تلك الأيام يشكرون الرب ثلاثين مرة في كل يوم وعند أبسط ذريعة، كما رأينا ذلك كثيراً في هذا الانجيل، دون الحاجة إلى أدلة أخرى. لكن اليوم انتهى ولم يظهر باستور أية اشارة للصلوات أو الشكر، هبط الغسق وتهيأ للنوم في الفضاء المفتوح. ولم تكن حتى عظمة سماء الرب في الأعالي قد لامست قلب الراعي أو استحثت حتى كلمة شكر أو امتنان لتجري على شفتيه، فبعد ذاك، لربما ستمطر، ولم تكن كذلك، والتي كانت بالنسبة لكل النوايا والمقاصد، البشرية منها والإلهية، هي إشارة واضحة على أن الرب يحرس خلقه. في الصباح التالي، بعد أن أكلا كان سيد يسوع يستعد لتفقد القطيع ليتأكد أن القطيع بأكمله هناك وأن ليس ثمة معزى قررت التجول في الجوار، أعلن يسوع فجأة بصوت حازم، إنني ذاهب. توقف باستور، ونظر اليه دون أن يغير تعابير وجهه، وقال ببساطة، أتمنى لك رحلة سعيدة، لست بحاجة لأن تقول لي ما دمت ليس عبدي وليس بيننا عقد شرعي، بإمكانك الرحيل متى ما شئت، ولكن الست راغباً في معرفة سبب ذهابي، لا فضول عندي لذلك، حسناً، سأخبرك ما دام الأمر سواء، إنني ذاهب لأن لا رغبة

عندي في العمل مع شخص لا يقوم بالتزاماته تجاه الرب، أية التزامات، أبسط الالتزامات، كصلاة الشكر مثلاً. لم يقل باستور شيئاً، كانت عيناه نصف مبتسمتين، ثم تحدث في الأخير، لست يهودياً، لذلك لا التزامات لدي لأقوم بها. ولأن يسوع صعق بعمق فقد تراجع بعيداً. إن تكن إسرائيل ممتلئة بالغرباء وعبيد الآلهة المزيفة، فذلك شيء يعرفه جيداً، ولكن هذه هي المرة الأولى التي ينام فيها حقاً إلى جانب شخص من أولئك ويتقاسم معه خبزه وحليبه. وكأنه كان يحمل سيفاً وترساً أمامه، قال متعجباً، الرب الوحيد هو الله. تلاشت ابتسامة باستور وانثنى فمه وصار صارماً، بالتأكيد إن يكن الله موجوداً لا بد أن يكون هو الرب الوحيد، ولكن كان سيكون من الأفضل لو أنه اثنان، فحينذاك سيكون هناك رب للذئب وآخر للشاة، واحد للضحية وآخر للقاتل، رب للإنسان المحكوم وآخر للحاكم، الله واحد، كامل و لا ينشطر، قال يسوع ذلك بدهشة، وهو يكاد يبكي بسخط ورع، عند ذاك تمتم باستور، لا أعلم كيف يمكن أن يعيش الرب، ولم يتمكن من أن يذهب أكثر من ذلك حتى قاطعه يسوع بسلطة معلم في الكنيس، الرب لا يعيش، الرب يوجد، هذه المميزات الدقيقة تفوتني، ولكنني سأقول لك هذا الشيء، لا أود أن أكون إلهاً يقود يد القاتل المتشبثة بالخنجر بينما تحضر الحنجرة التي توشك على الذبح، إنك تهين الرب. أفكارك غير الموقرة، إنك تبالغ في تقدير قيمتي، تذكر أن الرب لا ينام أبداً وفي يوم ما سوف يعاقبك، تماماً فهو لا ينام كي يتفادى كوابيس النوم، لماذا تحدثني عن كوابيس النوم، لأننا نتناقش في إلهك، وأي إله تعبد، أنا، مثل شياهي، لا إله لي، ولكن الشياه تنتج الحملان التي تقدم إلى المذابح من أجل الرب، وبإمكاني أن أؤكد لك أن أمهاتهم ستقوى كالذئاب لو حدث وعلمن. شحب وجه يسوع ولم يحر جواباً. كل شيء صمت مع تجمع القطيع حولهما ملاطفة. كانت الشمس قد ارتفعت، يبث ضياءها وهجاً قرمزياً على صوف الأغنام وقرون الماعز. قال

يسوع، إنني ذاهب، ولكنه لم يحرك ساكناً. انتظر باستور متكئاً على عصاه مسترخياً وكأن لديه كل الزمان في العالم تحت تصرفه. وأخيراً خطى يسوع بضع خطوات، وهو يفتح طريقه بين الشياه، ثم توقف فجأة وتساءل، ما الذي تعرفه عن النوم والكوابيس، أعرف أنك وريث أبيك. تلك الكلمات كانت أكثر مما يمكن أن يتحمله يسوع. فالتوت ساقاه عند الركبتين وانزلق الجراب من كتفه، عند ذاك أما بالصدفة أو بالضرورة سقط فعلاً أبيه وتمكن من أن يسمع صوت إناء الفريسي وهو يتحطم إلى شظايا. راح يسوع يبكي مثل طفل ضائع، ولم يسع باستور لمواساته وقال من حيث هو واقف، لا تنس أبداً أنني أعرف عنك منذ اليوم الذي ولدت فيه ومن الأفضل لك الآن أن تقرر فيما إذا كنت ذاهباً أم باقياً، قل لي، أولاً، من أنت. لم يحن الوقت بعد لأن تعرف، ومتى سأعرف، لو مكثت لندمت لأنك لم تذهب بعيداً، وإن ذهبت، لندمت لأنك لم تمكث، ولكن إن كنت سأذهب بعيداً لن أعرف بعد ذلك من أنت، انت مخطئ، ستحين ساعتك وعند ذاك سأكون هناك لأخبرك، يكفي الحديث الآن، لا يمكن أن يبقى القطيع هنا طوال اليوم في انتظار أن تقرر. جمع يسوع القطع المتكسرة من الإناء ونظر اليه وكأنه لم يطق تحمل نفسه وهي تتكسر معه دونما سبب فقبل يومين في مثل هذه الساعة لم يكن قد قابل الفريس. بالاضافة إلى أن هذا شيء متوقع، لأن الأواني الفخارية سرعان ما تتكسر. نثر الشظايا على الأرض وكأنه كان يبذر البذور، وفي تلك اللحظة قال باستور، سيكون لك إناء آخر، ولكن التالي لن ينكسر ما دمت حياً. لم يسمعه يسوع، إذ كان خفا يوسف في يده وكان يحاول أن يقرر ارتداءهما. فليس بعد كل ذلك الوقت الطويل كانا سيكونان كبيران جداً عليه، ولكن الزمن، كما نعرف، يمكن أن يكون خادعاً، شعر يسوع كأنه كان يحمل خفي أبيه في جرابه منذ عصور وكان مندهشاً جداً حين وجد أنهما لا يزالان كبيران جداً عليه. ودون أن يعرف السبب لبسهما على عجل ووضع

خفيه في الجراب. قال باستور، حين تنمو القدمان فإنهما لا تنكمشان ثانية، وأنت ليست لديك ذرية ليرثوا رداءك وملاعتك وخفيك، ولكن يسوع لم يرمهما فقد ساعد وزنهما على موازنة الجراب الفارغ تقريباً على كتفه. لم يكن بحاجة إلى أن يجيب على باستور كما طلب الأخير، بل اتخذ مكانه خلف القطيع وشعوره منقسم بين الاحساس الذي لا يوصف بالرعب وكأن روحه كانت في خطر. وشعور آخر من السحر القاتم والذي لا يوصف أكثر من الأول. تمتم يسوع، لا بد لي أن أعرف من أنت، وأختنق من الغبار الذي ارتفع من أثر القطيع حين كان يجري خلف شاة تلكأت في الخلف، وهذا كما آمن، هو دافعه الحقيقي في قراره الأخير بأن يبقى مع الراعي الغامض.

كان ذلك هو اليوم الأول. لم يتحدثا إثر ذلك بأمور الايمان والتجديف، ولا عن الحياة والموت والوراثة، إلا أن يسوع بدأ يراقب كل توجه أو حركة لباستور ولاحظ أنه كان يصلي في كل وقت صلاة الشكر للرب، كان الراعي يركع ويضع كفي يديه على الأرض، خافضاً رأسه ومغمضاً عينيه، دون أن ينطق كلمة. في أحد الأيام عندما كان يسوع لا يزال صبياً صغيراً سمع بعض المسافرين الشيوخ الذين كانوا يمرون عبر الناصرة وهم يروون أن هناك في أعماق العالم توجد كهوف واسعة يمكن للمرء أن يجد فيها مدناً وحقولاً وأنهاراً وغابات وجزراً تماماً كما هي الحال على سطح العالم، وأن ذلك العالم السفلي، هو صورة مماثلة وتامة للحياة التي نحياها، وهذا العالم السفلي خلقه الشيطان بعد أن طرده الرب من السماء إلى الأسفل عقاباً على تمرده. ولأن الشيطان، الذي كان الرب قد صاحبه ونظر إليه بتعاطف، مما جعل الناس حتى في هذا العالم يقولون أنه لم تكن هنالك مثل تلك الصداقة الحميمة بينهما، لأن الشيطان قد حضر ولادة آدم وحواء وتعلم كيف تم ذلك، فكرر بعد ذلك العملية وخلق الرجل والمرأة لنفسه في

عالمه السفلي ولكن بأختلاف واحد، فعلى العكس من الرب، لم يمنعهم الشيطان من شيء، وهذا ما يوضح انه لا يوجد هناك ما يسمى بالخطيئة الأولى، وليس ثمة أي نوع من الذنوب. وبعد أن يؤخذ الشيوخ إلى طريقهم بمساعدة من يقنعهم، يرمي أهالي الناصرة الغاضبون خلفهم الحجارة، إذ أدركوا في الحال ما الذي يرمي إليه أولئك الشيوخ الحمقى الوقحون بتلميحاتهم الماكرة، وصارت ثمة رجفة مفاجئة، غير خطيرة، مجرد إشارة تعزيز تجيء من أحشاء الأرض، جعلت يسوع الشاب يفكر، كونه قادراً على أن يربط بيّن السبب والنتيجة رغم صغره. والآن وهو يشاهد باستور راكعاً أمامه ورأسه منخفض وكفاه تستندان بخفة على الأرض ليكون قادراً على الإحساس بكل حبة رمل، وكل حصى صغيرة ونتوء يبرز على سطح الأرض، تذكر يسوع تلك القصة القديمة وفي لحظات معينة إقتنع أن هذا الرجل لابد أن يكون قد سكن العالم الخفي الذي خلقه الشيطان على هيئة ومثال العالم المرئي. سأل يسوع نفسه، ما الذي يفعله هنا، لكنه لم يجرؤ على أن يذهب أكثر من ذلك. حين نهض باستور في الأخير على قدميه، سأله، ما الذي تفعله، كنت أروم التأكد فيما إذا كانت الأرض لا تزال تحتي، بإمكانك التأكد من خلال قدميك، إن قدمي لا يبرهنان على أي شيء، ليس سوى يدي يمكن أن يثبتا لي ذلك، عندما تعبد إلهك، فأنت لا ترفع قدميك إليه بل يديك، على الرغم من أنك قد تستطيع رفع أجزاء أخرى من بدنك، حتى الذي بين ساقيك، ما لم تكن مخصياً. وتحول وجه يسوع إلى لون جذر الشمندر بعد أن دحره الحياء والرعب. لا تهن الرب الذي لا تعرفه، حدثه بقسوة وهو يستعيد رباطة جأشه، لكن باستور أصر، من ذا الذي خلق جسدك، كان ذلك هو الله، بالطبع، مثلما يبدو الآن تماماً، بلا، وهل لعب الشيطان دوراً في خلق بدنك، كلا مطلقاً، الإنسان خلق الله، معنى هذا أن كل أجزاء جسدك متشابهة في عيون الرب، هذا شيء واضح. إذاً فليس من المحتمل أن يسلبك الرب من الذي لديك بين ساقيك، مثلاً،

كلا، لا أفترض ذلك، ولكن خلق الرب آدم ومع ذاك طرده من الفردوس رغم أنه مخلوقه، أعطني جواباً صريحاً، أيها الفتى، وكف عن الكلام مثل معلم في كنيس، أنت تحاول أن تجبرني على أن أدلي باجابات تريد الوصول إليها، ولكنني يمكن أن أحدثك، إن لزم الأمر، عن كل الظروف التي أجبرت الانسان، حسب قضاء الرب، بأن لا يتألم بالتلوث والموت، ولا يعرض عريه أو عري الآخرين، وهذا ما ثبت أن أجزاء معينة من الجسد هي في ذاتها مذنبة، لا أكثر ذنباً من الفم حين ينطق بالزيف والأفتراء، هذا يكفي، لا أريد سماع كلمة أخرى، عليك أن تسمعني للآخر كي تجيب على سؤالي، أي سؤال، هل يمكن للرب أن يسلبك ما لديك بين ساقيك على أنه شيء ليس من صنعه، أجب فقط بنعم أو لا، كلا، لا يستطيع، لماذا، لأن الإله لا يلغي شيئاً كان قد رغب فيه من قبل، فقال باستور وهو يهز رأسه ببطء، بكلمات أخرى، فإن إلهك هو الحارس الوحيد لسجن حيث الأسير الوحيد هو إلهك. كان الصدى الأخير للكلمات الخطيرة هذه لا يزال يرن في أذني يسوع بينما أستمر باستور في القول، وهو يحاول عبثاً أن يبدو واقعياً، عليك أن تختار شاة، ماذا تقول، تساءل يسوع مندهشاً، قلت لك اختر شاة ما لم تكن تفضل أن تختار معزى. ما الغرض من ذلك، لأنك ستحتاجه وإلا فأنت مخصي حقاً. حين غارت فيه هذه الكلمات شعر الفتى بالذهول، لكن أسوأ ما في الأمر، هو انقضاض الحسية المرعب حين كبح ارتباكه وتغيره المفاجئ. وقال بصوت أجش وهو يغطي وجهه بيديه، هذه هي كلمة الرب، إن يتسافد الإنسان مع الحيوان فلسوف يعاقب بالموت ويذبح الحيوان، وقال الرب أيضاً، ملعون هو الإنسان الذي يفعل الخطيئة مع الحيوان مهما كان نوعه، هل قال إلهك كل هذه الأشياء، أجل، والآن أتركني وحيداً، أيها المخلوق الكريه، فلست من مخلوقات الله، بل أنت من أتباع الشيطان. أصغى باستور بجمود، منتظراً أن يكون لتوبيخ يسوع تأثيره الكامل، مهما يكن، شبح مفاجئ، مجذوم، او زوال مفاجئ

للروح والجسد. ولكن لم يحدث شيء. جاءت الريح تعبث بين الصخور ورفعت غيمة من الغبار إندفعت في البرية، ثم ساد الصمت. كان الكون يراقب بهدوء الناس والحيوانات، ربما ينتظر رؤية المعنى الذي قد يجدونه او يميزونه أو ينسبونه تلك الكلمات، بينما يحرق نفسه في هذه المراقبة، وقد تحولت النار الأولى إلى رماد، و يتباطأ كل جواب. فجأة رفع باستور ذراعيه ونادى بصوت آمر إلى قطيعه، اسمعوا، اسمعوا يا شياهي، إسمعوا ما الذي جاء به هذا الفتى المتعلم لنا، لقد حرّم الرب أن يتسافد أي أحد معكم، فلا تقلقوا، ولكن بشأن جز صوفكم وإهمالكم وذبحكم وأكلكم، فهذه الأشياء مسموحة فلهذا قد خلقتكم وفق ناموس الرب وانتم خاضعون لعنايته الإلهية. وبعد أن صفرّ ثلاث صافرات طوال، صاح، انتهى، انتهى الأمر معكم، عند ذاك راح القطيع يتجه نحو البقعة التي إختفى فيها عمود الغبار. وقف يسوع هناك يراقب حتى كاد شخص باستور الطويل يغيب عن الرؤيا وأمتزجت الأرداف المذعنة للحيوانات مع لون الأرض. كان يسوع قد قال، لا أذهب معه، لكنه ذهب. فرتب الجراب على كتفه، وشد أشرطة الخفين اللذين كانا لوالده وتبع القطيع عن بعد. وصل إليهم مع حلول المساء، وظهر من بين الظلال في ضياء نار الخيمة معلناً، أنا هنا.

بعد الزمان يأتي زمان، هذا قول شهير ودقيق، لكنه ليس واضحاً كما قد يبدو لأحد ما يتفهم المعنى التقريبي للكلمات، فيما لو أخذت منعزلة أو معاً، ذلك لأن كل شيء يعتمد على الكيفية التي يقال فيها وهذا يختلف تبعاً إلى مزاج الشخص الذي يتكلم. وهو ليس الشيء ذاته عندما يعبر بالكلمات شخص آخر تسير حياته بتعثر وهو يأمل الأفضل، أو ينطقها على أنها تهديد، متوعداً بالانتقام في المستقبل. والحالة الأكثر تطرفاً لمن ليست له أية أسباب قوية أو موضوعية في التذمر عن صحته وسعادته، يتنهد بحزن، بعد الزمان يأتي زمان، فقط لأنه متشائم بطبعه وميال إلي التنبؤ بما هو أسوأ. إنه لمن غير المقبول تماماً ليسوع بأن يتجول قائلاً هذه الكلمات وهو في عمره هذا، مهما كان قصده أو نبرة صوته، ولكن بالنسبة لنا، نعم، لأننا، مثل الرب، نفرق كل شيء عن الزمن الماضي والذي سيأتي، لذلك يمكننا أن نقول، متمتمين أو هامسين، هذه الكلمات ونحن نراقب يسوع ينفذ أعماله كونه فتى راعياً، يعبر تلال اليهودية، أو حين يأتي الزمن، ويهبط إلى وادي الأردن. وليس فقط لأننا نكتب عن يسوع ولكن أيضاً لأن أي إنسان قد يواجه على نحو متواصل أشياء طيبة وأخرى سيئة، شيء يتبعه آخر، زمان يتبعه زمان. ولأن هذا الإنجيل لم يكن هدفه إلغاء ما كتبه الآخرون عن يسوع أو أن يتحدى وصفهم للأحداث من خلال عكس كل خطاب، ولأن يسوع هو بطل قصتنا بجلاء، فلسوف يكون من السهل جداً علينا الذهاب إليه لننبئه بمستقبله، ونخبره أي حياة

رائعة ستمتد أمامه، ونخبره عن تلك المعجزات التي سينجزها بأن يوفر الطعام ويشفي المرضى ولسوف ينتصر حتى على الموت في إحدى المرات، ولكن قلما يكون ذلك من الحكمة، لأن يسوع الشاب، ناهيك عن توقه للدراسات الدينية ومعرفته للبطاركة والأنبياء، فهو يتمتع بالشكوكية الصحية التي تترافق مع الشباب ولسوف يبعثنا إلى البعيد مع برغوثة في أذننا. من الطبيعي أنه سوف يغير أفكاره ما إن يقابل الرب، ولكن من المبكر جداً على هذه المقابلة الخطيرة وقبلها سيتحتم عليه أن يتسلق ويهبط الكثير من سفوح الجبال ويحلب الكثير من الماعز والأغنام، ويساعد في صناعة الجبن، ويذهب ليقايض السلع في القرية. ولسوف يذبح أيضاً الحيوانات التي تمرض أو التي عمرت ولم تعد ذات فائدة، ولسوف يتأسى على إفتقادها. ولكن شيئاً واحداً لن يفعله، فلا تغتاضي، أيتها الأرواح الحساسة، وهو أن يقع في الرذيلة الفظيعة التي ألمح إليها باستور، بالتسافد مع معزى أو شاة أو كليهما، من أجل الترويح عن النفس وإشباع الجسد الذي تسكنه روحه الطاهرة. ولكن ليس هذا هو الوقت الملائم ولا المكان للتأمل، وكي تكون الروح قادرة على التباهي بجسد نظيف فقد أرهقت نفسها بالحزن والحقد واللا نقاء.

على الرغم من أن هذه التبادلات الأولية عن الأسئلة الاخلاقية والدينية قد بقيت دونما حل، فقد استمر باستور ويسوع متعايشان في طيبة كافية مع بعضهما البعض، يعلمه الراعي بصبر كيف يرعى القطيع، ويستمع إليه الفتى بانتباه وكأنها قضية حياة أو موت. وتعلم يسوع كيف يرمي عصاه تلتف في الهواء لتقع على ردف أحد الحيوانات التي في لحظة من لحظات الذهول أو التهور قد ضلت عن القطيع، ولكن كان ذلك تدريباً مؤلماً، لأنه في أحد الأيام، بينما كان لا يزال يجاهد في التحكم، رمى العصا بكل قوته على نحو منخفض وضرب صدفة الرقبة الرقيقة لصغير ولد حديثاً أدت إلى قتل المخلوق المسكين

مباشرة. قد تحدث مثل هذه الأشياء لأي راعٍ، حتى لو كان ذا تجربة وماهراً، لكن يسوع المسكين الذي كان مشحوناً من قبل ذلك بالكثير من الأحزان، جمد من الرعب حين رفع الصغير بين ذراعيه وهو لا يزال دافئاً. وحتى المعزى الأم، بعد أن شمت رائحة وليدها للحظة، إبتعدت وعادت لترعى، نابشة خصلات العشب التي سحبتها بحركات سريعة من رأسها، معيدة تلك اللازمة المعروفة، أن المعزى التي تثغو لن تهضم الكثير من العشب، وهي طريقة أخرى في القول، أنك لا يمكن أن تبكي وتأكل في الوقت ذاته. جاء باستور ليرى ما الذي حدث، أيها القوي الشكيمة المحظوظ لا حاجة بك لأن تشعر بالذنب، ولكنني قتلت ذلك المخلوق الصغير المسكين، هكذا ردد يسوع بأسى. أ هكذا فعلت، ولكنه لو كان معزى قبيحة وعجوز ما كنت لتشعر إزاءها بالكثير من الشفقة، ضعه على الأرض ودعني أتولى أمره وأذهب أنت إلى تلك الشاة هناك التي تبدو أنها على وشك الولادة. ما الذي ستفعله بذلك الصغير، سأسلخه، بالطبع، ما لم تتوقعني أقوم بمعجزة وأعيد الحياة إليه. أقسم أنني لن أذوق ذلك اللحم، إن أكل لحم الحيوان الذي تقتله هي الطريقة الوحيدة التي نبدي له فيها إحترامنا، ما الخطأ في أكل ما أضطر الآخرون إلى قتله، انني أرفض أن آكله، أرح نفسك، وسيكون ثمة المزيد منه لي. سحب باستور سكيناً من حزامه، ونظر إلى يسوع وقال ، عاجلاً أم آجلا ثمة شيء سيتحتم عليك أن تتعلمه، ألا وهو دراسة أحشاء تلك الحيوانات التي خلقت من أجل أن تخدمنا وتغذينا. نظر يسوع إلى البعيد واستدار ليذهب لكن باستور، الذي وقف والسكين في يده، عاد إلى القول، لقد وجد العبيد لخدمتنا، لذلك ربما حريٍ بنا أن نفتحهم لنرى إن كانوا يحملون عبيداً في الداخل، أو نفتح ملكياً لنرى إن كان يحملُ ملكياً آخر في بطنه، وسأراهن أننا إن قابلنا الشيطان وسمح لنا بأن نفك داخله، قد نتفاجأ ونرى الرب يقفز إلى الخارج. كما قلنا من قبل، كان باستور لا يزال قادراً على استثارة يسوع بهذه التلميحات التي تثير

غيظه. وتعلم يسوع تدريجياً أن الطريقة المثلى للتعامل مع وقاحة باستور هي إهماله والسكوت عنه. فبعد ذلك قد يتجرأ باستور إلى ما هو أبعد من ذلك ويقترح أنه في فتح الرب قد يجد الشيطان في الداخل. فأبتعد يسوع ليبحث عن الشاة التي توشك على الولادة، هنا على الأقل ليس ثمة من مفاجآت تنتظره، فسيظهر حمل مثل أي حمل آخر، على صورة وشبه امه، التي هي بدورها مطابقة لشقيقاتها فثمة شيء واحد يمكننا توقعه من هذه المخلوقات، هي الاستمرارية التي لا محيد عنها للأنواع. كانت الشاة قد ولدت قبل وصوله. اضطجع الوليد الجديد على الأرض بكامل سيقانه وأمه تحاول مساعدته في أن يقف على أقدامه وهي توكزه برفق بأنفها، لكن المخلوق المسكين الذي يشعر بالدوران لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يشمخ برأسه وكأنه يحاول أن يجد أفضل زاوية للرؤية ليدخل في هذا العالم الجديد الغريب. ساعده يسوع لأن يقف بثبات على أقدامه، يداه لزجتان من سائل ما بعد الولادة من رحم الشاة، لكنه لم يبال بذلك لأن الإنسان يعتاد مثل هذه الأشياء عند اتصاله المستمر بالحيوانات، وهذا الحيوان قد جاء في وقته المناسب، فهو جميل جداً بفرائه المجعد، وفمه الوردي الصغير الذي يطلب الحليب بشراهة من تلك الحلمات التي يراها لأول مرة ولم يكن قد تخيلها أبداً عندما كان في رحم أمه. وبصراحة لا أحد يتذمر أبداً من الرب حين نكتشف الكثير من الأشياء المفيدة منذ اللحظة التي نولد فيها. من بعيد، يمكن رؤية باستور وهو يطرح جلد الصغير على لوحة خشبية على شكل نجمة، أما لحمه المسلوخ فقد وضعه في جرابه بعد أن لفه بقماش. لسوف يملّحه فيما بعد بعد أن يستقر القطيع عند المساء، ما عدا القطعة التي يزمع باستور أن يتناولها للعشاء، ما دام يسوع قد أصر بعناد أنه لن يلمس لحم حيوان قتل دون قصد. تبعاً للدين الذي يتبعه يسوع والتقاليد التي يحترمها فإن هذه الشكوك تتضاد مع قتل كل تلك الحيوانات البريئة التي يضحى بها كل يوم على مذابح الرب، وخصوصاً في أورشليم حيث

تؤخذ الضحايا إلى مجازر. تبدو وجهة نظر يسوع هذه غريبة جداً في مثل هذا الزمان والمكان، ولكن ربما هي مسألة أحاسيس، كما كانت، فلا بد لنا أن لا ننسى الموت المأساوي ليوسف والاكتشاف الجديد ليسوع للمذبحة المروعة التي حدثت في بيت لحم قبل ما يقارب خمسة عشر عاماً، كل هذه كافية لأن تشوش عقل أي شاب، ولا حاجة بنا إلى ذكر تلك الكوابيس التي لم نذكرها مؤخراً، رغم أنها لا تزال تقلقه وترفض الانزياح عنه. عندما لم يستطع تحمل فكرة أن يوسف يجيء لقتله، فإنه يصرخ باكياً موقظاً حتى القطيع في منتصف الليل، حيث يقوم باستور بهذه برفق فيسأله، ما هذا، ما الذي يجري، وحين يصحو يسوع من كابوسه يرمي نفسه بين ذراعي الراعي وكأنه كان أباه التعس. بعد معاشرة يسوع لباستور، سرعان ما وثق به، مخفياً رغم ذلك الأسباب الجذرية للرؤيا المهلكة التي تطارده ليلاً ونهاراً. قال له باستور، أرح نفسك، فأنا أعرف كل شيء حتى الذي تحاول إخفاءه عني. كان هذا في الوقت الذي وبخ فيه يسوع باستور على عدم وثوقه به وسلوكه الشرير، وخصوصاً، إن سمحتم وتحملتم هذه النقطة، فيما يتعلق بالأمور الجنسية. لكن يسوع أدرك أن ليس لديه أحد في العالم غير عائلته التي تخلى عنها ويكاد يكون قد نسيها، إلا أمه التي منحته الحياة على الرغم من أنه غالباً ما كان يرغب لو أنها لم تفعل ذلك، وبعد أمه فقط شقيقته ليزا، لشيء ما لا يعرف سببه، ولكن هذه هي الذاكرة ولها مبرراتها في التذكر والنسيان. ولأن هذه هي حال الأشياء فقد بدأ يسوع تدريجياً يتمتع برفقة باستور، ومن السهل تخيل راحته وهو لا يعيش منفرداً مع ندمه، وأن يكون ثمة أحد ما إلى جانبه يفهمه، وغير مضطر للإدعاء بمغفرة ما لا يغتفر، حتى وإن تكن له القدرة على ذلك، أحد ما سوف يتعامل معه على نحو ملائم، مجرباً العطف والقسوة تبعاً إلى ذلك الجزء منه الذي احتفظ ببراءته حتى حينما يكون محاصراً بالخطيئة. إننا نشعر أن ذلك بحاجة إلى توضيح، لذلك قد يجده القارئ أكثر سهولة للفهم ويوافق على

أن يسوع، المختلف جداً في الشخصية ووجهة النظر عن سيده سيئ التربية، لابد له من المكوث معه حتى تتم مقابلته المتنبأ بها مع الرب، والتي من المؤمل أن تكون خطيرة لأن الرب من غير المحتمل أن يظهر لفان بسيط لغير ما سبب يستحق ذلك.

على أية حال، فقبل ذاك، تنص تلك الظروف والمصادفات التي ناقشناها طويلاً، على أن على يسوع أن يقابل أمه وبعض إخوته في أورشليم خلال عيد الفصح هذا والذي يظن هو أنه سوف يحتفل فيه للمرة الأولى بعيداً عن عائلته. ومسألة أن يسوع ينوي الاحتفال بعيد الفصح في أورشليم كانت ستغضب باستور وتفاجئه ما داما في التلال والقطيع بحاجة لرعايتهما. بالإضافة إلى ذلك فإن باستور ليس يهودياً وليس لديه رب يتشرف به فلربما كان سيعيق الأمر ويرفض السماح ليسوع، قائلاً له، أوه، كلا، لا تفعل، ستبقى في هذا المكان، حيث الحاجة إليك، أنا من يصدر الأوامر، وثمة عمل لابد من إنجازه. الآن، لابد من القول أن أياً من ذلك لم يحدث، فقد سأله باستور ببساطة، وهل ستعود، على الرغم من أنه من نغمة صوته بدا متيقناً أن يسوع سيعود، وبالتأكيد، أجاب الفتى دون لحظة تردد ولكنه مع ذلك مندهش أن تأتي الكلمات بمثل تلك العفوية، أجل، سأعود. فالتقط لك إذاً حملاً نظيفاً يا يسوع، وخذه للتضحية، لأنكم أنتم اليهود تعلّقون أهمية كبيرة لمثل هذه التقاليد والعادات. كان باستور يختبره وأراد ببساطة أن يرى إن كان يسوع قادراً على أن يقود الى الموت حملاً من ذلك القطيع الذي تعبا في الحفاظ عليه وحمايته. ولم يحذر أحد يسوع، ولم يقترب منه ملاك صغير لا مرئي ليهمس في أذنه، إحذر، إنه فخ، لا تثق به، هذا الشخص قادر على أي شيء. لقد وهبته طبيعته الرقيقة جواباً جيداً، أو ربما هي ذكرى الحمل الصغير الذي مات والحمل الجديد الذي ولد. قال، لا أريد حملاً من هذا القطيع، لماذا، لأنني أرفض أن أقود حيواناً ربيته بنفسي إلى الموت، متّع نفسك، لكنني آمل أن تدرك أنك لابد وأن تحصل على

حمل من قطيع آخر ، افترض ذلك، ما دامت الحملان لا تسقط من السماء، متى تنوي بالذهاب، في الصباح الباكر من الغد، هل ستعود، أجل، سأعود. ولم يتحدثا بشيء فيما بعد حول ذلك الموضوع، على صعوبة إدراك كيف أن يسوع سيجد المال الكافي لشراء حمل فصحي بينما يوفر عيشه بالكاد. ولأنه لم يخضع للرذائل التي تحتاج إلى المال فمن المفترض أنه لا يزال يملك بعض النقود التي أخذها من الفريسي قبل عام، ولكنها ليست كثيرة، وكما قلنا من قبل، فإن أسعار المواشي تزداد في مثل هذا الوقت من السنة وخصوصاً أسعار الحملان تزداد إلى الضعف لذلك لابد للمرء أن يعتمد على الرب. على الرغم من المصائب التي أصابت يسوع، يحاول المرء أن يقول أن النجمة المحظوظة تقود وتحمي هذا الفتى، ولكن سيكون من الضعف الفكري لكاتب هذا الإنجيل أو لذلك الكاتب ذلك الذي يؤمن أن أجساماً سماوية بعيدة جداً عن كوكبنا يمكن أن يكون لها أي تأثير على الوجود الإنساني، مهما ألمح إلى ذلك الساحر المتفاني ودرس وقارن تلك النجوم. إذ، لو كان ما أخبرنا به صحيحاً، فلابد أنهم قد تنقلوا في تلك الأنحاء كثيراً قبل سنوات ليروا ما رأوه وابتعدوا ثانية. ما نحاول أن نقوله ببساطة بهذا الخطاب الطويل النفس أن يسوعنا لابد وأن وجد لنفسه طريقة في أن يقدم نفسه بجدارة في الهيكل مع حمله الصغير، وبذلك يحقق ما هو متوقع منه. إذ أثبت لنفسه أنه يهودي صالح حتى في أصعب الظروف التي تتمثل في مواجهاته ومصادماته المكثفة مع باستور.

في هذا الوقت كان القطيع يتمتع بالمراعي الغنية في وادي عجلون الذي يقع بين مدينتي جيزر وعمواس. في عمواس سعى يسوع إلى كسب المال الكافي لشراء الحمل الذي بحاجة إليه لكنه سرعان ما وعى، بعد سنة من رعاية الأغنام والماعز، أنه لم تعد لديه أية رغبة في أي نوع من الأعمال، ولا حتى النجارة التي لم يتقدم فيها لنقص في الممارسة. لذلك اتخذ الطريق الذاهب من عمواس إلى أورشليم، متسائلاً

ما الذي يتوجب عليه أن يفعله، فلا مال لديه ليشتري حملاً، والسرقة شيء بعيد عن المناقشة، وسيكون أكثر عجباً من الحظ لو أنه وجد حملاً ضالاً في شارع عمواس. كانت هنالك الكثير من الحملان فيما حوله، البعض منها ثمة حبال في أعناقها وهي تتبع مالكها، والأخرى محظوظة إذ حملت بأذرع مُحبة. هذه الحيوانات البريئة سعيدة ومستثارة لأنها تتخيل نفسها في نزهة، إنها تتطلع بفضول إلى كل شيء، ولأنها لا تستطيع أن تسأل الأسئلة، فإنها تستخدم عيونها على أمل أن تفهم عالماً مصنوعاً من الكلمات. جلس يسوع على صخرة في جانب الطريق ليفكر في حل للمشكلة المادية التي تمنعه من تحقيق واجبه الروحي، لو أن فريسي آخر يظهر فجأة، أو حتى الشخص ذاته الذي من المحتمل أن يوزع الصدقات كل يوم، ويأتي ليسأله، هل أنت بحاجة إلى حمل، كما سأله من قبل، هل أنت جائع. في تلك المناسبة الأولى لم يتوجب على يسوع أن يشحذ كي يأخذ، الآن ودون أي أمل حقيقي بأن يعطى أي شيء سيكون مجبراً على الشحاذة. كان قد مد يده، الحركة البليغة التي لا تحتاج لأي توضيحات، وهي معبرة جداً حتى أننا تقريباً دائماً ما نشيح بأنظارنا ولا نتواجه بشخص جُرح ببشاعة أو يتوجع على نحو فاحش. نزلت بضعة نقود في كف يسوع من قبل المسافرين الأقل ذهولاً، لكنها كانت قليلة جداً حتى أنه على هذا المنوال لا يمكن الوصول من عمواس إلى بوابات أورشليم أبداً. وبعد أن أضاف ما كان يملكه من نقود من قبل إلى ما جمعه للتو، لم يجده كافياً حتى لشراء نصف حمل، وكما يعرف الجميع، فإن الإله لا يقبل أي شيء على مذبحه ما لم يكن تاماً وكاملاً، ويرفض الحيوانات العمياء، والمقعدة والمبتورة والمريضة والملوثة. لذلك يمكنك تخيل الفضيحة في الهيكل إن كنا نقدم أنفسنا عند مذبح التضحية ولدينا الأجزاء الخلفية من الحيوان، ولو شاء سوء الطالع ويحدث أن تداس الخصيتان أو تسحقان، تقطعان أو تستأصلان، فذلك أيضاً يؤدي إلى إبعاد الضحية. لا أحد يتذكر أن يسأل هذا الفتى عن

السبب الذي يحتاج فيه إلى المال، ولكن انتظروا، فقد وصل قريباً من يسوع شيخ طويل له لحية بيضاء وكانت عائلته واقفة في وسط الشارع تنتظره بوقار حتى يعود للانضمام إليها. كان يسوع يتوقع أن يوشك أن يستلم قطعة نقدية أخرى، لكنه كان مخطئاً. سأله الشيخ، من أنت، فوقف الفتى ليجيبه، أنا يسوع الناصري، أليست لديك عائلة، بلا، لدي، فلماذا لست معها، لقد جئت للعمل راعي أغنام في اليهودية، كانت تلك طريقة لبقة في قول الحقيقة أو وضع الحقيقة في خدمة الكذب. نظر الشيخ إليه بتعابير متفحصة وسأله في الأخير، لماذا إذن تشحذ ما دامت لديك مهنة، إنني أكسب قوت يومي ولا يمكنني أن أجمع المال الكافي لشراء حمل لعيد الفصح، فلهذا إذاً أنت تشحذ، أجل، عند ذاك أمر الشيخ الجليل أحد الرجال الذين في مجموعته، هب لهذا الصبي حملاً، بإمكاننا نحن شراء آخر عندما نصل الهيكل. كان ثمة ستة حملان مربوطة بحبل واحد، حرر الرجل آخر حمل وسلمه للشيخ الذي قال ليسوع، تفضل هذا هو حملك كي تتمكن أنت أيضاً من تقديم أضحية للإله في عيد الفصح هذا، ودون أن ينتظر الشيخ كلمة شكر، عاد لينظم إلى عائلته التي استقبلته بالابتسامات والاستحسان. إختفى الشيخ قبل أن يتمكن يسوع من شكره، وأمسى الشارع خالياً على نحوٍ غامض، فبين العطفة والأخرى لم يكن غير يسوع والحمل الذين عثرا على بعضهما البعض على الطريق المؤدي إلى عمواس، يعود الفضل في ذلك إلى كرم اليهودي العجوز. يمسك يسوع بنهاية الحبل، ويتطلع الحيوان إلى سيده الجديد وراح يثغو مـ ي ي ي بالطريقة ذاتها المهتاجة والمرتجفة التي تثغو فيها الحملان الصغيرة قبل أن يضحى بها إسترضاء للآلهة. ذلك الثغاء الذي سمعه يسوع آلاف المرات منذ أن عمل مساعد راعٍ قد لامس قلبه سريعاً وكأن أطرافه تذوب من الحزن. ها هو الآن، لم يسبق له أبداً أن كان يمتلك هذه السلطة الكاملة إزاء حياة وموت كائن آخر، هذا الحمل الأبيض النقي المسلوب الإرادة والرغبة. وجهه الصغير المخلص ينظر إليه

بقلق، مظهراً لسانه الوردي كلما ثغا، ولحم وردي تحت صوفه الناعم وأذناه الورديتان من الداخل والأظفار الوردية في قدميه كالبشر تماماً والتي لم يتسن لها الوقت الكافي لتتصلب وتغدو حوافر. ربت يسوع على رأس الحمل، فاستجاب بأن مد عنقه ومسح كف يده بأنفه الرطب، باعثاً رعشة في عموده الفقري. وانكشفت الرقبة سريعاً كما بدأت. في نهاية الطريق المؤدي إلى عمواس ظهر حجاج آخرون في مجموعة من الثياب المهفهفة والجرابات والعكازات، ومعهم المزيد من الحملان ومؤدين صلاة الشكر للإله. رفع يسوع حمله بين ذراعيه وراح يمشي.

لم يزر أورشليم منذ ذلك اليوم البعيد عندما جاء إلى هنا مضطراً ليكتشف ثقل الأسى والندم في الحياة، وليرى هل كان مشتركاً كالإرث أو محفوظاً للفرد فقط كالموت. كان الحشد قد ملأ الشوارع مثل نهر طيني بني يوشك على الفيضان في الساحة التي أمام سلالم الهيكل. كان يسوع يحمل حمله بين ذراعيه ويراقب الحشود وهي تمر في طوابير، بين ذاهب وآيب، البعض منهم يحملون الأضاحي، والآخرون عائدون من دونها تظهر عليهم السعادة وهم ينادون، هللويا، المجد لله، آمين، أو لا يقولون شيئاً لأنه غير ملائم للمناسبة، كالطواف والمناداة، هللويا أو هب هب هوراه، على الرغم من أن ليس ثمة الكثير من الاختلاف بين هذه التعابير، فنحن نستخدمها بحماس كبير حتى نسأل أنفسنا في الأخير، مع مرور الوقت ومع التكرار، ما الذي تعنيه هذه العبارة، فلا نجد جواباً. كان عمود الدخان اللا نهائي الذي يتخذ سبيلاً لولبياً فوق الهيكل، يشير للجميع وعلى بعد أميال أن كل أولئك الذين ذهبوا إلى هناك لتقديم الأضاحي هم الأبناء الشرعيون لهابيل، ابن آدم وحواء الذي كان قد قدم في زمانه الوليد الأول في قطيعه وكذلك السمن للإله الذي قبل ذلك بتعاطف، بينما أخوه قابيل الذي لم يكن لديه ما يقدمه غير الفاكهة الطبيعية البسيطة، وقد لاحظ ولسبب غامض أن الإله قد أشاح بعينيه إلى

البعيد دون أن ينظر إليه. إن يكن هذا هو الباعث الذي جعل قابيل يقتل هابيلاً، علينا أن نريح أدمغتنا، لأن هؤلاء الرجال هنا ليس من المحتمل أن يقتلوا بعضهم البعض، لكنهم يقدمون الأضحية ذاتها، وكيف ينسكب ذلك السمن وتئز تلك الجثث بينما يستنشق الإله في السموات المجيدة راضياً الروائح من كل تلك المجزرة. ضغط يسوع حمله إلى صدره وهو غير قادر على أن يفهم لماذا لا يمكن للرب أن يشبع بمقدار ملء صدفة من الحليب يمكن أن يسكب على مذبحة، الحليب الذي هو نسغ الوجود الذي يمر من كائن لآخر، أو لماذا لا يرضي بحفنة قمح، المادة الأساسية للخبز الخالد. سوف يفارق يسوع سريعاً الهدية الثمينة التي أهداها له الشيخ. إنه ملكه فقط لتلك الفترة الوجيزة، وبعدها لن يرى هذا الحمل الصغير المسكين غروب الشمس في ذلك اليوم، خلال الفترة التي يرتقي فيها السلالم نحو الهيكل، ليدفعه إلى السكين ونار التضحية وكأنه لم يعد يستحق الوجود أو أنه يعاقب من قبل الحارس الأبدي للأساطير والخرافات لأنه شرب من مياه الحياة. ثم، طرأت فكرة مفاجئة في ذهن يسوع فيقرر متحدياً ناموس الكنيس وكلمة الرب بأن هذا الحمل لن يموت، وأن ما استلمه ليدفع به إلى المذبح لسوف يستمر في الحياة وإن وصل إلى أورشليم لتقديم الأضحية، فلسوف يغادر أورشليم محملاً بذنوب أكبر مما جاء. وكأن آثامه السابقة لم تكن كافية، وها هو الآن يقترف هذا الإثم، أيضاً، ولن يطول به الأمر حتى، يضطر إلى أن يدفع ثمن كل ذنوبه ذلك لأن الرب لا ينسى أبداً. وللحظة وهو يخشى فيها العقاب شعر بالتردد، ولكنه فجأة في عيون عقله، لاحظ، على نحو خاطف الرؤيا المرعبة لبحر الدم الشاسع، دم الحملان التي لا تحصى والحيوانات الأخرى التي ضحي بها منذ أن خلق البشر، إذ لهذا خُلقوا على الأرض هذه، ليعبدوا ويقدموا الأضاحي. كانت تلك الأفكار تشعره بالاضطراب حتى أنه تخيل أنه رأى سلالم الهيكل مغسولة بالأحمر، يجري الدم على السلالم، ويمكنه أن يرى نفسه واقفاً في بركة دم ويحمل

جسداً بلا حياة هو حمله المجزوز الرأس إزاء السماء. استغرق في التفكير، وبدا واقعاً في فخ الصمت، ولكن ذلك الصمت سرعان ما انفجر، وتحطم إلى أشلاء وانغمس مرة أخرى في جلبة من التضرعات والتبركات والتوسلات والصرخات والترتيلات وثغاء الحملان الذي يثير الشفقة حتى أخرست في الحال بوساطة ثلاث صرخات حادة من الشوفار، قرن الخروف الطويل الملتوي الذي تحول إلى بوق. هرع يسوع راكضاً من الساحة مغطياً الحمل بجرابه وكأنه يدافع عنه من التهديد الخطير، واختفى في متاهة الأزقة الضيقة غير عابئ إلى أين يقوده ذلك. وحين توقف في الأخير ليسترد أنفاسه، وجد نفسه عند أطراف المدينة، بعد أن تركها من خلال البوابة الشمالية، المعروفة بأنها راما، وهي ذات البوابة التي مر من خلالها عند وصوله من الناصرة. جلس إلى جانب شجرة زيتون على جانب الطريق وأخرج الحمل من الجراب، لا أحد كان سيعجب حين يراه يأخذ حمله إلى الهيكل، وهو مُحبب جداً، وما كنا سنعلم فيما إذا كان الشخص الذي يفكر في ذلك هل يشير إلى الحمل أم إلى يسوع. ونحن نجدهما كليهما محببين، ولكن إن تحتم علينا الاختيار، فإن التفاحة الذهبية ستذهب من المؤكد إلى الحمل، شرط أن لا يكبر أبداً. استلقى يسوع على ظهره وهو يمسك بنهاية الحبل ليمنع الحمل من الهروب لكن هذا الحذر لا ضرورة له ذلك لأن قوة الكائن المسكين معلقة بخيط، ليس فقط بسبب عمره القصير بل أيضاً بسبب كل ذلك الفرح والذهاب والمجيء، الوصول والانتقال، ناهيك عن الطعام الشحيح الذي تناوله هذا الصباح، إذ كان يعد من غير المناسب ولا من اللائق لأي مخلوق سواء أكان حملاً أم شهيداً، بأن يموت ممتلئ البطن. تمدد يسوع على الأرض وشيئاً فشيئاً استرد نشاطه وراح يتنفس بانتظام مرة أخرى. بإمكانه أن يرى السماء من غصون الزيتون التي تتمايل في الريح برفق، بينما تنفذ أشعة الشمس عبر الفراغات التي بين الأوراق وتتراقص على وجهه، لابد أنها تقارب الساعة السادسة الآن،

الشمس مباشرة فوق الرأس تصغر الظلال فمن ذا الذي يعتقد أن المساء سيأتي ليطفئ هذا الضياء المتألق. مر بعض الناس في الطريق، وتبعهم آخرون خلفهم وعندما ألقى يسوع بنظرة فاحصة في المجموعة الثانية إنصعق للمفاجأة حتى أنه مال في البداية للهروب، ولكن كيف يمكنه ذلك، إذ جاءت أمه نحوه برفقة بعض إخوته، الأولاد الكبار يعقوب ويوسف ويهوذا وليزا، ولأنها فتاة فلابد من ذكرها منفردة ولا تذكر حسب تدرج العمر، إذ يكون ترتيبها بين يعقوب ويوسف. لم يكونوا قد رأوه بعد. هبط يسوع إلى الطريق لملاقاتهم، وهو يحمل مرة أخرى حمله بين ذراعيه، لكن المرء يشك بأنه فعل ذلك فقط ليبين أن ذراعيه ممتلئتان. كان يعقوب أول من رآه لوّح له قبل أن يلتفتوا إلى أمهم بفرح غامر وهاهي مريم تنظر إليه الآن، وبدأوا يسرعون في المشي، ويشعر يسوع أيضاً أنه يتحتم عليه الإسراع نحوهم ولكنه لا يستطيع الجري والحمل بين ذراعيه. إننا نصف ذلك بعبارات طويلة مما قد يتبادر إلى أذهان القراء أننا لا نريد لهم أن يلتقوا، لكن ذلك غير صحيح، كان على حب الأمومة والأخوة والبنوة أن تمنحهم أجنحة، ولكن كانت ثمة تحفظات ومعوقات ما، فنحن نعرف كيف انفصلوا، ولا نعرف التأثير الذي احدثته كل تلك الشهور وهم متباعدون لا تصل أخبار أي منهم للآخر. لو أن أحدهم استمر في المشي، فلابد له أن يصل، وهاهم، وجها لوجه، قال يسوع، باركيني يا أماه، فقالت له أمه، فليباركك الله يا ولدي. تعانقا، ثم جاء دور إخوته وأخيراً جاء دور ليزا، تبع ذلك صمت ثقيل، غابت عنهم جميعاً الكلمات، لم تكن مريم عازمة على أن تقول لابنها، أية مفاجأة مدهشة، ما الذي تفعله هنا بحق السماء، أو أن يقول يسوع لأمه، لم أتوقع أن أراكم هنا أبداً، ما الذي جلبكم إلى المدينة، الحمل الذي بين ذراعيه والحمل الذي جلبوه معهم راحا يتحدثان عن نفسيهما، هذا هو عيد الفصح للإله، الاختلاف بينهما أن حملاً منهما سوف يموت والآخر سبق إنقاذه. قالت مريم بعد فترة طويلة، مضى وقت طويل

ونحن ننتظر سماع أخبار منك، وانفجرت باكية. وقف ابنها البكر أمامها، أصبح طويلاً جداً، وناضجاً جداً، وظهرت بداية لحيته، كان الجو قد أثر في سحنته مما يدل على أنه قضى أيامه في العراء متعرضاً للشمس والريح وغبار الجزيرة. لا تبك يا أماه، فأنا أعمل، أنا الآن راعي. راعي، نعم راعي، لكنني كنت آمل أن تتبع خطا أبيك وتمتهن المهنة التي علمك إياها، حسناً، تتغير الأشياء، وقد أصبحت راعياً، وها أنذا، متى ستعود إلى البيت، لا أدري، ربما في أحد الأيام، رافق أمك وإخوتك إلى الهيكل على الأقل، أماه، لست ذاهباً إلى الهيكل، ولماذا لا تذهب، فها أنت لديك حمل. ولا يذهب هذا الحمل إلى الهيكل أيضاً، أثمة خطأ بشأنه، كلا لا شيء البتة، لكنني قررت أن يموت هذا الحمل ميتة طبيعية مع مرور الزمن، لا أفهمك يا ولدي، لا عليك يا أمي، إن أنا أنقذت هذا الحمل فلربما ينقذني شخص آخر، فتعال إذاً مع عائلتك، كنت أوشك على المغادرة، إلى أين، لأعود إلى القطيع الذي أعمل فيه، وأين تركته، في وادي عجلون حالياً، وأين وادي عجلون، هناك في الجهة الأخرى، أية جهة أخرى، في الجهة الأخرى من بيت لحم. تراجعت مريم وشحب لونها تماماً، لقد هرمت على الرغم من أنها في الثلاثين، سألته، لماذا تذكر بيت لحم، لأنني هناك قابلت الراعي الذي هو معلمي، ومن هذا الرجل، وقبل أن يتسنى ليسوع أن يجيبها قالت لأخوته الآخرين، سيروا أنتم أمامي وسألحقكم عند المدخل، ثم أخذت يسوع من ذراعه وقادته إلى جانب الطريق، وسألته للمرة الثانية، من هو هذا الرجل، أجابها يسوع، لا أعرفه، أليس له اسم، حتى لو كان له اسم لما ذكره لي، إنني أناديه باستور فقط. ما شكله، إنه شخص ضخم، وأين التقيت به، في الكهف الذي ولدت فيه، ومن أخذك إلى هناك، عبدة اسمها سالوم أخبرتني أنها قد ساعدت في ولادتي، وهذا الرجل، ماذا عنه، ما الذي قاله لك، لا شيء لا تعرفيه من قبل. سقطت مريم إلى الأرض وكأن يداً قوية قد دفعتها، ذلك الرجل شيطان، كيف تعرفين، هل قال لك

ذلك. كلا، في المرة الأولى التي رأيته فيها أخبرني أنه ملاك وطلب مني ألا أخبر أحداً بذلك، متى رأيته، في اليوم الذي علم أبوك فيه أنني حامل، لقد جاء إلى بابنا متخفياً بهيأة شحاذ وأخبرني أنه ملاك، وهل رأيته ثانية، رأيته في الطريق عندما سافرنا أنا وأبوك إلى بيت لحم لغرض الإحصاء، ثم رأيته في الكهف الذي ولدت فيه، وفي الليلة التي تركت فيها أنت البيت، رأيته يتمشى في الباحة، لم أتبينه من أجلك، وعندما نظرت عبر ثقب الباب رأيته يقتلع النبتة التي في الباحة ألا تتذكر تلك الشجرة التي نمت في البقعة ذاتها التي دفن فيها إناء التراب اللامع، أي إناء وأي تراب. لم يخبرك أحد بهذا، ولكنه الشحاذ الذي أهداه لي قبل أن يبتعد، وعندما أعاد لي الإناء بعد أن أنهى الأكل، رأيت تراباً لامعاً في داخله، لابد أنه كان ملاكاً حقيقياً ما دام هنالك تراب يشع، أيقنت بذلك في بداية الأمر، ولكن الشيطان، أيضاً، له قواه السحرية. جلس يسوع على الأرض إلى جانب أمه وترك الحمل يطوف كما يشاء. أجل، بت أدرك أنهما كلاهما متفقان، إذ يكاد يكون من المستحيل أن يبين الاختلاف بين ملاك الإله وملاك الشيطان، هكذا أخبرها. فلتبق معنا ولا تعد إلى ذلك الرجل، إفعل ذلك لأجل أمك. كلا، لقد وعدت بأن أعود، وأنا عازم على الايفاء بكلمتي، الناس يعدون الشيطان بالوعود كي يخدعوه، هذا الرجل، الذي أنا متيقن أنه ليس رجلاً، بل ملاك أو شيطان، كان يتتبعني منذ يوم ولادتي وأريد أن أعرف سبب ذلك، يسوع يا ولدي، تعال إلى الهيكل مع أمك وأخوتك وخذ هذا الحمل إلى المذبح لتقوم بواجبك وتحقق لهذا الحمل قدره، وهناك بإمكانك أن تطلب من الرب أن يخلصك من قوى الشيطان وكل الأفكار الشريرة، سيموت هذا الحمل عندما يحين وقته، ولكن هذا هو اليوم الذي يموت فيه، أماه، الحملان التي تلدينها لا بد أن تموت، ولكن عليك أن لا ترغبي في موتها قبل أوانها، الحملان ليست بشراً وحتى أقل من ذلك، عندما يكون أولئك البشر صغاراً، عندما أمر الرب إبراهيم بأن يذبح إبنه إسحاق، لم يميز

بينهما، يا ولدي لست إلا إمرأة بسيطة، ليس عندي جواب لك، لكنني أتوسل اليك، كف عن هذه الأفكار الشريرة. أماه، ليست الأفكار إلا ظلالاً عابرة، هي ليست في ذاتها خيرة أو شريرة، الأفعال وحدها يمكن أن تكون كذلك، الحمد للرب الذي بارك هذه المرأة المسكينة والجاهلة بمثل هذا الابن الحكيم، رغم ذاك لا أصدق أن هذه هي حكمة الرب، يمكن للإنسان أن يتعلم أيضاً من الشيطان، وأخشى أنك الآن تحت سيطرته، إن أنقذت قوته هذا الحمل، فهذا يعني أن إنجازاً ما قد حصل في عالم اليوم هذا. لم تسع مريم للرد. شاهدا يعقوب يقترب من بوابة المدينة. قامت مريم وقالت، لقد عثرت على ولدي لأضيعه ثانية، وعند ذاك أجابها يسوع، إذا لم تضيعيه من قبل، فليس من المحتمل أن تضيعيه الآن. وضع يده في جرابه وأخرج النقود التي نالها على أنها صدقات، هذا كل ما لدي، لقد عملت كل هذه الشهور لتحصل على هذا النزر من المال، لقد عملت لأكسب قوتي، لا بد أنك متعلق جداً بمعلمك لتكون قانعاً بالقليل جداً، الاله هو الراعي لي، لا تهن الرب، ما دمت تعيش مع شيطان، من يدري يا أماه، من يدري، فلربما يكون ملاكاً يعمل في خدمة إله آخر يحكم في سماء أخرى، لقد قال الرب، أنا هو الرب ولن تعبدوا أحداً سواي، فرد يسوع، آمين. أخذ الحمل بين ذراعيه وقال، إنني أرى يعقوب قادماً، وداعاً يا أمي، وقالت له مريم، سيفكر المرء أنك تتعاطف مع ذلك الحمل أكثر مما تتعاطف مع عائلتك. فرد عليها يسوع، هكذا أفعل في الوقت الحالي. عند ذاك ابتعدت مريم يخنقها الحزن والذل وهرعت للقاء إبنها الآخر. ولم تنظر خلفها أبداً.

حين اجتاز يسوع أسوار المدينة، إتخذ طريقاً آخر عبر الحقول، قبل أن يبدأ بالهبوط الطويل إلى وادي عجلون. توقف عند قرية واشترى طعاماً بالنقود التي رفضت أمه قبولها، بعض الخبز والتين، بعض الحليب له وللحمل، حليب ضأن، وإن يكن ثمة أي اختلاف فهو غير ملحوظ، على الأقل في هذه الحالة، فمن الممكن القبول بأن الأم طيبة

مثل غيرها. هل كان أحدٌ ما سيندهش عند سماعه أن يسوع يصرف النقود على حمل كان حرياً به أن يكون ميتاً الآن، وكنا سنجيب أن هذا الفتى امتلك حملين في إحدى المرات، أحدهما ضُحي به ويعيش في مجد الاله، بينما هذا الآخر رُفض من قبل الاله ذاته لأن أذنه كانت مبتورة. أنظر، ولكن أذنه سليمة، هكذا كانوا سيقولون، وعند ذاك سيجيب يسوع، حسناً، في هذه الحالة سأقطعها بنفسي، ويرفع الحمل على كتفه ويستمر في طريقه. لاح له القطيع ما إن بدأ ضوء المساء ينمحق، والآن سريعاً ما ستتغطى السماء بالغيوم المعتمة الواطئة. كان الجو المتوتر ينذر بعواصف رعدية، وتحقق هذا عندما شق لمعان البرق السماء تماماً حين رأى يسوع القطيع. لم ينزل المطر. كانت هذه هي إحدى العواصف الرعدية الجافة، وهي الأشد إثارة للرعب لأنها تجعل الأنسان يشعر أنه غير محصن بدون تلك الشاشة المطرية والرياح، إذ كانت تعمل حاجزاً وتحمينا في هذه المعركة العارية بين السماء الصاخبة التي تمزق نفسها وأرض ترتعش وتنكمش باستسلام تحت إنقضاض الضربات. على بعد مائة خطوة من يسوع شطر برق أعمى شجرة زيتون أحترقت في الحال واشتعلت مثل شعلة ملتهبة. إنفجار هائل للرعد إرتعد عبر السماء كلها وكأنه يشقها نصفين من النهاية إلى النهاية، وأطاحت الصدمة بيسوع إلى الأرض، مما جعله يربض دونما حس. واصطدم ضياءان من البرق آخران بالارض، واحد هنا وآخر هناك، مثل كلمتين حاسمتين، حتى أمست جلجلة الرعود بعيدة شيئاً فشيئاً ثم ماتت في الأخير لتكون مجرد همهمة رقيقة أو حواراً حميماً بين السماء والأرض. بعد أن تلاشت العاصفة وتخلص الحمل من خوفه ونهض سالماً إقترب من يسوع وقرب فمه إلى شفاهه، لم يكن ثمة نَفَس، أبسط إتصال مطلوب، ومن نحن حتى نسأل عنه. فتح يسوع عينيه، وشاهد الحمل يقف هناك، ثم رأى تلك السماء المزرقة، مثل يد سوداء تكبح أي ضياء متبق. كانت شجرة الزيتون لا تزال تحترق. آلمت يسوع عظامه حين حاول الحركة،

لكنه على الأقل لازال يشعر أنه يتحكم بجسده، يقال هذا عن شـيء هش لم يحتج لغير إنفجار رعد ليطرحه أرضاً. جلس ببعض الجهد، وتأكد لـه باللمس أكثر من الرؤية بأنه لم يحترق ولم يشل، ولم ينكسر أحد من عظامه ليس غير الأزيز العالي الذي في رأسه الـذي بدا أن لا نهاية لـه أبداً مثل أزيز البوق، فقد كـان حيـاً وبصحة جيدة. سحب الحمل إليـه وعثر على كلمات لم يكن يعرف أنها فـي داخلـه، قـال، لا تخـف، كـان يريد أن يريك فقط أنك من الممكن أن تكون ميتاً الآن لو أنـه شـاء ذلـك، وليؤكد لي أنني لست بمنقذ لـه، بل هو. الجلجلة الأخيرة للرعد شقت الهواء ببطء مثل تنهيدة، بينما فـي الأسفل كـانت البقعة البيضـاء التـي تشكلت للقطيـع تشبه واحـة تومـيء. وبدأ يسوع بهبوط المنحدر وهو يجاهد للتغلب على الوهن الذي فيه. واستمر الحمل يخب إلى جانبه ليقوم بدور الوقاية مثل كلب صغير. خلفهما استمرت شجرة الزيتون فـي الإحتراق. وكان الضياء الذي تبعثه في الشفق الباهت قد سمح ليسوع في أن يتبين جسد باستور الطويل وهو ينتصب أمامه مثل شبح ملتف بملاءة دائماً ما تتدلى منه ويمسك بعصاه التي ربما تمس الغيوم لو أنـه رفعها إلى الأعلى. قال له باستور، كنت أتوقع تلك العاصفة الرعدية، فأجابـه يسوع، أنا من كان يتوقعها. من أين حصلت على هذا الحمل، لم يكن لدي مال لأشتري حملاً لعيد الفصح، لذلك وقفت فـي جـانب الطريـق لأشحذ الصدقة، ثم ظهر شيخ وأهدانـي هذا الحمل، لماذا إذاً لم تقدمه أضحية، لم أستطع، كل ما في الأمر أنني لم أستطع أن أرغم نفسي على ذلك. أبتسم باستور، الآن بدأت أفهم، لقد أنتظرك، وسمح لـك بأن تصل إلى القطيع سالماً كي يريك قدرته أمام عينيّ. لم يجب يسوع، لقد قـال الشيء ذاته تقريباً للحمل، ولأنه قد وصل للتو فلم يرغب في الدخول فـي أي نقاش عن نوازع الرب وأفعاله. فما الـذي ستفعله بحملك، لا شـيء، لقد جلبته إلى هنا لينضم إلى القطيع، كل الحملان البيضاء متشابهة، وفي الغد لن تستطيع حتى تميزه من بين الآخرين، إن حملي يعرفني، وسيأتي

اليوم الذي ينساك فيه، ثم أن الحمل سرعان ما يتعب من العودة والبحث عنك أرى من الأفضل أن تضع له علامة أو تقطع منه شيئاً من أذنه، إنه دابة صغيرة مسكينة، ما الفرق بعد ذلك، إنهم يسمونك عندما يقصون قلفتك حتى يعرف الناس إلى من تنتمي، إن الأمر مختلف، حري به أن يكون مختلفاً، ولكنه في الحقيقة الشيء ذاته. وبينما كانا يتحدثان، كان باستور قد جمع بعض الخشب وهو منشغل في محاولة إضرام النار ببعض أحجار الصوان . فقال له يسوع، سيكون من السهل لو أنك أتيت بغصن من شجرة الزيتون المحترقة، عند ذلك أجابه باستور، علينا دائماً أن ندع نار السماء تحترق وحدها, كانت شجرة الزيتون الآن قد أمست جمرة هائلة تشع في الظلام، وأدت الريح بالشرار أن يطير باعثة قطعاً متوهجة من اللحاء والغصينات المحترقة لتنطفيء في الهواء. بقيت السماء كئيبة وملبدة بشكل غريب. أكل باستور ويسوع معاً كالمعتاد مما قاد باستور إلى أن يعلق ساخراً، لن تشترك هذا العام في الحمل الفصحي. أصغى يسوع إليه ولم يقل شيئاً، لكنه شعر بالضيق في أعماقه، ومنذ الآن سيتحتم عليه أن يواجه التناقض التعس بين أكل الحملان ورفض ذبحها. إذاً ما الذي ستفعله، تساءل باستور قبل أن يضيف هل ستضع وسماً للحمل أم لا، فأصر يسوع، لا أستطيع فعل ذلك، أعطني إياه لأتعامل معه. وبضربة سكين سريعة وقوية أزال باستور الجزء الصغير الأعلى من إحدى أذنيه، ثم رفعها، وتساءل، ما الذي سأفعله بهذه، هل أدفنها أم أرميها. أجابه يسوع دون تفكير، أعطنيها، وأسقطها في النار. فقال باستور، هكذا بالضبط يتخلصون من قلفتك. سال الدم من أذن الحمل في قطرات بطيئة شاحبة سرعان ما جفت. فاحت الرائحة المخدرة للحم الفتي المتفحم من دخان اللهب. ولذلك عند نهاية اليوم الطويل الذي ضاع فيه الكثير من الوقت في الحركات الصبيانية الوقحة في التحدي استقبل الرب في الأخير ما كان يعود إليه، ربما من أثر تلك العواصف الرعدية والتماعات البرق المرعبة التي لابد

لها أن خلقت انطباعاً عميقاً كافياً لاقناع نينك الرعاة العنيديين بأن يظهروا الطاعة. كانت الأرض قد ابتلعت آخر قطرة من دم الحمل إذ كان من العار تماماً خسارة أثمن قطرة من هذه الضحية التي أثارت الكثير من الجدل.

وتحول خلال الوقت إلى كبش عادي يمكن تمييزه فقط عن الآخرين من خلال الطرف الصغير المقطوع من إحدى أذنيه، وهذا الحيوان ذاته وصل إلى ضياع نفسه بعد ثلاث سنوات في البادية جنوب جيروكو التي تحد الجزيرة. في قطيع كبير، خروف ينقص أو يزيد لا يبدو أنه يغير في الأمر شيئاً، ولكن علينا أن لا ننسىأن هذا القطيع لا يشبه غيره، وحتى راعياه ليس ثمة ما يجمعهما كما رأينا وسمعنا، لذلك لابد لنا أن لا نندهش لو أن باستور وهو ينظر من قمة التل، قد لاحظ أن حيواناً مفقوداً من حيواناته دون أن يعدها. لقد نادى على يسوع وقال له، إن كبشك مفقود من القطيع، إذهب وابحث عنه، ولأن يسوع لم يسأل باستور، كيف عرفت أنه كبشي فلسوف نمتنع عن سؤال يسوع. الذي يهم الآن حقاً هو أن نرى أين سيتجه يسوع في هذا الأفق الواسع وهو غريب عن هذه الأنحاء حيث من النادر أن يغامر أحد ويتجول فيها. لقد جاؤوا من أرض جيريكو الخصبة حيث قرروا أن لا يمكثوا فيها لأنهم فضلوا التجول أينما شاؤوا فلا يقعون في الفخ بين الناس، إذ كان من المحتمل كثيراً أن شخصاً أو كبشاً وخصوصاً إذا عزم على أن يضيّع نفسه، لابد له أن يختار أماكن حيث لا يعكس الجهد المكرس للبحث عن الطعام عزلتهم الثمينة. بهذا المنطق، كان من الواضح أن كبش يسوع قد تخلف عن القطيع متقصداً ومن المحتمل أن يكون الآن يأكل العشب على الضفاف الخصبة لنهر الأردن قريباً من جيريكو، من أجل المزيد من الأمان. والمنطق، بأية حال، ليس كل شيء في هذه الحياة. وغالباً يكون ما يمكن التنبؤ به، لأنه ببساطة النتيجة الأكثر ملائمة لسلسلة من الأحداث، أو لأنه قد قرر من قبل لسبب ما، ويتحول في الأخير إلى

الأبعد احتمالاً من حيث المكان والظروف. وعليه على يسوعنا أن يجد كبشه الضال ليس في تلك المراعي الغنية هناك، بل في الصحراء الحامية القاحلة التي أمامه. ولا حاجة لأحد بأن يناقش أن الكبش لم يضل ليموت من الجوع والظمأ، أولاً، لأن لا أحد يعلم ما الذي يدور حقاً في رأس الكبش، وثانياً، يجب أن لا نضع في أذهاننا ما قلناه للتو عن الطبيعة الغريبة لما يمكن التنبؤ به. لذلك نجد يسوع قد اتخذ طريقه من قبل في الصحراء. ولم يتفاجأ باستور من قراره، في الواقع، ولم يقل شيئاً وعبر عن استحسانه بهزة رأس وقورة، التي كانت غريبة تماماً لأنها أيضاً قد تفهم خطأً بأنها إشارة وداع.

كانت الصحراء في تلك الأجزاء ليست هي الميادين الشاسعة من الرمل المألوفة لدينا جميعاً. الصحراء هنا أشبه ما تكون ببحر جاف من الكثبان المتغصنة، التي تتباعد عن بعضها لتخلق متاهة من الوديان لا سبيل للخلاص منها. ثمة القليل النادر من النباتات التي تعيش بالكاد عند قدم تلك المنحدرات، نباتات تتكون من لا شيء سوى الأشواك والنباتات الشائكة التي ربما يستطيع الماعز تناولها، لكنها من المحتمل أن تمزق خدود الخروف عند أدنى اقتراب منه. إن هذه الصحراء مخيفة أكثر بكثير من تلك التي تتكون من الرمال الرقيقة أو الكثبان المتغيرة في حالة من التحول المستمر. كل تل هنا يفصح عن التهديد الخفي الذي ينتظرنا على التل التالي وعندما نصل إلى هناك في خوف وارتعاش، بإمكاننا أن نشعر في الحال بالتهديد ذاته يأتي من خلفنا. في هذه الصحراء لا أصداء لصرخاتنا، كلما نسمعه استجابة لذلك سيكون نداء التلال ذاتها، أو صوت القوة المجهولة التي تختبئ هناك. دخل يسوع هذه الصحراء وهو أعزل إلا من عصاه وجرابه. لم يكن قد ذهب بعيداً من قبل، فهو بالكاد قد عبر عتبة العالم، عندما أدرك فجأة أن الخفين القديمين لأبيه قد سقطا منفصلين عند قدميه. كان قد أديم بالترقيع المستمر، إلى حد الإفراط في الغالب، ولكن مهارة يسوع في التصليح لا يمكنها أن تديم الخفين اللذين قطعا

الكثير من الطريق وسحقا الكثير الكثير من العرق في الغبار. كانا كأنهما يطيعان أمراً رسمياً، فهاهي آخر الألياف تتهرأ، الرقع تتفصل، المشدات تقطعت في أماكن كثيرة وكأن يسوع يمشي حافياً بالفعل في أغلب الاحيان. على الرغم من أن الفتى يسوع، كما اعتدنا أن نسميه، كان يهودياً وفي الثامنة عشرة من عمره، فهو أقرب للنضوج منه إلى المراهقة، وقد تذكر فجأة الخفين اللذين كان يحملهما كل هذا الوقت في جرابه إحتراماً للأيام القديمة وظن بحماقة أنهما قد يناسبانه. كان باستور محقاً حين حذره، ساعة تنمو الأقدام فلن تتقلص ثانية، ولربما اعتقد يسوع جاهداً أنه قد يستطيع مرة وتنزلق قدماه في هذين الخفين الصغيرين. لقد واجه الصحراء بقدميه العاريتين، فهو مثل آدم حين طرد من الفردوس، ومثل آدم، تردد قبل أن يقوم بتلك الخطوة المؤلمة فوق الأرض المعذبة التي تناديه، ولكنه حينذاك، ودون أن يسأل نفسه لماذا كان يفعل ذلك، ربما ببساطة متذكراً آدم، أسقط جرابه وعصاه، ورفع طرف ثوبه ليسحبه إلى ما فوق رأسه ووقف هناك عارياً كآدم ذاته. هنا حيث يقف، لا يمكن لباستور أن يراه، ولم يتبعه حمل فضولي، ليس سوى الطيور التي تغامر إلى ما بعد تلك التخوم يمكنها أن تلمحه من السماء والحشرات التي على الأرض، كالنمل، وأم الأربع والأربعين الغريبة والعقرب التي ترفع ذيلها مذعورة بإبرتها السامة. لا تتذكر هذه المخلوقات الصغيرة أبداً أنها رأت رجلاً عارياً في هذه الأنحاء من قبل وليست لديها أية فكرة عما ينوي برهنته. ولو حدث لها أن تسأل يسوع، لماذا خلعت ثيابك، لربما كان قد أجابها، لابد للمرء أن يمشي في الصحراء عارياً، وهذا جواب بعيد عن إدراك المفصليات من كثيرات الأرجل والعنكبوتيات أو الحشرات التي تعود إلى رتبة نصفيات الأجنحة. نسأل أنفسنا، إنه عارٍ، مع كل تلك الأشواك للسع الجلد والتي تشتبك بشعر العانة، عارٍ، مع كل تلك الأشواك الحادة وتلك الرمال الخشنة، عارٍ تحت الشمس اللاهبة التي من الممكن أن تجعل الإنسان

أعمى ويشعر بالدوار، عار، من أجل العثور على كبشه الضال الذي وسمناه بوسمنا. الصحراء مفتوحة لاستقبال يسوع، ثم تتغلق خلفه، وكأنها تقطع أي ممر للرجوع. يرن صدى الصمت في أذنيه مثل الجلبة التي تصدر من أحد أولئك الموتى، والأصداف الفارغة التي تظهر مغسولة على الشاطئ حيث تمتص الصوت الهائل للأمواج حتى يلتقطها أحد المارة ليقربها ببطء إلى أذنه ويصغي ويقول، هذه هي البرية. كانت أقدام يسوع تنزف. الشمس تزيح الغيوم إلى الخلف وتطعنه في ظهره، الأشواك تنخر سيقانه مثل مسامير مخدشة النباتات الشوكية تجرحه. أين أنت أيها الكبش، ناداه، وعبرت كلماته التلال، أين أنت، أين أنت. وكان هذا سيكون هو الصدى التام، ولكن الصوت البعيد والطويل للصدفة يفرض نفسه، وهو يدمدم الرب، ااااااالرب، ااااااالرب. ثم وكأن التلال قد انجرفت إلى البعيد فجأة، وظهر يسوع من بين متاهة الوديان إلى وسط الساحة الرملية حيث الكبش يقف في مركزها. فهرع إليه بأقدامه المتقرحة بأسرع ما يمكنه، لكن صوتاً أعاقه، ترقب. وظهرت أمامه غيمة التفت إلى الأعلى ببطء مثل عمود من الدخان وهي بارتفاع رجلين. تساءل يسوع مرعوباً، من هذا الذي يتكلم، وكان يحدس الجواب من قبل. أجابه الصوت، أنا الإله، وكان يسوع قد عرف لماذا شعر أنه مجبر على التخلص من ثيابه عند حافة الصحراء. لقد أتيت بي إلى هنا، ما الذي تريده مني، لا شيء في هذه اللحظة، ولكن سيأتي اليوم الذي سأريد فيه كل شيء، ما هو هذا الكل شيء، حياتك. أنت الإله، وأبداً تأخذ منا الحياة التي تمنحنا إياها، ليس من حل آخر، لا أسمح للعالم بأن يزدحم، لماذا تريد حياتي، ستعرف حين تأتي الساعة، لقد جئت فقط لأنذرك بأن تهيئ جسدك وروحك لأن المصير الذي ينتظرك عظيم وسعيد الحظ، إلهي، لا أفهم ما تقصد ولا الذي تريده مني، سأمنحك السلطة والمجد، أية سلطة، وأي مجد، ستعرف حين تأتي الساعة واستدعيك مرة أخرى، ومتى سيكون ذلك، لا تكن نافد الصبر، عش

حياتك بأفضل ما يكون، إلهـي، إنني أقف أمامك، لقد جلبتني إلى هنا عارياً، أتوسل إليك، امنحني هذا اليوم ما ستمنحني إياه غداً، من قال لك أنني سأمنحك أي شيء، أنت وعدتني، بالتبادل، لا شيء أكثر من التبادل، حياتي بدلاً عن ماذا، بدلاً عن السلطة، والمجد، حالما استدعيك، ولكن حتى أعرف المزيد عن هذه السلطة، حتى تخبرني ما هي، وعلى من وفي عيون من، سيأتي ذلك الوعد سريعاً جداً، ستجدني ثانية عندما تكون متهيئاً، منذ الآن سترافقك علاماتي، الهي، أخبرني، إهدأ، لا تسأل المزيد من الأسئلة، ستأتي الساعة، لا تتأخر لحظة ولا تتعجل لحظة وعند ذاك ستعرف ما الذي أريده منك، انني أسمعك، يا إلهي، وعليّ الطاعة، ولكن عندي سؤال واحد فقط، لا تمطرني بالأسئلة، أرجوك، يا إلهي، لابد لي، حسناً إذاً، تكلم، هل يمكنني أن آخذ كبشي، اوه، هذا ما يهمك، بلا، ليس سوى ذلك، فهل تسمح لي به، كلا، لماذا، لأنك يجب أن تقدمه أضحية لي كي أمضي لك على عهدنا، أنت تعني هذا الكبش، أجل، دعني أختر لك واحداً آخر من القطيع، وسأعود مباشرة، لقد سمعتني، أريد هذا، ولكن، يا إلهي، ألا يمكنك أن ترى، لقد قرضت أذنه، أنت مخطيء، أنظر جيداً، الأذن كاملة، من المستحيل، أنا الإله، ومع الإله كل الأشياء ممكنة، لكن كبشي، ها أنت تخطئ مرة أخرى، كان الحمل لي وأنت سرقته مني، وها أنت الآن تعوضني بالكبش، إن إرادتك هي التي تحقق، فأنت تحكم الكون، وأنا خادمك، فقدم هذا الكبش؛ ضحية وإلا فلا عهد سيكون بيننا، أعطف عليّ، يا إلهي، إنني أقف عارياً ولا أملك لا ساطوراً ولا سكيناً. هكذا تكلم يسوع، آملاً أن يكون قادراً على إنقاذ حياة الكبش، لكن الرب قال له، لن أكون رباً ما لم أكون قادراً على حل المشكلة من جانبك، فخذ هذا. ولم يكد ينهي كلامه حتى ارتمى ساطور جديد تماماً عند قدمي يسوع. قال الرب، إذهب الآن، فلدي عمل ولا يمكنني أن أبقى هنا أتحدث طوال الوقت. تقدم يسوع من الكبش حاملاً الساطور من مقبضه. رفع الكبش رأسه وما كاد يعرفه، فلم يكن

قد رآه عارياً من قبل، وكما يعرف الجميع، فإن هذه الحيوانات لا تملك حاسة قوية للشم. سأله الرب، هل تبكي. إرتفع الساطور، حدد هدفه، وهبط برشاقة تشبه رشاقة فأس منفذ الاعدام أو المقصلة التي لم تكن قد أخترعت بعد. لم يفعل الكبش أكثر من الأنين، كل الذي سُمع هو، آها، وتنهد الرب تنهيدة رضا. سأله يسوع، هل تسمح لي بالذهاب، إذهب، ولا تنسَ، فمنذ الآن أنت مرتبط بي لحماً ودماً، ما الذي علي فعله حين أغادرك، لا تهتم لذلك، فبالنسبة لي ليس ثمة ما هو أمام أو خلف، ولكن من العادة وأنت تغادرني، إنحني وأنت ذاهب، أخبرني يا إلهي، أي شخص متعب أنت يا يسوع، ما الذي يزعجك الآن، الراعي الذي يملك القطيع، أي راع، معلمي، ماذا بشأنه، أهو ملاك ام شيطان، إنه أحد ما أعرفه، ولكن قل لي، أهو ملاك أم شيطان، لقد قلت لك من قبل، بالنسبة للرب ليس ثمة ما هو أمام أو خلف، وداعاً الآن. إختفى عمود الدخان واختفى الكبش، ولم تبق غير قطرات الدم وهي تحاول أن تختفي في التراب.

حين عاد يسوع، حدق فيه باستور وسأله، أين الكبش، وكشف له، لقد قابلت الرب، لم أسألك إن كنت قد قابلت الرب، سألتك إن كنت قد وجدت الكبش، لقد قدمته أضحية، لماذا، لأن الرب كان حاضرا ولم يكن لدي خيار، رسم باستور بطرف عصاه خطاً عميقاً على الأرض كالأخدود، كجدار من النار لا يقهر، ثم قال له، لم تتعلم شيئاً، أغرب عني.

بينما شاهد يسوع باستور يتحرك إلى الجانب الآخر من القطيع فكر في نفسه، كيف لي أن أذهب إلى أي مكان وأقدامي بهذه الحال. الرب، الذي تلقف الكبش ببراعة، لم يمن على يسوع المسكين بنوع من اللعاب الإلهي من تلك الغيمة ليتمكن من استخدامها في تزييت ومعالجة القروح في قدميه النازفتين دماً يلمع فوق الصخور. لا ينوي باستور مساعدته. فبعد أن نطق بكلمات التهديد تلك، إنسحب، ويتوقع أن تنفذ أوامره بالكامل ولا ينوي مراقبة يسوع وهو يستعد للرحيل، ناهيك عن توديعه. فزحف يسوع بصعوبة على يديه وركبتيه حتى وصل المستودع الذي تخزن فيه أدوات رعاية الأغنام وأواني الحليب وأدوات ضغط الجبن وجلود ألاغنام والماعز التي تهيأ قبل ألبيع مقابل أي شيء هما بحاجة إليه، ثوب أو ملاءة أو مؤونة احتياطية من كل نوع. فكر يسوع أن لا أحد سيعترض لو عمل لنفسه خفين أو حذاء من الجلود ليحمي قدميه، بسيور معمولة من أشرطة جلد الماعز القليلة الشعر والأكثر مرونة. وعندما شرع في ذلك لم يكن متأكداً فيما إذا يكون الصوف من الداخل أو الخارج وانتهى إلى استخدامها حشوة نظراً لحالة أقدامه المأساوية. كان الوضع سيكون تعساً حقاً لو أن الشعر التصق بالقروح ولكن لأنه قد قرر السفر بمحاذاة ضفاف نهر الأردن فلن يحتاج إلا أن يغطس قدميه الملتفتين بالخفين في الماء وعند ذاك سوف يذوب الدم المتخثر سريعاً. كان الوزن المجرد لذلك الحذاء الأخرق، هذا ما كان يبدو عليه، ما إن ينقع بالماء، سيجعله يفصل في الحال الحشو عن قشور جروح قدميه

دون أن يؤذي تلك القشور التي كانت تتكون تدريجياً لحماية قدميه بفضل العناية الإلهية.وتأكد له من لون الدم الذي ينز من القروح أنها لم تتلوث فشعر بالدهشة. وفي رحلة يسوع البطيئة نحو الشمال توقف مرتين وجلس على ضفة النهر غاطاً قدميه في الماء الفاتر الذي كان طيباً كالدواء. لقد شعر بالحزن لأنه طرد بهذه الطريقة، بعد ان قابل الرب، الحادثة التي لم تحدث من قبل بالمعنى الكامل للكلمة، في أفضل معلوماته، لم يحدث لأي رجل في كل اسرائيل من يمكنه التباهي برؤية الرب وبقي حياً. صحيح أنه لم يره بالضبط، ولكن إن تظهر غيمة في الصحراء في هيأة عمود من الدخان وتقول، أنا الإله، ثم تقوم بحوار ليس فقط منطقياً ومعقولاً، ولكنه كان إجبارياً حتى أنه لا يمكن أن يكون إلا إلهياً، فبعد ذاك يكون أقل شك شيئاً كريهاً. الجواب الذي قاله عندما استفسر عن باستور قد برهن دون ادنى شك أن ذلك هو بالضبط الإله، موقفه الطارد ينم عن الإزدراء بالإضافة إلى مودة معينة تعززت برفضه أن يقول شيئاً فيما إذا كان باستور ملاكاً ام شيطاناً. ولكن الشيء الأكثر اثارة هي كلمات باستور، على الرغم من قسوتها وبُعدها عن الموضوع، فلم تفعل شيئاً أكثر من تأكيد الميزة فوق الطبيعية لهذه المقابلة، لم اسألك إن كنت قابلت الرب، وكأنه يقول، ذلك شيء أعرفه تماماً من قبل، وكأن الأخبار لم تكن مفاجئة، وقد عرفها سلفاً. على أية حال، من الواضح أن باستور مازال يلومه على موت الكبش، ذلك لأن تلك الكلمات الأخيرة ليس لها معنى آخر، لم تتعلم شيئاً، فاغرب عني، قبل أن يمضي متفاخراً إلى الجانب الآخر من القطيع، حيث استمر في تجاهله حتى غاب عن النظر. الآن، وفي واحدة من تلك المناسبات ترد إلى ذهنه فجأة كلمات باستور صارخة وبوضوح وكأنه كان يقف هنا إلى جانبه، لم تتعلم شيئاً، وعند تلك اللحظة كان الاحساس بالفقدان والخصوصية والعزلة غامراً جداً حتى أنه شعر بالوحدة التامة وهو يجلس هنا وحيداً على ضفة نهر الأردن، يراقب قدميه في الماء الشفاف

وثمة خيط رفيع من الدم ينز من أحد كعبيه ثم يتوقف مؤقتاً في الماء، وشعر فجأة أن ذلك الدم وتلك الأقدام لم تعد تنتمي إليه، كان ذلك هو أباه الذي جاء إلى هنا، يعرج من كعبيه المطعونين، ليجد الراحة في المياه الفاترة لنهر الأردن، وكرر ما قاله باستور، لا بد لك أن تبدأ كل ذلك من جديد، وتذكر يسوع حياته حتى الآن، حلقة بحلقة، الإبلاغ الغامض عن حمله في بطن أمه، التراب المضيء، ولادته في كهف، مذبحة الأبرياء في بيت لحم، تلك الكوابيس التي ورثها، الطيران من البيت، الجدل في الهيكل، ما كشفته سالوم، ظهور الراعي، تجاربه مع القطيع، إنقاذ الحمل، الصحراء، الكبش المقتول، الرب. وبدت هذه الكلمة الأخيرة عسيرة على الفهم، فركز على سؤال ملح واحد، لماذا يُنقذ حمل من الموت ويموت في الأخير كبشاً، سؤال عبثي إن يكن ثمة سؤال، ولكن من الممكن أن يكون اكثر معقولية لو أعيد التعبير عنه كما يلي، الاخلاص يفي بالغرض، فالأدانة حاسمة رغم ذلك. هذا هو آخر رابط في السلسلة، أن يجلس هنا على ضفة نهر الأردن، يصغي لأغنية مواساة تغنيها امرأة لا يمكنه رؤيتها من هنا، مختفية بين نباتات السمّار، ربما تغسل الملابس، أو ربما تستحم ويحاول يسوع أن يفهم كيف تترابط الأشياء كلها، الحمل الحي الذي غدا كبشاً ميتاً، أقدامه التي تنزف دم أبيه، والمرأة التي تغني، عارية مستلقية على ظهرها في الماء، نهداها الصلبان فوق سطح الماء، وشعر عانتها الداكن يعبث به النسيم، صحيح أن يسوع لم ير امرأة عارية حقاً من قبل، ولكن إذا تمكن رجل بعد ابتعاده تماما من عمود من الدخان البسيط، أن يخمن ما الذي سيحدث له مع الرب حين تأتي الساعة، فلماذا إذاً لا يستطيع أن يبصر امرأة عارية بكل تفاصيلها، مفترضين إنها عارية، لمجرد الاصغاء إلى الأغنية التي تغنيها على الرغم من أن الكلمات غير موجهة إليه. لم يعد يوسف هنا، لقد عاد إلى القبر العام في سبفوريس، وبالنسبة لباستور فلا يرى غير طرف عصاه، أما الرب، فهو في كل مكان، كما يقول الناس، ما لم

يختر عمود دخان ليكشف عن نفسه. إنه ربما في ذلك التيار، في الماء ذاته حيث تستحم المرأة. وراح جسد يسوع يرفع الإشارة، شيء ما بين ساقيه بدأ ينتفخ، وكما يحدث عند كل البشر والحيوانات، إندفع الدم إلى المكان ذاته، مما جعل قروحه تتيبس في الحال. يا إلهي، ألهذا الجسد مثل هذه القوة، لكن يسوع لم يحاول البحث عن المرأة، وقاومت يداه الاغواءات العنيفة للجسد، أنت لا شيء ما لم تحب نفسك، ولن تصل إلى الرب حتى تقترب من جسدك. لم يعرف أحد من ذا الذي تحدث بهذه الكلمات، لكن الرب لا يمكن أن يتحدث بها لأنها ليست من حبات مسبحته، ربما ينطقها باستور إن لم يكن بعيداً، لذلك من الممكن، في النهاية، أن تكون هي الكلمات التي تغنيها المرأة. عند ذاك فكر، كم أود أن أذهب إلى هناك وأسألها لتوضح لي، لكن الغناء توقف، ربما جرفه التيار، أو ربما خرجت المرأة من الماء لتجفف نفسها وترتدي ثيابها مما يجعل جسدها صامتاً. انزلق يسوع على خفيه الرطبين ورفع قدميه ليتسرب الماء منهما كما يتسرب من الاسفنجة. كانت المرأة ستضحك ضحكة عالية لو أنها مرت من هذا الطريق ورأته مرتدياً ذلك الحذاء الغريب ولكنها سرعان ما ستكف عن السخرية منه ما إن تبدأ عيناها بتصور جسد يسوع تحت ردائه، وتحدق عن بعد في هاتيك العينين اللتين تكدرتا بأحزان الماضي والحاضر وتبدوان الآن قلقتين لسبب مختلف تماماً. بكلمات قليلة أو بلا كلمات، ستنضو عن ثيابها مرة أخرى وتعرض أن تفعل ما هو متوقع في مثل هذه الحالات، ستخلع خفيه بأناة شديدة وتترفق بتلك القروح، مقبلة كل قدم ثم تغطيهما بشعرها الرطب وكأنها تحمي بيضة أو شرنقة. لا علامة على قدوم أحد في الطريق، ينظر يسوع فيما حوله، يتنهد، يبحث عن مكان ما للاختباء ويتوجه إلى هناك، لكنه توصل إلى وقوف مفاجئ متذكراً في الوقت المناسب أن الإله قد عاقب أونان بالموت لأنه قذف بذوره على الأرض. الآن، أكان ليسوع أن يحدث انعطافاً يكاد يكون أكثر ضرورة لهذه الحادثة التقليدية،

كما كانت ميوله، ولو لم يعق من قبل صلابة الإله لسببين، أولاً لأنه لم تكن له زوجة أخ يتوجب عليه قانوناً أن يرعى معها ورثة أخيه، والثاني وربما السبب الأكثر إلزاماً لكون الإله، وتبعاً لما أخبره به في الصحراء، لديه خطط صارمة بشأن مستقبله يزمع الكشف عنها قريباً، وكان سيجد ذلك غير عملي ولا منطقي أن ينسى الوعود والمغامرة خاسراً كل شيء فقط بسبب يد غير منضبطة قد تجرأت على أن تصل حيث لا يتوجب عليها فعل ذلك. لأن الإله يعلم بحاجاتنا البدنية التي لا تقع ببساطة بالأكل والشراب، إلى حد أن ثمة أشكالاً أخرى للإمساك من الصعب جداً تحملها. هذه التأملات وما شابهها التي كانت ستشجع يسوع بأن ينصاع لميوله الطبيعية ويبحث عن بقعة هادئة ليقنع نداءه الداخلي، لكنها انتهت بنتيجة معاكسة، قد أذهلته عما كان يدور في ذهنه ويشوشه حتى أنه سرعان ما فقد الرغبة في أن يستسلم للاغواء الخبيث. رفع يسوع جراحه على كتفه خاضعاً لعفته، والتقط عصاه وذهب في طريقه.

في اليوم الاول من سفر يسوع بمحاذاة ضفاف نهر الاردن، وبعد أربع سنوات من العزلة التي اعتاد عليها، حيث ظل بعيداً عن الاماكن المأهولة، ومع اقترابه من بحيرة جنزاريت أصبح من الصعب عليه شيئاً فشيئاً أن يتحاشى المرور بالقرى خصوصاً عندما تكون محاطة بحقول محصودة تعيق طريقه ناهيك عن الشكوك التي يثيرها مظهره بين المشتغلين، لذلك قرر أن يظهر للعالم. وقد اندهش بسرور مما رآه، فكل ما كان يزعجه حقاً هي الضوضاء التي كاد ينساها. في القرية الأولى التي دخلها، إنفجر جماعة من الصغار بالضحك عند رؤية خفيه، وهذا شيء ليس سيئاً، في النهاية، ذلك لأن يسوع كان لديه ما يكفيه من المال ليشتري خفين جديدين. علينا أن لا ننسى أنه لم يلمس أياً من النقود التي كان يحملها منذ أن أعطي النقدين المعدنيين من قبل الفريسي، وقد عاش أربع سنوات عيشة كفاف وليس ثمة نفقات قد أثبتت أنها ستنال النصيب

الأوفر لو أمكن للمرء أن يتمناها من الإله. الآن وبعد أن اشترى الخفين، بقيت لديه عملتان معدنيتان قليلتا الفائدة، لكن الفقر لم يكن يهمه، إذ سريعاً ما سيأتي إلى قدره، الناصرة، بلده الذي هو متيقن من العودة إليه، فمنذ اليوم الذي غادر فيه، وهو يشعر كأنه كان بعيداً منذ الأبد، قال، بطريق ما أو آخر سأعود دائماً. كان يسافر بخطو مسترخٍ، متتبعاً ألف انعطافة في الطريق حذاء نهر الاردن، اذا لم تكن قدماه ملائمتين تماماً لتقوما بتلك الرحلة، على الرغم من أن السبب الرئيسي لتقدمه البطيء كان ايمانه الراسخ بأنه سينجح، وكأنه يفكر في نفسه، أكاد أصل، لكن في أعماقه شيئاً آخر يؤخره، هاجساً يمكن التعبير عنه بهذه الكلمات، كلما أسرعت في الوصول كلما تحتم عليّ الاسراع بالمغادرة. وباتباع شاطئ البحيرة في الاتجاه الشمالي وصل الى نطاق الناصرة، وما إن قرر الذهاب مباشرة إلى البيت، كان كل ما عليه عمله هو أن يستدير نحو الشمس الغاربة، ولكن مياه البحيرة الزرقاء والواسعة والهادئة جعلته يتريث. إنه يعشق الجلوس على الشاطيء، مراقباً الصيادين وهم يرمون شباكهم، فمنذ صغره كثيراً ما كان يأتي إلى هذه الأنحاء مع والديه، ولكنه لم يتوقف أبداً لملاحظة أعمال أولئك الرجال الذين تفوح منهم رائحة السمك وكأنهم يسكنون البحر بأنفسهم. كسب يسوع مالاً كافياً لشراء طعامه أثناء مروره من خلال العمل بأية أعمال كان يعرفها، والتي لم تكن أكثر من سحب قارب إلى الشاطئ أو دفعه إلى الماء، أو المساعدة لسحب شبكة ممتلئة، وعندما يرى الصيادون كم هو جائع يمنحونه حفنة من السمك أجراً له. شعر يسوع في البداية بالجوع فذهب بعيداً لشواء السمك وأكله منفرداً، ولكن بعد عدة أيام، دعاه الصيادون لمرافقتهم. في اليوم الثالث والأخير خرج يسوع إلى البحيرة مع الأخوين، سمعان وأندراوس، الذين كانا كلاهما أكبر منه وقد اجتازا الثلاثين من العمر. وحينما كانوا في الماء المفتوح أمامهم حاول يسوع الذي لا يعرف شيئاً عن صيد السمك وضحك من ارتباكه وباصرار من

أصدقائه الجدد أن يرمي الشبكة بتلك الحركة المرنة، التي تبدو من بعيد، مثل حركة تبرك أو تحد، ولكنه لم ينجح، وحتى كاد يسقط في الماء. وراح سمعان واندراوس يضحكان، لادراكهما أن يسوع لا يعرف غير رعاية الماعز والأغنام، وقال سمعان، كانت الحياة ستكون أكثر سهولة لنا لو أن هذا القطيع يُجمع ويقاد، وقد أجاب يسوع على ذلك، انها على الأقل لا تضل أو تضيع، فهي كلها هنا في قاع البحيرة، تهرب أو تقع في الشبكة يوماً بعد يوم. كان يوم الصيد مخيباً، وكان قاع القارب يكاد يكون فارغاً فقال أندراوس دعنا نعود يا أخي، من غير المحتمل أن نصيد أي سمك اليوم. وافقه سمعان، أنت محق يا أخي، دعنا نذهب. إنزلقت المجاذيف في حلقاتها وأوشكوا على التجذيف باتجاه الشاطئ، لو لا أن يسوع، ليس بسبب أي ايحاء أو رؤيا خاصة، بل ببساطة قام بحركة عرفان بالجميل، من الصعب تفسيرها، واقترح أن يقوموا بثلاث محاولات، فمن يدري، لربما تحرك هذا القطيع البحري، بقيادة راعيه، بهذا الاتجاه. ضحك سمعان. ذلك شيء آخر جيد عن الأغنام، فهي مرئية والتفت إلى أندراوس قائلاً، إرم الشبكة هناك، فلا شيء تحصل عليه ما دمت لا تغامر، وحينما رمى أندراوس الشبكة تعود مليئة. فحدق الصيادان مندهشين، ولكن انتباههما تحول إلى العجب عندما رميت الشبكة ثانية وثالثة وعادت ممتلئة في المرتين كلتيهما. فمن بحر كان مجدباً من السمك من قبل، جاء السمك ينسكب بغزارة مثل ماء يجري من ينبوع، لم يشاهدا أبداً سمكاً مثل هذا من قبل، وابل لامع من الخياشيم والظهور والزعانف تصيب المرء بالدوار. سأل سمعان وأندراوس يسوع كيف عرف أن السمك سيتجمع هناك من دقيقة لأخرى وأكد لهما يسوع أنه لم يكن يعرف وكان يتصرف مندفعاً حين اقترح أن يحاولوا مرة أخرى قبل أن يستسلموا. ولم يكن للأخوين سبب ليتشككا بكلماته، فالصدفة المحضة يمكن أن تقوم بمثل هذه المعجزات، لكن يسوع كان يرتجف في داخله، وتساءل في صمت روحه، من هو المسؤول عن

هذا. قال سمعان، ساعدنا في تصنيفها، وهي اللحظة الملائمة للتوضيح أن ذلك المثل العالمي الذي يقول بأن، كل شيء يسقط في الشبكة سمك، لم يتأصل في بحر الجليل، فثمة معيار مختلف يهيمن هنا، فلربما تكون الشبكة قد أمسكت بالسمك، ولكن في هذه الحالة، يكون القانون، كما في أي مكان آخر، غامضاً تماماً. أنظر في ما يمكن أن تأكله من الأنواع المائية المختلفة، لك أن تأكل كل شيء له زعانف وحراشف في مياه البحار والانهار، ولكن كل شيء في مياه البحار والانهار ممن ليست له زعانف ولا حراشف، فيما إذا كانت مخلوقات تتربى أو تعيش تحت الماء سوف تتجنبها وتشمئز منها أبداً، لسوف تمتنع عن أكل لحم كل شيء في الماء ليست له لا زعانف ولا حراشف وتجعلها مقيتة. وهكذا هو السمك المرفوض ذو الجلد الناعم الذي لا يقدم على موائد شعب الإله، ولأنها تعاد إلى البحر، فقد اعتاد الكثير منها على هذا حتى أنها لم تعد تقلق حين تصطاد في الشباك، لأنها كانت تعرف أنها ستعود في الحال إلى الماء دونما خطر من الاختناق. بعقولها السمكية، أدركت بنفسها أنها المستفيدة من المعروف الخاص الذي أغدقه الخالق عليها، ربما بعض الحب الخاص، مما جعلها بعد فترة تعد نفسها أعلى شأناً من تلك الأسماك الواقعة في الشباك على القوارب، والتي لا بد أنها قد اقترفت الكثير من الذنوب الكبيرة تحت تلك المياه المظلمة فجعلها الرب تنفق بلا رحمة.

عندما وصلوا أخيراً الى الشاطئ حذرين من الغرق، ذلك لأن مياه البحيرة ارتفعت إلى مستوى القارب وكأنها توشك على ابتلاعه، كان الناس الذين على الشاطئ في انشداه. لم يفهموا كيف حصل ذلك، وهم يعرفون أن الصيادين الآخرين عادوا بقوارب خالية، ولكن باتفاق ضمني مشترك لم يكشف الرجال المحظوظون الثلاثة أي شيء عن ظروف صيدهم الغزير. كان سمعان واندراوس مترددين في أن يشاهدا سمعتهما

في الصيد تتضاءل أمام الملأ، ويسوع من جانبه، لم يرغب في أن يجد نفسه مطلوباً كالطعم لدى الصيادين الآخرين، ولا بد من القول، أنه سيكون من الإنصاف والعدل إن محونا والى الأبد التمييز بين الأطفال وأطفال الأزواج أو الزوجات وهو ما سبب الكثير من الآلام في هذا العالم. قادت هذه الفكرة يسوع لأن يعلن في تلك الليلة ذاتها أنه سيغادر في اليوم التالي إلى الناصرة حيث تتوقع عائلته منه الحضور بعد أربع سنوات من المحاولات المستمرة والمحن التي لم يبعث بها إليه غير الشيطان. هذا القرار أحزن سمعان وأندراوس اللذين تأسفا لفقدان أفضل رقيب إحتفلا به كل عام في حوليات جنزريت. وتأسف صيادان آخران لقراره، وهما يعقوب ويوحنا، أبناء زبيدي، شابان بسيطان إعتاد الناس أن يتساءلوا ممازحين، من هو أب أبناء زبيدي، ليضعوهما في حالة من الفوضى، وحقيقة كونهما يعرفان الجواب إذ لا غيرهما أبناءه، لم يمنعهما من الارتباك والألم. لقد تأسفا لرحيل يسوع، ليس فقط لأنه يعني لا مزيد من الصيد الغزير، ولكن لأنهما شابان، فيوحنا أصغر من يسوع، كانا يأملان أن يكونا طاقماً مع يسوع يتنافس مع الجيل السابق. كانت طبيعتهما البسيطة ليست لها علاقة بالحماقة أو البلادة، فهما ببساطة إقتحما الحياة وكأن أفكارهما في مكان آخر، لذلك فهما غالباً ما يكونان ساهمين كلما سألهما أحد عن والد أبناء زبيدي، فيحتاران من سبب المرح الذي ينطلق عندما يجيبان بانتصار، زبيدي بالطبع. قرر يوحنا أن يحاول إغراء يسوع، فذهب اليه وقال له، إبق معنا، فقاربنا أكبر من قارب سمعان وبإمكاننا أن نصيد الكثير من السمك، عند ذاك أجابه يسوع بحكمة وتعاطف، إن مقياس الإله ليس مقياس البشر، إنه مقياس عدالته. ذهب يوحنا لا يدري ما يقول ويبدو مكتئباً ومر المساء دون أن يقترب يسوع من الجماعات التي تريد لقاءه. وفي اليوم التالي ودع أصدقاءه الأول وجرابه يعاد ملؤه، وعاد إلى الخلف على بحيرة جنزريت إلى حيث، إن لم يكن مخطئاً، أشار الرب إليه، وانطلق نحو

الجبال التي تؤدي إلى الناصرة. وحكم القدر، على أية حال، أنه أثناء مروره بمدينة مجدلة، إنفتح له جرح مقلق في قدمه وتبين أنه لن يتوقف عن النزف. وحكم القدر أيضاً أن هذا الوضع التعس يحدث بالضبط عند حافة مجدلة ومباشرة عند باب لمنزل منفرد يقف في طريقه وكأنه منبوذ أو متردد من الاقتراب. عندما لم يظهر على الدم أنه سيتوقف نادى يسوع، يا أهل البيت، وظهرت فجأة إمرأة عند المدخل وكأنها تتوقع أن ينادى عليها، وعلى الرغم من الاحتكام إلى الدهشة الضئيلة التي على وجهها، ثمة ما يرشدنا أنها معتادة على دخول الناس إلى البيت دون أن يطرقوا الباب، وذلك يعني، بقليل من التفكير، أن هذه المرأة مومساً ويتطلب الاحترام لمهنتها أن تغلق الباب الامامي عندما تستقبل زبوناً. كان يسوع جالساً على الارض وضغط على الجرح الفاغر ويتطلع إلى المرأة القادمة إليه، قال ساعديني، وتشبث بيدها الممدودة إليه وجاهد للمشي على قدميه بضع خطوات متعثرة، قالت له، لست قادراً على المشي، تفضل بالدخول ودعني أغسل قدمك. لم يجب يسوع بشيء، كان عطر المرأة يفوح حتى أن الألم تلاشى بالسحر، والتف ذراعه حول كتف المرأة بينما إلتف ذراعها حول خصره، وشعر باضطراب سرى في جسده كله، أو على الأدق، في كل حواسه. كان ذلك في كل حواسه، لا البصر ولا الشم ولا التذوق ولا اللمس، رغم أن هذه كلها تشترك، كان ذلك أقصى ما يشعر به، فليعنه الرب. ساعدته المرأة للوصول إلى الباحة، أغلقت البوابة وأجلسته. قالت له، إنتظر هنا. ذهبت إلى الداخل وعادت بإناء خزفي وقماش أبيض. ملأت الإناء بالماء، نقعت القماش، وانحنت عند قدمي يسوع وأراحت القدم المجروح براحة يدها اليسرى وغسلته برفق مزيلة الأوساخ وقشر الجرح المتكسر الذي ينز منه الدم والصديد الأصفر. قالت له المرأة، هذه القروح تحتاج إلى ما هو أكثر من الماء لتشفى، فقال يسوع، كل ما أطلبه أن تشدي قدمي حتى أصل الناصرة. وأوشك أن يقول، ستعالجه أمه، لكنه تدارك نفسه في الوقت

المناسب، لأنه لم يكن يرغب في أن يعطي انطباعاً بأنه إبن أمه الذي ما عليه سوى أن يجرح أصبع قدمه بحجر، ويبكي ليأتوا إلى علاجه وتمريضه، لا شيء، يا ولدي، ها هو بأحسن حال قبل كل شيء. قالت له المرأة، الطريق من هنا إلى الناصرة طويل، ولكن إن كان هذا ما تريده، دعني أضع لك مرهماً. عادت إلى داخل المنزل وتأخرت هذه المرة كما يبدو. نظر يسوع فيما حوله مندهشاً، فلم ير من قبل مثل هذه الباحة النظيفة والمنظمة. إنه يشك أن هذه المرأة مومس، ليس فقط لأنه بارع خصوصاً في تخمين وظائف الناس من أول نظرة، بالاضافة إلى ذلك، فلم يمض وقت طويل منذ أن هو نفسه قد حدد عمله بوصفه راعياً من خلال رائحة الماعز، ورغم ذاك فسوف يقول أي شخص، إنه صياد سمك. لقد تخلص من رائحة رديئة فأبدلها بأخرى. المرأة تفوح بالعطر، ولكن يسوع، الذي ربما كان بريئاً، قد تعلم حقائق الحياة بمراقبة العادات الأليفة للماعز والخراف وتكون لديه إحساس عام بأن المرأة التي تستخدم العطور ليس من الضروري أن تكون عاهرة. فبعد كل شيء لا بد للعاهرة أن تكون لها رائحة الرجال الذين يترددون اليها، مثلما تكون لمربي الماعز رائحة الماعز ولصيادي السمك رائحة السمك، ولكن من يدري، فقد يُعطرن أولئك النسوة أنفسهن كثيراً لأنهن يردن طمس أو إخفاء أو حتى نسيان رائحة أجساد الرجال. ظهرت المرأة من جديد وبيدها جرّة صغيرة وكانت تبتسم كأن أحداً ما في الداخل أخبرها بشيء يدعو للمرح. لاحظ يسوع إقترابها، ولكن ما لم تكن عيناه تخدعانه، فقد كانت تمشي ببطء شديد، كما يحدث أحياناً في الأحلام، يتموج ثوبها ويكشف عن إستدارات جسدها كلما تقدمت، ردفاها يتمايلان، خصلات شعرها السوداء تتدلى متراخية على كتفها وتتمايل مثل سنابل قمح في الريح. مما لا شك فيه أن ثوبها ثوب عاهرة، وجسدها جسد راقصة، وضحكتها ضحكة إمرأة سهلة المنال. بحث يسوع في ذاكرته وهو مضطرب بعمق عن حكم ملائمة لشبيهه بالاسم الشهير، يسوع بن

سيراج، وخدمته ذاكرته، إذ همست في أذنيه بحذر، إبتعد عن النساء المستهترات كي لا تقع في شراكهن، لا تلتق بالنساء الراقصات كي لا تستسلم لسحرهن، وأخيرا، لا تقع بأيدي العاهرات كي لا تفقد روحك وكل ممتلكاتك، وقد تكون روح يسوع في خطر الآن لأنه بكامل رجولته، أما بالنسبة لممتلكاته، فهي ليست في خطر، فهو كما نعلم، لا يملك شيئاً. لذلك سيكون بأمان حين تأتي اللحظة ويحدد السعر وتتساءل المرأة، كم من المال لديك. وكان يسوع مستعداً ولم يظهر عليه الإندهاش عندما سألته عن اسمه وهي تضع المرهم على جروح قدمه الذي كان مستريحاً في حضنها فأجابها، أدعى يسوع، دون ان يضيف، من الناصرة، فقد قال ذلك من قبل، مثلما هي المرأة التي تعيش هنا من مجدلة، وحين سألها عن اسمها، أجابت ببساطة، مريم. بعد أن عالجت مريم المجدلية قدمه المجروحة وشدتها بعناية بشريط قوي. قالت، ذلك ما سيشفيها، سألها يسوع، كيف لي أن أشكرك، والتقت عيناه بعينيها لأول مرة، سوداوين لامعتين كالفحم، ومثل الماء الذي يجري فوق الماء، مغشاة بنداء حسي وجده يسوع لا يقاوم. لم تجبه المرأة في الحال، فحدقت هي أيضاً فيه وكأنها تزنه، فقالت له بعد وقت وهي مقتنعة بأن الفتى المسكين لا يملك مالاً، تذكرني فقط، هذا هو كل ما أطلبه، وأكد لها يسوع، لن أنسى عطفك، ثم استجمع قواه وقال، ولن أنساك، فسألته باسمة، لماذا تقول ذلك، لأنك جميلة، كان عليك أن تراني في شبابي، إنني أراك جميلة كما أنت الآن. تضاءلت ابتسامتها، وذابت، هل تعرف من أنا، ماذا أعمل، كي أكسب عيشي، أجل أعرف، ما عليك سوى أن تنظر إليّ وتعرف كل شيء، لا أعرف شيئاً، ولا حتى أنني مومس، ذلك شيء أعرفه، وأنني أنام مع الرجال من أجل المال، أجل، ثم وكما قلت، أنت تعرف عني كل شيء، هذا كل ما أعرفه. جلست المرأة إلى جانبه وربتت على يده برفق، لامست فمه بأطراف أصابعها، إن أردت أن تسعدني حقاً فاقض الليلة معي، مستحيل، لماذا، لأنني لا أملك مالاً

أدفعه لك، ذلك شيء أتوقعه، أرجوك لا تسخري مني، أنت قد لا تصدقينني، ولكنني قد أسخر في الحال من رجل كيسه مملوء بالمال، انها ببساطة ليست مسألة مال، فما هي إذاً، سكت يسوع وأشاح بوجهه إلى البعيد. لم تحاول مساعدته، كان يمكن أن تسأله، هل أنت عفيف، لكنها لم تقل شيئاً وانتظرت. كان الصمت عميقاً وكثيفاً حتى لم يُسمع شيء سوى ضربات قلبيهما، قلبه يدق أعلى وأسرع، أما قلبها فضجر ومستثار. قال يسوع، خصلات شعرك تذكرني بقطيع الماعز التي تهبط منحدرات جبل جلعاد. ابتسمت المرأة وبقيت صامتة. ثم قال يسوع عيونك تشبه بحيرات هيشون عند بوابة باث-رابيم. إبتسمت المرأة ثانية واستمرت في صمتها. ثم التفت يسوع إليها وقال، لم ألتق أبداً بامرأة. أمسكت مريم بيديه، لا بد لأي إنسان أن يبدأ هكذا، الرجال الذين لم يتعرفوا أبداً على امرأة، و للنساء اللائي لم يلتقين أبداً برجل، حتى يحين اليوم الذي يعرف الانسان بأن يُعلّم الآخر، ويحين للذي لا يعرف شيئاً بأن يتعلم، هل تريدين أن تعلميني، حتى تشكرني للمرة الثانية، في هذه الحال لن أكف عن شكرك، وأنا لن أتوقف عن تعليمك. وقفت مريم، ذهبت لغلق بوابة الباحة، ولكن فقط بعد أن علّقت شيئاً في الخارج، وهي علامة لأي زبون قد يأتي باحثاً عنها تشير إلى أنها أغلقت النافذة إذ حانت ساعة الغناء، استفيقي يا رياح الشمال، وتعالي أنت، يا رياح الجنوب، هبي على حديقتي، حيث الأطياب تتدفق من هناك واسمحي لحبيبي بأن يأتي إلى حديقته ويأكل أثماره اللذيذة. ثم قاما معاً، يسوع الذي يريح ذراعه مرة أخرى على كتف مريم، ومريم العاهرة من مجدلة التي شدت جروحه وتوشك أن تستقبله في فراشها، دخلا إلى الداخل في الظل الرحب للغرفة الرطبة والنظيفة. لم يكن فراشها بساطاً بدائياً ممتداً على الأرض بملاءة خشنة فوقه، كما تذكر يسوع ما كان في منزل والديه، كان ذلك فراشاً حقيقياً كما وصف في مكان آخر، إنني أزخرف فراشي بالأغطية والملاءات المطرزة، المصنوعة من الحرير

المصري وقد عطرت سريري بالصمغ الراتنجي والصبر والقرفة. قادت مريم المجدلية يسوع إلى الموقد ذي الأرضية الحجرية القرميدية، حيث أصرّت على أن يخلع رداءه لتحممه بنفسها وتداعب جسده بأناملها وتقبله من صدره وفخذيه، من أحد الجانبين أولاً ثم الآخر. هذا الاتصال الرقيق باليدين والشفتين جعل يسوع يرتجف، فأن يشعر بأن تلك الأظافر تحك برفق جلده جعله ذلك يشعر بالقشعريرة، همست مريم المجدلية في أذنه، لا تخف. جففته وأخذته إلى السرير، إضطجع، سأكون معك بعد دقيقة. سحبت ستارة، وسمع مرة أخرى صوت الماء، ثم ران الصمت، ثم فاحت رائحة العطر في الهواء، وظهرت مريم ثانية عارية تماماً. كان يسوع مضطجعاً هناك كما تركته عارياً أيضاً. فكر في نفسه، لا بد أن ذلك شيئ صحيح فأن يغطي الجسد الذي جردته هي بنفسها سيبدو شيئاً مهيناً. تريثت مريم عند جانب السرير، حدقت في يسوع يعلوها تعبير منفعل ورقيق في الوقت ذاته وأخبرته، أنت وسيم جداً، ولكن كي تكون كاملاً عليك أن تغمض عينيك. فتح يسوع عينيه متردداً ثم عاد إلى إغماضهما، وعاد ليفتحهما ثانية شاعراً بالدوار، وعند ذلك فهم المعنى الحقيقي لكلمات الملك سليمان، رُكب فخذيك كالجواهر، سرتك مثل كأس امتلأ بالنبيذ الزكي الرائحةبطنك مثل كوسة من القمح منثورة بالكيلك، نهداك مثل أيلين صغيرين هما توأمان لغزال، ولكنه فهم هذه الكلمات أكثر وعلى نحو أفضل حين اضطجعت مريم إلى جانبه وأخذت يديه إليها لتسحبها فوق جسدها بأكمله، شعرها، وجهها، ورقبتها وكتفيها ونهديها اللذين ضغطهما برفق، بطنها، سرتها شعر عانتها حيث تريث مثنياً وراخياً أصابعه، واستمرت هي تردد هامسة، تعال واكتشف جسدي. نظر يسوع إلى يديه متشابكتين بيديها راغباً في أن يكونا حرتين لتتحسسا كل جزء في جسدها، لكنها استمرت تمسك بيديه وتقودهما، وهي تردد مرة بعد أخرى، تعال لتكتشف جسدي، لتكتشف جسدي. كان يسوع يتنفس سريعاً، لكنه للحظة فكر أنه سيختنق عندما وضعت يدها

اليسرى على جبهته واليمنى على كاحليه وبدأت تداعبهما ببطء حتى التقتا يداها في الوسط توقفا للحظة قبل أن يكررا الحركة ذاتها فوق جسده كله ثانية. كان باستور قد قال له، لم تتعلم شيئاً، فأغرب عني، ومن يدري فلربما قصد أنه لم يتعلم أن يدافع عن الحياة. وها هي مريم المجدلية ترشده، إكتشف جسدي، وقالتها ثانية ولكن بطريقة أخرى بتغيير كلمة، إكتشف جسدك، وها هو متوتر ومشدود ومستثار ومريم المجدلية عارية وساحرة، تقول له وهي فوقه، إسترخ، لا شيء يدعو للقلق، لا تتحرك، دع ذلك لي، ثم رفع جزءاً من جسده، هذا العضو الذي هنا، غاب في داخل جسدها، ثمة حلقة من النار تحيطه، تأتي وتذهب، سرى ارتعاش في داخله، مثل سمكة تتلوى تنزلق حرة صارخة، مستحيل، لا بالتأكيد، بعد كل ذاك، فالسمكة لا تصرخ، لقد كان هو، أجل، كان ذلك يسوع نفسه هو الذي كان يصرخ، في اللحظة ذاتها التي استرخت مريم على جسده بأنين وامتصت صرخته بشفتيها، بقبلة متشوقة وقلقة قد بعثت رجفة لا متناهية ثانية في جسده.

لم يأت أحد لطرق باب مريم المجدلية لبقية ذلك اليوم. فخدمت مريم المجدلية وعلّمت ذلك الشاب الناصري الذي، لم يعرف فيما إذا كانت طيبة أم شريرة، جاء ليطلب منها أن تريحه من آلامه وتعالج الجروح التي أصابته، دون أن تدري هي، أثر تلك المواجهة بين الرب ويسوع في الصحراء. كان الرب قد أخبر يسوع، ستكون لي في دمك منذ الآن، أما الشيطان، إن كان ذلك هو، فقد رفضه بازدراء، لم تتعلم شيئاً، فأغرب عني، ومريم المجدلية التي يجري العرق من أسفل نهديها، وجدائلها المتراخية يتعالى منها الدخان، شفتاها منتفختان، وعيناها مثل بحيرتين داكنتين، قالت له، لن تمكث معي بسبب ما علمتك إياه، ولكن إمضِ الليلة هنا. وأجابها يسوع وهو يعلوها، ما تعلميني إياه ليس سجناً بل هو الحرية. ناما معاً ولكن ليس لليلة واحدة. عندما استيقظا، كان

الصباح قد أهل وبعد أن بحث جسديهما عـن بعضهمـا وعثر كل منهمـا على الآخر مرةً أخرى، تفحصت مريم قدمه المتقرحة، أنهـا تبـدو بحـال أفضل، ولكن عليك الانتظـار قبل السفر إلـى بيتـك، فالمشـي قـد يجعلهـا أسوأ،تناهيك عن كل ذلك الغبار. لا أستطيع المكوث أكثر وكما قلت أنـت نفسك، فقدمـي بحـال أفضل الآن، يمكنـك المكوث بـالطبع، إنهـا مسـألة رغبة، وبالنسبة للبوابة في الباحة، فمن الممكن أن تبقى لأي وقت تشـاء، ماذا عن حياتك هنا، الآن، أنت حياتي، ولكن لماذا، دعني أجبك بكلمـات من الملك سليمان، وضع حبيبي يده على ثقب الباب فارتعش قلبي، ولكن كيف يمكن أن أكون حبيبك إن لم تعرفينني وإن كنت شخصاً جاء ليطلب مساعدتك وقد أشفقت عليه، وأشفقت علـى سوء طـالعي وجهلـي، ولهـذا أحبك، لأنني سـاعدتك وعلمتك، ولكنـك لـن تتمكـن مـن أن تحبنـي أبـداً، لأنك لم تساعدني ولم تعلمني، ولكنك لم تكوني تتـألمين، ستتعرف علـى جرحي لو نظرت بدقة، أي جرح ذاك، هـذا البـاب المفتـوح الـذي يدخـل منه الآخرون إلا حبيبي، قلت أنني حبيبك، ولهذا أغلق الباب خلفك ما إن دخلت، لا شيء عندي لأعلمك إيـاه، سـوى الأشـياء التـي تعلمتهـا منـك، فعلمني، أيضاً، كي أعرف مـا هـو الشـيء الـذي أتعلمـه منـك، لا يمكننـا العيش معاً، تقصد أنك لا تستطيع العيش مع عـاهرة، حيـن تمكـث معـي لن أعود إلى البقاء، لقد تبت عن الدعارة في اللحظة التي دخلت فيها أنت إلى هذا المنزل والأمر يعود لك فيما إذا أستمرّ أنا في العيش بغيـاً، أنـت تطلبين الكثير، لا شيء تعجز عنه ليوم أو يومين، أو حتى تشفى قدمـك، كي ينفتح جرحي مرة أخرى. لقد أمضيت ثمانية عشر عاماً حتى أصـل إلى هنا، بضعةَ أيام أخر لن تغير في الأمر الكثير، مازلت شاباً، وكذلـك أنتِ، أنا أكبر منـك، وأصغر من أمك، هل تعرفين أمـي، كـلا، فلمـاذا ذكرتها إذاً، لأنني أصغر من أن يكون لي ولد في عمرك، كم أنا أحمـق، كلا، لست أحمقاً، بل أنت بريء، لكنني لم أعـد بريئـاً، أ لأنـك كنـت مـع امرأة، كلا، لقد فقدت براءتي قبل أن أذهـب للفـراش معـك، حدثنـي عن

نفسك، فيما بعد فكل ما أريده في هذه اللحظة هو أن أشعر بيدك اليسرى على رأسي ويمينك تحتضنني.

أمضى يسوع أسبوعاً في منزل مريم المجدلية، الوقت الكافي لنمو الجلد الجديد تحت قشور الجروح. بقي باب الباحة مغلقاً بإحكام. العديد من الرجال، ساقتهم الشهوة أو الكبرياء المجروح، طرقوا البوابة بصبر نافد، متناسين عمداً العلامة التي تشير إليهم بأن يبتعدوا. كانوا تواقين لمعرفة ذلك الشخص الذي أمضى هنا وقتاً طويلاً، أما أحد المازحين فقد نادى من فوق الجدار، إما أن يكون غير كفء أو ليست لديه فكرة عما يجب فعله، فأفتحي الباب يا مريم وسأريه كيف يقوم بها، وذهبت مريم المجدلية إلى الباحة لتحذره، كائناً من تكون، ومهما تفاخرت فلقد انتهت أيام شجاعتك الجنسية فابتعد عن هنا، أيتها العاهرة الملعونة، هكذا أنت تخطئ لأنك لن تجد امرأة أكثر بركة مني أينما حللت. إما بسبب هذه الحادثة أو هكذا حكم القدر لم يأت أحد بعد ذلك لطرق البوابة، وأكثر الاحتمال أن أي رجل كان يعيش في مجدلة أو يمر بها وقد سمع بلعنة مريم يود أن يتجنب المخاطرة بالأصابة بالعنة، إذ كان من المتعارف عليه عموماً أن البغايا، وخصوصاً أولئك ممن لديهن المعرفة والتجربة، لسن فقط قادرات على إثارة الغرائز الجنسية لدى الرجل، بل أيضاً قادرات على تفريغ كبريائه وقتل كل رغبة لديه. وهكذا بقيت مريم مع يسوع بسلام لثمانية أيام خلالها كانت الدروس التي تعطى والتي تؤخذ قد أصبحت خطاباً واحداً يتضمن الحركات والاكتشافات والاندهاشات والتمتمات والاختراعات، كما هي قطع الموزائيك التي لا حتمية لها لو أخذت منفردة لكنها تغدو شيئاً ذا قيمة كاملة عندما تجتمع وتوضع في مكانها الملائم. في حالات كثيرة، حاولت مريم المجدلية أن تستدرج حبيبها كي يتحدث عن نفسه، لكن يسوع كان يغير الموضوع ويقطع الكلام بعبارات مثل، أنا أجيء إلى جنتي، يا أختي، يا زوجتي، لقد

جمعت صمغي الراتينجي مع توابلي، لقد أكلت قرصي العسلي مع عسلي، لقد شربت نبيذي مع حليبي، عبارات كان يتلوها بانفعال قبل أن ينغمس في الفعل الشعري ذاته، حقاً، حقاً أقول لك يا عزيزي يسوع، لا ينفع هذا الأسلوب للمحادثة. حتى قرر يسوع في أحد الأيام أن يخبر مريم عن أبيه الذي كان نجاراً وأمه التي تغزل الصوف وعن إخوته الستة وأختيه وكيف، كما جرت العادة، تعلم مهنة أبيه قبل أن يرحل ليكون راعياً لأربع سنين، وهاهو يعود إلى البيت. وذكر أيضاً الأيام القليلة التي أمضاها عند البحر مع بعض الصيادين دون أن يتقن مهاراتهم. ثم في إحدى الأمسيات وبينما كانا يأكلان في الباحة وثق يسوع بمريم المجدلية، وكانا بين الحين والآخر ينظران للأعلى لمشاهدة السنونو وهي في طيرانها السريع تمر من فوقهما بصرخاتها الحادة. ومن خلال صمتهما، بدا عليهما أن ليس ثمة ما يقولانه لبعضهما البعض، لقد اعترف الرجل بكل ما لديه للمرأة، ولكنها سألته وكأنها تشعر بالخيبة، أهذا كل شيء، فهز لها رأسه مؤكداً، نعم هذا كل شيء. وتعمق الصمت، وراحت طيور السنونو تدور في مكان آخر، فقال يسوع، أعدم والدي قبل أربع سنوات في سبفوريس، كان اسمه يوسف، لا أفهمك، من المؤكد أن عليك رعاية عائلتك من بعده، لقد تشاجرنا، ولا تسأليني أكثر من ذلك، لا شيء فيما يخص عائلتك، ولكن ماذا عن الوقت الذي أمضيته في رعاية الأغنام، أخبرني عن ذلك، لا شيء يستحق الذكر، الشيء ذاته في كل يوم، ماعز وأغنام وصغار وحملان وحليب، الكثير من الحليب، حليب في كل مكان، هل تمتعت بعملك في الرعي، أجل، فلماذا تركته إذاً، سئمت وصرت أفتقد عائلتي، شعرت بالحنين إلى الوطن، الحنين إلى الوطن، وما هو، إنه حزن ينتابك حين تكونين بعيدة، أنت تكذب، لماذا تعتقدين أنني أكذب، لأنني أرى الخوف والندم في عينيك. لم يجبها يسوع. نهض، تمشى في الباحة ثم توقف أمام مريم، في يوم ما إن تحتم وتقابلنا ثانية لربما سأخبرك بالبقية ما دمت لا

تخبرين أحداً، ولماذا لا تخبرني الآن، لا تخافي أبداً، سأخبرك حين نتقابل ثانية، أنت تأمل أنني أكون حينذاك قد هجرت الدعارة، ما زلت لا تثق بي وتظنني أنني قد أبيع أسرارك بالمال أو أفشيها لأي رجل يأتي إليّ، لمجرد التسلية، أو بدلاً عن ليلة حب أكثر بهاءً من تلك الليالي التي عشناها معاً، كلا، ليس ذلك هو سبب صمتي، حسناً، دعني أؤكد لك أن مريم المجدلية سواء أكانت عاهرة أم لا، ستكون إلى جانبك متى ما احتجت إليها، من أنا حتى أستحق كل هذا، ألست تعلم من أنت. في تلك الليلة عاد الكابوس القديم ذاته، وهذه المرة غدا أكثر تحملاً، شعور غامض بالألم يقض مضجعه بين الحين والآخر. ولكن في هذه الليلة، ربما لأنها آخر ليلة نام فيها يسوع في ذلك الفراش، ولربما كان قد ذكر سبفوريس والرجال الذين صلبوا هناك، كان الكابوس بهيئة كوبرا هائلة تستيقظ من سباتها، وراحت تمتد ببطء وتنثني وتلتف وترفع رأسها المخفي، فاستيقظ يسوع مذعوراً ويصرخ من الرعب، يغطي جسده عرق بارد. فسألته مريم مستفزة، ماذا جرى، ماذا بك، كنت أحلم، كنت أحلم فقط، قال مراوغاً، حدثني، قالت له ذلك بكثير من الحب والرقة حتى أن يسوع لم يستطع أن يحبس دموعه وبعد الكثير من النحيب كشف عما كان يأمل في كبحه، دائماً ما أحلم أن أبي يجيء ليقتلني، لكن أباك ميت وأنت لا تزال حياً، في حلمي لا أزال أنا طفلاً في بيت لحم في اليهودية ويأتي أبي ليقتلني، لماذا في بيت لحم، لأنني ولدت هناك، ربما تعتقد أن أباك لم يكن يريدك أن تولد ولهذا صرت تحلم بهذا الحلم، أنت لا تعلمين ما الذي حدث، كلا، لا أعلم، لقد مات الأطفال في بيت لحم بسبب أبي، هل قتلهم، لقد قتلهم لأنه لم يحاول إنقاذهم، رغم أنها لم تكن يده التي سحبت الخنجر، وأنت أحد أولئك الأطفال الذين في الحلم، لقد مت ألف ميتة، أيها الرجل المسكين، يا يسوع المسكين، لهذا السبب غادرت البيت، بدأت أفهم، هل تظنين أنك فهمت، ما المزيد الذي لديك لأعرفه، ما لا يمكنني الكشف عنه ظل محجوباً حتى الآن، تقصد ما

ستخبرني به لو حدث والتقينا ثانية، هذا صحيح. ونام يسوع واهو يريح يده على كتف مريم وخده على صدرها. بقيت مريم متيقظة خلال الليل. قلبها كان يتألم إذ سرعان ما يطل الصباح ويأتي موعد الفراق، لكن روحها كانت مطمئنة. لأنها كانت تعرف أن هذا الرجل الذي بين ذراعيها هو الرجل الذي تنتظره طوال حياتها، الرجل الذي ينتمي إليها والذي تنتمي إليه، جسده طاهر وجسدها مدنس وملوث، لكن عالمهما قد بدأ للتو، فقد عاشا معاً ثمانية أيام، ولكن في هذه الليلة فقط توثقت علاقتهما بشدة وثمانية أيام لا تساوي شيئاً إزاء المستقبل بأكمله، لأن يسوع هذا الذي دخل حياتي يافعاً جداً، وها أنا، مريم المجدلية أنام مع رجل، وقد حدث لي ذلك كثيراً في الماضي، لكنني هذه المرة عاشقة بعمق وعمري سرمدي.

أمضيا الصباح في التحضير للرحلة. ربما اعتقد المرء أن الشاب يسوع يزمع السفر إلى نهاية العالم بينما في الواقع لم تكن أمامه غير مسافة خمسة عشر ميلاً، وهي مسافة يمكن لأي رجل صحيح الجسم أن يمشيها بين الظهر والغروب، ناهيك عن الطريق الوعر بين مجدلة والناصرة بمنحدراته الشديدة وأرضه الصخرية. حذرته مريم، انتبه لنفسك، قد تلتقي بقوات متمردة لا تزال تحارب الرومانيين، فسألها يسوع، بعد كل ذلك الوقت، لم تعش أنت هنا، هذه هي الجليل، ولكنني مواطن من الجليل، من غير المحتمل أن يؤذونني، لا يمكن أن تكون جليلياً ما دمت قد ولدت في بيت لحم في اليهودية، حملني والداي إلى الناصرة، وللأمانة، فقد ولدت في كهف في رحم الأرض ولم أولد في بيت لحم، والآن أشعر كأنني أولد من جديد هنا في مجدلة. تبنيت من قبل بغي، لستِ بغياً في عيني، قال لها يسوع ذلك متحمساً. وا حسرتاه، هذه هي الحياة التي عشتها. تبع هذه الكلمات صمت طويل، مريم تنتظر من يسوع أن يتكلم، ويسوع يحاول مغالبة صمته. وأخيراً سألها، هل

تزمعين رفع ذلك الشيء الذي علقته علــى البوابـة لتمنعـي أي رجـل مـن الدخول. نظرت إليه مريم المجدلية بتعبير جاد، ثـم ابتسمت متألمـة، مـن غير الممكن لـي أن استقبل رجلين فـي منزلي فـي وقت واحد، مــاذا تقصدين، ببساطة أنت تغادر ولكنك لا تزال هنـا. سكتت ثـم عـادت لتضيف، ستبقى العلامة التي وضعتها هناك على البوابــة، سيظن النـاس أنك مع رجل ما، وسيكونون محقين لأنني سأكون معك، هل هـذا يعنـي أن لا رجل سيمر من تلك البوابة ثانية، هذا صحيح، لأن هذه المرأة التي يسمونها مريم المجدلية كفت عن الدعـارة فـي اللحظـة التـي دخلت فيها أنت هذا المنزل، ولكن كيف ستكسبين عيشك. ليس سوى الليلك فـي الحقول يجاهد دونما عمل أو دوران. أخذها يسـوع بين يديـه وقـال لهـا، الناصرة ليست بعيدة عن مجدلـة، وسأعود فـي الأيام القريبـة. إن كـانِ عليك أن تأتي للبحث عني، فستجدني هنـا، أرغب فـي أن أجدك دومـاً، لسوف تجدني حتى بعد الموت، تقصديـن أنـني سأموت قبلك، مـا دمت أكبر منك سناً، فمن المؤكـد تقريبـاً أنـني سأموت أولاً، ولكنِ إن حدث ومت قبلي، فسأعيش حتى تجدني. وإن حدث ومتِ أنتِ أولاً، فمباركـة تلك المرأة التي أنجبتك إلى العالم خلال حياتي. خلال هـذا الوقت قدمت مريم ليسوع بعض الطعام، ولم يضطر لأن يقول لهـا، اجلسـي معـي، إذ منذ يومهما الأول معاً خلف الأبواب المقفلة، فإن هذا الرجل وهذه المـرأة تقاسما وضاعفا بين نفسيهما المشاعر والحركات، الفضاءات والأحاسيس دون أن يهتما بالأعراف والسنن والقوانيـن. ومـن المؤكـد أنهمـا مـا كـان يعرفان ما سيقولان لو حدث وسألناهما كيف سيتصرفان دون حماية تلك الجدران حيث مارسـا فيهـا حريتهمـا لبعض الأيام ليصيغـا العـالم فـي صورة وشكل بسيطين للرجل والمرأة. هو عالم أقرب ما يكون لعالمهـا، دعنـا نقل أنـه مـاضٍ، ولكن مـا دامـا كلاهمـا متيقنيـن مـن اللقـاء ثانيـة، فنحتاج فقط إلى الصبر لننتظر الزمان والمكـان، عندمـا يتواجهـان، جنبـاً إلى جنـب فـي العـالم الخـارجي، حيث يتسـاءل النـاس بتلهف، مـا الذي

يجري هناك، وهم لا يشيرون إلى الغرابة المألوفة في غرفـة النـوم. بعد أن أكلا، ساعدت مريم يسوع في ارتداء خفيه وقالت لـه، لابد لك من الذهاب لو أردت الوصول الى الناصرة قبل هبوط الليل، فقال يسوع، وداعاً، وحمل جرابه وعصاه وخرج إلى الباحة. احتشدت السماء بالغيوم وكأنها صفت بصوف غير نظيف، ولم يجد الإلـه من السهولة أن يبقى يراقب حمله من الأعلى. تعانق يسوع ومريم لفترة طويلة قبل أن يتبادلا قبلة الوداع التي لم تدم طويلاً، ولا عجب، فهكذا جرت العادة في ذلك الوقت.

كانت الشمس قد غربت تواً عندما وصل يسوع عائداً إلى الناصرة، بعد أربع سنوات طويلة خذ منها أو زدها أسبوعاً، منذ أن فر من هناك وهو ما زال صبياً، ساقه اليأس نحو الخروج إلى العالم بحثاً عن شخص ما قد يساعده كي يفهم الحقيقة الأولى التي لا تحتمل عن وجوده. أربع سنوات، مهما كانت طويلة، قد لا تكون كافية لإطفاء حزن المرء، ولكنها في العادة تساعد على جلب بعض الراحة. فقد قام بطرح الأسئلة في الهيكل، سار في ممرات جبلية مع قطيع الشيطان، قابل الإله ونام مع مريم المجدلية. عند وصوله إلى الناصرة لم تعد تظهر عليه المعاناة عدا تلك الدموع التي في عينيه والتي ذكرناها من قبل، ولكنها في التأمل ربما تكون أيضاً النتيجة المتأخرة للدخان المتصاعد من الأضاحي، أو نشوة مفاجئة في روحه وهو ينظر للأسفل إلى ذلك الأفق من تلك المراعي العالية، أو الخوف من أحد ما مستوحد في الصحراء وقد سمع صوتاً يقول، أنا الإله، أو أقرب الاحتمالات، ولأنه جاء تواً فإن ثمة شعوراً بالشوق والرغبة يشده إلى المرأة التي لم يمض على فراقه لها سوى بضع ساعات، لقد كفيت نفسي من الزبيب وقد قويت نفسي بالتفاح لأنني أغمي عليّ بالحب، ربما كان يسوع سيقول لأمه وإخوته هذه الكلمات الجميلة، ولكنه توقف عند العتبة ليسأل نفسه، من هي أمي ومن هم

إخوتي، وهذا لا يعني أنه لا يعرفهم، وإنما المسألة هل يعرفون هم من هو، إنه هو الذي طرح الأسئلة في الهيكل، هو الذي حدق في الأفق، هو الذي قابله الإله، هو الذي جرب الحب الجسدي واكتشف رجولته. أمام هذا الباب ذاته وقف شحاذ مرة وادعى أنه ملاك، وهو الذي بإمكانه بسهولة أن يقتحم المنزل بثورة هائجة من جناحيه المنفوشين، لو أنه ملاك حقيقي، ورغم ذلك فقد فضل أن يطرق الباب ويتسول مثل أي واحد من الفقراء. الباب موصد بالمزلاج فقط. ولم يكن يسوع مضطراً لأن ينادي كما فعل في مجدلة، سوف يدخل بهدوء في بيته الخاص، قروح قدمه شفيت تماماً، فرغم كل شيء، تشفى القروح النازفة والمتقيحة بسرعة أكبر. لم يكن مضطراً لأن يطرق الباب ولكنه طرقه. سمع أصواتاً من خلف الجدار ميز منها صوت أمه آتياً من بعيد ولكنه لم يستطع أن يستجمع شجاعته ويدفع الباب ببساطة ويعلن، ها أنا جئت، مثل شخص يعرف أن حضوره سوف يرحب به ويرغب في أن يقدم للجميع مفاجأة رائعة. فتح الباب من قبل بنت صغيرة في الثامنة أو التاسعة من العمر، لم تعرف من هو الزائر، ويساعدها صوت الدم والقرابة بأن يقول هذا هو أخوك يسوع، ألا تتذكرينه. كان ذلك يسوع ذاته الذي قال، على الرغم من السنوات الأربع التي مرت منذ رأيا بعضهما البعض وعلى الرغم من الضياء المتلاشي، لابد أنك ليديا، وأجابته، نعم، وهي مندهشة من أن هذا الزائر الغريب تماماً يعرف اسمها، لكن السحر بطل عندما قال، أنا أخوك يسوع، هل يمكنني الدخول. في الباحة تحت الجناح المنحدر الملاصق للمنزل، يمكنه أن يرى شواخص مظللة افترض أنها لأخوته، هم الآن ينظرون باتجاه الباب واقترب اثنان منهما، الولدان الكبيران، يعقوب ويوسف. لم يسمعا كلمات يسوع لكن ما وفر عليهما عناء التعرف على الزائر أن ليديا قد صاحت قبل ذلك وهي فرحة، إنه يسوع، إنه أخونا، عند ذاك تحركت الظلال وظهرت مريم عند المدخل برفقة ليزا، البنت الأخرى، التي تكاد

تكون بقامة أمها وكلاهما صرختا بصوت واحد، ابني، أخي، وفي اللحظة التالية كانوا جميعاً يعانقونه فرحين بلم الشمل في وسط الباحة، ذلك دائماً هو الحدث السعيد، خصوصاً عندما يعود الابن الكبير إلى أحبابه. حيا يسوع أمه، ثم كل واحد من إخوته وبدورهم رحبوا به بحرارة، أخي يسوع، كم هو جميل أن نراك ثانية، أخي يسوع، ظننا أنك قد نسيتنا، ولكن لا أحد امتلك الشجاعة ليقول، أخي يسوع، لا يبدو عليك أنك اغتنيت. ذهبوا إلى الداخل وجلسوا لتناول الطعام الذي كانت تحضره الأم عندما طرق الباب. يكاد المرء أن يقول ليسوع الآتي من حيث أتى والذي غمس جسده الخاطئ ورافق الناس ذوي السمعة السيئة، لربما يقول المرء بالصراحة الفظة للناس السذج الذي يرون فجأة أن حصتهم من الطعام قد تضاءلت، عندما يحين موعد الطعام يجلب الشيطان فماً آخر ليتغذى. لم يجرؤ أحد من الحاضرين أن يجسد الفكرة في كلمات، وكان ذلك سيكون شيئاً أخرق لو أنهم فعلوا، فبعد ذاك، فم إضافي آخر لا يكاد يغير كثيراً عندما تكون هناك تسعة أفواه بحاجة للطعام. بالإضافة إلى ذلك، فإن القادم الجديد له الحق بأن يكون هناك أكثر من أي واحد منهم. خلال العشاء، كان الصغار تواقين لأن يتعرفوا على مغامراته، بينما الثلاثة الكبار ومريم لم يلاحظوا تغيراً في مهنته منذ لقائهم في أورشليم، خصوصاً بعد أن مضى زمن طويل على تلاشي رائحة السمك وقد سلبت الريح العطر الحسي لمريم المجدلية، ناهيك عن ذكر كل ذاك العرق والغبار الذي أصابه طوال الطريق، ما لم يصادف، بالطبع، وأن يشم أحد رداء يسوع عن قرب، ولكن إن لم تتعامل معه عائلته بتلك الحرية فما الذي يدعونا لذلك. أخبرهم يسوع كيف رعى واحداً من أكبر القطعان التي رآها، وكيف ركب البحر منذ وقت قريب لمساعدة الصيادين ليأتوا بأكبر كمية من السمك، وأنه أيضاً قد جرب أكبر مغامرة مدهشة يمكن لرجل أن يتخيلها أو يتمناها، ولكنه سيخبرهم عنها في وقت لاحق والبعض منهم فقط. وعندما قال ذلك رجوه

الصغار، أخبرنا، أرجوك أخبرنا، وسأله يهوذا، الأخ الأوسط، بكل براءة، هل كسبت الكثير من المال عندما كنت بعيداً، عند ذاك أجابه يسوع، كلا، لا ثلاثة دراهم، ولا درهمين ولا حتى درهماً واحداً، لا شيء، وعندما رأى نظرة عدم التصديق على وجوههم، أفرغ جرابه دونما عناء. وكان ذلك حقاً، فلم يكن لديه إلا القليل ليريهم جهده، فكل ما كان يملكه سكين معدنية كانت قد صدئت وانثنت وقطعة خيط وكسر من الخبز تصلبت كالصخر وزوجان من الخف تهرئتا وبقايا ثوب عتيق. قالت مريم، كان هذا يعود لأبيك من قبل، ووضعت يدها على الثوب، ثم على زوج الخف الكبيرين، قالت له، وهذان كذلك كانا له. أخفض الآخرون رؤوسهم عند ذكر والدهم المتوفى، وكان يسوع يعيد كل تلك الأشياء إلى الجراب عندما لاحظ فجأة أن هنالك صرّة كبيرة وثقيلة في حاشية الثوب. اندفع الدم في وجهه، يمكن أن تكون نقوداً، نقوداً أنكر امتلاكها ولابد أنها وضعت هناك من قبل مريم المجدلية، فهو لذلك لم يكسبها من عرق الجبين كما تتطلب الكرامة منه، بل جاءت من الأنين الكاذب والتأوهات والعرق المريب. حدقت أمه وإخوته في تلك الصرة المحيرة، ثم، وكأنهم يتصرفون وفق خطة، حدقوا فيه. كان غير متيقن فيما إذا كان عليه أن يحاول ويخفي دليل انخداعه، أو يصرح بالأمر دون أن يكون قادراً على تقديم توضيح مقنع، لذلك اختار الوسيلة الأشد صعوبة. فتح الصرة وكشف عن الكنز، عشرون درهماً لم يُشاهد مثلها أبداً في هذا المنزل وقال، لا أعلم بوجود هذه النقود هنا. مر توبيخهم الصامت له عبر الهواء مثل ريح صحراوية حارقة، يا للعار، هو الابن الكبير وقبضوا عليه يكذب مثل هذه الكذبة. بحث يسوع في قلبه ولم يستطع أن يجعل نفسه منزعجاً من تصرف مريم المجدلية. لم يشعر إلا بالامتنان العميق لكرمها، عن هذه الحركة المؤثرة من جانبها بأن تعطيه مالاً كانت تعرف أنه كان سيخجل من قبوله مباشرة، إذ ثمة شيء واحد قد قيل، يدك اليسرى تحت رأسي ويدك اليمنى تحضنني، والشيء الآخر

لا تنكر أن يدين يسرى ويمنى قد حضنتك، دون أن ترغب في معرفة إن كنت قد انتقلت إلى مكان تريح فيه رأسك. الآن جاء دور يسوع ليحدق في وجوه عائلته، متحديا إياهم بأن يشكوا في كلمته، ليست لدي فكرة أن هذا المال كان هنا، هذا صحيح دون شك، ولكنها ليست الحقيقة كليا، وتحداهم بصمت أن يسألوا السؤال الذي لا جواب له، إن كنت لا تعلم أنك تملك هذا المال، فبماذا تفسر وجوده هنا الآن. وهو لا يمكنه أن يقول لهم، إن العاهرة التي أمضى معها الأيام الثمانية الأخيرة وضعت الدراهم هنا، مال استلمته من الرجال الذين رقدت معهم قبل أن آتي إليها. تناثر العشرون درهماً على الثوب المتهرئ والمتسخ بالطين والذي يعود إلى ذلك الرجل المصلوب قبل أربع سنوات وقد ألقيت رفاته على نحو مخز في مقبرة جماعية، هذه الدراهم تشع مثل ذلك التراب المضيء الذي أشاع الهلع في هذا البيت ذاته في إحدى الليالي، ولكن لا شيوخ سيأتون من الكنيس هذه المرة ليقولوا، لابد أن تدفن الدراهم، وكذلك ليس ثمة من أحد يسأل، من أين أنت، على أمل أن الجواب لن يجبرنا على أن نتخلى عنها عكس إرادتنا. جمع يسوع المال في راحتي يديه وعاد للقول، لم أعلم بوجود هذه الدراهم، وكأنه كان يمنح عائلته آخر فرصة، ثم وهو يحدق باتجاه أمه قال، إنها ليست نقود الشيطان. أدهش إخوته من الرعب، لكن مريم أجابت دون أن تغضب، ولا هي نقود من الرب. قذف يسوع وهو يلعب بالدراهم في الهواء، مرة، مرتين، وقال وكأنه يعلن على نحو طبيعي أنه سيعود إلى مصطبته النجارية في اليوم التالي، أمي، سوف نناقش أمر الرب في الصباح، ثم التفت إلى أخويه يعقوب ويوسف وأضاف، ولدي أيضا شيئ لأقوله لكما، وتلك كانت حركة مراعاة من قبل يسوع، فكلا الأخوين قد بلغا وفقاً لدينهم ولذلك فهما مؤهلان لأن ينالا ثقته. لكن يعقوب شعر، وهو يعطي الأهمية لهذا الأمر الخاص، بأن ثمة ما يجب أن يقال مباشرة عن أسباب هذه المحادثة الموعودة، فلا أخ، مهما كان كبيراً، يتوقع الظهور دون سابق

إنذار ويقول، لابد لنا من مناقشة بشأن الرب. لذلك بعد ابتسامة مداهنة أخبر يسوع، إن كنت، كما تقول، قد سافرت عبر تلك التلال والوديان لأربع سنوات كونك راعياً للأغنام، فمن غير الممكن أن، يتوفر لديك الوقت لحضور الكنيس وتكتسب الكثير من المعرفة ورغم ذاك ما كدت تصل إلى البيت حتى تريد أن تحدثنا عن الإله. أحس يسوع بالعدائية التي تكمن تحت تلك الكلمات الرقيقة فأجابه، آها، يعقوب، كم هو ضئيل فهمك للرب لأنك فشلت في رؤية أننا لا نحتاج للذهاب للبحث عنه لو أنه قرر أن يأتي إلينا، هل أنا محق في التفكير بأنك تشير إلى نفسك، وفر أسئلتك حتى الغد عندها سأخبرك بكل ما يتحتم على إخبارك به. كان يعقوب يتمتم مع نفسه، ومما لا شك فيه أنه كان يعلق بقسوة عن أولئك الذين يدعون معرفة كل شيء. التفتت مريم إلى يسوع وثمة تعبير ضجر على محياها فقالت، يمكنك أن تخبرنا غداً، أو بعد غد أو متى شئت، أما الآن فأخبرنا ما الذي تنوي فعله بهذا المال، ذلك لأننا في عسر رهيب، ألا تريدون معرفة من أين أتى، قلت أنك لم تعلم، هذه هي الحقيقة ولكنني أفكر بإمعان ويمكنني أن أخمن كيف وصل إلى هنا، إن لم يلوث المال يديك فلن يلوث أيدينا، أهذا هو كل ما لديكم حول هذا المال، بلا، فلنصرفه إذاً، لصيانة المنزل الذي يستحق ذلك أكثر من غيره. وكانت هناك دمدمة استحسان، وحتى يعقوب بدا راضياً لهذا القرار، وقالت مريم، لو سمحت سنعزل بعض المال لمهر أختك. لم تقولي لي بأن ليزا سوف تتزوج، أجل، في الربيع، أخبريني كم تحتاجين، يعتمد ذلك على قيمة هذه الدراهم. ابتسم يسوع وقال، أخشى أنني لا أعرف كم تساوي، أعرف فقط أن قيمتها كبيرة. وضحك، مسروراً بكلماته ونظرت إليه العائلة بأكملها مندهشة. أخفضت ليزا وحدها عينيها، إنها في الخامسة عشرة، ولا تزال بريئة ولديها كل البديهيات الغامضة لمراهقة. بين أولئك الحاضرين، هي أكثرهم اضطراباً بشأن هذا المال. لم يهتم أحد بالسؤال، لمن يعود، ومن أين

أتـى، وكيف كُسب. سلم يسوع درهماً إلـى أمـه وقـال، بإمكـانك أن تصرفيه غداً، عندها سنعرف ما هـي قيمتـه، مـن المؤكـد أن أحداً مـا سيسألني، من أين حصلت عليه، وسيظن أن أي شخص يملك مثل هذا الدرهم من المؤكد أن لديه دراهم أخرى يخفيها، قولـي لهم ببساطة أن ابنك يسوع قد عـاد من رحلاته وليس ثمة ثروة أكبر من عودة ابن سخي.

في تلك الليلـة حلم يسوع بأبيه. كـان قد قرر أن ينام تحت جناح السقيفة في الباحة ولا ينام مع الآخرين في الداخل. لـم يطق فكرة النـوم في الغرفة ذاتها كأي أحد آخر، عشرة أشخاص يحـاولون بـلا طـائل أن ينـالوا القليل من الخصوصية، فلم يعودوا مثل قطيع حملان صغيرة ولكنهم ينمون سريعاً، كلهم سيقان وأذرع متنـاثرة ومن غير الممكـن تحقق الراحة في هذه الأحوال المتشنجة. وقبل أن يخلد إلـى النوم، فكر يسوع بمريم المجدلية وكل شيء فعلاه معاً، وعلـى الرغم من أن تلك الأفكار قد إثارته إلى درجـة أنـه نهض من فراشه مرتين ليتمشى فـي الباحة لتبريد دمه، وحين غلبه النعاس في الأخير نام بسلام مثل أي طفل صغير وكأن جسده كان يطفو ببطء منحدراً مع تيار جدول بينما هو يشاهد الغصون والغيوم تمر من فوقه والذهاب والإياب لطائر صـامت. وما إن بدأ حلم يسوع حتى تخيل أنه شعر برجـة خفيفة، وكأن جسده يحتك بجسد آخر. اعتقد أنها مريم المجدلية وابتسم، وظل يبتسم وهو يلتفت نحوها، لكن الجسد الذي ينساق، محمولاً من قبل التيار ذاته وتحت السماء ذاتها والأغصـان ورفيف الطـائر الصـامت ذاتـه، كـان لأبيـه. صرخة الرعب تلك المألوفة لديه بدأت تتشكل في حنجرته لكنها توقفت هناك، لم يكن هذا هو حلمه المعتاد، لم يعد رضيعاً في ساحة عامة فـي بيت لحم ينتظر الموت مع الأطفال الآخرين، لـم يكـن ثمـة صـوت لخطوات، لا صهيل للخيول أو قرقعة واحتكاك الأسلحة، لا شيء سوى

الهمهمة الرقيقة للماء، كوّن الجسدان طوفاً، لأن الأب والابن يتحدران في النهر ذاته. في تلك اللحظة، تلاشى الخوف من يسوع. وفجأة غلبته مشاعر الجذل والنشوى، فنادى في حلمه، أبي، أبي، ظل يردد مستيقظاً، ولكن الآن امتلأت عيونه بالدموع وأدرك أنه وحيد. حاول أن يستعيد حلمه، أن يكرره بأكمله ثانية، من أجل أن يشعر بالجذل المفاجئ مرة أخرى، وليكتشف أن والده ينجرف إلى جانبه كي ينساقا معاً على تلك المياه حتى نهاية الزمان. لم يفلح في تلك الليلة أن يكرر الحلم ولم يأته الحلم من بعد ذاك أبداً، منذ الآن سيجرب الابتهاج بدل الخوف، الرقة بدل العزلة، الحياة الموعودة بدل الموت المؤجل. الآن دع الحكماء بالكتب المقدسة يشرحون، إن استطاعوا، معنى حلم يسوع، دلالة النهر والتيار، والأغصان المتدلية، والغيوم المنسابة، والطائر الصامت. كلها جعلت من الممكن لأب وابن أن يتحدا على الرغم من أن خطيئة الواحد لا يمكن أن تغتفر أو أن أسى الآخر يمكن أن يكون صريحاً.

في اليوم التالي عرض يسوع أن يساعد يعقوب في عمل الخشب ولكن سرعان ما اتضح أن النوايا الطيبة لا تكون بديلاً للمهارات ولم يكتسبها أبداً حتى عند وفاة أبيه. أصبح يعقوب نجاراً معتمداً يفي بحاجات زبائنه، وحتى يوسف الصغير، الذي لم يكن قد بلغ الرابعة عشرة بعد، قد تعلم ما يكفي بشأن المهنة ليتمكن من تعليم أخيه الكبير ما دام قد سمح لمثل قلة الاحترام هذه للأسبقية ضمن حدود التسلسل الهرمي للعائلة. ضحك يعقوب من عمل يسوع غير المتقن وقال له، كل من جعلك راعياً قد قادك إلى التيه، تلك كلمات بسيطة ذات تورية دقيقة لا أحد يشك في أنها تحمل معنى خفياً في العمق أو معنيين مزدوجين، لكن تلك الكلمات البسيطة جعلت يسوع يقوم على حين غرة من مصطبة العمل وجعلت مريم توبخ ابنها الثاني لتقول له، لا تتحدث عن الخراب، حتى لا تستحث الشيطان ليدخل الشر إلى بيتنا. تراجع يعقوب محتجاً،

ولكنني لم أستحث أحداً يا أماه، كل ما قلته كان، فقاطعه يسوع، نحن نعرف ما قلته، أمي وأنا سمعنا ما قلته، إنها أمي التي ربطت كلمة الراعي والخراب في ذهنك، ولست أنت، وأنت لا تعرف السبب، لكنها تعرف، فقالت مريم، لقد حذرتك، فأجابها يسوع، لقد حذرتني عندما كان الشر قد فعل فعله، إن كان ذلك هو الشر، لأنني عندما أنظر إلى نفسي لا يمكنني أن أراها، عند ذلك قالت له مريم، ليس هناك أكثر عماءً من الذين لن يروا. أزعجت هذه الكلمات يسوع وقال لائماً، إهدأي يا أماه، لو أن عيون ابنك رأت الشر فقد رأته من بعدك، لكن تلك العيون ذاتها التي تؤثر في نفسك بأنها عمياء قد رأت أيضاً أشياء لم تروها أبداً ومن غير المحتمل أن تروها. كانت سلطة ابن مريم وخشونة النغمة في كلامه، ناهيك عن ذكر الكلمات الغريبة التي قالها، كافية لأن تجعلها تذعن، لكن ردها كان يحمل تحذيراً أخيراً، اعذرني، لم أقصد الإساءة إليك، ليحم الإله دائماً الضياء في عينيك وروحك. نظر يعقوب إلى أمه، ثم إلى أخيه، ولاحظ أن هنالك تصادماً، ولكنه لم يتمكن من تخيل السبب، من الواضح إنه شيء من الماضي، لأن أخاه لم يعد بعد هذه الفترة الطويلة ليعمل أي خلاف جديد. اتجه يسوع نحو المنزل ولكنه عندما وصل الباب التفت وقال لأمه، دعي الصغار يلعبون في الخارج، لابد لي من محادثتك على انفراد مع يعقوب ويوسف. خرج الآخرون وبدا المنزل الذي كان مزدحماً قبل لحظة فارغاً. ثمة أربعة أشخاص بقوا جالسين على الأرض، مريم بين يعقوب ويوسف مع يسوع جالساً قبالتهم. وتبع ذلك صمت طويل، وكأن بينهم اتفاقاً مشتركاً بأن يمنحوا الآخرين الوقت الكافي ليبتعدوا بما فيه الكفاية إلى حيث لا يمكن أن يصلهم حتى أضعف صدى للصراخ. وتحدث يسوع في الأخير وهو يلفظ كلماته بعناية، لقد رأيت الله. وكان رد الفعل الأول الواضح لأمه وأخويه هو الروع الذي ارتسم على وجوههم وتبعه نظرة عدم تصديق وبين الأول والتالي كانت ثمة لمحة ساخرة من عدم الثقة في تعابير يعقوب،

وتعابير عجب على وجه يوسف ومرارة مذعنة على وجه مريم. بقي الثلاثة صامتين، فقال يسوع للمرة الثانية، لقد رأيت الله. وكما يقول المثل الشعبي، إن مرت لحظة صمت، فهي تشير إلى مرور ملاك، وهنا إنهم ما زالوا يمرون، كان يسوع قد قال كل ما لديه، ولم يستطع أحد من عائلته التعليق على كلماته، وسرعان ما سيقومون ويذهب كل منهم لشؤونه يتساءلون إن كان هذا حلماً، صعباً ولابد لهم رغم ذاك أن يصدقوه. ولكن لو منح الصمت الوقت الكافي فإن له القوة المدهشة لجعل الناس يتكلمون. سأل يعقوب سؤالاً بعد أن أصبح غير قادر على كبح جماح نفسه، وهو السؤال الأكثر براءة، نقي وبليغ بمجانية، هل أنت متأكد. لم يجب يسوع، بل نظر إليه مثلما يكون من المحتمل أن نظر إليه الرب من خلال الغيمة، وقال للمرة الثالثة، لقد رأيت الله. فقالت له مريم التي لم يكن لديها أسئلة، لابد أنك كنت قد تخيلته، عند ذاك أجاب يسوع، يا أماه، الأشياء المتخيلة لا تتكلم وقد تكلم الرب معي. وبعد أن استعاد يعقوب رباطة جأشه قرر أن هذا لابد أن يكون نوعاً من الجنون، فأن يتحدث أخ له مع الرب، ذلك شيء مضحك، فقال مبتسماً بسخرية حسناً من يدري، ربما كان ذلك هو الرب الذي وضع المال في جرابك. إحمرّ وجه يسوع ولكنه أجاب ببرود، كل شيء يأتينا من الإله، إنه أبداً يجد ويفتح الطرق ليصل إلينا، وعلى الرغم من أن هذا المال قد لا يكون جاء منه، فقد جاء من خلاله، وهل كنت نائماً أم كنت تراقب، كنت في الصحراء أبحث عن كبش ضال عندما ناداني، هل تسمح بأن تخبرنا بما قاله، لقد قال أنه في يوم ما سوف يطلب حياتي، كل الحيوات تعود إلى الرب، ذلك ما أخبرني به، وماذا قال، أنه مقابل الحياة التي عليّ أن أمنحها له، سأنال السلطة والمجد، فتساءلت مريم، وهي غير قادرة على أن تصدق أذنيها، ستنال السلطة والمجد بعد مماتك، أجل يا أمي، أية سلطة وأي مجد يمكن أن يمنحا لشخص بعد مماته، لا أدري، هل كنت تحلم، كنت متيقظاً وأبحث عن كبشي في الصحراء، ومتى سيطلب الإله

منك حياتك، لا أدري، لكنه أخبرني أننا سنلتقي حين أكون مستعداً لذلك. نظر يعقوب إلى أخيه برعب ولم يعد يستطيع أن يمنع شكوكه، لقد أثرت الشمس على عقلك، كنت تعاني من ضربة شمس، وتدخلت مريم فجأة لتسأل، وماذا عن الكبش، ما الذي حدث له، لقد أمرني الإله أن أضحي به كي نوقع عهدنا. وأثارت هذه الكلمات يعقوب، الذي احتج، إنك تهين الإله، أقام الإله عهداً مع شعبه، ومن غير المحتمل أن يقيم عهداً مع رجل عادي مثلك، ابن لنجار وراعٍ ومن يدري ماذا. وبدت مريم كأنها تتبع بعناية خيط فكرة تخشى أن تراها تتقطع أمام عينيها، ولكنها بعد أن أجهدت نفسها عثرت على السؤال الذي كان عليها أن تسأله، أي كبش ذاك، إنه الحمل الذي كان معي عندما التقينا في أورشليم عند بوابة راما. ما حاولت أن أحفظه من الرب أخذه الرب مني في النهاية، والرب كيف بدا لك حين رأيته، مثل غيمة، فسأله يعقوب، مفتوحة أم مغلقة، مثل عمود من الدخان، أنت مجنون يا أخي، إن أكن مجنوناً فيقع اللوم على الرب، قالت مريم وهي تصرخ أكثر مما تتكلم، أنت تحت سلطة الشيطان، إنه ليس الشيطان الذي قابلته في الصحراء، بل كان ذلك هو الرب، وإن يكن ذلك صحيحاً أنني تحت سلطة الشيطان فذلك أمر قد قضاه الرب. لقد كنت في قبضة الشيطان منذ ولدت، عليك أن تعلم، أجل، أنا أعلم حسناً، لقد اخترت أن تعيش مع الشيطان لمدة أربع سنوات ولم تعش مع الرب، وبعد أن أمضيتُ أربع سنوات مع الشيطان، قابلت الرب، أنت تردد أبشع الأكاذيب، أنا الابن الذي ولدته أنتِ في هذا العالم، فإما أن تؤمني بي أو تتخلي عني، إنني أؤمن بك، ولكن لا أؤمن بما تقوله. قام يسوع، رفع عينيه إلى السماء وقال، عندما يتحقق وعد الإله ستجبرون على تصديق ما يقولونه الناس عني. ذهب ليأتي بجرابه وعصاه وارتدى خفيه. عندما وصل إلى الباب، قسم المال إلى جزعين وقال، هذا هو مهر ليزا، عندما تتزوج ورتب الدراهم جنباً لجنب على الأرض وأضاف، أما البقية فستعود من حيث أتت، ولربما ستستخدم

مهراً أيضاً. التفت نحو الباب، وأوشك على المغادرة دون كلمة وداع، عندها أشارت مريم، لقد لاحظت أنك لم تعد تحمل إناءً في جرابك، كان لي واحد لكنه انكسر، ثمة أربعة أوانٍ هناك، اختر واحداً وخذه معك. تردد يسوع، مفضلاً أن يغادر خالي اليدين ذهب نحو الموقد حيث وضعت الأواني الأربعة واحداً فوق الآخر. قالت مريم مرة أخرى، اختر واحداً. نظر يسوع واختار واحداً، قالت مريم، لقد اخترت الإناء الذي يلائمك، لماذا تقولين ذلك، إنه لون التراب الأسود، فهو لا يفسد ولا يفنى. وضع يسوع الإناء في جرابه وطرق بعصاه الأرض، قولوا لي مرة أخرى أنكم لا تؤمنون بي، فقالت أمه إننا لا نصدقك، والآن أكثر من قبل لأنك اخترت رمز الشيطان، أي رمز تتحدثين عنه، ذلك الإناء. في تلك اللحظة استعاد يسوع كلمات باستور من أعماق الذاكرة، ستحصل على إناء آخر لن ينكسر ما دمت حياً. ثمة حبل يبدو أنه قد امتد إلى نهايته ذات الأنشوطة المشدودة بعقدة. ها هو يسوع يغادر بيته للمرة الثانية، لكنه في هذه المرة لم يقل، بطريقة ما أو أخرى سأعود دائماً. حين أدار ظهره للناصرة وبدأ بهبوط أول منحدر جبلي، اقتحمت ذهنه فكرة أشد حزناً، مفترضاً أن مريم المجدلية قد لا تصدقه هي الأخرى.

هذا الرجل الذي يحمل معه وعد الرب لا مأوى يذهب إليه عدا منزل البغي. لا يمكنه العودة إلى قطيعه، كانت كلمات باستور الأخيرة له، أغرب عني، ولا يستطيع العودة إلى البيت، فقد أخبرته عائلته، إننا لا نصدقك، وراحت خطاه تتعثر، إنه يخشى الحركة، قلق من الوصول. كأنه كان عائداً إلى وسط الصحراء، من أنا، لكن الجبال والوديان ترفض أن تجيب، ولا حتى السماء التي حري بها أن تعلم بكل شيء. لو أنه يعود الآن إلى البيت ويكرر السؤال لكانت أمه ستقول له، أنت ولدي لكنني لا أصدقك، لذلك حان الوقت ليسوع أن يجلس على هذا الحجر

الذي حفظ له منذ بداية نشوء العالم، كي يجلس هناك ويذرف دموع البؤس والعزلة. من يدري، قد يظهر له الإله مرة أخرى، حتى لو يكون في شكل دخان وغيمة، كل ما عليه أن يقول له هو، تعال، أيها الرجل، لا حاجة إلى كل هذا النحيب والعويل، ماذا حصل لك، فكلنا نقع في لحظات حرجة، وثمة شيء واحد مهم كان عليّ أن أذكره من قبل، كل شيء نسبي في الحياة، وكل كرب يمكن أن يحتمل عندما يقارن بما هو أسوأ منه، فجفف دموعك وتصرف كرجل، فأنت قد تصالحت مع أبيك، ماذا تريد أكثر من ذلك، وعن هذا الاحتكاك بأمك، سأعالجه ساعة يحين الوقت، ما لا يسرني هو شأنك مع مريم المجدلية، العاهرة الرخيصة، ولكنك عندها كنت لا تزال شاباً ولربما يحق لك التمتع بالحياة حين تواتيك الفرصة، لا يسود شيء على شيء آخر، ثمة وقت للأكل ووقت للصوم، وقت للخطيئة ووقت للخوف، وقت للحياة ووقت للموت. مسح يسوع دموعه بظاهر يده ونفخ أنفه، مستخدماً ما لا يعرفه أحد، وبصراحة لم تكن ثمة حكمة من البقاء هناك طوال اليوم، الصحراء كما هي، إنها تحيطنا وتطوقنا، إنها بنوع ما تحمينا، ولكن حين يأتي وقت العطاء، فهي لا تعطي شيئاً، إنها تتفرج ببساطة، وعندما تحتجب الشمس في الأعلى نجد أنفسنا نفكر، أن السماء تعكس حزننا، فنكون بذلك حمقى لأن السماء محايدة تماماً وهي تسر بسرورنا ولا تكفهر من أثر حزننا. الناس يمرون من هنا وهم في طريقهم إلى الناصرة ولا يحب يسوع أن يجعل من نفسه أضحوكة، فرجل بالغ ذو لحية ويبكي مثل طفل يجلب الانتباه. بين الحين والآخر يمر المسافرون بعضهم ببعض على الطريق، البعض منهم يصعدون وآخرون يهبطون، محيين بعضهم البعض بإسراف، ولكن فقط بعد أن يتيقنوا من النوايا الطيبة لكل منهم، فحين يتحدث المرء عن قطاع الطرق في هذه الأنحاء، يجدهم نوعين. ثمة الأوغاد المحتالون الذين يمسكون بالمسافرين كأولئك الذين سلبوا يسوع ما كان يملكه قبل خمس سنوات مضت، عندما كان المسكين في طريقه

إلى أورشليم ليجد عزاءً لبلواه، وثمة أولئك المتمردون المحترمون الذين لم يعتادوا على السير في الطرق العامة، ولكنهم قد يظهرون أحياناً متخفين ليراقبوا حركات القوات الرومانية قبل أن يعدوا كمينهم التالي، أو يأتون علناً ليسلبوا من الأغنياء ممن يتعاونون مع الرومان فضتهم وذهبهم والأشياء الثمينة، بحيث أن حتى حراسهم الشخصيين من المتسلحين جيداً يعجزون عن حمايتهم من تلك الاعتداء. كان من الطبيعي أن يسوع ذاك ذا الثامنة عشرة من العمر سوف يشتاق للمغامرة حالما ينظر إلى تلك الجبال النبيلة بوهادها وكهوفها التي ما زالت ملجأ لأتباع يهوذا الجليلي. ثم بدأ يتساءل ما الذي سيفعله لو أن زمرة من المتمردين تظهر له من لا مكان وتدعوه للانضمام إليها، متبادلين لطف السلام، المرغوب فيه، من أجل مجد النصر والقوة، فقد كُتب أن في يوم ما سيأتي الإله بالمسيح، الرسول الذي سينقل شعبه مرة واحدة وإلى الأبد من ظلم الحاضر ويمنحهم القوة لمواجهة الأعداء في المستقبل. تهب ريح أمل مجنون وكبرياء لا يقاوم، مثل علامة من الروح، على جبين يسوع، فإن النجار هذا يرى نفسه في لحظة سحرية قبطاناً وآمراً وقائداً عظيماً، شاهراً سيفه، ينير حضوره الروع والرعب بين صفوف الفيالق الرومانية، الذين يلقون بأنفسهم على شفا الكارثة مثل خنازير مستها الشياطين، دع عنك مجلس الشعب الروماني. واحسرتاه، تذكر يسوع فجأة أنه قد وعد بالسلطة والمجد، ولكن بعد موته، ولذلك فله أيضاً أن يتمتع بالحياة وإن تحتم عليه الذهاب إلى الحرب، فليكن ذلك بشرط واحد، أنه في حالة الهدنة يُسمح له بأن يترك الصفوف ويذهب ليقضي بضعة أيام مع مريم المجدلية، ما لم يسمحوا لأنثى لأن ترافق كل جندي، لأن أي شيء أكثر من ذلك سيؤدي إلى اللاشرعية وقد قالت مريم المجدلية أنها كفت عن ذلك من قبل.دعنا نأمل ذلك، لأن يسوع يشعر أن قوته تتضاعف عند أي تفكير بالمرأة التي عالجت جرحه المؤلم، الذي أبدلته بجرح من الرغبة لا يمكن تحمله. وهاهي المشكلة كيف يواجه

البوابة المقفلة وقد وضعت عليها العلامة ما لم يكن متيقناً تماماً أنه سيجد، في الجانب الآخر الشخص الذي يعتقد أنه خلفه هناك، المرأة التي تنتظره وحده بجسدها وروحها، ذلك لأن مريم المجدلية لن تقبل جانباً دون الآخر. المساء يقترب، بيوت مجدلة يمكن أن ترى عن بعد محتشدة مثل قطيع. منزل مريم مثل خروف يتجول منفصلاً، لا يمكن رؤيته من هنا، وسط الجلاميد الهائلة الحجم التي تحيط الطريق في منعطف بعد منعطف. يتذكر يسوع بين الحين والآخر الكبش الذي اضطر إلى قتله لتوقيع العهد بالدم حسب مشيئة الإله وروحه، ولأنه الآن لا معارك لديه ولا انتصارات فقد خرج للبحث مرة أخرى عن كبشه، لا ليقتله أو ليعيده إلى القطيع، بل لأن يتسلقا معاً إلى مراعي جديدة ما زال عليهما أن يجداها إن نظرنا بإمعان في هذا العالم الشاسع الكثير الأسرار، وإن دققنا النظر أكثر في تلك الممرات الضيقة المستغلقة ما دمنا خرافاً. توقف يسوع أمام الباب وتأكد بحذر أنه كان مغلقاً من الداخل. لا تزال العلامة معلقة هناك، ومريم المجدلية لن تستقبل أحداً. لم يكن على يسوع سوى أن ينادي، ويقول، إنه أنا، كي يسمع غناءها الجذل، هذا هو صوت حبيبي، انظروا إليه جاء يثب فوق الجبال ويقفز من فوق التلال، هناك ينتظر في الجانب الآخر من الجدار، خلف هذا الباب، وهذا حقيقي، لكن يسوع سوف يطرق الباب مرة ومرتين دون أن ينطق بكلمة، ينتظر شخصاً ما ليفتح له الباب، فسأله صوت من الداخل، من هناك، ماذا تريد. وقرر يسوع ببلاهة أن يخفي صوته ويتظاهر بأنه زبون متشوق ولديه مال لينفقه، مستخدماً كلمات مثل، إفتحي الباب، يا زهرتي، لن تندمي لأنني سأدفع لك وأخدمك حقاً، وإن يكن قد بدا على الصوت أنه مزيف، فإن كلماته كانت حقيقية عندما قال، أنا يسوع الناصري. تباطأت مريم المجدلية في فتح الباب لأن الصوت لم يكن يتطابق مع الكلمات، ثم أنها تعتقد أنه من غير المحتمل أن يعود يسوع سريعاً، عندما وعدها، في أحد هذه الأيام، سآتي لزيارتك، فالناصرة، بعد

ذاك، ليست بعيدة عن مجدلة. غالباً ما يقول الناس هذه الأشياء لطمأنة السامع، وقد يعني اليوم الواحد ثلاثة شهور ولكن لا يعني أبداً الغد. تفتح مريم المجدلية الباب، وترمي نفسها بين ذراعي يسوع، غير مصدقة بحسن طالعها. وهي في فرحتها، تخيلت بحماقة أنه قد عاد لأن الجرح الذي في قدمه قد انفتح ثانية، ولما كان هذا في بالها قادته إلى الداخل، أجلسته وأتت بالمصباح، قدمك، أرني قدمك، لكن يسوع يقول لها، لقد شفيت قدمي، ألا ترين. وكانت مريم المجدلية قد أجابت، كلا لا يمكنني رؤيتها، وكان ذلك صحيحاً، لأن عيونها قد اغرورقت بالدموع. كان عليها أن تضع شفتيها على نعل قدمه الذي كان مغطى بالتراب، ثم تفك بعناية السير الجلدي الذي يشد خفه إلى ركبته، ولتمسح بأناملها الجلد الجديد التي نسج ليثبت أن المرهم قد قام بعمله بينما تقر في السر أن الحب قد لعب دوره في هذا الشفاء.

عند العشاء لم تسأله مريم المجدلية أية أسئلة، كل ما أرادته ببساطة، ولا حاجة للقول، أن هذا لم يكن سؤالاً، إن كانت رحلته جيدة، أو صادف أي شريرين في الطريق. مجرد حديث قصير لا أكثر من ذلك. بعد أن انتهينا من العشاء، صار ثمة صمت طويل، إذ لم يحن دورها في الكلام. حدق يسوع فيها وكأنه يوازن قوته إزاء قوة البحر من صخرة شاهقة، ليس لأنه يخشى الحيوانات المفترسة أو السلاسل الصخرية الخطرة تحت سطح الماء الرقيق، ولكنه كان ببساطة يضع شجاعته على المحك. كان قد تعرف على هذه المرأة قبل أسبوع، الوقت الكافي والتجربة الكافية لمعرفة ما إن كانت ستستقبله بذراعين مفتوحتين على أنه يخشى أن يكشف مضطراً، وقد حانت اللحظة، ما كان قد أزدري من قبل لحمه ودمه، والذي حري به أن يكون معه في الروح. يتردد يسوع، يحاول العثور على الكلمات ليعبر عما كان عليه أن يقوله ولكن كل الذي نطق به عبارة لكسب الوقت، ولا نقول لتضييعه، ألم تندهشي لعودتي

السريعة، بدأت في انتظارك منذ اللحظة التي غادرت فيها ولا أعد أبداً الساعات بين ذهابك وعودتك، وما كان عليّ أن أعدّها حتى لو مكثت بعيداً عني لعشر سنوات. ابتسم يسوع، وهز كتفيه، كان حرياً به أن يعلم أن ليست هنالك أية حاجة للادعاء والمراوغة مع هذه المرأة. كانا جالسين على الأرض يواجهان بعضهما البعض وفي الوسط مصباح وما تبقى من عشائهما. أخذ يسوع كسرة خبز، قطعها نصفين، وقال بعد أن أعطى قطعة لمريم، ليكن هذا هو خبز الحياة، دعينا نأكله كي نؤمن ولا نشك أبداً، مهما يمكن أن نقول أو نتعلم هنا، فقالت مريم المجدلية، ليكن. أكل يسوع خبزه، منتظراً منها أن تنهي أكل خبزها، وقال للمرة الرابعة، لقد رأيت ألله. لم يتغير الذي على وجه مريم، بل تململت فقط، يداها متصالبتان في حضنها، وتساءلت، أهذا ما كان عليك أخباري به إن تحتم علينا إلتقينا ثانية، بلا، بالإضافة إلى أشياء أخرى قد حدثت لي منذ أن غادرت المنزل قبل أربع سنوات، وأشعر أنها جميعاً مترابطة مع بعضها، على الرغم من أنني يمكنني توضيح كيف، ولماذا، فردت عليه مريم المجدلية، أنت شفتاي وأذناي، فكلما تقوله سيكون شيئاً تقوله لنفسك، أنا تلك التي في داخلك. والآن طفق يسوع يتكلم، ذلك لأنهما تقاسما كلاهما خبز الحقيقة وهذه الساعات النادرة في الحياة. تحول الليل إلى الفجر، وانطفأ لهب المصباح مرتين ثم عاد، هناك أعيد سرد تاريخ يسوع بأكمله وبضمنها حتى تفاصيل لا نكاد نعدها ذات قيمة إضافة إلى أفكار لا تحصى تتسرب منا، ليس لأن يسوع حاول أن يخفيها ولكن ببساطة لأن هذا الكاتب الإنجيلي لا يمكن أن يكون في كل مكان في الوقت ذاته. ما إن بدأ يسوع برواية ما حدث له في البيت بعد عودته إليه بصوت منهك حتى جعله الأسى يترنح، تماماً مثلما جعلته الظلمة التي تنذر بالشر يتردد قبل أن يطرق الباب. سألته مريم المجدلية محطمة صمتها للمرة الأولى، وكانت ثمة نغمة في صوتها تشير إلى أنها تعرف الجواب، لم تصدقك أمك، هذا صحيح، أجابها يسوع. ولهذا جئتَ إلى

بيتك الآخر، أجل، ليتني أستطيع أن أكذب عليك وأقول لك بأنني لا أصدقك، لماذا، كي تقوم بما قمت به الآن مرة أخرى، تهجر هذا المكان كما هجرت بيتك، وأنا، إن لم أصدقك، فلست بحاجة إلي أن أتبعك، هذا ليس جواباً على سؤالي، صحيح، إنه ليس جواباً، حسناً إذاً، لو أنني لم أصدقك لما توجب عليّ أن أقتسم معك القدر المرعب الذي ينتظرك. كيف عرفت أن قدراً مرعباً ينتظرني، إنني لا أعرف شيئاً عن الرب عدا أن أفضل ما لديه لابد أن يكون مرعباً كالأشياء التي يبغضها، من ذا الذي وضع هذه الفكرة الغريبة في ذهنك، لابد لك أن تكون امرأة لتعرف ما الذي يعنيه أن تعيش مزدرى من الرب وعليك الآن أن تكون أكثر من إنسان كي تعيش وتموت وفق اختياره، هل تحاولين إخافتي، دعني أخبرك بحلمي، في إحدى الليالي ظهر ولد صغير من لا مكان وأخبرني أن الرب مخيف، واختفى بعد هذه الكلمات، لم تكن لدي فكرة من كان ذلك الطفل، من أين أتى وإلى من ينتمي، إنه حلم ليس إلا، أنت كباقي جميع الناس الذين يتحدثون عن الأحلام بهذه الطريقة، ما الذي حدث بعد ذلك، تحولت إلى الدعارة، ولكنك كففت عن ذلك، ولكن ليس في الحلم، ليس حتى بعد أن التقيت بك، أخبريني ثانية بما قاله لك الطفل، الرب مخيف. رأى يسوع الصحراء، والكبش المقتول، الدم على الرمل، سمع عمود الدخان يتنهد بقناعة وقال، هذا ممكن، هذا ممكن، ولكنه شيء أن تسمع ما قيل في حلم وشيء آخر أن تجربه في الحياة الحقيقية. ليحمك الرب من تجربتها، على كل واحد منا أن يعيش قدره، وأنت قد منحت الإنذار المهيب الأول عن أقدارك. استدارت القبة السماوية المرصعة بالنجوم ببطء فوق مجدلة والعالم الواسع. في مكان ما في العالم اللامحدود الذي يشغله الرب يقدم ويؤخر بيادق الألعاب الأخرى التي يلعبها، ولكنه سرعان ما شعر بالقلق بشأن هذا البيدق، كل ما عليه فعله في الوقت الحاضر أن يجعل الأشياء تسير وفق مسارها الطبيعي، بعيداً عن التنظيم الشاذ الذي يقوم به بنهاية إصبعه الصغير ليتأكد بأن لا

تتطفل فكرة ضالة أو فعل ما على التناسق الثابت للمصائر. ومن ذلك ضيقه من بقية الحديث بين يسوع ومريم المجدلية، فسألته، والآن ما الذي ستفعله، قلت أنك سترافقينني أينما حللت، لقد قلت سأكون معكَ أينما حللت، ما الفرق، سيان، ولكن بإمكانك البقاء هنا إن كنتَ لا تمانع في العيشِ معي في مكان كان في يوم منزلاً للخطيئة. سكت يسوع، ففكر طويلاً وقال في الأخير، سأجد عملاً ما في مجدلة ويمكننا العيش سوية كزوج وزوجة، أنت تعطي وعوداً كثيرة وأنا مقتنعة فقط بالجلوس هنا عند قدميك.

لم يجد يسوع عملاً، ولكنه لاقى ما كان يتوقعه، سخرية وضحكاً وإهانات والتي لم تكن مفاجئة، فليس هنا غير شاب يعيش مع مريم المجدلية السيئة السمعة ولن يطول الأمر حتى نراه جالساً عند عتبة الباب ينتظر دوره كبقية زبائنها. تسامح مع هزئهم وإهاناتهم لبضعة أسابيع ولكنه قال لمريم في الأخير، لابد لي أن أهرب من هذا المكان، ولكن أين سنذهب، في مكان ما قرب البحر. غادرا قبيل الفجر وتأخر سكان مجدلة كي يتمكنوا من إنقاذ أي شيء من اللهب.

بعد بضعة أشهر وفي ليلة شتائية باردة، دخل ملاك بهدوء إلى منزل مريم الناصرية دون أن يزعج أحداً. لم تلحظ وصوله إلا مريم ذاتها لأن الملاك تحدث إليها كما يلي، لابد لك أن تعلمي يا مريم أن الرب قد خلط بذوره مع بذور يوسف في الصباح الذي أدركته به في المرة الأولى. وقد خلق ابنك يسوع من بذور الرب وليس من تلك التي تعود إلى زوجك، على الرغم من شرعيتها. لحسن الحظ لم يجعل جوهر ذلك الوحي مريم تهرب على الرغم من الحديث الغامض للملاك، فسألته، وهي مندهشة جداً، فيسوع إذن هو ابني وابن الرب، أيتها المرأة، ما الذي تقولينه، إبدي بعض الاحترام للمنزلة والأسبقية لابد لك أن تقولي ابن الرب وابني، ابن الرب وابنك، كلا، ابن الرب وابنك، أنت تخلط الأمر علي، أجب عن سؤالي فقط، هل يسوع ابننا، تقصدين ابن الرب لأنك قمت بحمله فقط، معنى هذا أن الرب لم يخترني، لا تعبثي معي، كان الرب ماراً فقط كما كان أي أحد سيلاحظ لون السماء، وحينذاك رآك أنت ويوسف، زوجان رائعان وفي أتم صحة، ثم، إن كنت لا تزالين تذكرين كيف أعلنت مشيئة الرب عن نفسها، لقد قضى بأن يولد يسوع بعد تسعة أشهر. أ ثمة أي برهان حقيقي بأن بذور الرب هي التي كونت طفلي الأول، إنها مسألة دقيقة في واقع الأمر، وما تطلبينه هو ليس أكثر من اختبار الأبوة، ولهذا في مثل هذه الاتحادات المختلطة، مهما أجريت التحاليل والاختبارات والحسابات الكونية، لا يمكن أبداً الحصول على نتائج شاملة. كنت أفكر أن الرب قد اختارني لأكون

عروسة في ذلك الصباح.، وها أنت تخبرني أنها كانت صدفة محضة، وكان بإمكانه أن يختار أية واحدة أخرى، دعني أخبرك إذاً، أنني أتمنى أنك لم تهبط إلى الناصرة لتتركني في هذه الحالة من عدم اليقين، وبالإضافة إلى ذلك، فمن المؤكد أن إبناً للرب، حتى لو كنت أنا أمه، كان سيكون في ولادته ونضوجه مشية ومظهر وطريقة كلام الرب ذاته، ورغم أن الناس يقولون أن حب الأم أعمى، فإن يسوع ابني يبدو لي عادياً تماماً. تلك هي أولى أخطائك يا مريم، أن تظني أنني جئت إلى هنا فقط لأناقش حادثة جنسية في حياة الرب الماضية، وخطأك الثاني أن تعتقدي أن جمال وفصاحة البشر تشبه تلك التي لدى الرب، وإن كان بوسعي أن أشهد لكوني قريباً منه، أن طريقة الرب لا يمكن أن يعيش بأية طريقة أخرى، وأن الكلمة التي على شفاهه غالباً هي ليست نعم، بل لا، ولكن من المؤكد أنه الشيطان هو الذي من المفترض أن تتجسد فيه روح الإنكار، كلا، يا طفلتي، إن الشيطان يتنكر لنفسه، وحتى تتعلمي الاختلاف، فلن تعرفي أبداً إلى من تنتمين، إنني أنتمي إلى الرب، إذاً، أنتِ تنتمين إلى الرب، أليس كذلك، حسناً، ذلك هو خطأك الثالث والأكبر، لأنك لم تؤمني بابنك، هل تعني يسوع، أجل يسوع، فلا أحد من الآخرين قد رأي الرب أو من المحتمل أن يراه، أخبرني أيها الملاك عن الرب، أ حقاً أن ابني رأى الرب، أجل وجاء مسرعاً مثل طفل عثر على عش الأمل ليريك، وأنت الحذرة المتشككة، أخبرته أن ذلك لا يمكن أن يحدث، وإن كان ثمة عش فهو أجوف، وإن تكن ثمة بيوض فهي فارغة وإن لم تكن هناك بيوض فقد التهمتها الأفعى. إغفر لي يا ملاك الرب عن شكوكي، أنا الآن لستُ متأكداً إن كنتِ تتحدثين إليّ أو إلى ابنك، أتحدث إليه وإليك، أتحدث إليكما، ما الذي بإمكاني فعله لأصلح ما أفسدته، استمعي إلى قلبك الأمومي، عليّ إذاً أن أذهب للبحث عنه، لأخبره إنني أؤمن به وأطلب منه أن يغفر لي ويعود إلى البيت حيث سيستدعيه الرب عندما يحين الوقت، لست أدري حقاً إن كنت ستلحقين

به في الوقت المناسب، فليس ثمة أكثر حساسية من مراهق، أنت تخاطرين لأنك قد تهانين وقد يصدك، إن يكن من المحتمل أن يحدث شيء كهذا، فيقع اللوم على الشيطان الذي سحره وقاده للضلال، ولا أفهم كيف أن الرب، بكونه أباً، قد وافق على مثل هذه الحريات ومنح الأوغاد مثل هذه الحرية، إلى أي شيطان تشيرين، إلى الراعي الذي رافق ابني لأربع سنوات والذي كان يربي قطيعه دونما فائدة ما. آه، ذلك الراعي، هل تعرفه، ذهبنا للمدرسة معاً، وهل يسمح الرب لمثل ذلك الشيطان أن يعمل بجد ويعيش برخاء، هكذا يتطلب الانسجام في الكون، ولكن ستكون الكلمة الأخيرة للرب دائماً، ونحن فقط لا ندري متى سيقولها، ولكن سترين، في أحد هذه الأيام سنستيقظ ولن نجد شراً في العالم، والآن اسمحي لي لابد لي من المغادرة، إن تكن لديك أية أسئلة أخرى، فهذه هي فرصتك، لدي سؤال واحد فقط، حسناً، تفضلي، لماذا يريد الرب ابني، ابنك، بطريقة ما في الكلام وفي عيون العالم فيسوع هو ابني، تسألين لماذا يريده الرب، حسناً إنه سؤال ممتع، ولكن لسوء الحظ لا يمكنني أن أجيبك عنه، في هذه اللحظة تكمن المشكلة فيما بينهما، ولا أصدق أن يسوع يعلم أكثر مما قاله لك من قبل. لقد قال لي أنه سيمتلك السلطة والمجد بعد موته، هذا صحيح، أدرك ذلك، ولكن ما الذي عليه أن يفعله في الحياة ليكسب هذه المكافآت التي وعده بها الرب، إهدئي الآن، أنت بليدة، من المؤكد أنك لا تؤمني أن مثل هذه الكلمة موجودة في عيون الرب أو أن ما تشيرين إليه فرضاً على أنه كسب يملك أية قيمة أو معنى، لا يمكنني تخيل ما الذي في أذهانكم أيها الناس فلستم سوى عبيد أذلاء لمشيئة الرب المطلقة، لن أقول المزيد لأنني حقاً خادم الإله، وله أن يفعل بي ما يشاء، ولكن أخبرني بشيء واحد، فبعد كل هذه الشهور، أين أجد ولدي، واجبك أن تبحثي عنه مثلما ذهب للبحث عن كبشه الضال، كي يقتله، لا تخشي شيئاً فلن يقتلك، ولكن من المؤكد أنك ستقتلينه عندما لا تكونين حاضرة في ساعة موته، كيف علمت أنني لن

أموت قبله، إنني قريب بما فيه الكفاية من موضع السلطة كي أعرف، والآن لابد لي أن أودعك، لقد سألت كل الأسئلة التي رغبت في أن تسأليها، إلا سؤالاً واحداً كان حرياً بك أن تسأليه، ولكن ذلك شيء لم تعد لي علاقة به، أوضح، أوضحيه أنتِ لنفسك. ومع هذه الكلمات اختفى الملاك وفتحت مريم عينيها. كان الأطفال قد غطوا جميعهم في النوم سريعاً، الأولاد في مجموعتين من ثلاثة، يعقوب ويوسف ويهوذا، الأولاد الكبار في إحدى الزوايا، وفي الزاوية الأخرى اخوتهم الصغار سمعان وجاستس وصاموئيل، وتضطجع ليزا إلى جانب مريم وليديا إلى جانبهما الآخر. كانت مريم لا تزال مضطربة من كلمات الملاك، ولاحظت مذعورة وبرعب أن ليزا عارية فعلياً، كان رداؤها ملتفاً ومسحوباً إلى ما فوق نهديها، وهي تغط في النوم وعلى وجهها ابتسامة، كان العرق يلمع على جبهتها والشفة العليا تبدو متقرحة من التقبيل. ولأن مريم لم تكن متيقنة أن الملاك وحده قد دخل فقد كان مظهر ليزا سيكون كافياً لإقناعها أن واحداً من الأرواح الشريرة من الذين ينتهكون حرمات النساء في منامهن قد قام بفعله الخسيس مع الفتاة المسكينة بينما كانت الأم منشغلة في الحديث. ربما يحدث هذا دونما نعلم، فتتجول هذه الأرواح أزواجاً في أوقات فراغها وبينما يقوم أحد هذه الأزواج بإشغال الآخرين بقصص الجن، يقوم الآخر بالعمل الخسيس وهو، لو تحدثنا بالتحديد، ليس بتلك الخساسة، وهما في كل الاحتمالات يتبادلان الأدوار في المرة التالية كي لا يضيع المعنى الصحي لازدواجية الجسد والروح لا للحالم ولا للشخص الذي حلم به. غطت مريم ابنتها بأفضل ما يكون، إذ سحبت ثوبها إلى الأسفل لتبدو محتشمة قبل أن توقظها وتسألها هامسة، بماذا كنت تحلمين. أصابت الفتاة المفاجأة فلم يكن لديها الوقت لتبتكر كذبة. فاعترفت أنها كانت تحلم بملاك لم يقل لها شيئاً بل نظر إليها بلطف وجمال تأمل الواحدة أن تتمناهما في الجنة، فسألتها مريم، وهل لمسك. فأجابت ليزا، لا أحد يلمس بعينيه يا أماه. فقالت مريم بهمس

أكثر انخفاضاً وهي غير مقتنعة تماماً، أنا، أيضاً، حلمت بملاك، وهل تكلم ملاكك أم كان صامتاً أيضاً، هكذا سألتها ليزا بكل براءة، لقد أكد بأن أخاك يسوع كان يقول الحقيقة عندما قال أنه رأى الرب، أوه يا أمي، كم كنا مخطئين حين لم نصدق يسوع، الذي كان طيباً جداً وصبوراً، لا أحد كان يلومه لو أنه استعاد المال الذي قال أنه مهري. الآن علينا أن نحاول إعادة الأمور إلى نصابها، ولكننا لا نعلم أين سنجده، فلم يبعث أخباراً، آه لو أننا سألنا الملاك، فالملائكة، بالطبع، تعرف كل شيء، صحيح، ولكن الملاك لم يعرض المساعدة، فقد قال ببساطة أن من واجبنا البحث عن أخيك، ولكن، يا أماه، إن يكن أخونا يسوع مع الإله، فمعنى هذا أن حياتنا ستكون مختلفة بعد الآن، مختلفة، ربما، ولكن للأسوأ، لماذا، إن كنا نحن لم نؤمن بيسوع في كلمته، فكيف نتوقع أن يؤمن به الآخرون، لا يمكننا أن نجوب الشوارع والساحات في الناصرة مدعين أن يسوع قد رأى الإله، يسوع قد رأى الإله، ما لم نرد أن يطاردنا الناس بالحجارة، ولكن إن يكن الإله بنفسه اختار يسوع، فمن المؤكد أنه سيحمينا، نحن أفراد عائلته، لا تكوني متيقنة من ذلك، فلم نكن قريبين عندما اختير يسوع وفيما يتعلق الأمر بالإله ليس ثمة آباء ولا أبناء يتذكرون إبراهيم ويتذكرون إسحاق، أوه، يا أماه، كم ذلك فظيع، من الحكمة يا طفلتي أن نبقي الأمر فيما بيننا ونقول أقل ما يمكن، وماذا سنفعل بعد ذلك، سأبعث يعقوب ويوسف غداً للبحث عن يسوع، ولكن أين، الجليل واسعة، وكذلك السامرية، إن كان قد ذهب إلى هناك، أو إلى اليهودية أو الأيدومية التي هي في نهاية العالم، ربما ذهب أخوك إلى البحر، تذكري ما قاله لنا عندما جاء، بأنه كان يساعد بعض صيادي السمك، أليس من المحتمل أنه قد عاد إلى القطيع، تلك الأيام قد انتهت، كيف علمت، حاولي أن تنامي فقد تأخر الوقت، من يدري، فقد نحلم بملاكنا ثانية، ربما، ولم يكتشف أحد فيما إذا كان ملاك ليزا بعد أن منح رفيقه فرصة للانزلاق، جاء ليحتل محله في حلمها ثانية، لكن الملاك

الذي جاء بتلك الأنباء، على الرغم من أنـه نسـي بعض التفـاصيل، كـان غير قادر على العودة لأن عيون مريم بقيت مفتوحة بينما كانت مستلقية هناك في العتمة القليلة، وما كانت تعرفه أكثر مـن كـاف، وقد ملأها ما شككت به بالريبة.

أطل الفجر ولُفت الأفرشة، وبعد أن استدعت مريم كـل أطفالهـا أمامها، أوضحت لهم أنها كانت تفكر جادة بتعاملهم الأخير مع يسوع، ابتدئ مع نفسي، كوني أمه، أعتقد أننا كان حرياً بنـا أن نكون عطوفيـن به وأكثر تفهماً معه وقد توصلت إلى أننا من الصحيح أن يذهب ونبحـث عنه ونطلب منه العودة إلى البيت، لأننا الآن نؤمن به، وإن شـاء الـرب، سنؤمن في أحد الأيام بما قاله لنا. هذا ما قالته لهم مريـم، دون أن تـدري أنها تكرر الكلمات ذاتها التي استخدمها يوسف، الذي كان حاضراً خـلال تلك اللحظة الدراماتيكيـة فـي الرفض. مـن يـدري، ربمـا كـان يسـوع لا يزال هنا لو أن تلك الهمهمـة الحذرة، علـى الرغـم مـن أننـا أشـرنا إليهـا خلال الوقت بأنها لم تكن أكثر من همهمة، قد انتشرت على كل الشفاه. سكتت مريم على أمر الملاك وكلماته، وذكرتهم ببساطة بـالاحترام الـذي يكنّونه لأخيهم الكبير. لم يجرؤ يعقوب على مناقشة تغير أمه من كل قلبه رغم أنه استمر في داخله بالشك بسلامة عقل أخيه مـا لـم يكـن قد سقط صدفة تحت سحر مخادع خطير. سألها وهو يحدس جوابهـا، ومـن ذا الذي سيذهب للبحث عن أخينا يسوع، لكونك الكبير الثاني، لابد لـك مـن الذهاب وسيرافقك يوسـف، فأنتمـا معـاً ستسـافران بأمـان أكثر. مـن أيـن سنبدأ البحث، بجانب بحر الجليل، أنا متأكدة إنكما ستجدانه هنـاك، ومتـى سنذهب، مضى على رحيل يسوع شـهوراً لذلك لا وقـت لنضيعـه. لكـن الأمطار بدأت بـالهطول، يـا أمـاه، وليس الوقـت مناسباً للسفر، يـا بُنـي الظروف تخلق الحاجة، وعندما تكون الحاجة كبيرة بما فيه الكفايـة فأنهـا تخلق الظروف. نظر أطفال مريم إليها مندهشين، غير معتادين على هذه

الفصاحة المتناهية الآتية من شفاه أمهم، لأنهم مازالوا صغاراً ولم يعرفوا أن مرافقة الملائكة يمكن أن تؤدي إلى هذه النتائج وحتى إلى نتائج أكثر تأثيراً. خذ، مثلاً، ليزا، التي كانت في هذه اللحظة بالذات تهز برأسها ببطء شاعرةً بالدوار، بينما لا يشك الآخرون بشيء. بعد أن انتهت المناقشة، ألقى يعقوب ويوسف نظرة متفحصة نحو السماء ليريا إن كانت هنالك فرصة ليوم جاف يسافران فيه على الرغم من رداءة الجو الحالي. لابد أن السماء قد لاحظت، لأنها كانت فوق بحر الجليل مباشرة قد تحولت إلى اللون الأزرق المائي مما يعد بعصر خالٍ من الأمطار. بعد ان ودع الأخوان بقية أفراد العائلة على نحو كتوم في الداخل، لأن مريم قد شعرت أن الجيران لابد أن يعلموا أقل ما يمكن، انطلقا في الأخير في رحلتهما ليس بمحاذاة طريق مجدلة، فليس ثمة سبب يجعلهما يؤمنانِ أن يسوع ذهب في ذلك الاتجاه، بل سلكا مسلكاً آخر قادهما سريعاً إلى المدينة الجديدة لتيبرياس. سارا حافيين ذلك لأن الطين الكثير في الطرقات منعهما من ارتداء خفيهما فأبقياهما بأمان في جرابيهما حتى يتحسن الطقس. كان ليعقوب سببان معقولان لاختيار الطريق المؤدي إلى تيبرياس. أولاً لأنه جاء من الأقاليم ويتوق لرؤية القصور والمعابد التي سمع عنها الكثير، والسبب الثاني، لأنه قيل له أن المدينة تقع في منتصف الطريق المؤدي قليلاً أو كثيراً إلى شاطئ هذا الجانب من النهر. ولأنهما كان عليهما أن يكسبا قوتهما بينما يبحثان، فقد أمل يعقوب أنهما قد يعثران على عمل في إحدى البنايات في المدينة، رغم ما قاله اليهود المخلصون في الناصرة من أن المكان يكون غير صحي بسبب الهواء الفاسد والمياه الكبريتية القريبة. لم يصلا تيبرياس في ذلك اليوم لأن الإشارات الواعدة في السماء جاءت معاكسة. بعد ساعة من سفرهما شرعت الأمطار بالهطول ثانيةً وكانا محظوظين بأن وجدا كهفاً يأويهما قبل أن يتحول المطر إلى طوفان ويجرفهما. ناما بأمان، ولكنهما لم يعودا يثقان بالطقس. واستغرقا بعض الوقت ليقررا فيما إذا كان ثمة أي أمل

في وصول تيبرياس وثيابهما جافة قليلاً أو كثيراً. ولأنهما عاملان غير ماهرين، فالعمل الوحيد الذي يمكن ان يعثرا عليه في موقع العمل هو نقل الحجر بالعربات، ولكنهما بعد بضعة أيام كسبا ما يكفيهما من المال ليسدا به حاجاتهما المتواضعة، دون أن يعني ذلك أن الملك هيرودس أنتيباس كان كريماً مع عماله. وعند وصولهما تيبرياس بدأا تحرياتهما إن كان أي أحد قد رأى يسوع الناصري، لربما مرّ من هنا، إنه أخونا وهيأته هكذا، لكننا لسنا متأكدين إن كان مسافراً بمفرده أو يرافقه أحد ما. لم يره أحد يعمل هنا، لذلك ذهب يعقوب ويوسف يسألان جميع أصحاب القوارب. تأكد لهما ان أحداً لم يره. من الواضح أن أخاهما لو قرر الالتحاق بصيادي السمك لما ضيعا وقتاً في الكدح في موقع البناء تحت رحمة مراقب عمل شديد بينما البحر المفتوح أمامه مباشرةً. الآن وبعد أن كسبا القليل من المال واجهتهما المشكلة التالية هي فيما إذا يبحثان بمحاذاة ضفة النهر، قرية بعد قرية، طاقماً بعد طاقم، قارباً بعد قارب، أ إلى الشمال أم إلى الجنوب؟. قرر يعقوب أخيراً أن عليهما السفر جنوباً حيث الطريق منبسط أكثر، بينما الطريق الشمالي غير مستو. كان الطقس مستقراً، والبرد من الممكن تحمله، وتوقف المطر، وأي إنسان له تجربة بدورة الطبيعة أكثر من هذين الشابين كان قد عرف، فقط من خلال شمه الهواء وتحسس التربة علامات التحول الأولى للربيع. ولأن هذه المهمة الأخوية قد قدّرت من أجل دافعٍ سامٍ للعثور على أخيهما فقد تحولت إلى نزهة ريفية محببة وإجازة ممتعة قرب البحر، وكاد يعقوب ويوسف يقعان في خطر نسيان سبب مجيئهما إلى هنا في المكان الأول عندما واجها صدفة بعض الصيادين الذين أخبروهما بأخبار يسوع بأغرب طريقة. قال لهم أحد صيادي السمك، أجل، إننا نعرفه وعندما تجدانه لا تنسيا أن تذكرانه أننا في إنتظار عودته بشوق وكأننا ننتظر خبزنا اليومي. كان الأخوان مذهولين وما كادا يصدقان أن أولئك الرجال كانوا يتحدثون عن يسوع أو ربما أخطأوه ويتحدثون عن شخص آخر،

إحتكاماً إلى وصفكما، فإنه يسوع بذاته، ولكن فيما إذا جاء من الناصرة أو غيرها فلا نعلم لأنه لم ينكر ذلك أبداً. فسألهم يعقوب ولماذا تقولون أنكم في انتظار عودته بشوق وكأنكم تنتظرون خبزكم اليومي، لأنه عندما كان في القارب كان السمك يتكالب في شبكتنا مباشرة، ولكن أخانا لا يعرف شيئاً عن صيد السمك، هو إذاً ليس يسوع نفسه، إننا لم نقل أبداً أن يسوعكم يعرف شيئاً عن الصيد، ولكن كل ما كان عليه قوله هو، القوا بشباككم في هذه الجهة، وما ان تهبط شباكنا حتى ترتفع ممتلئة، لماذا إذاً لم يبق معكم، لأنه سافر بعد بضعة أيام، بعد أن قال أنه يتحتم عليه مساعدة صيادين آخرين ويحدث ذلك فعلاً، لأنه التحق معنا ثلاث مرات، ويعدنا دائماً بالعودة، وأين هو الآن، لا ندري، ذهب في المرة السابقة متجهاً نحو الجنوب، ولكنه ربما ذهب نحو الشمال دون أن نلاحظه فهو يأتي ويذهب متى يشاء. قال يعقوب ليوسف، دعنا نتجه جنوباً، فنحن نعرف على الأقل أن أخانا في مكان ما على هذه الجهة من الماء. وبدا الطريق مستقيماً ولكنهما فكرا فيما بعد انهما قد لا يجدانه لو حدث وكان يسوع راكباً البحر المفتوح في واحدة من رحلات صيد السمك العجيبة. إننا نميل إلى تفحص مثل هذه التفاصيل، لكن القدر ليس كما نتخيل، ونعتقد أن كل محكوم وفق هذا المبدأ أو ذاك، بينما الأمر مختلف تماماً في الواقع. لاحظ كيف أن مواجهات معينة كمثل التي وصفناها للتو يمكن ان تحدث فقط حين يكون الأشخاص الذين لهم علاقة بها في المكان ذاته وفي الوقت ذاته وهذا ليس سهلاً دائماً، نحن بحاجة لأن نتوقف لدقيقة كي ننظر إلى سحابة في السماء، وكي نصغي لأغنية طير، وكي نحصي مداخل ومخارج كثيب النمال، أو، على العكس، نكون منذهلين فلا ننظر ولا نصغي ولا نحصي، بل نسير في دربنا، وذلك ما يفقدنا ما كان يبدو الفرصة الكاملة. صدقني، يا أخي يوسف، إن القدر أصعب شيء في الوجود، كما ستكتشف ذلك عندما تكون في مثل عمري. ولأن الأخوين قد حذرا من قبل، فقد ظلا

مستيقظين، وتوقفا بمحاذاة الطريق وانتظرا ليشاهدا إن كان أحد من القوارب قد تأخر في العودة، وقد تتبعا حتى خطواتهم آملين أن يفاجئا يسوع في مكان غير متوقع. حتى وصلا أخيراً إلى نهاية البحر. سألا رغما يعبران الضفة الأخرى من نهر الأردن أول صيادي سمك التقيا بهم إن كانوا قد عرفوا أي شيء عن يسوع. من الطبيعي أن الرجال قد سمعوا عن أفعاله المدهشة ولكن أحداً لم يره في هذه الأنحاء. تتبع يعقوب ويوسف خطواتهم واتجها شمالاً وبتدقيق أكثر هذه المرة، مثل صيادين يرمون بشباكهم على أمل أن يصيدوا ملك الأسماك. وحيث يمضيان الليل في الطريق، فإنهما يتناوبان المراقبة خشية أن يستفيد يسوع من ضوء القمر ليتسلل من مكان لآخر. وظلا يتساءلان حيثما حلا، وصلا إلى تيبرياس، وهناك لم يتوجب عليهما البحث عن عمل لأنهما مازالا يحملان بعض المال الذي بقي معهما ويعود الفضل لصيادي السمك الذين أغدقوا عليهم السمك، مما حث يوسف لأن يسأل يعقوب في إحدى المرات، هل حدث لك أن فكرت أن السمك الذي نود ان نأكله ربما يكون أخونا هو الذي اصطاده، وأجابه يعقوب، ذلك لا يُحسِّن من الطعم، كلمات قاسية تأتي من الأخ ولكنها مبررة حين نقدر مدى إحباط يعقوب، فليساعده الرب، وهو يبحث جاهداً عن إبرة في قش.

عثرا على يسوع بعد ساعة من ذلك، أعني في وقتنا، بعد أن غادرا تيبرياس. كان يوسف هو الأول الذي حدد موقعه إذ كان نظره ثاقباً ويرى الأشياء من مكان بعيد. صاح، ذلك هو، هناك. في الواقع كان هنالك شخصان يتجهان في ذلك الاتجاه وأحدهما إمرأة. كلا، قال يعقوب، لا يمكن أن يكون هو. من النادر أن يناقض ولد صغير أخاه الكبير، لكن يوسف كان في قمة السعادة حتى أنه تجاوز القواعد المعتادة للتقاليد، إنني أقول لك، إنه هو، لكنني أرى إمرأة هناك، أجل إمرأة مع

رجل، وذلك الرجل هو يسـوع. بمحـاداة ضفـة النهـر وعلـى أرض مسطحة ممتدة بين تلين ينحدران عملياً إلى جانب الماء كان يمكن رؤيـة يسوع ومريم المجدلية يقتربان. توقف يعقـوب وانتظـر وأمر يوسـف أن ينتظر معـه. أطاعـه الولـد متردداً، وهـو متشوق لأن يهرع نحـو أخيـه المفقود منذ زمن، ليعانقه ويلف ذراعيه حول عنقه. على أية حـال، كـان يعقوب مضطرباً من حضور تلك المرأة إلى جانب أخيه. سأل نفسه، من تكون، ورفض أن يصدق أن لأخيه معرفة جسدية سابقة مـع أيـة امرأة، وبدت الفكرة الفعلية كأنها تخلق فجوة هائلـة بين يعقوب وأخيـه الأكبر، وكأن يسوع، الذي تفاخر برؤية الرب قد تحرك الآن إلى ميدان مختلـف تماماً، من خلال امتـلاك المعرفـة الجسدية لأمرأة. فكـرة تقود لأخـرى وغالباً ما يصل الإنسـان إلـى هنـاك دون أن يلاحظ الرابطـة بينهـا. انـه بالأحرى مثل عبور نهر من ضفة لأخرى بواسطة جسر مغطى، نستمر في السير فيه دون أن ننتظر إلـى أين نحـن ذاهبـون، إننـا نعبر نهراً لـم نعرف أنه موجود، وبدأ يعقوب يفكر أيضاً أن من غير الصحيح الوقوف هناك وكأنه كان كبير العائلة ويتحتـم علـى يسـوع أن يـأتي ليلقـي التحيـة عليه. وما إن تحـرك يعقـوب حتـى هـرع يوسـف نحـو يسوع بذراعيـن مفتوحتيـن وصـرخ مغتبطـاً، ممـا أفزع حشداً مـن الطيـور التـي كـانت مختبئة بين عيدان القصب الطويلة حيث كـانت تبحث عن طعامهـا فـي المستنقعات المجاورة للنهـر. راح يعقـوب يغذ السير ليمنـع يوسـف من توصيل أية رسائل لأن ذلك كان من مسؤوليته، ولذلك التقى يسوع وجهاً لوجه وقال له، حمداً لله إذ تحتم علينـا أن نجدك يـا أخـي، عنـد ذاك رد يسوع، إنني مسرور لأن أراكما بمثل هـذه الصحـة الوافـرة. خـلال ذلـك كانت مريم المجدلية قد تريثت في الخلف. تساءل يسـوع، مـا الـذي جـاء بكما إلى هذه الأنحاء، فاقترح يعقوب، دعنـا نتحـرك إلـى هنـاك حيث لا أحد يستمع إلـى حديثنـا، أجابـه يسـوع، بإمكاننـا التحـدث هنـا، وإن كنـت تشير إلى المرأة التي ترافقني، فدعني أؤكد لك أنك مهما قلت ورغبت أنا

في سماعه، يمكن أن يقال بحضورها. كان الصمت الذي تلا ذلك يشبه ذلك الذي بين البحر والجبال أكثر مما هو الصمت الذي بين أربعة من البشر يواجهون بعضهم البعض ويستحثون شجاعتهم. بدا يسوع أكبر مما هو عليه مدبوغ الجلد، ولكن غابت تلك النظرة الحامية وبدت تعابير وجهه خلف لحيته الكثة الداكنة رابطة الجأش وهادئة على الرغم من التوتر الذي أثارته هذه المقابلة غير المتوقعة. تساءل يعقوب من هذه المرأة، اسمها مريم المجدلية وهي معي، هكذا أجاب يسوع، هل هي زوجتك، في الحقيقة، نعم ولا، لا أفهم، ذلك شيء لا يدهشني، لا بد لي من أن أكلمك، هيا تفضل، لقد أتيتك برسالة من أمي، إنني مصغٍ، أفضل أن أقولها لك على انفراد. لقد سمعت ما قلته لك، تقدمت مريم المجدلية وقالت، يمكنني أن أقف إلى جانب الطريق حتى تنهيا حديثكما، فقال يسوع، كلا، أنتِ تقاسمينني كل أفكاري، لذلك مِن حقك أن تعرفي ما هي أفكار أمي عني، كي لا أضطر إلى تكرارها إليك فيما بعد. تورد وجه يعقوب بالغضب وبدا عليه كأنه عزم على أن يبتعد، بينما ألقى نظرات مبهمة تجاه مريم المجدلية تنم عن مشاعر مختلطة من الرغبة والامتعاض. أثناء ذلك، كان أكثر ما فعله يوسف أن بسط يديه ليبقيهما منفصلتين. وهدأ يعقوب في الأخير وبعد دقيقة من التفكر تذكر ما كان عليه قوله، لقد بعثتنا أمنا لنعثر عليك ونعود بك إلى البيت، لأننا نؤمن بك، وبمساعدة الرب، ربما سنؤمن في يوم ما بالأشياء التي أخبرتنا بها، أهذا كل ما هنالك، تلك كانت كلمات أمي، أنت إذاً لن تجهد نفسك لتؤمن بما أخبرتك به، وتفضل الانتظار حتى يساعدك الرب، لتغير رأيك، ان نفهم او لا نفهم فذلك يعتمد على الرب، انت مخطيء تماماً، لقد وهبنا الرب سيقاناً كي نمشي فمشينا، لم أسمع أبداً بإنسان انتظر حتى يقول له الرب، إمش، والشيء ذاته مع عقلنا، لقد وهبنا الرب عقلاً لنستخدمه حسب مشيئتنا ورغبتنا، لن أجادلك، وهذا أيضاً لأنك لن تفوز. ما الذي سأقوله لأمي، قل لها أن الرسالة جاءت متأخرة، وأن يوسف قد تكلم هذه

الكلمات ذاتها في الوقت المناسب لكنها لم تأبه لذلك، وحتى لو أن ملاكاً من الرب ظهر لها وأقنعها أن كل شيء قلته قد جاء وفق مشيئة الرب، فإنني لا أزمع العودة إلى البيت، أنت تقترف خطيئة التكبر، الشجرة تبكي حين تقطع، والكلب يعوي حين يضرب، والإنسان ينضح حين يساء إليه. إنها أمك ونحن أخوتك، من هي أمي ومن هم إخوتي، إخوتي وأمي هم أولئك الذين آمنوا بكلماتي في اللحظة التي تكلمت فيها، إخوتي وأمي هم أولئك الصيادون الذين يعرفون أنني حين أرافقهم يصيدون أكثر من قبل، أمي وإخوتي هم أولئك الذين ليسوا بحاجة لأن ينتظروا ساعة موتي ليشفقوا على حياتي، أليست لديك أية رسالة أخرى لأمي، فأجاب يسوع، هذا كل ما لدي، لكنك ستسمع الآخرين يتحدثون عني، ثم التفت إلى مريم المجدلية وقال، هيا تذهب يا مريم، القوارب مستعدة للرحيل، قطعان الأسماك تجمع وحان وقت قطف هذا الحصاد. وحين بدأا في السير مبتعدين صاح يعقوب، يا يسوع هل أخبر أمي بشأن هذه المرأة، أخبرها أنها معي وأسمها مريم، وتردد صدى الاسم بين التلال وفوق البحر. وعند ذاك جثم يوسف الصغير على الأرض وبكى بدموع مُرة.

عندما يذهب يسوع إلى البحر مع الصيادين، تنتظره مريم المجدلية، وهي في العادة تجلس على صخرة عند الشاطئ أو على تل قريب إن يكن هنالك تل، فمن هناك يمكنها أن تتبع بسهولة المسار الذي يبحرون فيه. لم يعد صيد السمك عملية بطيئة فلم يكن السمك بمثل هذه الوفرة في هذا البحر، كأنما يمد الواحد يده في داخل جردل حتى الحافة، ولكن ليس لأي شخص، فلو يحدث أن يسوع ذهب إلى مكان آخر عند ذاك ينعكس الحال ليكون الجردل خالياً تقريباً، وسرعان ما تكل الأيدي والأذرع من رمي الشباك بعد الشباك لتصطاد فقط سمكة واحدة أو اثنتين. يذهب مجتمع الصيد بأكمله الذي على الجانب الغربي من بحر الجليل ليسألوا يسوع، وليتضرعوا ويطلبوا أن يساعدهم، وفي بعض الأماكن يستقبلونه باحتفالات وإجلال ينثرون فيها الزهور والنباتات وكأن اليوم هو يوم أحد السعف. لكن خبز البشر على ما هو عليه كونه خليطاً من الحقد والكراهية، مع القليل من الإحسان بين الحين والآخر، وخميرة الخوف تخمر الشر بينما تكبح الخير، فبدأت واحدة من مجاميع الصيادين تتصارع مع الأخرى، والقرية مع الأخرى لأنهم جميعاً يريدون المطالبة بيسوع، تاركين غيرهم يجهدون في أن يوفروا لأنفسهم أقصى إمكانياتهم. وحين راحوا يتشاجرون كان يسوع يتراجع إلى الصحراء ولا يعود إلا بعد أن يتوب مختلقو المشاكل ويطلبون المغفرة عن سلوكهم الشائن بينما يؤكدون حبهم وإخلاصهم. ولكن الذي لن تعرفه هو السبب الذي لم يجعل صيادي الضفة الشرقية أن يبعثوا أي وفود إلى

هذه الضفة ليناقشوا سن معاهدة عادلة تنفع جميع الفرق، ما عدا العدد الكبير من الجنتليين من مختلف السلالات والمعتقدات الذين يسكنون هذه الأنحاء. لربما تحت جنح الظلام، كان أولئك الذين في الضفة الأخرى قد بعثوا أسطولاً محملاً بالشباك والرماح لاختطاف يسوع، وليجعلوا أولئك الذين في الضفة الغربية في شظف من العيش بعد أن تعودوا على وفرة الطعام.

ولكن دعونا نعود إلى اليوم الذي جاء فيه يعقوب ويوسف إلى يسوع ليسألاه ترك هذا المكان والعودة إلى البيت على الرغم من العيش الرغيد الذي هو فيه منذ أن تولى أمر الصيد. عند هذا الوقت قام الأخوان، يعقوب الغاضب، ويوسف الباكي، وسلكا الطريق فوق التل والوادي ليتوجها عائدين إلى الناصرة حيث ما فتئت أمهما تتساءل إن يكن الأخوان اللذان غادرا سيعودان ثلاثة أخوة، لكنها تشك في ذلك. كان السبيل المؤدي إلى البيت والذي اتخذه الأخوان، ولأنه قريب من منطقة الشاطئ حيث التقيا بأخيهما يسوع، قد أجبرهما على المرور عبر مجدلة. لم يكد يعقوب يعرف المدينة، أما يوسف فلم يعرفها مطلقاً، ولكن من خلال المظاهر كان ثمة القليل مما يجذبهما إليه. لذلك، بعد استراحة قصيرة إستأنف الأخوان رحلتهما. وعند مرورهما بآخر المنازل قبل أن يعبرا البرية التي أمامهما، شاهدا على يسارهما الجدران العارية لمنزل من الواضح أن النيران قد التهمته. كانت البوابة المؤدية إلى الباحة قد اقتحمت ولكنها لم تحطم إلا جزئياً وثمة علامة واضحة أن النيران قد اندلعت من الداخل. في مثل هذه الحالات، يأمل أي عابر سبيل أنه لربما تُرك هنا كنز بين الرماد. ورغم أنه يعتقد أن ليس ثمة خطر من وقوع أحد الأعمدة على رأسه، لا يستطيع مقاومة مواصلة البحث. إنه يخطو بحذر ويلكز الرماد بإحدى قدميه متأملاً أن يجد شيئاً يلمع، عملة ذهبية، أو ماسة لا تصدأ أو عقداً من الزمرد. لم يدخل يعقوب ويوسف إلا من

باب الفضول، لم يكونا بتلك العبقرية ليتخيلا أن أولئك الجيران الجشعون لم ينهبوا المكان من قبل، على الرغم من أن البيت صغير جداً ومن المؤكد أن أية أشياء ثمينة قد أخذها المالكون، تاركين الجدران فقط، وهذه سرعان ما يمكن بناؤها في مكان آخر. كان سقف التنور الذي في داخل المنزل قد هوى، وقلبت الأرضية الحجرية وتناثر القرميد تحت القدم. قال يعقوب، لا شيء هنا، دعنا نذهب، لكن يوسف سأله، ما الذي هناك. إنه هيكل سرير لكن سيقانه قد احترقت وتحطم الإطار بكامله، ثمة عرش وهمي محطم عليه غطاء فضفاض متفحم وممزق لا يزال معلقاً. قال يعقوب، إنه سرير، ينام بعض الناس، كالملاكين الكبار والتجار الأثرياء على مثل هذه الأشياء، وجادله يوسف، وكذلك تنام امي على واحدة منها، وكن ليس ثمة مقارنة، ولا أظن أن هذا البيت لشخص ثري، فذكّره يعقوب بحكمة، قد تكون المظاهر خادعة. عند خروجهما، لاحظ يوسف أن هنالك فلكة مغزل مصنوعة من القصب معلقة على بوابة الباحة الخارجية، كتلك التي تستعمل لجمع التين والتي مما لا شك فيه أنها كانت أطول في الأصل. تساءل، ماذا يفعل هذا هنا، ودون أن ينتظر إجابة، إما من نفسه أو من أخيه، أزاح القصب العديم الجدوى وأخذه معه، تذكاراً للنار وللمنزل الذي قلبت حتى الأرض فيه، ولأناس مجهولين بالنسبة له. لم يرهما أحد يدخلان، لم يرهما أحد وهما يرحلان، هما مجرد أخوين يعودان إلى البيت بثياب مغبرة ويحملان أنباء سيئة. أحد الأخوين محبط من ذكرى مريم المجدلية، والآخر يفكر بشوق بالمتعة التي سينالها حين يلعب بالقصب المكسور.

جلست مريم المجدلية على صخرة منتظرةً عودة يسوع من صيد السمك وهي تفكر بمريم الناصرية. حتى اليوم، هي تفكر فيها على أنها أم يسوع، فهي تعرف الآن، بعد أن سألته، أن اسم أمه مريم أيضاً، مصادفة ليست ذات أهمية كبيرة عندما يحسب الانسان العدد الهائل من

المريمات على هذه الأرض واللاتي سيأتين إن يدوم النمط، لكننا نميل للإعتقاد أن ثمة معنى أعظم في التضامن بين أولئك الذين يحملون الاسم ذاته، مثلما نعتقد أن يوسف لم يعد يفكر باسمه بأنه الابن الآخر ليوسف بل أكثر من ذلك كونه أخاً، ولربما هذه مشكلة ربانية، أن لا أحد يحمل اسمه. قد تبدو مثل هذه التاملات بعيدة عن التصور لشخص مثل مريم المجدلية ولكن لدينا السبب الكافي لأن نعتقد أنها مهيأة تماماً لمثل هذه الأفكار حين تقودها أفكارها عن الرجل الذي تحبه للتفكير بأمه. لم يكن لمريم المجدلية أبداً ابن تحبه، ولكنها خلال وقت طويل عرفت ما معنى أن تحب رجلاً، بعد أن تعلمت ومارست ألف مرة ومرة خدع الحب المزيف. إنها تحب يسوع كونها أنثى، لكنها تريد أن تحبه كونها أمّاً، ربما لأنها ليست أصغر بكثير من أمه الحقيقية تلك التي أرسلت له رسالة تطالب فيها من ابنها أن يعود إلى البيت، وقد رفض طلبها. تتساءل مريم المجدلية كيف ستشعر مريم الناصرية عندما تستلم جوابه، ولكن هذا ليس مثل تخيل أنها هي ذاتها ستعاني حين تفقد يسوع لأنها حينذاك ستفقد رجلها لا ابنها. دمدمت مريم المجدلية وهي جالسة تنتظر عودة يسوع، آه يا إلهي، عاقبتني بالحزنين كليهما إن كان ذلك ضرورياً. وما أن اقترب القارب وسحب إلى الشاطئ، وما إن نقلت السلال المحشوة بالسمك، وما إن حط يسوع قدميه في الماء ليساعد الصيادين وضحك مثل طفل يلعب، رأت مريم المجدلية نفسها في دور مريم الناصرية، ونهضت وذهبت نحو حافة الماء ولوّحت محيية يسوع. قبلته على كتفه وهمست، يا ولدي. لم يسمع أحد يسوع يقول، يا أمي، فكما نعرف، أن الكلمات التي تأتي من القلب لا ينطقها أحد، إنها تتحبس في الحنجرة ولا يمكن إلا قراءتها في العيون. كوفيء يسوع ومريم بسلة سمك، وكالمعتاد، انعزلا في المنزل حيث كانا يقضيان الليل، ولم يكن لهما بيت خاص بهما بل كانا ينتقلان من قارب لقارب ومن فرش إلى فرش. كان يسوع غالباً ما يشير لمريم في البداية، هذه الحياة لا تلائمك،

دعنا نحاول أن نجد منزلاً خاصاً بنا حيث بإمكاننا أن نجتمع معاً متى شئنا، ولكن مريم أصرت، لا أريد أن أنتظرك في الخلف، أفضل البقاء معك. وفي أحد الأيام سألها يسوع إن كان لها أي أقارب يمكن أن يقدموا لها سكناً قالت له أن أخاها لعازر واختها مرثا يعيشان في قرية بيثاني في اليهودية، لكنها هي نفسها التي تركت البيت بعد أن تحولت إلى البغاء لتدفع عنهم الحرج فابتعدت أكثر فأكثر حتى انتهت في مجدلة. فقال يسوع، لابد أن يكون اسمك إذاً مريم البيثانية إن يكن ذلك المكان الذي ولدت فيه، أجل، فقد ولدت في بيثاني، ولكنك وجدتني في مجدلة. لذلك أفضل أن أفكر في نفسي كوني من مجدلة، الناس لا يشيرون إليّ بأنني يسوع من بيت لحم على الرغم من أنني ولدت هناك، ولا أفكر في نفسي بأنني من الناصرة لأن الناس هناك لا يريدونني وأنا بالتأكيد لا أريدهم، ربما أنا مثلك عليّ أن أقول إنني من مجدلة، وللسبب ذاته، لا تنسى إننا دمرنا بيتنا، لكن ذاكرتنا حية، هكذا أجابها يسوع. ولم يتحدثا المزيد عن عودة مريم إلى بيثاني، فهذا الشاطئ الممتد هو عالمهما الكامل وحيثما يذهب يسوع، ستذهب معه.

كم هو صحيح ذلك القول الشعبي الذي يذكرنا أن هنالك الكثير من الأسى في هذا العالم، وأن سوء الطالع ينمو كالأعشاب تحت أقدامنا. وما لم نكن مخطئين، فإن مثل هذا القول يمكن أن يلفقه الرجال فقط، أولئك الذين اعتادوا على زهو الحياة وحضيضها، اعتادوا على المعوقات والانتكاسات والكفاح المتواصل. الناس الوحيدون الذين من المحتمل أن يناقشوا ذلك القول هم أولئك الذين يبحرون في البحار لأنهم يعرفون أن حتى الأعماق السحيقة موجودة فيما بين أقدامهم وقاع البحر، وفي غالب الأحيان، فجوات لا قرار لها. المصائب التي تحدث لشغيلة البحر، كالرياح والعواصف، تبعثها إليهم السماء، جاعلة الأمواج تهيج، والعواصف تنفجر، والسواري تنتزع والمراكب الهشة تغرق. وأولئك

الصيادون والبحارة ينفقون حقاً بين السماء والأرض، سماء لا تصلها الأيدي وأعماق لا تصلها الأقدام أبداً. بحر الجليل يكاد يكون هادئاً ورقيقاً دائماً مثل أية بحيرة حتى تنطلق الأرواح البحرية المنتقمة وعند ذاك يكون كل رجل مع نفسه، ويغرق البعض منهم للأسف الشديد. ولكن دعونا نعود إلى يسوع الناصري وهمومه الجديدة التي تبين أن القلب الإنساني لا يقنع أبداً وأن يقوم الإنسان بواجبه فإن ذلك لا يجلب له الطمأنينة، كأولئك الذين يقتنعون أنهم كانوا سيجعلوننا نؤمن. يمكن للمرء أن يمتن للرواح والمجيء التي كان يقوم بهما يسوع أعلى وأسفل نهر الأردن، فلم تعد هنالك صعوبة، ولا حتى الانحسار الذي يحدث بين الحين والآخر على طول الضفة الغربية، حيث لا يستفيد الصيادون فقط، لأن انهمار السمك يخفض الأسعار ويوفر للناس الكثير من الطعام. وبينما جرت فعلاً الكثير من المحاولات للمحافظة على ارتفاع الأسعار بوساطة العملية المشتركة برمي جزء من الصيد في البحر، فقد هدد يسوع، الذي يعتمدون عليه كلياً في نجاحهم، أن يذهب إلى مكان آخر حتى يعتذر المسؤولون عن هذا العمل المؤذي ويغيرون وسائلهم، في الوقت الحاضر على الأقل. لذلك كان لكل واحد السبب في أن يشعر بالسعادة إلا يسوع. إنه مرهق من الذهاب والمجيء المتواصلين، التحميل والتفريغ المتواصلين، العمل الممل والقديم ذاته، يوم داخل ويوم خارج، ولأن هذه الطاقة في جعل السمك يظهر حسب الرغبة تأتي بوضوح من الإله، فلماذا توجب أن يحكم عليه بهذا الوجود الانفرادي حتى يستدعيه الإله ذاته كما وعده. لا يشك يسوع أن الإله معه، ذلك لأن السمك لا يخيب أمله أبداً حينما يناديه ومن المحتم أن هذا قد قاده للتأمل أن الإله قد لا يرغب في أن يمنحه قدرات أخرى لبعض الوقت حتى يتأكد له أنه يستخدمها أفضل استخدام. إذ كما رأينا، فإن يسوع الذي أنجز الكثير لم يرشده إلا الحدس، ولذلك لم يلاق صعوبات في مواجهة تلك الحالات. كانت ثمة طريقة واحدة سهلة في الاكتشاف، كمثل القول،

آه، وذلك بأن يحاول، فإن نجحت المحاولة، نقول أن الـرب سمح بذلك، وإن فشلت، نقول أن الرب يبدي امتعاضه. وكانت أول مشكلة بحاجة للحل في مشكلة الاختيار. ولأن يسوع كان غير قادر على استشارة الإله مباشرة، كان عليه أن يخاطر ويختار بين القدرات الممكنة التي بدت تعرض أقل مقاومة، ولن تكون واضحة جداً، وهو رغم ذاك ليس خدراً بما فيه الكفاية ليمر دون أن يلاحظه أحد من أولئك المستفيدين، أو من العالم، لأن ذلك كان سيضر بمجد الرب الذي يجب أن يسود كل شيء. لكن يسوع لم يستطع أن يقرر، كان خائفاً من أن الرب قد يسخر منه ويقلل من شأنه كما فعل في الصحراء وقد يفعلها ثانية، لذلك فهو حتى في هذه اللحظة كان يرتجف من فكرة الإحراج الذي كان سيعانيه لو أن الشباك عادت خالية حينما اقترح عليه في المرة الأولى، إرموا شباككم على هذه الجهة. هذه الأشياء تقلقه كثيراً حتى أنه حكم في إحدى الليالي أن شخصاً ما كان يهمس في أذنه، لا تخف، وتذكر أن الرب بحاجة إليك، ولكنه حين استيقظ ظل يتساءل عن ذلك الذي يتحدث إليه، ربما يكون ملاكاً، أحد أولئك الذين يسيحون في الأرض لنقل الرسائل من الإله، أو حتى جنياً، أحد أولئك الذين يطيعون أوامر الشيطان. كانت مريم المجدلية مستلقية إلى جانبه وسرعان ما غطت في النوم، لذلك من الواضح أنها ليست هي. هكذا جرت الأمور عندما انطلق يسوع في أحد الأيام، والذي بدا غير مختلف عن أي يوم آخر، لإنجاز المعجزة العادية. كانت الغيوم منخفضة في السماء، وثمة علامات لهبوط المطر، ولكن المطر وحده لا يكفي لبقاء الصيادين في بيوتهم، لأنهم اعتادوا على كل أنواع الطقس. في هذا اليوم بالتحديد ترافق المركب الذي يعود إلى سمعان وأخيه اندراوس، اللذين شهدا الأعجوبة الأولى، مع قارب يعقوب ويوحنا، أولاد زبيدي، إذ لا أحد يمكنه القول فيما إذا ستكون للمعجزة دائماً التأثير ذاته وأن أي قارب حدث أن كان قريباً يمكنه دائماً أن يصل إلى بعض السمك المتجمع هناك. الريح القوية تحملهم برشاقة إلى

عرض البحر، وبعد أن يخفض الصيادون في كلا القاربين أشرعتهم يحضرون شباكهم وينتظرون في المكان الذي عليهم أن يلقوا شباكهم فيه. عند هذه المرحلة تبدو الأشياء تصعب عندما تهب عاصفة فجأة دونما سابق إنذار من السماء الملبدة بالغيوم، وتغدو عاتية حتى أن الأمواج تلاطمت وارتفعت، واندفعت إلى الأمام والخلف بنوبة هياج واضطربت صدفات الجوز الهشة فاقدة السيطرة إذ أطلقت العناصر العنان لغضبها. كان البلاء المؤسف للمخلوقات التي لا حول لها ولا قوة قد جعل الناس الذين يتفرجون على الشاطئ يندبون ويصرخون. تجمعت الزوجات والأمهات والأخوات والأطفال وزوجات الآباء الطيبات، هناك وقمن بتلك الجلبة بنحيبهن وعويلهن، ولابد أن ذلك قد سُمع في السماء، آه يا زوجي المسكين، آه يا بني الحبيب، آه، يا أخي العزيز، آه يا ابن زوجي العزيز، اللعنة عليك أيها البحر التعس، ساعدينا يا أمنا المقدسة على هذا البلاء، يا حامية البحّار، تعالي لعوننا، ولم يكن على الأطفال إلا أن ينتحبوا، ولكن ليست بتلك القناعة. وكانت مريم المجدلية هناك أيضاً، تدمدم، يسوع، يا يسوع، لكنها لم تكن تصلي لأجله، لأنها كانت تعرف أن الإله سيدخره لحادثة أخرى، ومن غير المحتمل أن يتركه يهلك في أية عاصفة بالية في البحر، دونما نتائج خطرة أكثر من بضعة رجال غرقى. ظلت تكرر، يسوع، يا يسوع، وكأن كل ذكر لاسمه قد ينقذ الصيادين الذين يبدون من المؤكد قريبين من مصيرهم. هناك في القارب، شاهد يسوع اليأس والدمار يحوطه، الأمواج تجرف القوارب وتغرقها، السواري تتكسر، جاعلة الأشرعة تطير في الهواء، ويصبح المطر طوفاناً قادراً على إغراق واحدة من سفن الإمبراطور. كان يسوع يشاهد ويفكر في نفسه، ليس من العدل أن يموت هؤلاء الرجال وأبقى أنا حياً، بالإضافة إلى ذلك من المؤكد تقريباً ان الإله سيوبخني قائلاً، كان بإمكانك إنقاذ أولئك الذين معك ولكنك لم تقم بأية محاولة لإنقاذهم، وكأن جريمة أبيك لم تكن كافية. وأن يذكره بهذه الحادثة بالتحديد كان شيئاً

مؤلماً جداً حتى أن يسوع قفز على قدميه ووقف بثبات وكأنه واقف على أرض صلبة وأمر الريح، إهدأي، وقال للبحر، سكون، وما إن قال ذلك حتى سكن البحر وخمدت الريح وتناثرت الغيوم في السماء وظهرت الشمس بكل بهائها في منظر عجيب في عيوننا نحن البشر المساكين. من المستحيل وصف الابتهاج في القوارب والقبلات والعناقات، ودموع الفرح على الشاطئ فقد كان أولئك الناس الذين على البر في هول من خمود تلك العاصفة بهذه السرعة، وأولئك الذين هناك، وكأنهم أعيدوا إلى الحياة، لم يفكروا بشيء غير خلاصهم المحظوظ، وإن عبر بعضهم بعفوية عن تعجبهم لقالوا، معجزة، معجزة، كان يبدو أنهم غير مدركين أن أحداً ما لابد أن يكون مسؤولاً عن إنجازها. هيمن صمت مفاجئ فوق المياه، التفت القوارب الأخرى حول قارب سمعان واندراوس ونظر كل الصيادين نحو يسوع، ولم يستطيعوا الكلام من الدهشة، فرغم ضجة العاصفة كانوا قد سمعوه يصيح، إهدأي، سكون، وها هو يسوع الذي استدعى السمك من البحر هاهو الآن يمنع البحر من سوق الرجال إلى السمك. أخفض يسوع عينيه وجلس على دكة رجل المجذاف، على وجهه تعابير الانتصار والكارثة، وكأنه عند وصوله قمة الجبل كان قد بدأ هبوطه المحتم والحزين. كون الرجال دائرة في انتظار أن يتحدث يسوع إليهم. فليس كافياً أن يروض الرياح ويلطف المياه، فعليه أن يوضح كيف أن جليلياً بسيطاً، ابن متواضع لنجار، يمكن أن ينجز مثل هذه المعجزة بينما بدا أن الرب ذاته قد تركهم للعناق البارد للموت. نهض يسوع على قدميه وقال لهم، ما شاهدتموه تواً ليس من فعلي، الصوت الذي قمع العاصفة لم يكن لي بل هو الرب تكلم من خلالي، فمثل الأنبياء لست أنا إلا فما للرب. قال سمعان الذي كان معه على القارب، مثلما بعث الإله العاصفة، كان بإمكانه أيضاً أن يطردها، ولكن كانت هي رغبتك وكلمتك التي أنقذت حياتنا عندما أيقنا أنها ضاعت في عيون الرب، صدقوني، كان ذلك فعل الرب، وليس فعلي. عند ذلك

تدخل يوحنا ابن زبيدي الصغير، ليبرهن أنه ليس ذلك ذا العقل الساذج، ربما يكون ذلك هو فعل الرب، ففيه تستقر كل القوة والجبروت، لكنه نفذ ذلك من خلالك، ولذلك فمن الجلي أن الرب يريد منا أن نعرفك، ولكنكم تعرفونني من قبل، لكنك جئت من حيث لا ندري وأنك ملأت قواربنا بالسمك، أنا يسوع الناصري، ابن النجار الذي صلبه الرومانيون، عملت فيما مضى راعياً لأكبر قطيع من الأغنام والماعز يمكن تخيله، والآن، ها أنا معكم، ولربما أمكث معكم طويلاً لأبقى صياداً حتى يحين موعد موتي. فقال اندراوس شقيق سمعان، لك أن تعتمد علينا كي نبقى معك، فأي رجل يمتلك قدراتك محكوم عليه بالعزلة، عزلة أثقل من صخر الجلمود على رقبتك. فقال يسوع، ابقوا معي إن يكن ذلك هو ما ترشدكم إليه قلوبكم، ولكن لا تخبروا أحداً بما حدث هنا، ذلك لأن الوعد لم يحن كي يكشف الرب قدري، هذا، كما يقول يوحنا، إذا يشاء الرب أن تعرفوني. بعد ذلك قال يعقوب، ابن زبيدي الكبير، الذي لم يكن هو الآخر ساذجاً، لا تتخيل أن الناس لا يتكلمون، أنظر فقط إلى الجمهور هناك على الشاطئ، أنظر كيف يتلهفون للترحيب بك، والبعض منهم قد نفد صبرهم وراحوا يدفعون قواربهم نحونا لينضموا إلينا، وحتى إن نجحنا في إطفاء حماسهم وإقناعهم بأن يحفظوا سرنا، كيف لك أن تتأكد أن مشيئة الرب من المتوقع أن تعلن نفسها من خلالك، مهما كنت غير راغب في الفكرة. علّق يسوع الصورة الحية للحزن واليأس على رأسه وقال، إننا جميعاً بين يدي الإله، فأجاب سمعان، أنت أكثر منا جميعاً لأنه اختارك، ولكننا سنتبعك، فقال يوحنا، حتى النهاية، وقال اندراوس، حتى تصبح بغير حاجة إلينا، وقال يعقوب، إلى أبعد وقت ممكن. سرعان ما اقتربت القوارب مع الكثير من الأيدي الملوحة والصلوات المنشدة، مادحة وشاكرة فضل الإله. وأخبر يسوع الآخرين بعد أن أذعن، هيا نذهب لقد صبوا النبيذ ولابد لنا من أن نشربه. لم يبحث عن مريم المجدلية، فقد كان يعرف أنها كانت في انتظاره عند الشاطئ كما تفعل

دائماً، ولابد من شيء أكبر من المعجزة لقطع مراقبتها الدائبة، بينما مجرد فكرة انتظارها له هناك قد ملأت قلبه بالعرفان والطمأنينة. عند نزوله من القارب، سقط بين ذراعيها ولم يتفاجأ عندما همست مريم المجدلية في أذنه وقد ضغطت خدها على لحيته الرطبة، ستخسر الحرب حتماً، ولكنك ستنتصر في كل المعارك. ويداً بيد، بصحبة أصدقائها، حيّا الجماهير المبتهجة التي رحبت بيسوع مثل أي قائد عسكري منتصر. ويداً بيد تسلق يسوع ومريم الممر الشديد الانحدار المؤدي إلى كفر ناحوم، القرية التي تطل على البحر حيث عاش سمعان واندراوس وهناك عرضا ضيافتهما.

كان يعقوب محقاً عندما أنذر يسوع بأن حادثة العاصفة سرعان ما ستنتشر على كل لسان. بعد بضعة أيام لم يكن للناس في المناطق المحيطة حديث إلا هي. على الرغم من أن، وهذا شيء غريب في روايته، ثمة من يميل إلى أن البحر ليس بذلك الوسع، كما ذكرنا من قبل، ومن الممكن رؤية الضفتين لو نظر إليه من مكان عال في نهار رائق، رغم ذلك لا يبدو أن أحداً قد انتبه لتلك العاصفة في مناطق مثل تيبرياس. لذلك عندما جاء أحدهم بالأخبار أن غريباً يصطحب صيادي كفر ناحوم أخمد العاصفة بمجرد الحديث إليها، فقد سألوه، أية عاصفة، تاركين المبعوث مشدوهاً. ولكن لم يكن ثمة نقص في الشهود الذين يشهدون أنه كانت هنالك بالتأكيد عاصفة، ناهيك عن ذكر أولئك الذين عانوا منها سواء على نحو مباشر أو غير مباشر، ومن بين الأخيرين البعض من أصحاب البغال من صفد وقانا الذين كانوا هناك صدفة وهم سائرون في عملهم. هؤلاء هم الذين نشروا الأخبار في الأماكن الأخرى، كل رجل زخرف التفاصيل وفق خياله، ولكن بعد ذلك لم تصل الأخبار لأي أحد، ونحن نعلم ما الذي يحدث لهذه القصص، إنها تفقد صداقيتها بعد فترة. وخلال الوقت وصلت الأخبار إلى الناصرة، لم يكن

أحد متأكداً فيما إذا كانت معجزة أصيلة أو مجرد مصادفة سعيدة بين كلمة القيت نحو الريح وعاصفة تعبت من الهبوب. إن قلب الأم لا يُخدع بأية حال وما كان على مريم إلا أن تسمع الأصداء المتلاشية لهذه الأعجوبة التي ظل الناس يتناقشون فيها، حتى أدركت في قلبها أن ابنها الغائب هو الذي كان مسؤولاً عنها. وشعرت بالأسى لفقدانها سلطة الأمومة التي قادتها إلى أن تخفي ظهور الملاك وما كشفه عن يسوع، لأنها كانت واثقة أن رسالة بسيطة مصاغة بكلمات موجزة ستعيد للبيت ذلك الابن الذي غادر حزين القلب. والآن بعد أن تزوجت ليزا وراحت لتعيش في قانا لم يعد لمريم من تحدثه عن أحزانها المرّة. ولا يمكنها أن تعتمد على يعقوب، الذي عاد وهو في أتم الغيض بعد مقابلته لأخيه. لم يوفر على مريم أية تفاصيل وقدم وصفاً ذميماً للمرأة التي برفقة يسوع، أنها كبيرة السن تكاد تكون بعمر أمه ومن خلال النظر إليها ترى كأنها تكاد تعرف كل شيء في الحياة، ولو صغناها باعتدال، أكثر من كل ذلك الكثير الذي يعرفه يعقوب عن الحياة، وهو هنا في هذه القرية البعيدة. لذلك ألقت مريم بحملها على يوسف، الابن الذي يذكرها اسمه بزوجها الراحل، لكنه قدم لها القليل من العزاء، إننا ندفع ثمن خطأنا يا أمي، بعد أن كنا مع يسوع، أخشى أننا لن نراه يعود إلى البيت، يقول الناس أنه أخمد عاصفة وأخبرنا الصيادون بأنفسهم أنه ملأ قواربهم بالسمك وكأن ذلك سحراً. هذا يعني أن الملاك كان محقاً، فسألها يوسف، أي ملاك، فأخبرته مريم بكل الذي حدث، منذ ظهور الشحاذ الذي وضع التراب المضيء في الإناء إلى ظهور الملاك الغامض في أحلامها. لم يعقدا تلك الأحاديث في الداخل، إذ من المستحيل على الفرد الحصول على خصوصية وسط هذه العائلة الكبيرة. عندما يرغب مثل هؤلاء الناس في أن يفشوا أية أسرار يذهبون نحو الصحراء حيث قد يقابلون الرب حتى. كان يوسف ومريم لا يزالان متعمقين في حديثهما عندما نظر يوسف من فوق كتف أمه ليرى قطيع أغنام وماعز وهو يمر مع راعيه فوق

التلال البعيدة. لم يبدُ القطيع كبيراً، ولا يبدو على الراعي أنه طويل جداً، لذلك ظل ينظر إليه دون أن يتلفظ بكلمة. وحين تنهدت أمه قائلة، لن أرى يسوع ثانية، أجابها وهو مستغرق في التفكير، من يدري.

كان يوسف محقاً. بعد سنة أرسلت ليزا رسالة إلى أمها تدعوها بتأييد من حميها وحماتها لزيارة قانا لحضور زفاف شقيقة زوجها الصغيرة ولها أن تأتي معها بما تريده من الأطفال لأنهم جميعاً سوف يرحب بهم. ورغم هذه الدعوة الكريمة كانت مريم مترددة من أن تكون حملاً ثقيلاً فلا شيء أكثر تعباً من أرملة مع مجموعة أطفال، لذلك قررت أن تأخذ فقط المقربين حالياً إليها، يوسف وليديا، اللذين، مثل كل الذين في سنهما، يحبان الحفلات والاحتفالات. ليست قانا بعيدة عن الناصرة، فلا تبعد أكثر من نصف ساعة لو حسبت وفق زماننا، ومع وجود الخريف الذي كان هناك، فمن المؤمل أن تكون هذه نزهة محببة جداً، حتى لو لم يكن هنالك حفل زفاف في انتظارهم. انطلقوا عند الفجر لغرض الوصول إلى قانا في الوقت الملائم كي تتمكن مريم من المساعدة في عمل التحضيرات الأخيرة للاحتفال حيث يكون العمل المطلوب متلائماً مباشرة مع متعة وسعادة الضيوف. جاءت ليزا لتقابل أمها وأخيها وأختها وعانقتهم بحنان. تساءلت عن صحتهم وسعادتهم، وهم بدورهم سألوها إن كانت بخير وسعيدة، ولأن كان هنالك الكثير مما ينبغي عمله فقد تحركوا سريعاً. ذهبت ليزا ومريم إلى منزل العريس، حيث يقام الاحتفال تقليدياً، للاشتراك في الطبخ مع النسوة الأخريات من العائلة. وبقي يوسف وليديا في الباحة مع بقية الأطفال في سنهما، الأولاد يلعبون مع الأولاد، والبنات يرقصن مع البنات، حتى حان وقت البدء بشعائر الزواج. ثم ركضوا جميعاً أولاداً وبنات خلف الرجال الذين يرافقون العريس، إذ يحمل أصدقاؤه المشاعل المعتادة على الرغم من أنه كان صباحاً مشمساً براقاً، إلا أن ذلك الضوء الصغير الإضافي،حتى

ذلك الذي يأتي من المشعل، شيء لا يستهان به. وجاء الجيران مبتسمين لتحيتهم، متخرين التهاني للحظة عودة الموكب وهو آتٍ بالعروس. وفات يوسف وليديا أن يشاهدا ما بعد ذلك، ولكنهما كانا قد شاهدا من قبل شعائر زواج في عائلتهما، إذ يقوم العريس بطرق الباب ويطلب رؤية العروس، وتظهر الأخيرة محاطة بصديقاتها اللائي يحملن مصابيح زيتية صغيرة تلائم النساء أكثر من المشاعل الكبيرة الملتهبة. ثم يرفع العريس الغشاء عن وجه عروسه ويصيح بفرح لحصوله على مثل هذا الكنز وكأنه لم يرها آلاف المرات من قبل خلال الاثني عشر شهراً من الغزل والنوم معها متى شاء. فاتت هذه اللحظات على يوسف وليديا لأن يوسف، الذي حدث أنه كان ينظر إلى الشارع، شاهد فجأة رجلين وامرأة من بعيد. وعند معرفته ليسوع والمرأة التي معه، شعر كأنه كان يجرب الإحساس الغريب للمرة الثانية. فنادى أخته، انظري، إنه يسوع، وانطلقا لاستقباله، لكن يوسف توقف فجأة، وتذكر أمه والبرود الذي قابله فيه أخوه هناك عند البحر، كفاك منه، ذلك شيء صحيح. مثل الرسالة التي طُلب منه ومن يعقوب أن يوصلاها، وبعد أن فكر في نفسه أنه سيتحتم عليه في الأخير أن يوضح سلوكه ليسوع، فقد آثر العودة. وقبل أن يختفي حول الزاوية ألقى بنظرة أخرى وشعر بالحسد الشديد عندما رأى أخاه يحضن ليديا بذراعيه، مثل ريشة طائرة، وخنقها بالقُبل، بينما يتطلع الرجل والمرأة باستحسان. عند ذاك امتلأت عيون يوسف بدموع الاحباط وراح يركض ويركض، ودخل المنزل وعبر الباحة قافزاً ليتفادى التعثر بالأقمشة الحريرية والمؤن المهيئة على الأرض والطاولات المنخفضة ونادى، أماه يا أماه. إن صوتنا المميز هو النعمة الإلهية التي تنقذنا، وإلا لكُن الأمهات في كل مكان سيتطلعن لرؤية أولاد غيرهن. فبمجرد أن نظرت مريم وفهمت ما قاله يوسف، بأن يسوع سيمرّ من هنا، شحب لون وجهها، ثم عاد ليتورد، ابتسمت، ثم صارت جادة وشحب لونها مرة أخرى، وجعلتها هذه المشاعر المضطربة تجلب

يدها إلى صدرها وكأن قلبها لم يعد ينبض وتراجعت إلى الجدار. من معه؟ أجابها يوسف، رجل وامرأة، وليديا التي لا تزال معه، أهي تلك المرأة التي رأيتها من قبل؟ أجل يا أمي، لكنني لا أعرف الرجل. رافقتهما ليزا، التي تطلعت إلى معرفة الأمر، غير مدركة لإيما شيء، ما الأمر يا أمي، لقد حضر أخوك للمشاركة في الزفاف، أتعنين أن يسوع هنا في قانا، أجل، لقد رآه أخوك يوسف تواً. كبحت ليزا فرحتها ولم تستطع كبح ابتسامتها وهي تدمدم لنفسها، أخي، وغطت تلك الابتسامة الهادئة قناعتها العميقة. قالت، دعونا نذهب لاستقباله، فقالت أمها بأسلوب دفاعي، إذهبي أنت، سأبقى أنا هنا، والتفتت إلى يوسف وقالت له، إذهب مع أختك. لكن يوسف لا يزال يشعر بالامتعاض لأن ليديا كانت أول من عانق يسوع، وأن ليزا لا تملك الشجاعة في أن تذهب إليه منفردة، لذلك بقوا هناك، مثل ثلاثة مجرمين ينتظرون الحكم وهم غير واثقين من عدالة الحاكم، إن يكن لكلمتي الحاكم والعدالة أي معنى هنا.

ظهر يسوع عند المدخل حاملاً ليديا بين ذراعيه وتبعته مريم المجدلية،ولكن كان أول من دخل هو اندراوس الرجل الآخر من المجموعة والذي له صلة قرابة بالعريس كما توضح ذلك سريعاً عندما قال لأولئك الذين جاؤوه مبتسمين مرحبين، كلا، لا يتمكن سمعان من المجيء، وبينما انغمس البعض من الحاضرين بلم الشمل العائلي هذا، حدج الآخرون بعضهم البعض من فوق هوة، سائلين أنفسهم من ذا الذي سيكون الأول في أن يخطو على ذلك الجسر الهش الضيق، على الرغم من أن كل شيء لا يزال يربط هذه الجهة بتلك. لن نقول كما قال شاعر مرة، الأطفال أكبر فرحة في هذا العالم، ويعود لهم الفضل حين ينجح الكبار أحياناً في اتخاذ الخطوات الصعبة دون أن يخسروا حياءهم، حتى لو يكتشفون فيما بعد أنهم ما كانوا قد ذهبوا بعيداً. انزلقت ليديا من بين ذراعي يسوع وهرعت نحو أمها، وكما يحدث في مسرح الدمى، فكل

حركة تتطلب أخرى، وبعد ذلك أخرى. توجه يسوع نحو أمه وأخيه ليحييهما منتحباً، بنغمة من اعتاد أن يكون معهم كل يوم ثم رحل، تاركاً إياهم جميعاً في ذهول. وتبعته مريم المجدلية وحينما مرت بمريم الناصرية، حدقت المرأتان، الشريفة والسيئة السمعة، ببعضهما البعض، من غير عدائية ولا ازدراء بل بما ينم عن فهم متبادل، لا يمكن أن يفهمه إلا الذين ألفوا التواءات التيه في القلب الأنثوي. كان الموكب يقترب وسمعت أصوات الصياح والإطراء والذبذبات المرتجفة للرق والأوتار المتباعدة للقيثارات الصغيرة وإيقاع الرقصات والأصوات الحادة إذ يبتغي الجميع الكلام بآن واحد وبعد ثوان احتشد الضيوف في الباحة، ويكاد العريس والعروس أن يندفوا بقوة وسط التهليل والتصفيق حينما حضرا أمام الوالدين ونسبائهم لينالوا التبريكات. كانت مريم تنتظر أيضاً كي تقدم تبريكاتها كما باركت ابنتها ليزا، كانت في ذلك الوقت كما الآن فاقدة لزوجها و ابنها الكبير لتتخذا مكانتهما الصحيحة على رأس العائلة. حين جلسوا لتناول الطعام، قدموا ليسوع مكاناً خاصاً، فقد نبه اندراوس أقرباءه سراً بأن هذا هو الرجل الذي ملأ الشباك الخالية بالسمك وأخمد العاصفة، لكن يسوع رفض ذلك التشريف واختار أن يجلس مع الضيوف الذين جلسوا بعيداً عن حفل الزفاف. خدمت مريم المجدلية يسوع ولم يتساءل أحد عن حضورها. وكذلك ذهبت إليه ليزا عدة مرات لتتأكد من راحته هناك وعامل يسوع المرأتين بالطريقة ذاتها. وكانت أمه وهي تراقب الذاهبين والآيبين من الجهة البعيدة قد التقت عيناها بعيون مريم المجدلية. فدعتها إلى زاوية هادئة من الباحة وقالت لها دونما تردد، اهتمي بابني لأن ملاكاً قد حذرني بأن محناً عضالاً في انتظاره وأنا عاجزة عن تقديم العون، لكِ أن تعتمدي علي في حمايته والدفاع عنه بحياتي إن اقتضت الضرورة، ما اسمك، يسمونني مريم المجدلية وقد عشت عاهرة حتى التقيت بابنك. ولم تقل مريم شيئاً، ولكنها راحت ترى الأشياء بوضوح أكثر حين استعادت ذكر تفاصيل معينة،

كالدراهم، والإجابات الحذرة التي قالها يسوع حين سؤل من أين أتى بالمال، والكلام الناقم الذي قاله يعقوب عن مقابلته ليسوع والإشارات المخزية التي قالها بشأن المرأة التي ترافق أخيه. إنها وقد عرفت كل شيء التفتت نحو مريم المجدلية، لتؤكد لها، سأظل دائماً أباركك وأقر لك بالعرفان لعملك الطيب مع ابني، يسوع، قالت مريم المجدلية وقبلت كتفها إجلالاً لكن مريم الأخرى أحاطتها بين ذراعيها وحضنتها بقوة، وبقيتا هناك بضع دقائق متعانقتين بصمت قبل أن تعودا إلى المطبخ حيث ثمة عمل في انتظار أن ينجز.

استمرت مراسيم الاحتفال. وجيء بالإناء بعد الآخر من المطبخ وسكب النبيذ من الأباريق، وراح الضيوف يغنون ويرقصون عندما جاء رئيس الخدم فجأة وهمس في آذان والدي العروس والعريس، أن النبيذ قد نفد. وما كانوا سيستنفرون هكذا لو علموا أن السقف آيلاً للسقوط. ما الذي سنفعله الآن، كيف سنواجه ضيوفنا ونخبرهم أن النبيذ قد نفد، في الغد سيعلم جميع من في قانا بالعار الذي لحق بنا، وتنهدت والدة العروس قائلة، يا لأبنتي المسكينة، كم سيسخر منها الناس، قائلين أن حتى النبيذ قد جف في يوم زفافها، ما الذي فعلناه كي نستحق هذا، وأية بداية زواج مشؤومة. كان الضيوف يحتسون كؤوسهم على الطاولات، والبعض منهم يتلفتون بحثاً عمن يقدم لهم المزيد من النبيذ، وعند ذاك قررت مريم، التي وثقت من قبل بواجباتها الأمومية والتزاماتها إزاء المرأة الأخرى، بأن تضع القدرات الإعجازية ليسوع في الاختبار قبل أن تنسحب إلى صمت بيتها، إذ أنهت مهمتها على الأرض وهي مستعدة لمغادرة هذا العالم. بحثت فيما حولها عن مريم المجدلية، ورأتها تغمض جفنيها وتهز رأسها موافقة. فأسرعت نحو يسوع دون أن تضيع الوقت، واثقة من أنه سيفهم ما الذي تبتغيه منه، قالت، لقد نفد النبيذ. إلتفت يسوع ببطء نحو أمه، ونظر إليها وكأنها كانت تتكلم من مكان بعيد وسألها،

أيتها المرأة، ما الذي أفعله لك، وراح يقذف بالكلمات التي صدمت وأدهشت الذين سمعوها، فلا إبن يعامل أمه التي جاءت به إلى هذا العالم بهذه الطريقة. مع مرور الوقت، فإن تلك الكلمات ستروى وتفسر بأساليب مختلفة لجعلها أقل قساوة. البعض من الناس حاول تفنيدها أو تغيير معناها تماماً بالإصرار على أن يسوع قال في الحقيقة، لماذا تضايقيني بهذا، أو، وما شأني بذلك، أو، من طلب منك التدخل، أو، لماذا يتحتم علينا أن نتدخل في هذا، أيتها المرأة، أو، لماذا لا تتركين هذا الأمر لي، أو، أخبريني بما تريدينه، وسأرى ما عليّ عمله، أو، أنت تعرفين تماماً أن بإمكانك الاعتماد عليّ لأن أفعل ما بوسعي لإسعادك. تحملت مريم الوطأة الثقيلة لتلك الكلمات، وقاومت نظرة يسوع الرافضة، ووضعت ابنها في موقف حرج، وأنهت تحديها بالقول للخدم، افعلوا ما يأمركم به. راقب يسوع أمه تبتعد دون أن يقول كلمة واحدة أو أن يسعى إلى إغاضتها، لأنه كان مدركاً أن الإله كان يستخدمها مثلما استخدم العاصفة وورطة الصيادين. رفع يسوع كأسه الذي كان لا يزال يحوي البعض من النبيذ، وأمر الخدم، وهو يشير إلى جرار الماء الستة الحجرية التي تستخدم للتطهير، إملؤها بالماء، وعند ذلك ملأوها حتى الحافة وحملت كل جرة اثنين إلى ثلاثة مقادير. إجلبوها إلى هنا، أمرهم فأطاعوه. بعد ذلك سكب يسوع في كل جرة بضع قطرات من النبذ الذي في كأسه، وأمر الخدم، خذوها إلى رئيس الخدم، وبعد أن اختبر الماء الذي لونته القطرات القليلة من النبيذ، استدعى العريس وقال له، يُقدم لكل رجل من النبيذ الجيد في البداية وبعد أن يشرب الضيوف كفايتهم يقدم النبيذ الأقل جودة، وتكون قد احتفظت بأجود النبيذ حتى الآن. كان العريس الذي لم ير أبداً من قبل أن النبيذ يقدم بمثل هذه الجرار والذي كان يعرف، إضافة لهذا، أن النبيذ قد نفد، ذاقه بنفسه وعزز ذلك ما كان واضحاً بتعابير تواضع كاذب وأشار إلى النوعية الممتازة لهذا الشراب المصنوع من الكروم. ولأن الناس لم يكن لديهم في هذه المعجزة رأي،

لأنها تمثلت فقط من خلال بعض الخدم الذين أشاعوا الأخبار في اليوم التالي، لذلك كانت هذه المعجزة محبطة، وفيما يخص رئيس الخدم، إن يكنِ غير واع للتحول، كان سيبقى غير واع، بينما كان العريس منشرحاً جداً لأن ينال شرف إنجاز الآخر. لم يتوقع أحد من يسوع أن يتجول قائلاً، لقد قمت بهذه المعجزة وتلك، ومن غير المحتمل أن تقوم مريم المجدلية التي اشتركت في الخطة من بعيد بالفاخرة، لقد قام بمعجزة، والأقل احتمالاً أن تقوم أمه بذلك، لأن ذلك كان أمراً بين مريم وابنها أما البقية فشيء إضافي بكل ما في الكلمة من معنى، كما سيشهد بذلك أي واحد من الضيوف الذين أعيد ملء كؤوسهم.

لم تتحدث مريم الناصرية وابنها بالمزيد. وغادر يسوع ومريم المجدلية في عصر ذلك اليوم إلى تيبرياس دون أن يودعا أحداً. وتبعهما يوسف وليديا دون أن يعلم بهما أحد حتى أطراف القرية حيث بقيا يراقبانهما إلى أن اختفيا في منعطف الطريق.

ثم ابتدأ الإنتظار الطويل. كانت العلامات التي أظهر من خلالها الإله نفسه حتى الآن في شخص يسوع هي أشياء أكثر بقليل من بعض السحر الذكي، خدع بكلام ساحر، مع القليل من التعاويذ السريعة التي لا تختلف عن خدع معروفة يؤديها سحرة شرقيون بمهارة أكبر، مثال ذلك رمي حبل في الهواء ثم تسلقه دون أن تكون هناك أية علامة مرئية للإسناد إما من مشبك ثابت أو يد جني لا يرى بالعين. ومن أجل أن يفعل يسوع هذه الاشياء المدهشة، كان عليه ببساطة أن يصمم عليها، ولكن لو حدث وسأله أي أحد لماذا فعلها، لكان سيكون في حيرة من أمره من أي جواب غير أن يقول أنه بالكاد أهمل أمر ورطة الصيادين الذين كانت شباكهم فارغة، والرعب الذي أصاب الناس نتيجة العاصفة الهائجة، أو النقص المفاجئ في النبيذ في حفل الزواج، ذلك لأن الساعة الحقيقية لم تحن بعد لأن يتكلم الإله عبر شفاهه. القرويون الذين يسكنون

على هذا الجانب من الجليل كانوا يقولون إن رجلاً من الناصرة يتجول عارضاً قدراته التي لا يمكن أن تأتي إلا من الرب، وهذا ما لا ينكره هو، ولكن في غياب أي دافع أو سبب أو تبرير لظهوره الغامض فيما بينهم، فإنهم أيضاً قد يستفيدون من هذا الفيض المفاجئ ولا يطرحون أية أسئلة. من الطبيعي أن لا يكون لسمعان وأندراوس المستوى العقلي ذاته، وكذلك شأن أولاد زبيدي، ولكنهم رغم ذلك كانوا أصدقاءه ويخشون على حياته. في كل صباح يستيقظ فيه يسوع كان يسأل نفسه صامتاً، ربما اليوم، وفي بعض الاحيان يقوم حتى بطرح السؤال بصوت عالٍ كي تسمعه مريم المجدلية، فتضمه بين ذراعيها وتقبله على جبهته وعينيه بينما يتنفس العطر العذب والفاتر الذي يضوع من نهديها. وفي ليال مثل هذه يعود فيها إلى النوم، وفي ليال أخرى عندما ينسى السؤال وقلقه ويأوي إلى جسد مريم المجدلية وكأنه يدخل في شرنقة حيث فقط من الممكن ان يولد ثانية في شكل آخر. وفيما بعد كان سيهبط إلى البحر حيث ينتظره الصيادون، وحيث لن يفهمه الغالبية منهم ويلحون عليه في السؤال لماذا لا يجعل لنفسه قارباً خاصاً به ليصيد منفرداً ويستغل الصيد بأكمله لنفسه. وفي مناسبات معينة، وعندما يكونون في عرض البحر، وهم في فترة راحة ضرورية بين فترات الصيد على الرغم من أن الصيد غدا عملاً سهلاً وعرضياً كالتثاؤب. كان يحدث ليسوع هاجس مفاجئ ويرتعش قلبه، ولكنه بدلاً من أن يلتفت نحو السماء، حيث موضع الرب، حسبما نعلم، فإن عينيه تستقران بشوق مسكون بالهواجس على وجه البحيرة الهادئ، على تلك المياه اللامعة مثل أصفى بشرة، وكأنه في انتظار الرغبة والخوف، ليرى ما يخرج من الأعماق، الذي يشير إليه الصيادون على أنه سمكنا، وما يظنه يسوع بأنه الصوت الذي يأتي متنداً. انتهي يوم الصيد، وعاد القارب محملاً، وسار يسوع منخفض الرأس مرة أخرى بمحاذاة الشاطئ وتتبعه مريم المجدلية في الخلف، وكأنه يبحث عن أحد ما يطلب منه التطوع لمساعدته ويكون له رقيباً.

وهكذا مرت الأسابيع والشهور وحتى السنوات، التغير الوحيد الملحوظ في تيبرياس أن المزيد من البنايات قد ارتفعت مع ازدهار المدينة، أما غير ذلك فجرت الأمور عادية في هذه الأرض التي تبدو أنها تهلك مع كل شتاء وتعود لتولد من جديد مع كل ربيع، وهذه ملاحظة زائفة وخدعة تامة من ناحية الحواس، ذلك لأن الربيع ليس له تأثير فما بالك بالسبات الشتوي.

بلغ يسوع الآن الخامسة والعشرين من العمر وبدأ الكون بأكمله يصحو فجأة، وبدأت تظهر علامات جديدة الواحدة بعد الأخرى، وكأن شخصاً ما يحاول تائقاً أن يجمع الوقت الضائع. ولغرض تبيان الدقة فإن أول هذه العلامات لم يكن معجزة بالضبط، فمهما يكن من الأمر ليس ثمة ما هو على جبهتها، فذلك شيء نفعله جميعاً على نحو غريزي في بعض الأحيان، دون ان نتوقع أن يشفى المريض من خلال هذه الحركة البسيطة البعيدة عن السحر. وما لا يتوقعه المرء، على أية حال، أن الحمى لابد أن تنخفض تحت أصابع يسوع مثلما تمتص التربة الماء السام، أو أن على العجوز أن تقوم على الفور وتقول، شيئاً غير مترابط، كل من يصادقني، يصادق زوج ابنتي، ثم تتوجه نحو شؤون منزلها وكأن لا شيء قد أصابها. هذه العلامة الأولى كانت أمراً خاصاً وحدثت داخل البيوت، لكن الثانية كانت غير ملائمة أكثر من التي قبلها لأنها وضعت يسوع في صراع مفتوح مع الناموس المكتوب والعرفي، ولربما على نحو مبرر، واصفين في الذهن السلوك البشري العادي، لأن يسوع كان يعيش مع مريم المجدلية بما هو خارج عن الحياة الزوجية، وهي عاهرة في السابق، لذلك ليس من الغريب أن يتدخل يسوع عند رؤيته لزانية ترمى بالحجر حتى الموت وفقاً لناموس موسى ويقول، توقفوا، من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر، وكأنه كان يقول، لو انني لم أتخذ لي محظية ولم أتلوث بالأفعال الشائنة ولا الأفكار، لكنت

سأنظم إليكم أيضاً في تنفيذ هذا العقاب. كان يسوعنا يقوم بمجازفة خطيرة لأنها ربما كانت ستتسبب في أن تجعل أكثرهم قسوة وصلابة إلى أن يتحولوا إلى الصمم ولا يسمعون توبيخه ويستمرون في رمي الحجارة لأنهم مستثنون من الناموس الذي يطبقونه على النساء فقط. الذي يبدو أنه ساعد على نجاة يسوع، ربما من قلة الخبرة، هو أننا إن انتظرنا ظهور القضاة المنافقين، الذين يؤمنون انهم يحملون وحدهم الحق الاخلاقي بالادانة والعقاب، لكان من المحتمل أن تزداد الجريمة على نحو مثير ولنمت الخطيئة وسيفتح المجال للدعارة، مرة مع هذا الرجل، وفي المرة الأخرى مع رجل آخر، وتصاحب الدعارة ألف رذيلة مما دعا الإله بأن يبعث النار والحمم على مدينتي سيدوم وقومورة، التي أحالها إلى رماد. لكن الشر ولد مع العالم، ومنه تعلم العالم كل شيء يعرفه، إنه أيها الأخوة الأعزاء، مثل العنقاء الشهيرة التي لم يرها أحد والتي، حتى حين تبدو أنها تهلك محترقة، فإنها تولد من جديد من بيضة تفقس من رمادها. الخير هش ورقيق. والشر لا يحتاج إلا لنفخ النفس الساخن للخطيئة التي تغتفر على وجه الطهارة لأنها تصبح ندباً أبدياً، حتى ينكسر ساق الليل وتذبل زهرة البرتقال المتفتحة. أمر يسوع العاهرة، اذهبي ولا تخطأي، لكنه في أعماقه كانت لديه الشكوك القاتلة.

وحدثت حادثة أخرى مهمة على الجانب المقابل من البحر حيث قرر يسوع أن عليه الذهاب لبعض الوقت كي لا يقال أن كل اهتمامه ورعايته منصبان بإسراف على الضفة الغربية. لذلك استدعى يعقوب ويوحنا واقترح عليهما، دعونا نكتشف الجهة الأخرى التي يسكنها الغادارينيين لنرى ما الذي سيجلبه الطالع لنا وبإمكاننا أن نصطاد شيئاً من السمك عند عودتنا ليكون لدينا شيء ما نعرضه عن رحلتنا. تحمس أولاد زبيدي لهذه الفكرة، وبعد أن هيأوا قاربهم، راحوا يجذفون، متأملين أن يهب النسيم ليساعدهم في اجتياز المسافة. وقد أستجيب لصلاتهم، لكن

ابتهاجهم سرعان ما تحول إلى إنذار عندما هبت عاصفة تعد بأن تكون أكثر عنفاً من تلك التي جربوها قبل سنين مضت، لكن يسوع وبخ المياه والسماوات، ما هذا، ما الذي يحصل هنا، وكأنه كان يوبخ طفلاً مشاكساً، فهدأ البحر فوراً وعادت الريح لتهب وفق السرعة المرتجاة والاتجاه الصحيح. ترجل الثلاثة وسار يسوع في الأمام وخلفه يعقوب ويوحنا. لم يكونوا قد زاروا هذه المنطقة من قبل أبداً وقد اندهشوا لكل شيء رأوه، ولكن أغرب مشهد يثبط الهمة شاهدوه في الطريق هو الظهور المفاجئ لرجل، إن يكن من الممكن استخدام هذه الكلمة لوصف كائن قذر ذي لحية متلبدة وشعر أشعث. كانت الرائحة التي تنبعث منه نتنة كرائحة القبر، وذلك ليس غريباً، لأنهم كما اكتشفوا سريعاً أن ذلك الرجل المسكون بالروح الشريرة يأوي إلى القبور كلما أستطاع التخلص من الأغلال والسلاسل التي يقيدونه بها. ولو أنه كان ببساطة مخبولاً، على الرغم من أن من المعروف أن قوة المخبول تتضاعف عندما يستثار، لكان من الممكن أن يقيد بمضاعفة الأغلال والسلاسل. وقد حاولوا ذلك مرة دون جدوى وكرروا التجربة عدة مرات دونما فائدة لأن الروح الشريرة التي تلبست ذلك الرجل وتحكمت به قد سخرت من أية محاولة في تقييده. كان ذلك الرجل الممسوس يتجول ليلاً ونهاراً متسلقاً الجبال هارباً من نفسه ومن ظله، ليعود كي يختفي بين القبور وغالباً في داخلها، حيث يُخرج من هناك عنوة ليرعب أي شخص صادف أن مر من هناك. وهكذا رآه يسوع أول مرة، الحراس الذين خلفه لوّحوا بأذرعهم ليسوع أن يبتعد عن الخطر، بيد أن يسوع جاء ليبحث عن مغامرة ولن يدع هذه الفرصة تفلت منه لأي سبب كان. وعلى الرغم من أن يوحنا ويعقوب قد خشيا من مظهر المجنون، فإنهما لم يتخليا عن صديقهما، ولذلك كانا أول من سمعا كلمات لا يتوقع أحد أن أحداً ما سيتفوه بها لأنها كانت تنتقد الإله ونواميسه، كما سنكتشف ذلك قريباً. تقدم المجنون الهائج بمخالبه الممدودة وأنيابه المكشرة التي

كانت تتعلق بما تبقى من لحمه المتعفن جاعلاً شعر يسوع ينتصب من الرعب، وفجأة في تلك اللحظة إنكب المخلوق الممسوس على الأرض على بعد خطوتين وصرخ، ما الذي تريده مني، يا يسوع، يا ابن الإله القادر، أتوسل إليك باسم الرب أن تتوقف عن تعذيبي. الآن، كانت هذه هي أول مرة وفي العلن، وليس سراً في الأحلام الخاصة التي يدعونا التعقل والشكوكية لأن نشك بها، يجهر صوت، وهو صوت شيطاني إن يكن ثمة مثل هذا الصوت، ليدعي أن يسوع الناصري هذا كان ابن الرب، وهو شيء لم يكن مدركاً له هو نفسه حتى هذه اللحظة، لأنه خلال محادثته مع الرب في الصحراء لم يطرح سؤال الأبوة. سأحتاجك فيما بعد، هذا هو كل ما قاله الإله، ومن غير الممكن لأحد أن يثق بالمظاهر، على اعتبار أن أباه السماوي قد جاء قبله متخفياً في غيمة وعمود من الدخان. إنحنى الرجل الممسوس على قدميه، وقد فضح صوت في داخله ي الأخير ما كان من قبل مستوراً، وفي تلك اللحظة، ومثل شخص رأى نفسه للتو منعكساً في آخر، فشعر يسوع أنه هو أيضاً قد أصابه مس وهو تحت رحمة قوى ما قد تقوده إلى مكان مجهول حيث يكون دونما شك قبر القبور في نهاية الأمر. سأل الروح، ما اسمك، وأجابت الروح، الفيلق، ذلك لأننا كثير. فقال يسوع بلهجة آمرة، اتركي هذا الرجل أيتها الأرواح الوسخة. وما كاد ينهي كلامه حتى ارتفعت أصوات جماعية شيطانية، البعض منها مزمارية وحادة، والأخرى عميقة وأجشة، والبعض الآخر رقيق كأصوات النساء، والأصوات الأخرى غليظة كصوت منشار يقطع حجراً، البعض منها تسخر وتوبخ، والأخريات يرتجين بخضوع زائف كخضوع الفقراء، وغيرها في حالة غطرسة، وغيرها تعوي، البعض تثرثر كالأطفال الذين يتعلمون كلماتهم الأولى، والأخريات يصرخن كالأشباح ويتأوهن وكأنهن في كرب شديد، لكنها كلها تتوسل إلى يسوع بأن يسمح لها بالبقاء في تلك الأماكن التي اعتدن عليها، فكلمة واحدة منه تكفي لأن

تطردهن خارج جسد الرجل. توسلت إليه الأرواح الشريرة، إرحمنا، لا تطردنا من هنا. فسألها يسوع، قلنَّ لي إذاً، إلى أين تردن الذهاب. وحدث أن كان هناك قطيع من الخنازير يرعى على منحدرات الجبل القريب، تضرعن إلى يسوع، اسمح لنا أن ندخل في الخنازير. فكر يسوع للحظة وقرر أن ذلك هو الحل الصحيح. من المؤكد أن تلك الحيوانات كان تعود إلى الجنتيلين، لأن لحم الخنازير يُعد غير نظيف وهو محرم على اليهود. لم يخطر ببال يسوع أن من خلال أكل الخنازير سوف يلتهم الجنتيليون الشياطين التي في داخلها ويصبحون ممسوسين، تماماً مثلما فشل هو في التنبؤ بالأحداث السيئة التي ستلي ذلك، ولكن في الواقع حتى ابن الرب، الذي لابد له أن يعتاد على مثل هذه القرابة السامية، لا يمكنه التنبؤ، كما يحدث في الشطرنج، بكل ما ستنتجه حركة بسيطة أو قرار مفاجئ. راهنت الأرواح الشريرة برهاناتها بفرح غامر وانتظرت جواب يسوع، وعندما قال نعم، وسمح لهم بالانتقال إلى الخنازير، تقافزت فرحاً وسكنت متلهفة في الحيوانات بقفزة انقضاض واحدة. وفجأة جن جنون الخنازير، إما بسبب الصدمة غير المتوقعة أو لأنها لم تعتد أن تسكنها الشياطين فرمت بأنفسها من فوق الصخرة العالية، بعددها الألفين، لتنتهي في البحر حيث غرقت. وكان غضب مربي الخنازير الذين يرعون هذه الحيوانات البريئة لا يمكن وصفه. في لحظة كانت المخلوقات المسكينة تعتشب مسترخية في نزهتها لتقف راسخة في أية أرض طرية وتبحث فيها عن جذور وديدان وتنبش براثنها بين كتل الأعشاب المتفرقة على السطح الجاف، وفي اللحظة التي تلتها هبطت إلى الأسفل في الماء، إنه مشهد يدعو للشفقة، فالبعض منها قد نفق من قبل وطفا، أما الأخريات فلم يكن لديها الاحساس بما يحصل لها، لكنها قامت بآخر محاولة باسلة بأن تبقي أُذنيها فوق الماء، فكما يعرف الجميع، أن الخنازير لا يمكنها أن تغلق طبلتي أُذنيها وحين يدخل الكثير من الماء فيها، فذلك ما يجعل المسكينة تغرق.

وراح مربو الخنازير الغاضبون يرمون بالحجر على يسوع ورفاقه وتبعوهم لهدف مبرر هو المطالبة بالتعويض، مبلغ كبير لكل رأس مضروب بألفين، رقم من السهل حسابه. ولكنه ليس من السهل تسديده. من النادر ان يكسب الصيادون الكثير من المال وهم يعيشون حياة كفاف، وليس بإمكان يسوع حتى الادعاء بأنه صياد. رغم ذلك قرر الناصري أن يواجه مربي الخنازير الغاضبين، ليشرح لهم أنه ليس ثمة ما هو أكثر شراً في هذا العالم من الشيطان ومقارنة بألفي خنزير شيطاني فهذا لا شيء هنا وهناك، ثم، إضافةً لذلك، فقد حكم علينا جميعاً بأن نعاني من الخسارة، المادية أو غيرها، فاصبروا يا أخوتي، هكذا أزمع يسوع أن يقنعهم عندما يقابلهم وجها لوجه. لكن آخر شيء كان يعقوب و يوحنا يريدانه هي مقابلة ساخنة أخرى مع مربي الخنازير. فمن الواضح أن مثل هذه المواجهة ستكون بعيدة عن السلم، وأي عرض للصداقة والمحبة من جهتهم من غير المحتمل أن يهدئ غضب أولئك الأجلاف العازمين على الانتقام. لذلك أذعن يسوع متردداً لكلامهما الذي بدا له معقولاً أكثر مع اقتراب سقوط الحجارة أقرب فأقرب. فهبطوا المنحدر مسرعين إلى حافة الماء وقفزوا في قاربهم، وراحوا يجذفون بأقصى سرعة، حيث سرعان ما ابتعدوا عن الخطر. وكما هو معروف فإن مربي الخنازير من النادر أن يقوموا بالصيد ولو كانوا يملكون أي قارب فلا أثر لهم. قال يعقوب، ضاعت بعض الخنازير وأنقذت روح، والرابح هو الرب. نظر إليه يسوع، من الواضح أن أفكاره كانت مشغولة بشيء آخر، شيء ما يتوق الشقيقان أن يسمعاه ويناقشاه وهما يحدقان في يسوع، إنه الاكتشاف القريب الذي أباحت به الشياطين بأن يسوع كان إبن الرب، بيد أن يسوع كان يحدق في الضفة التي هربوا منها. كان يراقب البحر، الخنازير طافية وتتدحرج على الأمواج، ألفا حيوان بريء، وبإمكانه أن يشعر بالغيظ وهو يرتفع في داخله ويبحث له عن مخرج حتى صرخ، بعد أن فقد التحكم بنفسه، الشياطين، أين

الشياطين، ثم أطلق ضحكة مدوية باتجاه السماء، استمع إليّ، يا إلهي، فأنت إما أسأت الاختيار في هذا الولد الذي لابد له أن ينفذ خططك وفقاً لما أخبرتني به هذه الشياطين، أو ثمة شيء مفقود من بين قِواك الألف وواحد وإلا لكنت قادراً على دحر الشيطان، فسأله يوحنا مذعوراً من هذا التحدي الجريء، ما الذي تقوله، إنني أقول أن الشياطين التي كانت تسكن الرجل الممسوس حرة الآن، ذلك لأن الشياطين، كما تعرف، لا تموت يا أصدقائي، فحتى الرب لا يمكنه قتلها، ومع كل الخير الذي فعلته هناك، لربما كان عليّ أيضاً أن أقطع البحر بسيف. في الجانب الآخر ثمة حشد كبير يهبط عند الشاطئ، البعض منهم قفزوا إلى الماء لإنقاذ الخنازير التي تطفو قريبة، بينما قفز آخرون في قوارب لينطلقوا لإنقاذ أية خنازير أخرى.

في تلك الليلة ذاتها، وفي بيت سمعان واندراوس الذي كان قريباً من الكنيس، تجمع الأصدقاء الخمسة لمناقشة السر الغريب الذي أباحت به الشياطين من أن يسوع كان ابن الرب. كان أبطال تلك المغامرة يشعرون بالارتباك إزاء تلك الحوادث الغامضة وقد اتفقوا أن يؤجلوا أية مناقشة أخرى حتى يحين الغسق وقد حانت اللحظة الآن ليطرحوا آراءهم. بدأ يسوع بالقول، لا يمكن لأحد أن يثق بأبي الكذب، ومن الواضح أنه يشير إلى الشيطان. قال أندراوس، الصدق والكذب يخرجان عبر الشفاه ذاتها دونما أثر، لا يكف الشيطان عن أن يكون شيطاناً لمجرد أنه قال الحقيقة ربما. قال سمعان، لقد أدركنا سريعاً أنك لست إنساناً عادياً كالبقية منا، في البداية كان ذلك السمك الذي لم نتمكن أبداً من صيده دون مساعدتك، ثم بعد ذلك العاصفة التي كادت تقضي علينا، ثم الماء الذي حولته إلى خمر، ثم العاهرة التي أنقذتها من الموت بالحجارة، والآن هذه الشياطين التي طردتها من شخص تلبسته. فقال يسوع، لست أول من يطرد الشياطين من الناس، فأجاب يعقوب، هذا

صحيح، لكنك أول إنسان يستسلمون له وينادونه بابن الرب القادر، لم يأت استسلامهم بفائدة كبيرة، في النهاية أنا من عانى الخضوع، فقاطعه يوحنا، ليس هذا هو جوهر الموضوع، لأنني كنت هناك وسمعت كل شيء، لماذا لم يتيسر لك بأن تخبرنا أنك ابن الرب، ولكنني لست متأكداً من أنني ابن الرب، كيف يمكن للشيطان أن يعرف إن لم تكن كذلك، سؤال جيد، لكن وحدهما يمكن أن يجيباك، من تقصد بـ «هما»، إنني أقصد الرب، الذي يدعي الشيطان أنني ابنه، وكذلك الشيطان الذي أخذ الخبر من الرب فقط. وساد صمت مفاجئ وكأن كل واحد هناك كان يرغب في أن يمنح القوى المثارة الوقت الكافي لأن تعلن نفسها حتى طرح سمعان في الأخير السؤال الحاسم، ما الذي بينك والرب. تنهد يسوع قائلاً، هذا هو السؤال الذي كنت آمل أن تسألوه منذ مجيئنا إلى هنا، من كان سيتخيل أن ابن الرب سيختار أن يكون صياداً للسمك، لقد أوضحت سابقاً أنني غير مقتنع أنني ابن الرب، فمن أنت إذاً. غطى يسوع وجهه بيديه متسائلاً هل يتحتم عليه أن يبدأ باعترافه الذي يطلبونه منه، إن حياته تغدو فجأة كأنها لأحد آخر، وهكذا كانت، إن تكلمت الشياطين بالحقيقة، فذلك معناه أن كل شيء قد حدث له من قبل لابد أن له معنى آخر، واتضحت له وفق هذا الكشف البعض من تلك الحوادث. أزاح يسوع يديه عن وجهه، ونظراً إلى أصدقائه الواحد بعد الآخر متضرعاً، وكأنه يسلّم بأن الثقة التي يطلبها منهم أكبر من أية ثقة يمكن أن يمنحها إنسان لآخر، ثم أخبرهم بعد توقف طويل، لقد رأيت الرب. لم ينطق أحد بكلمة بل انتظروا. واستمر هو في الكلام خافضاً عينيه، لقد قابلته في الصحراء وأخبرني أنه حين تحين الساعة سيمنحني المجد والقوة مقابل حياتي، لكنه لم يقل لي أبداً أنني كنت ابنه. امتد صمت آخر. تساءل يعقوب، وكيف ظهر لك الرب، مثل غيمة، عمود دخان، هل تأكدت أنها لم تكن ناراً، كلا ليست ناراً بل دخان، ولم يضف أكثر من ذلك، أضاف فقط أنه سيأتي في اللحظة الملائمة، أية لحظة تلك، لا

أعلم حقاً لكنه من المحتمل أن يشير إلى اللحظة التي أضحي فيها بحياتي، وماذا عن هذه القوة والمجد، ستكون هذه مضمونة، من يدري. صمت آخر. كانت الحرارة في الداخل خانقة، لكنهم رغم ذلك كانوا يرتجفون. ثم تساءل سمعان ببطء، هل أنت المسيح الذي علينا أن نناديه بابن الرب لأنك ستأتي لتخلص شعب الرب من العبودية، أنا المسيح، فقاطعه اندرواس مستفزاً، ليس أكثر استغراباً من كونك ابن الإله، فقال يعقوب، المسيح أو ابن الرب، ما لا يمكنني فهمه كيف علم الشيطان بذلك بينما لم يثق بك الإله ويبوح لك بالسر. وقال يوحنا مستغرقاً في التفكير، أتساءل ما هو سر العلاقة بين الشيطان والرب. نظروا إلى بعضهم البعض بضيق وهم مذعورون من معرفة الحقيقة، وسأل سمعان يسوع، ما الذي ستفعله، فأجاب يسوع، الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو أن أنتظر قدوم ساعتي.

كانت الساعة قريبة الأجل ولكن قبل ذلك ستحصل ليسوع فرصتان أخريان ليظهر فيها قدراته الإعجازية، رغم أن من الأفضل سحب ستارة الصمت على الثانية لأنها كانت خطأً فاضحاً من جانبه وتسببت في موت شجرة تين بريئة من كل شر كما هي حال الخنازير التي رمتها الشياطين مندفعة في البحر. على أية حال، كانت أولى هاتين المعجزتين قد استحقت أن تجلب انتباه كهنة أورشليم ولذلك فقد تنقش بحروف من الذهب على باب الهيكل، لأن مثل هذا لم يشاهده أحد من قبل ولا من بعد بالتأكيد. المؤرخون مختلفون في محاولة توضيح السبب الذي يجعل الكثير جداً من الأجناس المختلفة تتجمع في ذلك المكان، الذي كان موقعه المحدد، موضوع نقاش ساخن أيضاً يرى بعض المؤرخين أنه لم يكن أكثر من رحلة حج تقليدية، وقد نسيت جذورها منذ زمن طويل، والآخرون يدحضون هذا الزعم ويصرون على أن الزحمة قد تجمعت هنا بسبب إشاعة، ثبت فيما بعد بطلانها، وتقول الإشاعة بأن مبعوثاً جاء

من روما ليعلن تخفيضاً في الضرائب وأن ثمة أيضاً بعض المؤرخين الذين يحجمون عن طرح أية فرضيات أو عرض أية حلول للمشكلة، فيقولون أن السانجين وحدهم يمكن أن يصدقوا بتخفيض الضرائب أو عكس المسؤوليات المالية على أمل أن يستفيد دافع الضريبة، وبالنسبة لرحلة الحج المجهولة الأصول فإن ذلك من الممكن إثباته بسهولة لو أن أولئك الذين يجدون متعة بالغة بمثل هذه الأوهام لم يجدوا عقبات تنكر وتمحصوا الأمر بجدية تامة. على أية حال، ما هو بعيد عن النقاش، أن ثمة أربعة إلى خمسة آلاف رجل تجمعوا هنا، ناهيك عن عدد النساء والأطفال ومن الواضح أنهم لا يملكون طعاماً ليأكلوه. كيف حدث أن أناساً حذرين، اعتادوا كثيراً على السفر ولا يملكون جراباً مُليء جيداً بالمؤن حتى في أقصر رحلة لهم، يتحتم عليهم فجأة أن يجدوا أنفسهم دونما كسرة خبز أو قطعة لحم، ذلك شيء لا أحد يمكنه توضيحه. لكن الحقائق أن ثمة ما بين اثني عشر وخمسة عشر ألف شخص، بضمنهم النساء والأطفال هذه المرة، خرجوا دون طعام لعدة ساعات والذين لابد لهم أن يعودوا إلى بيوتهم عاجلاً أو آجلاً مخافة أن يموتوا في الطريق من مجرد الإرهاق ما لم يكونوا محظوظين بما فيه الكفاية لأن يقوم عابر سبيل فاضل بإنقاذهم. الأطفال، هم دائماً أول من يتذمر في أي مأزق، كان قد نفد صبرهم أول الناس، وراح البعض منهم ينشج متوسلاً، أماه، أنا جائع، وكان الموقف يهدد بسرعة فقدان السيطرة. سار يسوع بين الجموع الغفيرة مع مريم المجدلية، بصحبة أصدقائهما سمعان واندراوس ويعقوب ويوحنا، الذين لم لينفكوا عن يسوع منذ حادثة الخنازير وما نتجت عنه، ولكن على العكس من بقية الحشد جلبوا معهم بعض الخبز والسمك ولذلك كانت لهم بعض المؤن. ورغم ذلك، فأن يأكلوا بحضور كل أولئك الناس فذلك لا ينم عن قمة الأنانية من جانبهم فحسب **بل أيضاً يضعهم في موقف خطر** ذلك لأن الضرورة لا قانون لها. **وأن الشكل الأكثر** إثارة للعدالة، كما علمنا ذلك قابيل، أننا نغتصب

أنفسنا بأيدينا. لم يتخيل يسوع أبداً أن بإمكانه تقديم المساعدة إلى هذا الجمع الغفير الذي هو بحاجة ملحة إلى الطعام، ولكن يعقوب ويوحنا، وبثقة أولئك الذين شهدوا في الحقيقة معجزات معينة، اتجها نحو يسوع وقالا له، إن كنت قادراً على طرد الشياطين من جسد الرجل قبل أن تقتله، فمن المؤكد أنك قادر على أن تمنح هؤلاء الناس الطعام الذي هم بحاجة إليه كي يعيشوا، وكيف لي أن أفعل ذلك، إن لم يكن معنا غير بعض المؤن الاحتياطية التي جلبناها لأنفسنا، ما دمت ابن الرب فلابد أنك قادر على فعل شيء ما. نظر يسوع إلى مريم المجدلية التي قالت له، لا رجعة لك بعد الآن، وكان التعبير الذي على وجهها يشير إلى التعاطف على الرغم من أن يسوع لم يكن متأكداً أن كان تعاطفاً معه أم مع الجمع الذي يشرف على الهلاك. ثم، أخذ الأرغفة الستة التي جلبوها معهم وقسم كل رغيف إلى نصفين وسلمها إلى رفاقه، وفعل الشيء ذاته مع الأسماك الست، مبقياً رغيفاً وسمكة له. ثم قال، اتبعوني وافعلوا كما أفعل ونحن نعرف ما فعل ولكننا لن نعرف كيف رتب ذلك. راح يتحول من شخص لآخر مقسماً وموزعاً الخبز والسمك، وتسلم كل واحد رغيفاً وسمكة كاملة. وفعلت مريم المجدلية وكل واحد من أصدقائه الشيء ذاته ومروا بالحشد مثل ريح محسنة هبت على الحصاد ورفعت آذان القمح المتدلية الواحد بعد الآخر لتسمع حفيف الأوراق حين أكلت الأفواه ونطقت بالشكر، قال البعض إنه المسيح، وأصر آخرون، إنه ساحر، ولكن لم يخطر أبداً ببال أحد في الحشد لأن يسأل، أيمكن أن يكون هذا هو ابن الرب. وقال يسوع لهم جميعاً، ليصغي كل من له سمع، ما لم تتقسموا لن تتكاثروا.

كان من الصحيح حقاً أن يسوع كان سيعلمهم هذا المبدأ عندما تحين له الفرصة. ولكن لم يكن من حقه أن يطبق ذلك المبدأ حرفياً عندما لا يكون الحال ملائماً، كما حدث في قصة شجرة التين المذكورة سالفاً. كان

يسوع يمشي بمحاذاة زقاق ريفي وعندها شعر بالجوع وحينما رأى من بعيد شجرة تين خضراء، ذهب ليرى إن كان فيها بعض الأثمار المتبقية، ولكنه حين اقترب لم يجد غير الأوراق إذ ما زال الوقت مبكراً جداً لأثمار التين. عند ذلك قال للشجرة، لن ينمو التين على أغصانك بعد الآن، وفي تلك اللحظة جفت شجرة التين. فقالت له مريم المجدلية التي كانت بصحبته، لابد لك أن تعطي المعوزين ولا تطلب ممن لا يملكون شيئاً ليعطوه. فامتلأ يسوع بالندم، وحاول أن يعيد الحياة لشجرة التين، ولكن هيهات فقد جفت تماماً.

صباح ضبابي. ينهض الصياد من فراشه، وينظر إلى الفراغ الأبيض عبر شق الباب ويقول لزوجته، لن أخرج بالقارب هذا اليوم، في مثل هذا الضباب تضل الأسماك طريقها تحت الماء. هذا ما قاله، وكذلك بقية الصيادين، مستخدمين الكلمات ذاتها قليلاً أو كثيراً، وعلى كلا الضفتين، مندهشين من هذه الظاهرة النادرة للضباب في هذا الوقت من السنة. ليس سوى رجل واحد، الذي لم يكن صياداً محترفاً على الرغم من أنه يعيش ويعمل مع الصيادين، فهذا الرجل يذهب نحو الباب الأمامي وكأنه يسعى لأن يؤكد أن هذا هو اليوم الذي ينتظره، ويتطلع إلى السماء المكفهرة، ليقول لنفسه، سأذهب للصيد. تسأله مريم المجدلية وهي قريبة من كتفه، أيتحتم عليك الذهاب، وأجابها يسوع، لقد انتظرت مجيء هذا اليوم منذ زمن طويل، ألا تأكل شيئاً، العيون صائمة عندما تفتحت هذا الصباح. عانقها وقال، أخيراً سأعرف من أنا وما المراد مني، ثم هبط المنحدر بثقة مدهشة، ذلك لأنه لم يكد يرى قدميه في الضباب، واتجه نحو حافة الماء، وصعد في أحد القوارب الراسية هناك وراح يجذف باتجاه فضاء غير مرئي في وسط البحر. كان صوت احتكاك المجاذيف واصطدامها بجانبي القارب وصوت اضطراب الماء وتشتته والقارب ينزلق، يتردد صداه فوق سطح الماء ويوقظ أولئك الصيادين الذين أخبرتهم زوجاتهم القلقات، إن كنت لا تستطيع الخروج إلى الصيد، حاول أن تنام على الأقل. شعر أهالي القرية بالضيق والتعب وهم يحدقون في ذلك الضباب الحالك حيث يكون البحر وانتظروا، دون

أن يعلموا، أن تصمت ضوضاء المجاذيف كـي يتمكنـوا من العـودة إلـى بيوتهم ويتـأكدوا من غلـق أبوابهم بالمفـاتيح وأعمدة الخشب والأقفـال، ورغم ذلك كانوا يعلمون أن هبة هواء بسيطة من الممكن أن تطيح بهم، إن يكن ذلك(هو) الأبعيد الذي يتخيلون(ـه) بعد أن قرر أن ينفـخ فـي هذا الاتجاه. يسمح الضباب ليسوع بالمرور، لكن عينيه لم تريا أبعد من حافة المجاذيف والدفة بلوحها البسيط الذي يستفاد منه على أنه دكة. أما البـاقي فجدار أبيض، في البداية كان معتماً ورمادياً، ثم مع اقـتراب القـارب من مصيره، يجعل الضياء المنتشر من الضباب ليكون أبيض لامعـاً، وهو يرتجف كأنه يبحـث دون جدوى عن صـوت وسط الصمت. ويتوقف القارب بعد أن ظل يتحرك في دائرة واسعة من الضياء، لقد وصـل إلـى مركز البحيرة. هاهو الرب يجلس على الدكة عند الدفة.

لم يظهر على أنه غيمة أو عمود دخان، كما حدث ذلـك أول مـرة، إذ كان سيضيع في مثل هذا الطقس ويمتزج بالضباب. إنه رجـل كبـير هذه المرة، شيخ، ذو لحية منسابة طويلة تنتشر على صـدره، مكشـوف الرأس، شعر رأسه منساب وذو وجه قوي وعريـض وشـفاه ممتلئـة لا تكاد تتحرك حين يبدأ بالكلام. يلبس ثياباً كثيـاب يهودي ثـري، ثـوب أحمر مزرق طويل، تحت عباءة زرقـاء ذات أكمـام مطـرزة بـالذهب، والخفان السميكان اللذان يلفان قدميه هما من الواضح لمن يمشي كثـيراً والذي من عاداته عدم الركون في مكان ما. ما إن يذهب حتى سنسـأل أنفسنا، كيف يبدو شعره، دون أن نكون قادرين على أن نتذكر فيمـا إذا كان أبيض أو أسود أو بنياً، ومن الاحتكام لعمره، لابد أن يكون شـعره أبيض، ولكن ثمة من يستغرق وقتاً طويلاً حتى يتحول شعر رأسه إلـى الأبيض، ولربما يكون هو واحداً منهم. أخـرج يسـوع المجـاذيف من الماء وأدخلها في القـارب وكأنـه يستعد لحديث طويل وقـال ببسـاطة، هاأنـا حـاضر. نظم الـرب ببطء واتـزان طيـات عباءتـه علـى ركبتيـه

وأضاف، حسناً، ها قد اجتمعنا. كانت نغمة صوته تشير إلى أنه ربما يبتسم، لكن شفاهه لم تكد تتفرج، وليس غير شعيرات شاربه الطويلة هي التي كانت ترتعش مثل ذبذبات الجرس. قال يسوع، جئت لأعرف من أنا وما الذي سأفعله بعد الآن لأنفذ ما يخصني من العهد. قال الرب، هاتان مسألتان، لذلك دعنا نتولاهما معاً في وقت واحد، من أين تريد البدء، فقال يسوع، نبدأ بالأولى، قبل أن يسأل للمرة الثانية، من أنا، فسأله الرب، ألا تعرف، في الحقيقة ظننت إنني كنت أعرف وصدقت نفسي بأنني ابن أبي، أي أب تقصد، أبي، يوسف النجار، ابن إيلي أم هل كان يعقوب، لست متأكداً، هل تقصد يوسف النجار الذي صلبوه، لم أعرف إن كان ثمة آخر، خطأ مأساوي قام به الرومانيون ومات ذلك الأب المسكين بريئاً من أي جرم. لقد قلت ذلك الأب، هل هذا يعني أن ثمة أباً آخر، إنني فخور بك، أرى أنك فتى ذكي ومدرك، لا حاجة بي للذكاء، لقد أخبرني الشيطان بذلك. هل أنت على عهد مع الشيطان، كلا، لست على عهد مع الشيطان، بل إنه الشيطان الذي بصرني، وما الذي سمعته من شفاهه، أنني ابنك. هز رأسه ببطء موافقاً، وأخبره، بلا أنت ابني، ولكن كيف لإنسان أن يكون ابن الرب، إن تكن ابن الرب فلست إنساناً، ولكنني إنسان، أتنفس وآكل وأنام وأعشق كالإنسان، لذلك فأنا إنسان وسأموت كالإنسان، لست متأكداً جداً بشأن حالتك، ماذا تعني، تلك هي المسألة الثانية، ولكننا لدينا الوقت، كيف أجبت الشيطان عندما قال لك أنك ابني، لم أقل شيئاً، انتظرت ببساطة اليوم الذي عليّ أن أقابلك فيه، وطردت الشيطان من ذلك الرجل الممسوس الذي كان يعذب فيه، سمى الرجل نفسه فيلقاً وقال أنه كثير، أين هذا الكثير الآن، لا فكرة لدي، تقول أنت أخرجت تلك الشياطين، من المؤكد أنك تعلم ذلك أفضل مني أن الشياطين عندما تخرج من جسد ما، لا أحد يعلم أين تذهب، وذلك يجعلك تظن إنني أعلم بشؤون الشيطان، لكونك الرب، فلابد أنك تعلم بكل شيء، إلى حد

ما، فقط إلى حد ما، أي حد هذا، إلى الحد الذي يصبح فيه من الممتع أن أتظاهر بأنني لا أعلم شيئاً، لابد أنك تعرف على الأقل كيف أمسيت ابنك ولأي سبب، يمكنني أن أرى أنك صرت أكثر جرأة، ولا أقول نافد الصبر منذ أن رأيتك أول مرة، كنت في تلك الأيام مجرد صبي خجول، لكنني الآن ناضج، ولست خائفاً، كلا، لا تقلق، ستكون كذلك، فالخوف يأتي دائماً، حتى لابن للرب، هل تعني أن لديك آخرين، أي آخرين، أبناء بالطبع، كلا، كنت بحاجة لواحد فقط، وكيف صرت ابنك، ألم تخبرك أمك، وهل تعلم أمي، لقد بعثت ملاكاً ليوضح الأشياء لها، وظننت أنها ستخبرك، ومتى جاء هذا الملاك لأمي، دعني أفكر، ما لم أكن مخطئاً كان ذلك بعد أن تركت البيت للمرة الثانية وقبل أن تحول الماء بمعجزة إلى خمر في قانا، كانت أمي تعلم إذاً ولم تقل أبداً كلمة واحدة، وعندما قلت لها أنني رأيتك في الصحراء، لم تصدقني، ولكن كان عليها أن تدرك أنني كنت أقول الحقيقة بعد ظهور الملاك ورغم ذلك لم تثق بي أبداً، أنت تعرف النساء، فأنت تعيش مع واحدة، لديهن مشاعرهن وشكوكهن الصغيرة، أية مشاعر وشكوك، حسناً، دعني أوضح لك، لقد خلطت نطفتي مع نطفة أبيك من قبل أن تتكون، كان ذلك أسهل الحلول والأقل وضوحاً، ولأن النطفتين اختلطتا، كيف بإمكانك التأكد أنني ابنك، إنني أتفق معك بأن من غير الحكمة الشعور باليقين إزاء كل شيء، ولكنني متأكد حتماً أن ثمة بعض الفائدة من كوني ربّاً، ولماذا أردت أن يكون لك ابن، ذلك لأنني لا ابن لي في السماء، كان علي أن اتخذ لي واحداً على الأرض، وهو شيء ليس جديداً تماماً فحتى في الأديان التي فيها آلهة والإلاهات، من الممكن أن يهبوا لبعضهم البعض أطفالاً، فقد رأينا أن البعض منهم يهبط إلى الأرض، ربما لغرض التغيير، وفي الوقت ذاته إفادة البشر بخلق من الأبطال والمعجزات الأخرى. وهذا الابن الذي هو أنا، لماذا تريده، لا حاجة بي للقول، أن ذلك من أجل التغيير، فلماذا إذاً، لأنني احتجت إلى

من يساعدني هنا على الأرض، ولكن من المؤكد ولكونك إلهاً، لست بحاجة لمساعدة، تلك هي المسألة الثانية.

في الصمت الذي تبع ذلك من الممكن سماع صوت من يسبح وسط الضباب في مكان ما، ومن الصعب تحديد الجهة التي هو آت منها، ومن خلال النفخ واللهاث يتضح أنه ليس سباحاً ماهراً ويكاد يوشك على الهلاك. ظن يسوع أنه رأى الرب يبتسم وتأكد له أنه كان ينتظر وعلى علم بظهور السباح ضمن الدائرة الواضحة للضباب التي كان القارب في مركزها. ظهر السباح فجأة على سطح الماء من جهة الميمنة بينما كان يتوقع ظهوره من الجانب الآخر، له شكل غريب، حتى أن يسوع قد تصوره للوهلة الأولى خنزيراً بأذنيه اللتين تبرزان خارج الماء، ولكن بعد قليل أدرك أنه إنسان أو شيء ما ذو هيئة إنسانية. التفت الرب نحو السباح، ليس لمجرد الفضول بل باهتمام جاد وكأنه يشجعه تائقاً ليقوم بآخر حركة له، وهذه الحركة، ربما لأنها جاءت من الرب، كان لها التأثير الفوري، فقد كانت الضربات الأخيرة سريعة ومنظمة وكان من الصعب التصديق أن هذا القادم الجديد قد استطاع اجتياز كل تلك المسافة من الشاطئ. أمسكت يداه بحافة القارب على الرغم من أن رأسه لا يزال نصف غاطس في الماء، كانت يداه كبيرتين وقويتين وله أظفار صلبة، يدان تعودان لجسد يشبه جسد الرب لذلك لابد أن يكون طويلاً وقوي البنية متقدماً في السن. تأرجح القارب تحت الحمل، وظهر رأس السباح من الماء، ثم ظهر جذعه، وهو يضرب الماء في كل مكان، ثم ساقاه، لوياثان يخرج من الأعماق السفلى، ثم تحول ليغدو باستور الراعي، هاهو يعود للظهور بعد كل تلك السنين. قال، لقد جئت لألتحق بكما، وجلس على جانب القارب على بعد متساوٍ بين يسوع والرب، ورغم ذاك، فمن الغريب أن القارب في هذه المرة لم يمل إلى جهته وكأن الثقل قد غاب عنه أو أنه كان يسبح في الهواء بينما يبدو جالساً، وكرر قوله، لقد جئت لألتحق بكما، وآمل أن الوقت لا يزال ملائماً لأشترك في

الحديث، فقال الرب، كنا قد تحدثنا لبعض الوقت لكننا لم ندخل بعد في صلب الموضوع، ثم التفت إلى يسوع ليخبره، هذا هو الشيطان الذي تحدثنا عنه تواً. نظر يسوع إليهما معاً ورأى أن لولا لحية الرب فأنهما يبدون توأمين، على الرغم من أن الشيطان يبدو أصغر عمراً وعلى وجهه تجاعيد أقل، لكنها لابد أن تكون خدعة بصرية أو خطأ من جانب يسوع. قال يسوع، أعرف تماماً من هو، فقد عشت معه أربع سنوات عندما كان يسمي نفسه باستور، فأجابه الرب، كان عليك أن تعيش مع أحد ما، ومن غير الممكن أن تعيش معي، ولم ترغب في أن تعيش مع عائلتك، فلم يبق غير الشيطان. هل جاء ليبحث عني أو أنت أرسلته، أقول لك بصراحة لا هذا ولا ذاك، دعنا نتفق أن ذلك كان أفضل الحلول، لذلك بدا واثقاً حين تحدث من خلال الرجل الممسوس من منطقة (غداره) وناداني على أنني ابنك، بالضبط، وهذا يعني أنكما كلاكما قد خدعتماني، كما يحدث هذا لكل البشر، لقد قلت من قبل بأنني لست بشراً، ويمكنني أن أثبت ذلك، ولكنك كنت كما يمكن أن يوصف تقنياً بأنك متجسد، والآن ما الذي تريدانه مني كلاكما، أنا من أريد شيئاً وليس هو. كلاكما حضر وقد لاحظت أن ظهور باستور المفاجئ لم يثر استغرابك، لذلك لابد أنك كنت تتوقع حضوره، ليس بالضبط، على الرغم أن من الأحرى مبدئياً الاعتماد على الشيطان، ولكن إن تكن المشكلة تهمنا أنا وأنت فقط فما الذي يفعله هنا ولماذا لا تطرده، من الممكن أن نطرد الغوغاء الذين يخدمون الشيطان إن احدثوا شغباً في الكلام أو الفعل، ولكن ليس الشيطان ذاته، لذلك فهو حاضر لأن هذا الحديث يخصه أيضاً، لا تنس يا ولدي أبداً ما أريد أن أقوله لك، ألا وهو أن كل شيء يخص الرب يخص الشيطان أيضاً. سمع باستور، الذي سوف نسميه أحياناً بهذا الاسم، ولا نظل نشير إلى العدو باسمه، سمع حديثهما دون أن يبدو أنه مصغ أو واع بأنهما يناقشان أمره، لذلك يبدو عليه أنه ناكر لكلام الرب الشديد الأهمية والدقيق. على أية حال سرعان

ما غدا واضحاً أن عدم انتباهه ليس غير تظاهر، إذ ما إن قال يسوع، دعنا نتحول الآن إلى المسألة الثانية، حتى أتلع باستور بأذنيه. ولكن دون أن ينطق بكلمة.

تنفس الرب بعمق، ونظر إلى الضباب من حوله ودمدم بصوت خافت هو صوت من أكتشف تواً شيئاً غريباً وغير متوقع، ما كان هذا ليحدث لي أبداً، ولكنه كما حصل في الصحراء تماماً. حول عينيه باتجاه يسوع، سكت قليلاً ثم، مثل أحد ما يذعن لما هو حتمي، راح يتحدث، إنها حالة الاستياء يا بُني، التي وضعت في قلوب الناس من قبل الرب الذي خلقهم، وأشير بذلك إلى نفسي، بالطبع، لكن هذا الاستياء الذي مثل كل السمات التي صنعتها على صورتي وشبهي، فقد أوصلتها إلى قلبي أيضاً، وبدلاً من أن تتلاشى مع الزمن ازدادت قوة، وبإلحاح اشد. توقف الرب للحظة ليلاحظ تأثير هذه المقدمة قبل أن يستمر في القول، منذ أربعة آلاف وأربع سنوات وأنا رب اليهود، الشعب المشاغب والصعب بطبيعته، وبكوني عموماً، سرت على حال طيب معهم لأنهم يتعاملون الآن معي بجدية ومن المحتمل أن يستمروا كذلك في المستقبل، قال يسوع، فأنت إذاً راضٍ عنهم، أنا راضٍ ومستاء، أو بالأحرى كنت سأرضى لولا هذا القلب القلق الذي يقول لي دائماً، الآن، لقد رتبت مصيراً طيباً بعد أربعة آلاف سنة من المحاولات الصعبة والمحن التي لا يمكن تعويضها بأية كمية من الضحايا على المذابح، ذلك لأنك تستمر في أن تكون رباً لشعب صغير يشغل مساحة جد صغيرة من هذا العالم الذي خلقته بكل ما فيه، فقل لي، يا ولدي، إن كنت أستطيع أن أشعر بالرضى إزاء هذه الرؤية المتكدرة الماثلة أمام عيني دوماً، فرد عليه يسوع، لم يحدث لي أبداً أن خُلقت عالماً، لستُ في موقع يؤهلني للحكم، هذا صحيح، ليس بإمكانك أن تحكم ولكن بإمكانك المساعدة، أساعد بماذا، بأن تنشر كلمتي، تساعدني بأن أكون رب أناس أكثر، لا أفهمك،

لو أنك قمت بدورك، أو بالأحرى، الدور الذي ادخرته لك في خطتي، أنا متيقن تماماً أنني في غضون القرون الستة القادمة، ورغم كل الجهد والعقبات التي أمامنا، لا أعود فقط رب اليهود، بل أيضاً رب أولئك الذين سنسميهم الكاثوليك كما حدث عند الإغريق، وأي دور ذاك الذي ادخرته لي في خطتك، دور الشهيد، يا بني، دور الضحية، وهو أفضل الأدوار في التبشير بأي معتقد وفي استثارة الحماسة. نطق الرب كلمات الشهيد والضحية وكأن لسانه صنع من الحليب والعسل، ولكن يسوع شعر فجأة بقشعريرة تسري في أوصاله وكأن الضباب قد انطبق عليه فينظر الشيطان نحوه بتعبير مبهم جمع بين الاهتمام العلمي مع الضغينة. فقال يسوع متلعثماً وهو لا يزال يرتجف من البرد، لقد وعدتني بالقوة والمجد، وأنا ماضٍ في الالتزام بالوعد، ولكن تنكر عهدنا، ستنالها بعد الموت، وما الذي سأستفيد من القوة والمجد بعد موتي، أنت في الواقع لن تموت بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ ما دمت ابني ستكون معي، أو في داخلي، لم أقرر ذلك نهائياً. بالمعنى الذي ذكرته تواً أنني لن أكون ميتاً، هذا صحيح، ستكون مبجلاً في الكنائس وعلى المذابح إلى حد أن الناس سينسون حتى أن مرتبتي هي الأولى لكوني الإله، ولكن لا يهم، فمن الممكن الاشتراك عند الفيض في ما لا يمكن الاشتراك فيه عند الشحة. نظر يسوع نحو باستور، ورآه مبتسماً ومتفهماً، أُدرك الآن سبب حضور الشيطان، فلو أن سلطتك امتدت إلى ناس أكثر وفي أماكن أوسع، فان قوته أيضاً ستتسع، فحدودك هي حدوده أيضاً، أنت مصيب جداً، يا بُني، وأنا مسرور إذ أراك متفهماً ذلك لأن أغلب الناس يغفلون عن حقيقة أن الشياطين في دين ما لا تقوى على التأثير في دين آخر، تماماً مثل أي رب يواجه مباشرةً رباً آخر فلا يستطيع أن يهزمه أو يندحر من قبله. وموتي، كيف سيكون، إنه يلائم موت الشهيد فقط فلابد أن يكون مؤلماً، وإن أمكن، مذلاً، كي يثير في المؤمنين أشد الحماسة والتفاني. كن دقيقاً وأخبرني أي نوع من الموت سألاقي، موت مشين

ومؤلم على صليب، كأبي؟ أنت تنسى أنني أبوك، لو أنني حر في الاختيار لاخترته رغم تلك اللحظة الشائنة، لقد اخترتك ولذلك لا يمكنك الرفض، أريد التنصل من عهدنا، أريد أن أقطع الصلة بك، أريد أن أعيش مثل أي إنسان، هذا كلام غير مجد يا بني، ألا ترى سطوتي وكل تلك الوثائق الموقعة التي تشير إليها على أنها اتفاقات وعهود ومعاهدات ومواثيق وتحالفات، التي أقربها، كلها من الممكن أن تختصر إلى عبارة واحدة، وسأتلف ورقاً وحبراً أقل، عبارة ستحدد ذلك بفظاظة، كل شيء يُفرض من قبل ناموس الرب يعد إجبارياً، وحتى الاستثناءات، أنت، أيضاً، إجباري كالناموس وأنا الذي وضعته، ولكن بقوتك هذه ألن يكون من الأسهل لك والأكثر نزاهة من الناحية الأخلاقية بأن تذهب وتدحر تلك البلدان والأجناس الأخرى بنفسك. لا أستطيع ذلك للأسف، إذ حرم في اتفاق ملزم بين الآلهة بأن لا يتداخلوا مباشرة في أي جدال، هل يمكنك أن تتخيلني في ساحة عامة محاط بالجنتيليين والوثنيين، لأحاول إقناعهم أن إلههم مزيف وأنا الرب الحقيقي، ذلك شيء لا يفعله رب مع رب آخر، وبالإضافة إلى ذلك، لا إله يحب أن يأتي إله آخر ويعمل في بيته ما هو محرم أن يفعله في بيوت الآخرين، فتستخدمون البشر لهذا الغرض، أجل يا بني، الإنسان قطعة خشب من الممكن أن تستخدم في كل شيء، منذ لحظة ولادته وحتى لحظة مماته، إنه مستعد للطاعة دائماً، أبعثه إلى هناك فيذهب، أطلب منه التوقف فيقف، أطلب منه العودة فيتراجع، سواء أكان ذلك في الحرب أم السلم، إن الإنسان، عموماً، هو أفضل الأشياء التي حدثت للآلهة، والخشب الذي صُنعت منه؛ ما دمت إنساناً، ما هي الفائدة التي سترجى منه، ما دمت ابنك، ستكون أنت الملعقة التي سأغمسها في الإنسانية وأخرجها محملة بأناس سيؤمنون بالإله الجديد التي أزمع أن أكونه، محملة بالناس الذين ستلتهمهم، لا حاجة بي لالتهام أولئك الذين يلتهمون أنفسهم.

أنزل يسوع مجدافيه في الماء وقال، وداعاً، أنا عائد للبيت، وبإمكانكما أنتما أن تعودا من حيث أتيتما، أنت بالسباحة وأنت بالاختفاء على نحو غامض كما جئت. لم يتحرك الرب ولا الشيطان، عند ذاك أضاف يسوع ساخراً، آها، أنتما تفضلان إذاً الذهاب بالقارب، فابقيا دون حراك، سآخذكما معي إلى الشاطئ بنفسي كي يرى الجميع كم أن الرب والشيطان متشابهان وكيف سيستمران معاً على خير. غير يسوع اتجاه القارب نحو الضفة التي جاء منها، وجذف بضربات قوية، مخترقاً الضباب الذي كان كثيفاً جداً حتى أنه لم يعد يرى الرب ولا الشيطان. شعر يسوع بالحيوية والسعادة وعلى غير العادة شعر كأن طاقة تتولد فيه. لم يكن يرى مقدمة القارب من المكان الذي هو جالس فيه لكنه كان بإمكانه أن يحس أن القارب كان يرتفع مع كل ضربة مجذاف مثل رأس حصان في سباق يوشك أن ينفصل عن بقية جسده ولكن عليه أن يجبر نفسه على سحب ذلك الثقل حتى النهاية. جذف يسوع وجذف، لابد أنهم قد أوشكوا على الوصول وكان يتساءل كيف سيتصرف الناس عندما يخبرهم أن، ذلك الملتحي هو الرب، والآخر هو الشيطان. ميز يسوع ضوءاً مختلفاً وهو يلقي نظرة رجوع إلى الشاطئ وأعلن، هانحن قد وصلنا، وجذف قليلاً كان يتوقع إنه سوف يشعر في أية لحظة أن قعر القارب سوف ينزلق برفق فوق الطين الكثيف قرب الشاطئ، وفوق الحصى الصغيرة المراوغة التي تحتك بالقارب، ولكن مقدمة القارب التي بقيت غير مرئية كانت تشير إلى وسط البحيرة، أما الضياء الذي رآه، فقد أصبح مثل ضياء تلك الدائرة السحرية الباهرة، الشرك المتوهج الذي ظن يسوع أنه قد هرب منه. فشعر بالإرهاق، ومال رأسه إلى الأمام، وصالب ذراعيه على ركبتيه، مريحاً كل رسغ على الآخر، كأنه كان ينتظر أن يكبل وهو حتى قد نسي استرداد المجاذيف، لقد اقتنع أن أية حركة إضافية ستكون عديمة الجدوى تماماً. لن يكون البادئ بالكلام فلن يقر بالاندحار بصوت عالٍ. ولن يطلب المغفرة لأنه لم يهتم لمشيئة

الرب وأمره وتحامل على نحو غير مباشر على مصالح الشيطان، المستفيد الطبيعي مما هو لاحق وليس من النتائج الثانوية لممارسة مشيئة الرب والفهم المؤثر لخططه. كان الصمت الذي تبع ذلك التصرف المحبط للتحدي قصيراً. رتب الرب طيات ثوبه وقلنسوة عباءته وهو جالسٍ على دكته ثم وبوقار هازئ، مثل قاضٍ يوشك أن يصدر حكماً شكلياً، قال، دعنا نبدأ منذ البداية ونعود إلى اللحظة التي كشفت فيها أنك في قوتي، لأنك إلى أن تخضع بأمانٍ وتواضع لهذه الحقيقة ستكون بذلك تبدد وقتك ووقتي، فقال يسوع موافقاً، دعنا نبدأ مرة أخرى، ولكن كن حذراً، إنني أرفض أن أفعل المزيد من المعجزات ودون معجزات تفشل خططك، إن رشقة مطر من السماء غير قادرة على إطفاء أي عطش حقيقي، أنت محق لو كان بيدك أن تعمل أولاً تعمل المعجزات، أو ليست لدي القوة، أية فكرة هذه، أعمل المعجزات الكبيرة والصغيرة طبيعياً في حضورك كي تجني أنت المنافع على حسابي، أنت خرافي في جوهرك وتؤمن أن صانع المعجزات عليه أن يكون إلى جانب سرير المريض حتى تحدث العجزة، ولكنني إن رغبت في أن يبقى رجل ما يحتضر وحيداً ولا أحد إلى جانبه، يعاني الوحدة دونما طبيب أو ممرضة أو أقارب يحبونه وقريبين منه، إن رغبت في ذلك، أقول لك أن ذلك الرجل يستعيد حياته من جديد ويعيش كأن شيئاً لم يحدث له، لماذا لا تفعل ذلك إذاً، لأنه سيتخيل أنه قد شفي بقوة جدارته ولسوف يصيبه الغرور، إن مثلي لا يموت، وإن افترض أحد وقاحة أن هنالك أحداً من قبل في هذا العالم الذي خلقته، فليست لدي النية في تشجيع الحديث في هذا الهراء، فكل هذه المعجزات لك، كل تلك التي عملتها والتي سوف تعملها، لأنك حتى لو فرضنا أنك أصررت على معاكسة مشيئتي، بأن تخرج إلى العالم وتنكر أنك ابن الرب، فلسوف أخلق الكثير من المعجزات حيثما مررت لتكون مجبراً على قبول العرفان بالجميل الذي سوف يخصك به أولئك الذين سيشكرونك، وبذلك يشكرونني. فلا مخرج إذاً، كلا مهما

حاولت، ولا تلعب دور الحمل الحرون الذي يقاوم أخذه للتضحية به، فيستثار ويثغو بأسلوب يمزق القلب، إن مصيرك قد خُتم، وسيف التضحية في انتظارك، وهل أنا ذلك الحمل، أنت حمل الرب، ابني، الذي سيحمله الرب بنفسه إلى المذبح الذي تعد له.

نظر يسوع إلى باستور، ولم ينل منه أي عون حتى ولو بالإشارة، ذلك لأن همه للعالم لابد أن يكون مختلاً بحكم الظروف، وما دام باستور ليس إنساناً ولم يكن كذلك، ولم يكن رباً أبداً ومن المستبعد أن يكون، لذلك فقد تشير نظرة ما أو رفع للحواجب إلى إجابة ملائمة قد تسمح ليسوع أن يلعب بالزمن ويخلص نفسه، لبعض الوقت على الأقل، من الموضع الصعب الذي يجد نفسه فيه. ولكن كل ما يقرأه يسوع في عيون باستور هي الكلمات التي قالها له عندما طرده من المرعى، لم تتعلم شيئاً، فاغرب عني. ويدرك يسوع الآن أنه حين يعصي الرب مرة فذلك غير كاف، وأن الذي رفض أن يقدم له حمل الأضحية يرفض أن يقدم له الكبش، لا يمكن أن يقول، نعم، للرب، ثم يقول، لا، وكأن نعم ولا هما يمينه ويساره، وعمل الخير الوحيد الذي ينجز باليدين اليمين واليسار كلاهما. ذلك لأن الرب على الرغم من تجليات قوته الاعتيادية كما تتمثل في الكون والنجوم والبرق والرعد والأصوات والنيران على قمم الجبال، فهو لا يرغمك على ذبح الكبش ومع ذاك، قتلت أنت الحيوان بدافع الطموح ولم يكن من الممكن إمتصاص دمه من تراب الصحراء كله، فأنظر كيف وصل إلينا، ذلك الخيط من السائل القرمزي الذي سيتتبع طريقنا متى ما غادرنا هذا المكان ولسوف يتبعك ويتبع الرب ويتبعني. قال يسوع للرب، سأعلن أمام الملأ أنني إبنك، الإبن الوحيد للرب، لكنني لا أومن أن هذا سيكون كافياً لتوسيع مملكتك كما ترغب حقاً في أراضيك هذه. ها أنت أخيراً تتحدث كإبن حقيقي، ها أنت الآن تكف عن أعمال التمرد التي بدأت تثير غيظي، والآن وقد انعطفت إلى طريقتي

في التفكير دونما أي تلقين، فمن بين الأشياء الكثيرة التي يمكن أن تقال للبشر، أياً ما كان جنسهم أو لونهم أو عقيدتهم أو فلسفتهم، ثمة شيء واحد يجمعهم كلهم، شيء واحد. وبالتحديد لا أحد من أولئك الناس، حكماء كانوا أم جهلة، شباباً أم شيوخاً، أثرياء أم فقراء، يجرؤ على القول، إن هذا لا علاقة لي به، فتساءل يسوع باهتمام ملحوظ، وما يمكن أن يكون ذلك، فأجاب الرب وكأنه ينطق حكمة، كل البشر، أياً ما كانوا وحيثما كانوا ومهما فعلوا، آثمون، ذلك لأن الإثم، بطريقة ما، لا يمكن فصله عن الإنسان ولا الإنسان عن الاثم، فالإنسان كالعملة المعدنية حين تقلبه لا تجد غير الإثم، لم تجب عن سؤالي، ها هو جوابي، الكلمة الوحيدة التي لا يمكن لإنسان أن يرفضها على أنها لا علاقة لها به، هي التوبة، لأن كل البشر الذين يخضعون للغواية، لديهم فكر شرير، وهم يتجاوزون على الاعراف ويقترفون الجرائم الكبيرة والصغيرة، يرفسون من هو بحاجة اليهم، ويهملون واجبهم، يهينون الدين والقائمين عليه، أو يعطون ظهورهم للرب، لمثل هؤلاء ليس عليك سوى أن تقول، توبوا، توبوا، توبوا، ولكن هل من الضروري حقاً بأن تضحي بحياة ابنك بثمن بخس، من المؤكد أن كل ما عليك أن تفعله هو أن تبعث لهم نبياً، لقد ولى الزمن الذي كان النلس فيه يصغون للأنبياء، في هذه الأيام لا بد من إعطاء دواء أقوى، لا بد من العلاج بالصدمة من أجل الوصول إلى قلوب الناس وإستثارة مشاعرهم، مثال ذلك تعليق ابن الرب على صليب، أجل، ولم لا، وما هي الأشياء الأخرى التي يفترض بي أن أقولها لأولئك الناس، بالاضافة إلى أن أفرض عليهم التوبة المريبة، لو انهم شعروا بالتعب من سماع رسالتك وجعلوا في آذانهم وقراً، بلا، أتفق معك، فلربما لا يكون كافياً أن نطلب منهم التوبة، ربما عليك أن تستخدم خيالك ولا تعتذر أبداً لأنني لا أزال مرغماً بالاعجاب بالطريقة الذكية التي تجنبت فيها التضحية بحملك، كانت تلك سهلة جداً، فليس على الحيوان أن يتوب، جواب شافٍ ولكن لا معنى له، ورغم ذاك، فان ذلك

له سحره، فحري بالناس أن يبقوا قلقين ومرتبكين، كي يؤمنوا أنهم إن لم يهموا، هم خاطئون، لذلك لا بد لي من ابتداع قصص، نعم، قصص وأمثال، وحكايات أخلاقية حتى لو كانت تؤدي إلى تشويه الناموس المقدس على نحو خفيف، فلا تدع ذلك يزعجك، إن الرعديد دائماً ما تعجبه الأعمال الجريئة التي يقوم بها الآخرون، وأنا بنفسي، إذ أكون أي شيء إلا رعديداً، قد تأثرت بالطريقة التي أنقذت فيها العاهرة من الموت، وثمة كلام كثير بشأن ذلك، لأنني أنا من وضع العدالة في الأوامر التي أنزلتها، من العلامات السيئة حين تبدأ بالسماح للناس بأن يعبثوا بأوامرك، إلا حين يناسبني ذلك ويثبت جدواه، عليك أن لا تنس ما أخبرتني به عن الناموس وإستثناءاته، فأي شيء أريده يتحول فوراً إلى أمر ملزم، لقد قلت أنني سأموت على صليب، هذه هي مشيئتي.نظر يسوع إلى باستور شزراً وبدا على باستور أنه مستغرق في التفكير وكأنه كان يتأمل لحظة في المستقبل ولم يكن يصدق عينيه. أنزل يسوع ذراعيه وقال، فافعل إذاً بي ما تشاء.

أوشك الرب أن يبتهج، وينهض على قدميه ليعانق ابنه الحبيب عندما أوقفه يسوع بحركة منه وقال، بشرط واحد، فرد عليه الرب غاضباً، ولكنك تعرف تماماً أنك لا تستطيع أن تملي عليّ شروطك، سمه إذاً رجاء وليس شرطاً، الرجاء البسيط لإنسان حكم عليه بالموت، تكلم، أنت الرب، ولذلك تقول الحقيقة فقط عندما تُسأل سؤالاً، ولأنك الرب، فأنت تعرف الماضي والحاضر، وما يقع بينهما، وما الذي سيأتي به المستقبل، هذا صحيح، فأنا الزمن والحقيقة والحياة، فقل لي إذا، باسم كل ما تدعو إليه، ما الذي سيأتي به المستقبل بعد موتي، وما الذي سيأتي به المستقبل والذي لن يكون موجوداً ما لم أقبل بالتضحية بنفسي بسبب عدم رضاك، وماذا عن رغبتك في الهيمنة على مديات واسعة بعيدة. استجاب الرب غاضباً، وكأنه وقع في فخ كلماته هو، وقام بمحاولة فاترة بأن لا يأبه

للأمر، إن المستقبل لا حدود له يا ولدي ولسوف يستغرق وقتاً طويلاً لـو أردنـا عده، سأله يسوع، كم مضـى علينـا هنـا فـي منتصـف البحـيرة ويحيطنا الضباب، ربما يوم واحد أو شهر أو سنة، حسناً إذاً دعنـا نبقَ هنا سنة أخرى، أو شـهراً أو يومـاً، دع الشيطان يغادر لـو رغب، لأن حصته مضمونة في كل الأحوال، وإن كانت المنافع متناسبة، كما يبدو ذلك عادلاً، فكلما ازدهر الرب، كلما سيزدهر الشيطان، قال باستور، إنني باق، وتلك كانت الكلمات الأولى التي قالها منذ أن كشف عن نفسـه، إنني باق، قالها للمرة الثانيـة قبل أن يضيف، أنا بنفسي يمكن أن أرى أشياء معينة تعود إلى المستقبل، ولكنني لست متأكداً دائماً إن كان ما أراه حقيقياً أم زائفاً، أقصد أنني أستطيع أن أرى أكاذيبي بما هـي عليـه، وبكلمات أخرى، حقائقي، لكنني لا أعرف إلى أي مدى تكون حقائق الآخرين هي أكاذيبهم. هذا الهيجان الملتوي كان يمكن أن يتحول على نحو أشد لطفاً لو أن باستور قد تحدث المزيد عن المستقبل الذي يتصوره، ولكنه سكت فجأة وكأنه يعي أنه قد تحدث بالكثير من قبل. قال يسوع الذي لم يحول عينيه عن الرب ملاحظة ذات سخرية مرة، لماذا تتظاهر بتجاهل ما تعرفه، لقد عرفت أنني سوف أسأل هذا السؤال، فلا تؤجل موعد موتي، لقد بدأت تحتضر منذ لحظة ميلادك، صحيح ولكنني سأموت قبل موعدي، نظر الرب إلى يسوع بتعبير لو ارتسم على شخص لكنا نصفه متسماً بالاحترام، وتحول سلوكه كله إلى سلوك بشري، و، على الرغم من أن لا شيء ظهرت له علاقة بالشيء الآخر، فلن نعرف أبداً الصلات العميقة الموجودة بين الأشياء والأفعال، تكالب الضباب باتجاه القارب وأحاطه مثل جدار لا يُرتقى كي يحجب عن العالم كلمات الرب حول آثار ونتائج تضحية يسوع الذي يدعي أنه ابنه وابن مريم، لكن أباه الحقيقي هو يوسف وفق الناموس الذي لم يكتب والذي يدعونا لأن نؤمن فقط بما نراه، على الرغم من أننا البشر وكما يعرف الجميع، لا نرى الأشياء بالطريقة ذاتها وقد ساعد هذا دون ريب

على الاحتفاظ بالسلاسة العقلية النسبية لأجناس البشر.

قال الرب، ستكون ثمة كنيسة، التي هي كما تعي، عبارة عن اجتماع أو تجمع للناس، مجتمع ديني سوف يُنشأ من قبلك وباسمك، وهذا في الأساس شيء واحد، سوف تنتشر هذه الكنيسة طولاً وعرضاً في العالم وتدعى بالكاثوليك، لأنها شاملة، ولكن هذا للأسف لن يمنع النزاعات وسوء الفهم بين أولئك الذين سيرونك أكثر مما يرونني، لكونك قائدهم الروحي، رغم أن ذلك لن يطول أكثر من بضعة آلاف من السنين، لأنني هنا قبلك وسأبقى مستمراً بعد أن تكف عن أن تكون بما أنت عليه وما ستكون عليه، فقاطعه يسوع، تحدث بوضوح، فقال الرب، مستحيل، ذلك لأن كلمات البشر كالظلال، والظلال عاجزة عن توضيح الضياء، وبين الظلال والضياء ثمة جسد مبهم تولد منه الكلمات. لقد سألتك عن المستقبل، وهو المستقبل الذي أكلمك عنه، الذي أريد أن أعرفه كيف سيعيش الناس من بعدي، هل تشير إلى أتباعك، بلا، هل سيكونون أسعد حالاً، ليس بالمعنى الحقيقي للكلمة، لكنهم سيكون لديهم الأمل في الحصول على السعادة في الأعلى في الفردوس حيث أقيم أبداً، ويمكنهم أن يأملوا في العيش أبداً معي، أهذا كل ما تريده، من المؤكد أن ليس شيئاً بسيطاً أن تعيش أبداً مع الرب، سواء أكنت كبيراً أم صغيراً أو كيفما كنت، سنعرف ذلك فقط بعد يوم الحساب الأخير حين ستحاكم البشر وفقاً لعمل الخير أو عمل الشر الذي عملوه وحتى ذلك الوقت تبقى وحيداً في الفردوس، برفقتي ملائكتي وكبار ملائكتي، ولكن ليس معك بشر هناك، هذا صحيح ولابد لك من أن تصلب حتى يكون من المحتمل أن يأتوا إليّ. فقال يسوع بتحمس شديد، وكان قلقاً من انطباق الصورة الذهنية عن نفسه وهو معلق على الصليب، يغطيه الدم ميتاً، أريد أن أعرف المزيد، أريد أن أعرف كيف سيؤمن الناس بي ويتبعونني، لا تحاول أن تقول لي أي شيء سأقوله لهم أو ما سيقوله لهم من الذين

سيتكلمون باسمي سيكون كافياً، خذ مثلاً الجنتيلين والرومانيين الذين يعبدون آلهة آخرين، من المؤكد أنك لا تتوقع مني أن أصدق أنهم سيتخلون عنهم ليعبدوني هكذا ببساطة، إنهم لا يعبدونك بل يعبدونني، لكنك أنت قلت بنفسك أننا واحد ومتشابهان، على أية حال، دعنا لا نتلاعب بالألفاظ، أجب عن سؤالي فقط، كل من له معتقد سيأتي إلينا، هكذا ببساطة، كما قلت بسهولة، أن الآلهة الآخرين سيقاومون، ولسوف تقاتلهم بالطبع، لا تكن عبثياً، إن هذه الأشياء لا تحدث إلا على الأرض، السماء أبدية ومسالمة، إن البشر ينالون مصيرهم أينما حلوا، دعني أجعل ذلك دقيقاً، ورغم ذاك فليست الكلمات إلا ظلالاً، سيموت الناس من أجلك ومن أجلي، الناس دائماً ما يموتون من أجل الآلهة، بل حتى من أجل آلهة مزيفة وكاذبة، أيمكن للآلهة أن تكون كاذبة، أجل، وأنت الوحيد الحقيقي بينهم، أجل أنا الواحد والوحيد الحقيقي بينهم، ورغم ذلك لست قادراً على أن تمنع أن يموت الناس من أجلك عندما يكون من الأحرى أنهم ولدوا ليعيشوا من أجلك على الأرض وليس في السماء حيث ليس ثمة مباهج حياتية تقدمها لهم، تلك المباهج خادعة أيضاً، لأنها تأصلت مع أصالة الإثم، اسأل صديقك باستور، سيوضح لك ما حدث، إن تكن ثمة أية أسرار لم تشتركا فيها أنت والشيطان، فأظنني قد علمت بأحدها منه على الرغم من أنه يصر أنني لم أتعلم شيئاً. وحدث صمت، واجه الرب والشيطان بعضهما البعض للمرة الأولى، وبان على كل واحد منهما انطباع بأنه يوشك على أن يقول شيئاً، ولكن لم يحدث شيء. قال يسوع، إنني أنتظر، فسأله الرب وكأنه ذاهل، تنتظر ماذا، أنتظر منك أن تخبرني كم من الموت والمعاناة سيكلف انتصارك على الآلهة، كم من المعاناة والموت ستحتاج لتسويغ المعارك التي سيقاتل فيها الرجال من أجلك ومن أجلي، هل تصر على المعرفة، أجل أصر، حسناً إذاً، إن الانطباع الذي ذكرته سوف يحدث، ولكن كي يكون متوحد الكلمة فعلاً، فلابد أن تحفر أسسه في الجسد، ولابد أن تبنى الأسس من سمنت نكران

ت والدموع والمعاناة والعذاب، وأي شكل معروف للموت أو ما لم يعرف بعد، أخيراً وبعد وقت طويل، بدأت تقول كلاماً مفهوماً، فاستمر. دعنا نبدأ بأحد تعرفه وتحبه، إنه الصياد سمعان، الذي ستسميه بطرس، فهو مثلك، سيصلب، ولكن بالمقلوب، وأندراوس أيضاً، سوف يصلب على صليب بشكل x، ابن زبيدي الذي يسمى، يعقوب سوف يقطع رأسه، وماذا عن يوحنا ومريم المجدلية، سيموتان طبيعياً حين يحين وعدهما، ولكن سيكون لك أصدقاء أخر، حواريون ورسل كالآخرين، الذين لن ينجو من العذاب، أصدقاء مثل فيليبوس الذي سوف يشد إلى صليب ويرجم بالحجر حتى الموت، وبارطولوميو الذي سوف يسلخ حياً، ولسوف يطعن توماس حتى الموت، وماثيوس، الذي لا استحضر تفاصيل موته، وسمعان الآخر الذي سوف يقطع بالمنشار إلى نصفين، ويهوذا الذي سوف يضرب حتى الموت، يعقوب يرجم، وماثياس يقطع رأسه بفأس، وأيضاً يهوذا الاسخريوطي، ولكن كما ستعرف أفضل مني، سوف يستثنى من الموت ولكنه سوف يعلق من يديه بشجرة تين، فسأله يسوع، هل يوشك هؤلاء الناس على أن يموتوا بسببك، إن أوجزت السؤال بهذا الأسلوب، فالجواب هو نعم، سيموتون من أجلي، ثم ماذا، بعد ذلك يا ولدي، وكما قلت لك من قبل، ستحدث قصة لا نهاية لها من الدم والحديد، من النار والرماد، بحر لا حدود له من الأحزان والدموع، أخبرني عن ذلك، أريد معرفة كل شيء. تنهد الرب، وبنغمة رتيبة لأحد ما فضل أن يكبح جماح العطف والرحمة، فبدأ مستهلاً حسب الترتيب الألفبائي كي لا يجرح المشاعر حول ترتيب الأسبقية، يقتل آدالبرت من براغ بقناة رمح ذات سبعة رؤوس، ويدق أدريان على سندان الحداد حتى الموت، وآفرا من أوغسبرغ، تحرق على خازوق، وآغابيتوس من برينست، يُحرق على خازوق وهو معلق من قدميه، وأغنس الرومانية، انتزعت أحشاؤها، وآغريكولا البولونية، صلبت وخوزقت على المسامير، وآغودا الصقلية تطعن ست مرات، وآلفيج من

كانتربيري، تضرب حتى الموت بعظم ساق الثور، وآنستاسيا، من سيرميوم، تحرق على الخازوق فتقطع أثداؤها، وآناستاسيا السالونية، تعلق على المشنقة ويقطع رأسها، وآنسانوس من سيناء، تنتزع أمعاؤها، وأنطونيوس من باميرز يُغرق ويقطع جسمه إلى أربعة أجزاء، وأنطوني من ريفولي، يرجم ويُحرق حياً،وأبو ليناريس من رافينا، يضرب بالعصي حتى الموت، وأبولونيا الاسكندرانية تحرق على خازوق بعد أن تقلع أسنانها، وأوكوستا من تريفيو، يقطع رأسها وتحرق على خازوق، وأورا من أوستيا، تغرق بحجر رحى حول عنقها، وأوري السورية، تنزف حتى الموت بعد أن تضغط على كرسي مغلف بالمسامير، وأوتا، ترمى بالسهام، وبابيلاس من انتيوك يقطع رأسه، وبربارة من نيكوميديا بطريقة مماثلة، وبارناباس القبرصي، يرجم بالحجارة ويُحرق على خازوق، وبياتريس الرومانية، تشنق، وبينيغنوس من ديجون، تطعن بالرمح حتى الموت، وبلاندينا من ليونز، تخترقها قرون ثور متوحش، وبلايز من سيباستا، تلقى على نتوءات حديدية ضخمة، ويقتل كالسيتوس بوضع حجر رحى حول رقبته، وكاسيان من آيمولا، يطعن بخنجر من قبل تلامذته، وكاستلوس يدفن حياً، وكاثلين الاسكندرانية يقطع رأسها، وسيسيليا الرومانية، يقطع رأسها، وكريستينا من بولسينا، تعذبت مرة بعد مرة بأحجار الرحى والملاقط والسهام والأفاعي، وكلاروس من ناستس يقطع رأساها، وكلاروس من فينا، بطريقة مماثلة، وكليمنت يُغرق بعد أن تثبت مرساة حول عنقه، وكرسبان وكرسبينان من سويسون، يقطع رأسأهما، وكوكوفاس من برشلونه تنتزع أحشاؤه، وسبريان من قرطاج تجزّ ناصيته، والشاب سيريكوس من طرسوس يقتل من قبل حاكم يصدم رأسه إزاء سلالم كرسي القضاء، وعند وصوله إلى نهاية الحرف الثالث من الألفباء، قال الرب، ومن بعد هذا حدث الشيء ذاته مع بعض التغييرات المختلفة عن التحسينات التي تحتاج إلى زمن لا حدود له من أجل شرحها، لذلك دعنا

نتركها على هذه الحال، فقال يسوع، رغم تردده، كلا، استمر، واستمر الرب، مختصراً على قدر ما يستطيع، دوناكوس من أرِيزو، يقطع رأسه، والبفيوس من رامبيلون، تسلخ فروة رأسه، وإمريتا، تحرق حية، وإسيليان من تريفي، يقطع رأسه، وإمراموس من روزنبورغ يُشد إلى سلم ويقتل، وانغراتيا من ساراغوسا يقطع رأسها، وإيراسموس من غايتا، واسمه أيضاً إلمو، يمدد على مرفاع للمرساة، وأسكوبيكولوس، جزت ناصيته، وإيسكي السويدي، يرجم بالحجر حتى الموت، وإيولاليا من مريدا يقطع رأسها، وأيوفاميا من كالسيدون تدفع على السيف، وأيوتروبيوس من سينتس، يقطع رأسه بالفأس، وفابيان، يطعن وتخترق الحراب جسده، وفيث من آجن، يقطع رأسها، ويليستي، وأبناؤها السبعة، تقطع رؤوسهم بالسيف، فيليكس وأخوه آداكتوس فبطريقة مماثلة، وفيريولوس من بيسانكون يقطع رأسه، وفيديليس من سيغمارنكن، يضرب حتى الموت بهراوة مسننة، وفيرمينوس من بامبلونا، تجز ناصيته، وقلافيا دوميتيلا، بالطريقة ذاتها، وفورتوناس من إيفورا، ربما تلاقي المصير ذاته، وفروكتوسوس من تاراجون يحرق على خازوق، وغودينتوس الفرنسي، يقطع رأسه، وجيلاسيوس، بالطريقة ذاتها مع الطعن بالنتوءات الحديدية، وجنغولف من بورغندي، تغوى زوجته ويقتله عشيقها، وجيرارد سافريدا من بودابست، يطعن بالرمح، وجيرين من كولون يقطع رأسها، والتوأمان جيرفاس وبروتاس، بالطريقة ذاتها، وغوليفا وجيستيلز يشنق، وغراتوس من أوستا يقطع رأسه، وهيرمنجيلد، يضرب حتى الموت بالهراوة، وهيرو يطعن بسيف، وهيبوليتوس، يسحب بحصان حتى يموت، واغناطيوس من آزفيدو، يقتل من قبل الكالفينيين الذين لم يكونوا من الكاثوليك، وجانيوريوس النابلسي، يقطع رأسه بعد أن يرمى إلى الحيوانات المتوحشة وبعد ذلك يُلقى في فرن، وجوان من آرك، تحرق على خازوق، وجون دي بريتو، يقطع رأسه، وجون فيشر، يقطع رأسه، وجون نيبوموك، يغرق في نهر

فلتافا، وجون من برادو يطعن في رأسه، وجوليا من كورسيكا التي تقطع أثداؤها قبل أن تصلب، وجوليانا من نيكوميديا يقطع رأسها، وجوستا وروفينا من سيفايل، الأولى تقتل على عجلة وتشنق الثانية، وجوستينا من آنتيوك، ترمى في مرجل للقار المغلي ثم يقطع رأسها، وجوستوس وباستور، ليس باستور صاحبنا، بل ذلك الذي من آلكالا دي هيناريس، يقطع رأساهما، وكيليان من ورزبيرغ، يقطع رأسه، ولورنس، يحرق على شبكة صيد، وليجر من أوتون، يقطع رأسه أيضاً بعد أن تنتزع عيناه ولسانه، وليوكاديا من توليدو، ترمى من صخرة عالية وتموت، وليفينوس من جينت، يقطع رأسه بعد أن يقطع لسانه، ولونجاينوس، يقطع رأسه، ولودميلا من براغ تشنق، ولوسي من سيراكيوز يقطع رأسها بعد أن تفقأ عيناها، وماغنيوس من تاراجون يقطع رأسه بمنجل مسنن، وماماس من كابودسيا تنتزع أحشاؤه، ومانول وسابل وإسماعيل يموت مانول بدق مسمار حديدي في كل حلمة في صدره ويخترق سيخ حديدي رأسه من الأذن إلى الأذن، والثلاثة تقطع رؤوسهم، ومارغريت من آنتيوك، تقتل بجمرة ومشط حديدي، وماريا غوريتي، تشنق، وماريوس من بيرسيا، يخترقه السيف بعد أن تقطع يداه، ومارتينا الرومية، يقطع رأسها، وشهداء المغرب، بيرارد من كاربيو، وبيتر من جيمينانو، وأوتو، وأجوتو وأكيورسيو، تقطع رؤوسهم، وأولئك الذين في اليابان، ستة وعشرون يصلبون ويطعنون جميعاً وهم أحياء، وموريس من آجون، يضرب بالسيف، ومينارد من أنيسيديلن، يضرب بالهراوة حتى يموت، ومينـاس الاسكندري، يضرب بالسيف أيضاً، وسيركوريوس من كابادوسيا يقطع رأسه، ونيكاسيوس من ريمس، بطريقة مماثلة، وأوديليا من هوي رمي بالسهام، وباينراس، يقطع رأسه، وبانتاليون من نيكوميديا، بالطريقة ذاتها، وبافنوتيوس، يُصلب، وباتروكلوس من ترويس وسويست، بالطريقة ذاتها، وبول من طرسوس، الذي تدين له بأول كنيسة، بالطريقة ذاتها، وبيلاجيوس،

يسحب ويقطع إلى أربعة أجزاء، وبيتر من ريتس، يقتل بالسيف، وبيتر من فيرونا، يشق رأسه بسيف القطلس ويغرز خنجر في صدره، وبيربيتوا وخادمتها فيليستي من قرطاج، تطعنان بقرون ثور هائج، ونيلومينا تطلق عليها السهام وتغرق، وبياتون من تورناي تسلخ فروة رأسه، وبوليكارب يطعن ويحرق حياً، وبريسكا من روما، تلتهمها الأسود، وبروسيسوس ومارتينيان من المحتمل أن يلاقيا المصير ذاته، وكوينيتوس، تدق المسامير في رأسه والأجزاء الباقية من جسده، وكورينينوس من ريون، تسلخ فروة رأسه، وكويتريا من كويمبرا، يقطع رأسها من قبل أبيها، ورانين من أليسي، يضرب بالسيف، ورينود من دورتموند يضرب حتى الموت بمطرقة البناء، وريستيتوتا من نابولي تحرق على خازوق، ورولاند، يضرب بالسيف، وروماتوس من أنتيوك، يشنق بعد أن يقطعوا لسانه، ألا زلت غير راض حتى الآن، سأل الرب يسوع الذي رد عليه، هذا شيء عليك أن تسأل نفسك به، فاستمر، واستمر الرب فعلاً، سابينان من سينس، يقطع رأسه، وسابيناس من أسيسي، يقذف بالحجارة حتى يموت وساتورنينوس من تولوز، يسحب بثور حتى الموت وسباستيان تخترقه السهام، وسيكوندوس من آستي، يقطع رأسه، وسيرفاتيوس من تونغريس وماسترخت يقتلان بضربة على الرأس بلوح خشبي، وسيفيروس من برشلونة يقتل بدق المسامير في رأسه، وسيدويل من أكستر، يقطع رأسه، وسيجيسموند، ملك بورغوندي، يرمى في بئر، وستيفن يرجم بالحجر حتى الموت، وثيكلا من ايكونيوم، تشوه وتحرق حية، وثيودور، يحرق على خازوق، وثوماس بيكيت من كانتربيري، تخترق جمجمته بسيف، وتوماس مور، يقطع رأسه، وثايرسوس، ينشر بمنشار في ثوركوتوس ويقتل السبعة والعشرون من قبل الجنرال موخا عند بوابات غومارياس، وتروبيز من بيزا يقطع رأسه، وأوربانوس وفاليريا من ليموجييس وفاليريان وفينانتيوس من كاميرينو يلاقون المصير ذاته، ويقطع رأس فيكتور،

وتجز ناصية فيكتور مارسيليز وتقتل فكتوريا الرومية بعد أن يقطع لسانها، وفنسنت من ساراغوسا يعذب حتى الموت بحجر رحى وشبكة حديد وحراب، وفيرجيليوس من ترنت، يقتل بلوح خشبي، وفيتاليس من رافينا، تطعن بالسيف، وويلجيفورتيس أوليفراد أو أيوتروبيا العذراء الملتحية تصلب، وهكذا وهلم جرا ولاقوا جميعهم المصير ذاته. قال يسوع، هذا ليس جيداً بما فيه الكفاية، إلى أي آخرين تشير، هل يتحتم عليك أن تعرف بالفعل، أجل، إنني أشير إلى أولئك الذين هربوا من الشهادة وماتوا طبيعياً بعد أن عانوا عذابات العالم، عذاب الجسد وعذاب الشيطان، والذين كي ينتصروا على هذين الاثنين يكبحون أجسادهم بالصوم والصلاة، لا بل ثمة حال مسلية ليوحنا سكورن الذي قضى الكثير من الوقت يصلي على ركبتيه حتى أنه انتهى بمسامير في ركبتيه، وفي كل مكان، وقد اشتهر أيضاً، وهذه سوف تمتعك، بأن يضع الشيطان في جزمة، فقال باستور باحتقار، أنا في جزمة ها، ها، ما هذه؟ انها من حكايات العجائز. والجزمة التي يمكنها حملي لابد أنها ستكون بوسع العالم، وبودي أن أرى من ذا الذي سيكون قادراً على ارتداء حذاء وخلعه بعد ذلك، فاقترح يسوع، ربما فقط في الصلاة والصوم، وعند ذاك أجاب الرب، ولسوف يكبحون جماح الجسد بالمعاناة والدم والخشونة، وما لا يحصى من الكفارات الأخرى، بقمصان الصوف والجلد، ولسوف يكون ثمة من لا يستحم إلا ما ندر وآخرون ممن يرمون بأنفسهم على العليق أو يتدحرجون في الجليد ليكبحوا الرغبات الجسدية التي هي من عمل الشيطان الذي يبعث هذه الاغواءات قاصداً إغواء الأرواح من ممرها الضيق والعسير الذي يقودها إلى الفردوس، صور لنساء عاريات، وحوش مرعبة، مخلوقات منبوذة، شهوة وخوف، أسلحة تستخدم من قبل الشيطان لتعذيب الوجود التعس للبشر، سأل يسوع باستور، هل هذا صحيح، فأجابه، أكثر أو أقل من ذلك، إنني ببساطة آخذ ما يتخلى عنه الرب، الجسد بكل مسراته وأحزانه، الشباب

والشيخوخة، الأزهار والتفسخ، ولكن ليس صحيحاً أن الخوف من أسلحتي، ولا أنكر أنني قد أخترعت الخطيئة والعقاب أو الرعب الذي يثيرانه، فقاطعه الرب بحدة، اسكت، الخطيئة والشيطان شيء واحد أو هما الشيء ذاته، فتساءل يسوع، أي شيء هذا، إنه غيابي، وكيف تفسر غيابك، أهو بسبب تراجعك أم لأن البشر انفضوا عنك، كل من ينفض عني يأتي ليبحث عني، وعندما لا يستطيعون العثور عليك، أظنك تلوم الشيطان، كلا، لا لوم عليه، أنا من يقع عليه اللوم لأنني غير قادر على الوصول بعيداً إلى أولئك الذين يبحثون عني، نطقت الكلمات من قبل الرب بحزن لاذع وغير متوقع، وكأنه اكتشف فجأةً حدود قوتهِ. قال له يسوع، إستمر، فاستمر الرب ببطء، ثمة آخرون يرجعون إلى البرية حيث يعيشون في عزلة في الكهوف والأكواخ لا رفقة لهم سوى الحيوانات، آخرون يختارون حياة رهبنة، ويرتقون إلى قمة الدعامات العالية ويعيشون هناك سنة في الداخل وأخرى في الخارج، ثمة آخرون، كان صوته قد تلاشى، يتأمل الرب الآن موكباً لا نهاية له من البشر، آلاف على آلاف من الرجال والنساء في العالم يدخلون ديراً وديراً، البعض منها مأوى بسيطاً، والكثير منها بنايات فخمة، هناك سيمكثون لخدمتك وخدمتي منذ الصباح وحتى المساء بالسهر والصلاة، كلهم بالبعثة ذاتها والمصير ذاته، يعبدوننا ويموتون وأسماؤنا على شفاههم، ولسوف يستخدمون أسماء مختلفة، فيعرفون بالأوغسطيين والبندكتينين والكابوتشيين والكرمليين والكارثوسيين والسسترسيين والدومنيكانيين والفرانسسكيين والجلبرتيين واليسوعيين والترينيتارنيين، ولسوف يكون ثمة الكثير منهم حتى أنه حريٌ بي أن أكون قادراً على التعجب، يا إلهي، لماذا هذا العدد الهائل. عند هذه النقطة، قال الشيطان ليسوع، لاحظ من خلال ما قاله لنا أن ثمة طريقتين يفقد فيهما الواحد حياته، إما في الشهادة، أو في نكران الذات، لم يكن كافياً لكل أولئك البشر أن يموتوا حين يأتي موعدهم، إنهم بطريقة ما أو بأخرى قد هرعوا لملاقاة

موتهم، مصلوبين أو تنتزع أحشائهم أو تقطع رؤوسهم أو يحرقون على خازوق، أو يرجمون بالحجر أو يغرقون أو يسحبون ويمزقون أو يسلخون وهم أحياء، أو يطعنون، أو يدفنون أحياء، أو يشطرون نصفين أو يرمون بالسهام ويشوهون ويعذبون داخل وخارج زنازينهم وبيوتهم الصغيرة الملحقة وديرهم، يقومون بالكفارات ويكبحون شهوات الجسد الذي منحهم الرب إياه والذي من دونه ليس لديهم أية مطارح يريحون فيها أرواحهم، هذه العقوبات لم يخترعها الشيطان الذي يتحدث إليك. سأل يسوع الرب، أهذا كل ما لديك، كلا، فلا تزال هناك الحروب، والمذابح، لا حاجة بك لأن تحدثني عن المذابح، وكنت على وشك أن أموت في واحدة منها، وعندما فكرت بها، قلت للأسف أنني لم أمت فيها، لأنني حينذاك أكون قد تخلصت من الصلب الذي ينتظرني، إنني أنا من قاد أباك الآخر إلى المكان الذي سمع فيه حديث الجنود وبذلك أنقذت حياتك، لقد أنقذت حياتي فقط كي تصدر أمراً بموتي حسب رغبتك وما يلائمك وكأنك مستعد لقتلي مرتين، إن الغاية تبرر الوسيلة، يا بُني، من خلال حديثك الذي حدثتني به حتى الآن أستطيع أن أومن بذلك فعلاً، رهبنة ودير ومعاناة وموت والآن حروب ومذابح، ولكن أية حروب تلك، حرب بعد أخرى وإلى الأبد خصوصاً تلك التي تشن ضدك وضدي باسم رب سيظهر، كيف يمكن لرب أن لا يظهر حتى الآن، فالرب الحقيقي موجود دائماً وأبداً، أدرك أن من الصعب فهم ذلك أو شرحه، ولكن ما أحدثك به سيحدث، سيثور إله ضدنا وضد أتباعنا، بلدان بأكملها، كلا، كلا، لا توجد كلمات لوصف المذابح، والدماء والقتل، حاول أن تتخيل مذبحاً في أورشليم مضروباً بألف، أبدل حيوانات الأضاحي بالبشر، وحتى حينذاك لن تكون لديك فكرة عما كان أولئك الصليبيون يشبهون، صليبيين، ما هم أولئك الصليبيون ولماذا تشير إليهم في الماضي مادام ذلك لم يحدث بعد، تذكر أنني الزمن ولذلك فبالنسبة لي كل ما يوشك أن يحدث قد حدث من قبل، وكل ذلك الذي حدث

يستمر في الحدوث كل يوم، أخبرني إذاً المزيد عن أولئك الصليبيين، حسناً، يا ولدي، سوف تُغزى هذه الأنحاء التي نحن فيها الآن، وبضمنها أورشليم والمقاطعات الشمالية والغربية، من قبل أتباع الرب الذي ذكرته والذي تباطأ في المجيء، إن الاتباع الذين من جانبنا سيبذلون أقصى الجهد لطردهم من الأماكن التي رحلت إليها وأنا معك بتكرار، لم تعمل الكثير في تخليص هذا المكان من الرومان، لا تصرف انتباهي، إنني أتحدث عن المستقبل، استمر إذاً، بالإضافة إلى ذلك فقد ولدت وعشت ومت هنا، لكنني لم أمت حتى الآن، هذا شيء خارج السياق، كما أوضحت لك للتو، بالنسبة لي، الشيء الذي سيحدث والذي حدث هما الشيء ذاته، وأرجوك توقف عن مقاطعتي وإلا فلن أتكلم، حسناً، سأكون هادئاً، بعد ذلك ستشير الأجيال القادمة إلى هذه البقاع بأنها الأراضي المقدسة، لأنك ولدت وعشت ومت هنا، لذلك لم يكن من الملائم أن مهد الدين الذي تمثله أنت يسقط بأيدي الملحدين الذين لا قيمة لهم، كان ذلك سبباً كافياً لتبرير الغزوات لتلك الجيوش الهائلة من الغرب الذين ظلوا يحاولون لقرنين من الزمن أن ينصروا أو يحموا المسيحية حيث الكهف الذي ولدت فيه والتل الذي سوف تموت فيه، لو أردنا ذكر العلامات المميزة فقط، هل هؤلاء الجيوش هم الصليبيون، هذا صحيح، وهل نالوا مبتغاهم، كلا، ولكنهم ذبحوا الكثير من الناس، وماذا عن الصليبيين أنفسهم، لقد قتل منهم الكثير أيضاً إن لم يكن أكثر من ذلك، وكل سفك الدماء ذاك كان من أجل اسمي، لسوف ينطلقون إلى المعارك صارخين، هكذا يشاء الرب، ومن المؤكد أنهم يموتون صارخين، هكذا شاء الرب، بمثل هذه الطريقة الرائعة ينهي الفرد حياته، ومرة ثانية، لا تستدعي التضحية بذلك، من أجل أن ينقذ الفرد حياته، يا ولدي، لابد أن يضحي بالجسد، لقد سمعتك تستخدم الكلمات ذاتها من قبل كثيراً، وماذا عنك، يا باستور، ما الذي تقوله عن تلك الحوادث العجيبة التي ستحدث لاحقاً، لا أحد سليم العقل من الممكن أن يقترح أن الشيطان كان أو حتى سيكون

مسؤولاً عن مثل سفك الدم ذاك والموت، ما لم يأت وغد بذلك الاتهام الشرير والمفتري بأنني جعلت في صورة الإله الذي سوف يعارض هذا الذي هنا، إن ما يؤثر في نفسي أن لا لوم عليك وأي أحد يحملك المسؤولية فما عليك إلا أن تجيبه بأن الشيطان إذا يكون مزيفاً فلا يمكن أبداً أن يخلق إلهاً حقيقياً، فتساءل باستور، من ذا سيخلق ذلك الرب العدواني إذاً. أشتبك الأمر على يسوع فلم يستطع الإجابة، والرب الذي كان صامتاً، بقي صامتاً، لكن صوتاً جاء من الضباب وقال، ربما يكون هذا الرب والذي سيأتي هما واحد، هو الرب ذاته،وتظاهر يسوع والرب والشيطان بعدم السماع ولكنهم مكثوا ينظرون إلى بعضهم البعض مستنفرين، فالخوف المتبادل يكون على هذه الصورة وهو يهيئ الأعداء لأن يتحدوا.

مر الزمن، لم يعد الضباب يتكلم فتساءل يسوع، الآن وبصوت من يتوقع فقط جواباً إيجابياً، لا شيء بعد ذلك. تردد الرب، ثم وبنغمة صوت متعب قال، لا يزال ثمة التحقيق، ولكن لو سمحت، سوف نناقش ذلك في وقت لاحق، وما هو التحقيق، التحقيق قصة أخرى طويلة، أوضح لي أكثر، من الأفضل لك أن لا تعرف، لكنني أصر، ستعاني فقط من الندم في هذا اليوم الذي يعود إلى المستقبل، وأنت لن تعاني، الرب هو الرب وهو لا يعاني من الندم، حسناً، ما زلت أثقل بحمل أن أموت من أجلك سلفاً، فبإمكاني أيضاً أن أقاوم الندم الذي حري به أن يكون لك، لقد أردت حمايتك، أنت لم تفعل شيئاً منذ اليوم الذي ولدت فيه أنا، أنت جحود، مثل غالبية الأطفال، دعنا نوقف هذا الإدعاء وحدثني عن التحقيق، إنه يسمى أيضاً محكمة المكتب المقدس، التحقيق شر لابد منه، لسوف تستخدم هذه الأدوات القاسية جداً لمواجهة الوباء الذي سوف يتسرب إلى داخل جسد كنيستك باستمرار في هيأة الهراطقة الشريرين وما سيسببونه من أذى مع الكثير من الانحرافات الجسدية والأخلاقية،

والتي لو تكتلت معاً دون اعتبار للترتيب والأقدمية لتضمنت اللوثريين والكالفينيين والمولينيين واليهودنيين واللوطيين والمشعوذين، البعض من هذه الأمراض تنتمي للمستقبل، والبعض الآخر يمكن أن يوجد في كل عصر، إن كان التحقيق شراً لابد منه، كما تزعم، كيف سينهي هؤلاء المشعوذون، إن التحقيق هو قوة بوليسية، ومحكمة ولذلك سوف تطارد وتحكم وتنفذ الحكم على أعدائها مثل أية محكمة أو قوة بوليسية، أي حكم تنفذه عليهم، الحكم بالسجن، أو النفي أو الخازوق، هل قلت الخازوق، أجل، لسوف يحرق آلاف الرجال والنساء على الخازوق في الأيام القوادم، لقد ذكرت البعض منهم من قبل، لسوف يحرقون أحياء لأنهم آمنوا بك، وآخرون يحرقون لأنهم شككوا بك. أليس من المحرم التشكيك بي، كلا، ورغم ذاك يسمح التشكك فيما إذا يكون جوبيتر الرومانيين إلهاً، أنا الرب الوحيد ولا إله غيري وأنت ابني، قلت أن الآلاف سيموتون، مئات الآلاف، مئات الآلاف من الرجال والنساء سيموتون وسيعم الأرض الأنين والنحيب والصراخ المعبر عن الألم، لسوف يؤدي الدخان المتصاعد من الجثث المتفحمة إلى كسوف الشمس، ولسوف يئز اللحم البشري على الجمر، ولسوف تكون الرائحة قرفة، كل ذلك سيكون بسبب غلطة مني. لا لوم عليك، إن عذرك يلائم هذه المعاناة، خذ مني، يا أبي هذه الكأس، إن سلطتي ومجدك يتطلبان منك أن تشربه لآخر قطرة، لا أريد هذا المجد، لكنني أريد هذه السلطة. راح الضباب ينقشع وصار من الممكن رؤية الماء حول القارب، ماء رقراق وهادئ دونما تموج بسبب الريح أو ارتجاف زعنفة مارّة. بعد ذلك تدخل الشيطان قائلاً، على الواحد أن يكون إلهاً كي يستمتع بسفك الدماء الكثيرة.

عاد الضباب ليتقدم مرة أخرى، شيء ما يوشك أن يحدث، إيحاء ما، حزن جديد أو ندم. لكن ذلك كان باستور الذي تكلم مخاطباً الرب، لدي اقتراح أود تقديمه، فأجاب الرب وهو يتكئ إلى الوراء، اقتراح منك،

وأي اقتراح هذا، كانت لهجته ساخرة ونافرة وتجعل غالب الناس صامتين، ولكن الشيطان في نهاية الأمر، معرفة قديمة. بقي باستور صامتاً وكأنه يبحث عن الكلمات الملائمة قبل أن يوضح، كنت أصغي بانتباه لكل ما قيل هنا في هذا القارب وعلى الرغم من أنني قد لمحت بنفسي الضياء والظلام أمامي، فلم أدرك أبداً أن الضياء كان يأتي من الخوازيق المحترقة والظلام من ظلال الجثث التي لا تحصى، وهل هذا يزعجك، حري به أن لا يزعجني في الحقيقة ما دمت أنا الشيطان والشيطان يستفيد من الموت دائماً، حتى أكثر مما تفعل أنت، لأنه يجري دون الحاجة للقول أن الجحيم أكثر زحمة من الفردوس، فلماذا تتنمر إذاً، إنني لا أتنمر، بل أريد أن أقدم اقتراحاً، هيا قله ولكن أسرع فلا يمكن أن أتوانى هنا إلى الأبد، لا أحد يعرف أفضل منك بأن الشيطان له قلب أيضاً، أجل، ولكنك نادراً ما تستخدمه، أزمع اليوم أن استخدمه بالاعتراف والأمل بأن تهيمن بسلطتك على الأرض دون الحاجة إلى المزيد من الموتى، وما دمت تصر بأن أي شيء يعارضك ويتنكر لك هو ثمرة الشر الذي أمثله أنا وأتحكم به في هذا العالم، لذلك اقترح أن تضمني إلى مملكتك السماوية، أخطائي السابقة تعالج بتلك التي لن أقترفها في المستقبل، وأن تتقبل وتحافظ على طاعتي لك كما كنت في الأيام الخوالي السعيدة عندما كنت أحد ملائكتك المختارين، إذ كنت تسميني لوسيفر، حامل الضياء، قبل أن يدفعني طموحي لأن أكون لك نداً مما استهلك روحي وجعلني متمرداً ضد سلطتك، هلا تفضلت وقلت لي لماذا يتحتم علي أن أغفر لك وأستقبلك في مملكتي، لأنك إن فعلت هذا ومنحتني ذلك العفو الذي ستعد به بترحاب يميناً ويساراً عند ذاك سينقشع الشر في الحال، ولن يضطر ابنك للموت وستتسع مملكتك إلى خارج أرض العبرانيين لتعانق العالم بأكمله، سواء أكان عالماً معروفاً أم لم يكتشف بعد، وسيعم الخير في كل مكان ولسوف أنشد بين أوطأ الملائكة الذين ظلوا مخلصين لك، وأنا الأكثر إخلاصاً لك لأنني قد تبت،

سأنشد مدائحك، وكل شيء سينتهي وكأنه لم يوجد على الاطلاق، وكل شيء سيغدو ما كان حرياً به أن يكون دائماً، كنت أعرف دائماً أنك تمتلك موهبة تضليل وضياع الأرواح، لكنني لم أسمعك أبداً تلقي مثل هذا الخطاب بمثل هذه القناعة والفصاحة، كدت تقنعني تقريباً، لن تقبلني إذاً ولن تسامحني، كلا، لن أقبلك ولن أسامحك، أفضل كثيراً أن تبقى على حالك هذه، ما أمكنني ذلك، لا بل أفضل أن تغدو أسوأ مما أنت عليه، ولكن لماذا، لأن الخير الذي أمثله لا يمكن أن يوجد دون الشر الذي تمثله، فلا يعقل أن يوجد خير بدونك، إلى حد أنه سيكون تحدياً للخيال، وباختصار، لو أنك انتهيت، سأنتهي أنا كذلك، فبالنسبة لي، أن أمثل الخير، من الضروري جداً أن تستمر أنت بدور الشر، فما لم يعش الشيطان شيطاناً، لا يمكن للرب أن يكون رباً، وموت الواحد منهما يعني موت الآخر. أهذه هي كلمتك الأخيرة، كلمتي الأولى والأخيرة، الأولى، لأنها المرة الأولى التي أقولها فيها، والأخيرة، لأنني لا أزمع تكرارها. هز باستور كتفيه وخاطب يسوع، لا تدع أحداً يقل أبداً أن الشيطان لم يغو يسوع مرة، ووقف على قدميه، وكان قد أوشك أن يضع إحدى رجليه على حافة القارب عندما توقف فجأة وقال، ثمة شيء يعود إليّ في جرابك. لم يتذكر يسوع أنه جلب الجراب على القارب، ولكنه كان هناك في الواقع، ملتفاً عند قدميه، أي شيء هذا، تساءل، وعندما فتح الجراب لم يجد شيئاً غير ذلك الإناء الأسود القديم الذي جلبه من الناصرة، فأجاب الشيطان وهو يلتقط الإناء بكلتا يديه، هذا هو، هذا هو، سيعود إليك هذا ثانية في يوم ما، ولكنك لن تعرف أبداً أنه لديك. دس الإناء بداخل ثوبه الرعوي المصنوع من القماش الغليظ وهبط في الماء. ودون أن ينظر نحو الرب قال ببساطة، وكأنه يخاطب جمهوراً لا مرئياً، وداعاً إلى الأبد، مادام هذا الذي قضى به (هو). تابعه يسوع بعينيه وهو يغيب تدريجياً في الضباب، كان قد نسي أن يسأله عما تلبّسه ليسبح كل تلك المسافة إلى هناك ثم يعود، حين رآه من بعيد بدا عليه مرة أخرى أنه

صار أشبه بخنزير ذي أذنين بارزتين وكان يلهث بانفعال، لكن أي احد له أذن مرهفة لا يلاقي صعوبة في ملاحظة أن كان ثمة إشارة للخوف، ليس من الغرق، أية فكرة هذه، ذلك لأن الشيطان، كما عرفنا تواً، لا ينتهي، بل الخوف من الوجود أبداً. كان باستور قد اختفى خلف أهداب الضباب المهلهلة حين رن فجأة صوت الرب ليعرض ودائماً مفاجئاً، سأبعث شخصاً يسمى يوحنا للمساعدة ولكن عليك أن تثبت له أنك أنت من يقول أنه أنت. نظر يسوع فيما حوله، فلم يجد الرب.عند ذاك بالضبط انقشع الضباب، تلاشى في الهواء الشفيف، تاركاً البحر صافياً ورقراقاً من النهاية وحتى النهاية بين الجبال، لم يكن ثمة أية أثر للشيطان في الماء، ولا أثر للرب في الهواء.

من الشاطئ الذي جاء منه يسوع، ورغم المسافة البعيدة، تمكن من رؤية حشد من الخيم المزفتة من الخلف، التي تبدو مقراً دائماً لأناس لم يكونوا يعيشون هنا، وإذ لا مأوى آخر لهم، نظموا حالهم هنا بأفضل ما أمكنهم. أثار ذلك اهتمام يسوع، لا أكثر من ذلك، فأنزل مجاذيفه في الماء وقاد قاربه إلى تلك الجهة. حين تطلع من فوق كتفيه، أبصر قوارب تدفع نحو الماء، وحين تسنى له أن ينظر عن قرب، رأى سمعان وأندراوس ويعقوب ويوحنا في داخلها بصحبة آخرين لم يتذكر أنه رآهم في هذه الأنحاء من قبل. جذف بقوة وسرعان ما اقتربوا وأصبحوا ضمن مدى الكلام. ناداه سمعان، أين كنت، من الواضح أن هذا لم يكن الذي يريد معرفته ولكن كان عليه أن يبدأ من موضع ما، أجاب يسوع، هنا في البحر، وهو جواب عقيم كالسؤال، وبدت الاتصالات وكأنها مقطوعة في البداية السيئة للحالة الجديدة في حياة ابن الرب ومريم ويوسف. خلال بضع ثوان كان سمعان يتسلق بجهد قارب يسوع فانزاح المبهم والمستحيل وما ينافي العقل. سأله سمعان، هل تعلم كم مضى لك وأنت هناك وسطح البحر في خضم الضباب، ونحن نحاول دون جدوى

أن ننطلق بقواربنا فلا نستطيع لأن رياحاً عاتية تقيدنا إلى الشاطئ. أجاب يسوع، كنت هناك طوال النهار، ثم أضاف بعد ذلك، طوال النهار والليل، وفي محاولة لإشباع فضول سمعان المتلهف، أربعين يوماً، فصاح سمعان، ثم أخفض صوته وكرر، كنت هناك لأربعين يوماً، وخلال كل ذلك الوقت، لم ينقشع الضباب أبداً، وكأنه كان يخفي شيئاً عنا، أياً ما كنت تفعله، مشكلتنا أننا نصطاد سمكة واحدة في هذه المياه خلال الأربعين يوماً الماضية. أعطى يسوع أحد المجذافين لسمعان وراحا يجذفان كلاهما ويتحدثان بانسجام كتفاً لكتف، يتحركان بتؤدة وثبات وهو الوضع المثالي لتبادل الثقة، وقبل أن يقترب أي من القوارب الأخرى قال يسوع، كنت مع الرب وأعرف الآن ما الذي يخبئه لي المستقبل، كم سأعيش والحياة التي تنتظرني بعد هذه الحياة، كيف يبدو، أعني كيف يكون شكل الرب، لم يظهر الرب في هيأة واحدة، فهو يظهر أحياناً بهيئة غيمة، أو عمود دخان، ويتحول حتى ليكون مثل يهودي ثري، يحتاج الشخص لأن يسمع صوته ليعرفه، ما الذي قاله لك، لقد أخبرني بأنني ابنه، هل أكد ذلك، نعم، لقد أكد ذلك، معنى هذا أن الشيطان كان محقاً في حادثة الخنازير، كان الشيطان حاضراً أيضاً في القارب وأصغى لكل شيء، ويبدو أنه يعرف عني كل شيء كما يعرف الرب، وأكاد أظن أنه يعرف أكثر من الرب، وأين، أين ماذا، أين كانا، كان الشيطان جالساً على حافة القارب، هناك بالضبط بين مكانك والدكة القريبة من الدفة حيث كان يجلس الرب، ما الذي قاله لك الرب، أنني ابنه ولسوف أصلب، لو أنك ستذهب إلى الجبال لتقاتل إلى جانب المتمردين سنأتي معك، ستأتون معي، ولكن ليس إلى الجبال، المهم أن لاندحر القيصر بالأسلحة، بل أن ننصر الرب بالكلمات، بالكلمات وحدها، ونعطي مثالاً متميزاً، وبالتضحية بأنفسنا، إن اقتضى الأمر، أهذه هي كلمات أبيك، منذ الآن ستكون كلماتي هي كلماته، والذين يؤمنون به سيؤمنون بي، إذ من المستحيل الإيمان بالأب دون الإيمان

بابنه، ذلك لأن الطريق الجديد الذي اختاره الرب لنفسه يمكن فقط أن يبدأ من خلالي، أنا ابنه، حين تقول أننا سنأتي معك إلى من تشير، أنت أولاً، ثم إلى اندراوس، أخيك، وإلى أبناء زبيدي، يعقوب ويوحنا، وذلك يذكرني أن الرب قد أخبرني بأنه سيبعث شخصاً اسمه يوحنا ليساعدني، ولكن لا يمكن أن يكون هو يوحنا ذاته، نحن لا نريد غيره، فبعد كل الذي جرى، هذه ليست واحدة من المواكب الاحتفالية لهيرودس، سيأتي الآخرون ولربما ينتظر البعض هناك إشارة الرب، وهي إشارة سيعلنها الرب من خلالي، كي يؤمن بي ويتبعني أولئك الذين لم يكشف لهم عن نفسه، ما الذي ستقوله للناس، أن عليهم أن يتوبوا عن خطاياهم، ويهيئوا أنفسهم لعهد الرب الجديد الذي أوشك أن يبزغ، العهد الذي ستلوى به بسيف الرب اللاهب رقاب أولئك الذين رفضوا وذموا كلمته المقدسة، عليك على الأقل أن تخبرهم أنك ابن الرب، سأقول أن أبي قد دعاني ابنه وأنني أحمل هذه الكلمات في قلبي منذ اليوم الذي ولدت فيه، وأن الرب ذاته قد جاء ليعلن أنني ابنه، الأب الذي لا يجعل الشخص ينسى الآخر، لكن الذي يصدر الأوامر اليوم هو الرب الأب، فلنطعه، فقال سمعان، فاترك ذلك لي، وترك مجذافه فجأة وتحرك نحو المقدمة، وضمن مدى السمع، نادى بصوت عال، المجد لله، هاهو ابن الله يصل إليكم، هو الذي أمضى أربعين يوماً في البحر يتحدث مع أبيه وهاهو يعود إلينا كي نتوب ونهيء أنفسنا. حذره يسوع على عجل، لا تذكر أن الشيطان كان هناك أيضاً، خشية أن يصعب عليه شرح الموقف لو انتشر ذلك بين الناس. وقام سمعان بصرخة تالية، ولكن بصوت أعلى هذه المرة، تسببت بالفرح الكبير الذي انتشر بين الحشود المتجمعة عند الشاطئ، وبعد ذلك اندفع إلى مقعده وقال يسوع، دع التجذيف لي، اذهب، وقف عند المقدمة، ولكن لا تقل شيئاً، ولا حتى كلمة واحدة، حتى نصل الشاطئ. وهكذا وصلا، يسوع يقف عند المقدمة بثوبه البالي وجرابه الفارغ على كتفه، ذراعه نصف مرفوعة وكأنه يوشك أن يحيي

أحداً ما أو يهب له بركاته لكنه مقيد بالخجل أو بالثقة القليلة بمكانته. من بين أولئك المنتظرين، كان ثمة ثلاثة رجال بالتحديد نافدي الصبر حتى أنهم خاضوا في الماء حتى وصل إلى خصورهم. وعندما وصلوا إلى القارب راحوا يدفعون ويسحبون بينما حاول أحدهم بيده الحرة أن يلمس ثوب يسوع، ليس لأنه آمن بما قاله سمعان، بل لأنه إنشدّ إلى غموض هذا الرجل الذي خرج إلى البحر لمدة أربعين يوماً وكأنه يبحث عن الرب في الصحراء وهو يعود من الأعماق الباردة لجبل الضباب، حيث قد يكون رأى الرب أو لم يره. لا حاجة للقول أن الناس كانوا لا يتحدثون عن شيء آخر في الجوار والقرى المحيطة وأن أولئك الناس الذين تجمعوا على الشاطئ لرؤية هذه الظاهرة الإرصادية بأنفسهم، عندما سمعوا أن ثمة رجلاً قد وقع في فخ ذلك الضباب، كانوا يتمتمون، يا للمسكين. انزلق القارب إلى مصيره الأخير وكأنه حمل على أجنحة الملائكة. وساعد سمعان يسوع بأن ينزل إلى الشاطئ، ومن الواضح أنه كان مستثاراً، منصعقاً من الرجال الثلاثة الذين قفزوا في الماء وظنوا أنهم يستحقون معاملة أفضل، قال يسوع، دعهم وشأنهم، في يوم ما سوف يسمعون بموتي وسيتأسفون لأنهم ليسوا هناك ليحملوا جثتي، فدعهم يرافقونني وأنا لا أزال حياً. تسلق يسوع هضبة وسأل رفاقه، أين مريم، وما إن سأل حتى رآها. وبدا كأن مجرد سماع صوت اسمها قد حررها من قبضة الفراغ أو الضباب، في لحظة لم يلاحظ أحد وجودها ولكنه في اللحظات التي نطق باسمها، حضرت، أنا هنا، يا يسوع، تعالي إلى جانبي، وأنتم أيضاً يا سمعان واندراوس ويعقوب ويوحنا أبناء زبيدي، لأنكم جميعاً وثقتم بي وصدقتموني، وثقتم وآمنتم بي حين كنت غير واثق أنني ابن الرب، هذا الابن الذي استدعي من الرب وقضى أربعين يوماً معه في البحر قبل أن أعود لأخبركم أن ساعة الإله قد أتت وأن عليكم أن تتوبوا قبل أن يصل الشيطان ليقطف سنابل القمح المتعفنة التي ربما سقطت من الحصاد الذي يحمله الرب في حضنه، لأنكم أنتم

سنابل القمح المتعفنة لو أنكم هربتم من الحضن الرائع للرب إلى الخطيئة. وسرت همهمة بين الحشد مرّت برؤوسهم كتلك المويجات الصغيرة التي تعاود الظهور على سطح الماء، في الحقيقة كان الكثيرون من الحاضرين قد سمعوا بالمعجزات التي حدثت في مكان آخر من قبل هذا الرجل الواقف هناك، البعض منهم قد رآها بأم عينيه أو حتى كانوا من المستفيدين من تلك المعجزات، قال أحد الواقفين، لقد أكلت الخبز والسمك، وقال آخر أنا شربت الخمر، وقال ثالث، كنت جار تلك البغي، ولكن مهما كانت تلك الأعاجيب سامية أو هكذا تبدو، فقد كانوا في حالة انبهار في اللحظة السامية التي أعلن فيها يسوع أنه إبن الرب، وهو كذلك، الرب بذاته، هذا الكشف العجيب هو الأبعد مدى من المعجزات الأخرى بعد السماء عن الأرض، وفي أفضل معلوماتنا، فإن هذا البعد بينهما لم يستطع أحد قياسه حتى اليوم. إرتفع صوت من بين الحاضرين، برهنِ أنك إبن الرب ولسوف أتبعك، كنت ستتبعني أبداً لو لم يكن قلبك مقفلاً في صدرك، أنت تسأل عن برهان يمكن لحواسك أن تدركه، حسناً إذاً، سأعطيك البرهان الذي يقنع حواسك لكنه مرفوض من قبل عقلك حتى تحتار بين عقلك وحواسك ولن يكون لك خيار غير أن تأتي إلي عبر قلبك، فقال الرجل ساخراً، ماذا يعني هذا، فأنا لم أفهم منك كلمة واحدة، سأله يسوع، ما أسمك، توماس، تعال إلى هنا يا توماس، رافقني حتى حافة الماء، تعال وراقبني أخلق بعض الطيور بحفنات من الطين، أنظر كم هو سهل، أنا أصنع هيأة الجسد والأجنحة، أكون الرأس والمنقار، وأضع هذه الأحجار الصغيرة على أنها عيون، أرتب الريش الطويلة لتكون ذيلاً، أوازن الرجلين والمخالب، وبعد أن أفعل ذلك أصنع أحد عشر طيراً آخر، أنظر هنا واحد، إثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر، إثنا عشر طيراً كلها مصنوعة من الطين، فكر فقط يمكننا حتى، لو رغبت، أن نسميهم، هذا هو سمعان وهذا يعقوب وهذا أندراوس، وهذا يوحنا، وهذا، إن سمحت لي، سيكون

إسمه توماس، والآخرون، دعنا ننتظر حتى تظهر أسماؤهم، تتأخر الأسماء غالباً على الطريق وتظهر فيما بعد، والآن راقبني أرمي الشبكة على الطيور الصغيرة لأمنعها من الهروب، لأنها ستفر ما لم نكن حذرين، فتساءل توماس غير مصدق، هل تحاول أن تقول لي أنك لو رفعت هذه الشبكة فلسوف تفر الطيور، أجل، لو رفعت الشبكة، لفرت الطيور بالتأكيد، أهذا هو البرهان الذي كنت تريد أن تقنعني به، نعم ولا، ماذا تعني بنعم ولا، إن أفضل برهان، على الرغم من أنه لا يعتمد علي، هو أن لا ترفع الشبكة وتؤمن بأن الطيور ستفر لو أنك رفعتها، لكن الطيور مصنوعة من الطين لا يمكن أن تفر، جرّب، فحتى آدم، أبونا الأول، كان مصنوعاً من الطين وأنت أحد خلقه، لقد كان ذلك هو الرب الذي وهب الحياة لآدم، لا تشك أكثر من ذلك يا توماس وأرفع الشبكة، لأنني أنا إبن الرب، حسناً، إن كنت تقول ذلك، فهيا، لكنني أعدك أن هذه الطيور لن تطير، ودون أن يألو توماس جهداً رفع الشبكة، وحين أحسست الطيور بالحرية طارت محلقة. رفرفت فرحة، ودارت مرتين فوق الحشد المنبهر قبل أن تختفي في الفضاء. قال يسوع، أنظر يا توماس، لقد فر طيرك، عند ذاك أجاب توماس، كلا، يا إلهي، أنا الطير، أركع عند قدميك.

تدفق بعض الرجال الذين في الحشد إلى الأمام، وفعلت بعض النساء مثلهم. اقتربوا ورددوا أسماءهم، أنا فيليبوس ورأى يسوع الأحجار والصليب، أنا بارثولوميو، ورأى يسوع جذعاً مسلوخاً، أنا ماثيوس، ورأى يسوع جثته بين المتوحشين، أنا سمعان، تمكن من رؤية المنشار الذي سيمزق جسده، أنا يعقوب إبن الفايوس، وتمكن يسوع من رؤيته يرجم بالحجارة حتى الموت، أنا يهوذا ثادايوس ورأى يسوع الهراوة التي ارتفعت فوق رأسه، أنا يهوذا الأسخريوطي، وأشفق عليه يسوع لأنه يراه معلقاً نفسه بشجرة تين. ثم نادى يسوع على الآخرين وقال،

والآن ونحن جميعاً هنا، فقد حانت الساعة. والتفت إلى سمعان، شقيق أندراوس وقال له، لأن معنا سمعان آخر، فأنت يا سمعان ستعرف منذ الآن ببطرس. أدار الرجال ظهورهم إلى البحر وراحوا يمشون، تتبعهم النساء، اللائي لم نعرّف أسماءهن أبداً، وليس ذلك مهماً، إذ أغلبهن يحملن أسم مريم والبقية منهن يستجبن لو ناديتهن بهذا الاسم، فلا يحتاج الرجل إلا أن يهتف، أيتها المرأة، أو يا مريم، ولسوف يتطلعن إليه ويأتين لتلبية دعوته.

كان يسوع يتنقل من قرية لأخرى مع تلاميذه وتكلم الرب عبر يسوع، وهذا ما قاله، لقد دار الزمن دورته الكاملة وأقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بهذه الأخبار السارة. وعند سماع ذلك لم يجد السكان فرقاً بين دورة الزمن الكاملة ونهاية الزمن، ولذلك آمنوا أن نهاية العالم ستكون عاجلة حيث فيها يقاس الزمن ويستنفد. وشكروا الرب لأنه تعطف وبعث لهم تحذيراً عن مصيرهم الوشيك بيد شخص دعاه إبنه، وهذه حقيقة لأنه قام بالمعجزات حيث ذهب، شريطة أن أولئك الذين يطلبون عونه يصرحون بإيمانهم الحقيقي وقناعتهم، كما هي حال المجذوم الذي شفي، إن اخترت لذلك، فبإمكانك أن تطهرني، فاشفق يسوع على التعس الذي كان مغطى بالقروح، وضع يده عليه وأصدر أمره، أرغب في أن تتطهر، وما أن أنتهى من هذه الكلمات حتى شفيت القروح وعادت الصحة لبدنه المريض وأضحى المجذوم الذي كان الجميع يهربون منه خالياً من أية تشوهات وبدا معافى تماماً وطبيعياً. والشفاء المهم الآخر هو لذلك المشلول. فقد تجمع أناس كثيرون عند باب ذلك الرجل السقيم الذي تحتم عليه أن يرفع وهو في فراشه ثم ينزل عبر فتحة في سقف المنزل الذي كان يقيم فيه يسوع، والذي من المحتمل أن يكون عائداً لسمعان، الذي يعرف أيضاً ببطرس. قال يسوع للرجل السقيم، يحرضه الأيمان العميق، لقد غفرت لك خطاياك يا بني، ولكن حدث كثيراً أن بعض الناسخين من غير المؤمنين قد أظهروا توقهم في أن يجدوا سبباً للتذمر، وقد استعدوا سلفاً لأن يقتبسوا من الناموس

المقدس، فحين سمعوا ما قاله يسوع، لم يضيعوا الوقت في أن يحتجوا، كيف تجرؤ على أن تقول أشياء كهذه، هذا كفر، فلا يغفر الذنوب إلا الرب، عند ذلك تساءل يسوع، أليس من الاسهل أن تقول لأولئك المرضى بالشلل أن ذنوبكم قد غفرت، من أن تقول، إنهض، فخذ فراشك وإمش، ودون أن ينتظر إجابة إستمر قائلاً، ولكن كي تعرفوا أن إبن الإنسان له القدرة على الأرض في أن يغفر الذنوب، أقول لكم، ملتفتاً إلى المشلول، إنهض وخذ فراشك وأذهب إلى بيتك، ومع هذه الكلمات وقف الرجل على قدميه بمعجزة، وأسترد فجأة قوته بعد أن كان عاجزاً عن الحركة لمدة طويلة، وأخذ فراشه، حمله على كتفه وذهب شاكراً الرب.

من الواضح أننا لا نذهب جميعاً للبحث عن المعجزات. فمع مضي الوقت نعتاد على آلامنا الطفيفة ونألف العيشة معها دون أن نفكر حتى بإزعاج القوى الإلهية، أما بشأن الخطايا فالأمر على أية حال مختلف، أنها تدخل تحت جلودنا وتعذبنا، وعلى العكس من الساق العرجاء والذراع المشلولة، أو تلف الجذام، فإن الخطايا تتقيح داخلياً. لذلك كان الرب يعلم عما يتكلم حين أخبر يسوع أن لكل إنسان خطيئة واحدة على الأقل، إن لم يكن أكثر، وعليه أن يندم عليها الآن وما دام هذا العالم يوشك على النهاية وأن ملكوت الرب قريب، فبدلاً من أن ندخلها وأبداننا مرممة بالمعجزات، من الأكثر أهمية أن تقودنا أرواحنا وهي المتطهرة بالتوبة وشافية بالغفران. بالإضافة إلى ذلك، إن كان مشلول كفر ناحوم قد قضى معظم حياته على الفراش، فقد كان ذلك لأنه قد أذنب، ذلك لأن المرض، كما نعلم جميعاً، هو نتيجة للذنب، لذلك يمكننا أن نستنتج مطمئنين أن المتطلب الأساسي للعافية، من أجل خلود أرواحنا، ولربما أبداننا أيضاً، هو أقصى الطهارة، الغياب الكامل للخطيئة إما من خلال الجهل السلبي والمبارك، أو من خلال البراءة المباشرة، في الفكر والعمل. ولا مجال لأن يظن أحد على أية حال أن يسوعنا قد ساح في

هذه الأنحاء مبدداً قوته وسلطته التي منحها الرب له لشفاء المرضى ورفع ذنوبهم. ليس لأنه ما كان سيرغب في ذلك، فمن الواضح، أنه كان بنزعته سيفضل أن يكون دواءً شاملاً، على أن يجبر من قبل الرب على أن يعلن نهاية الزمن ويحث الناس على التوبة. وعليه لا بد للمذنبين أن لا يخسروا مزيداً من الوقت في التأمل ويتجهوا نحو القرار الصعب في الاعتراف، إنني قد أذنبت، لقد حدد الرب تهديدات مرعبة على لسان يسوع تقول، الحق أقول لكم أن بعضكم من الحاضرين هنا لن يجربوا الموت قبل أن يروا ملكوت الرب تصل بكل عظمتها. تخيلوا فقط التأثير المدمر الذي لا بد سيكون لهذه الكلمات على ضمير كل أولئك الناس الذين تجمعوا بقلق من كل مكان ليتبعوا يسوع على أمل أن يقودهم مباشرة إلى الفردوس الجديد الذي كان سيشيده الإله على الأرض والذي كان سيختلف عن عدن نظراً لأنها ستكون ممتعة لكثيرين ممن كفروا عن أنفسهم من خطيئة آدم، والمعروفة أيضاً بأنها الخطيئة الأولى، وذلك بإداء الصلاة وكبح الشهوات والتوبة. ولأن المجاميع الغفيرة من هذه الأرواح المؤمنة كانت من طبقات العمال والحرفيين ومعبدي الطرق والصيادين والنساء اللائي من منزلة منحطة، في أحد الأيام التي سمح فيه الرب ليسوع بالمزيد من الحرية، جازف بارتجال خطبة صغيرة جعلت كل من يستمع اليها مسحوراً، وذرفت الكثير من دموع الفرح من أثر ذلك الخلاص المفاجئ، قال لهم يسوع، مباركون أنتم أيها الفقراء، لأنكم نلتم ملكوت السماء، مباركون أنتم أيها الجائعون الآن، فلسوف تشبعون، مباركون أنتم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون، وعند ذاك بالضبط أدرك الرب ما يحدث وعلى الرغم أنه قد فات الأوان للتراجع عما قاله يسوع، فقد اضطره على أن يقول كلمات أخرى حولت دموع الفرح تلك إلى نذير شؤم لذلك المستقبل الأسود، مباركون أنتم حين يكرهكم الناس، وحين يعزلونكم عن مرافقتهم، ولسوف يوبخونكم ويلحقون بكم العار من أجل ابن الإنسان. حين أنهى يسوع كلامه فيها

كان يبدو كأن روحه قد سقطت بين رجليه، لأنه في تلك اللحظة ذاتها تمكن من أن يرى في عين عقله الرؤيا المأساوية عن المعذبين والموتى الذين أخبره عنهم الرب من قبل لما كانا في البحر. شاهد حشد الناس وهم مخدرون بالخوف أن يسوع غاطساً حتى ركبتيه بالماء يصلي راكعاً بصمت. لا أحد من الحاضرين كان يتخيل أنه كان يطلب لهم المغفرة، هو ابن الرب، الذي منح شرف أن يغفر للآخرين. في تلك الليلة وهو يخلو بمريم المجدلية في الخيمة التي يتقاسمانها، قال، أنا الراعي الذي يقود بالعصا ذاتها المذنب والبريء كي يضحي، أولئك الذين تحرروا وأولئك الضالون، أولئك الذين ولدوا، وأولئك الذين لم يولدوا بعد، من ذا الذي ينقذني من هذا الألم لأنني أرى نفسي الآن كما رأيت أبي مرة، الذي كان عليه الإجابة عن عشرين حياة بينما يتوجب عليّ الإجابة عن عشرين ألفاً. بكت مريم المجدلية مع يسوع وحاولت أن ترشده، فقالت باكية، لم يكن ذلك عملك، فقال مصراً، ذلك ما يجعل الأمر أسوأ من قبل، فقالت مؤكدة وكأنها كانت قد عرفت منذ البدء ما سنراه ونسمعه شيئاً فشيئاً، إنه الرب هو الذي يرسم خطوط القدر ويقرر من ذا الذي يسير في هذه الخطوط، لقد اختارك لتفتح طريقاً لمنفعته، ولكن لن تتمكن من السير في ذلك الطريق ولن تستطيع أن تبني هيكلاً، سيشيده الآخرون فوق دمك وأحشائك، لذلك ستتقبل القدر الذي اختاره الرب لك، ذلك لأن كل حركة لك قد حسمت من قبل، الكلمات التي لا بد أن تنطقها تنتظرك في الأماكن التي ستزورها، هناك ستجد المعاقين الذين سترد لهم أطرافهم معافاة، والعميان الذين سترد لهم البصر، والمصابين بالصمم تعيد لهم السمع، والمصابين بالبكم فتعيد إليهم النطق، والموتى الذين ستبعث فيهم الحياة، ولكن لا سلطة لي على الموت، لأنك لم تحاول، لقد حاولت بالطبع، لكن الحياة لم تعد لشجرة التين، لقد تغير الحال، أنت مضطر لأن ترغب في ما يشاءه الرب، ولكنه لا يستطيع أن ينكر عليك ما يمكن أن ترغب فيه، كل ما أتمناه أن يرفع عني هذا

الحمل، أنت تطلب المستحيل يا يسوع، فالشيء الوحيد الذي لا يستطيع الرب فعله أن لا يحب نفسه، كيف علمت، النساء يرين الأشياء على نحو مختلف، ربما لأن بناءنا الجسدي مختلف، لا بد أن هذا هو السبب، أجل، لا بد أن هذا هو التعليل.

في أحد الأيام، ولأن الأرض كبيرة على قوة رجل واحد، حتى لو كان الأمر يتعلق ببلاد صغيرة مثل فلسطين، فقد قرر يسوع أن يبعث تلاميذه، أزواجاً، ليعلنوا إقتراب موعد ملكوت الرب في المدن الكبيرة والصغيرة والقرى، وأن يعلموا ويعظوا مثله أينما حلوا. ولذلك حين وجد نفسه وحيداً مع مريم المجدلية، ذلك لأن النسوة الأخريات ذهبن مع الرجال تبعاً إلى أذواقهم الخاصة وما يفضلونه، فقد حدث له أنهما ما داما مسافرين إلى بيثاني التي تقع قريباً من اروشليم فلسوف يضربان عصفورين بحجر واحد ، ان سمحتم لنا بهذا التعليق ، ويقومان بزيارة شقيق مريم وشقيقتها. لقد حان الوقت كي يحل السلام بين الزوج وأخ زوجته وليتعرفا على بعضهما البعض، وبعد أن يلتقوا، بإمكانهم القيام بالرحلة إلى أورشليم معاً لأن يسوع قد رتب للقاء تلامذته في بيثاني بعد ثلاثة أشهر. ثمة القليل مما يحكى عن أعمال الرسل الأثني عشر في أراضي إسرائيل، أولاً، لأنه ليس المطلوب منا سرد أكثر من بعض التفاصيل عن حياتهم وظروف موتهم، وثانياً، لأنهم لم ينتدبوا إلا ليكرروا، كل واحد بأسلوبه، وصايا وأعمال سيدهم، وهذا يعني أنهم قد علموا الناس كما فعل هو تماماً، وقاموا بمعالجات على قدر ما يستطيعون. وللأسف كان يسوع قد منعهم بالتحديد من أن يتبعوا طريق الجنتيليين أو يدخلوا أية مدينة للسامريين، لأن ذلك الموقف الغريب في التعصب من شخص واسع المعرفة قد حرمهم من فرصة التقليل من حملهم المستقبلي. ذلك لأنه حين يوضح غاية الرب الواضحة في توسيع هيمنته وتأثيره، فإن رسالته ستصل عاجلاً أم آجلاً ليس إلى السامريين

فقط، بل بالإضافة إلى ذلك، إلى الجنتيليين، هنا وفي كل مكان. علم يسوع تلاميذه كيفية معالجة المرضى وإحياء الموتى، وإبراء المجذومين وطرد الأرواح الشريرة، ولكن ليس ثمة دليل واضح على أن أياً من هذه الأعمال قد تحقق، فليس غير الإشارة العرضية الغامضة، وهذا يدل فقط على أن الرب لا يثق بأي شخص، مهما كانت التوصية به قوية. بلا ريب، حين التقى يسوع ثانية بتلامذته كان لكل واحد منهم شيء يود قوله له من نتائج مواعظهم التي تحث على التوبة، ولكن كان لديهم القليل، أو ربما لا شيء، مما يودون قوله له عن أي شفاء، سوى طرد بعض الأرواح الخيرة التي لا تحتاج إلى الكثير من الإقناع لتنتقل من روح لأخرى. ما سيروونه بالتأكيد، أنهم هم أنفسهم كانوا يُطردون غالباً أو يقابلون بعدائية في الشوارع التي ليس فيها جنتيليون وفي مدن غير مأهولة بالسامريين، ولا عزاء لهم سوى أن ينفضوا الغبار عن أقدامهم في المغادرة، وكأنها غلطة الغبار الذي يدوسه أي إنسان ولا يبدي تذمره. لكن يسوع أخبرهم أن ذلك ما يجب أن يفعلوه في مثل هذه المواقف على أنه شهادة ضد أولئك الذين رفضوا الاصغاء إليهم، بوصفه استجابة سلبية سيتأسفون عليها، ذلك لأن هذه هي كلمة الرب ذاته التي كانت تُرفض، إذ أن يسوع كان واضحاً حين بيّن لهم، لا تقلقوا مما عليكم قوله، فسيأتيكم الوحي في الوقت الذي تريدون. ربما الآن لا يمكن للعمل أن يتم هكذا، وهنا كما في حالات أخرى، فإن شرعية العقيدة، التي لابد أن تسود، تعتمد على العامل الشخصي الذي هو ثانوي، وهذا المبدأ، إن غفرتم لنا الجرأة، يخلق الحس السليم، فدعونا نستفد منه.

عبق الهواء بعطر الزهور التي قطفت تواً، وكانت الطرقات نظيفة وزاهية لكأن الملائكة كانت تسير في الأمام ناثرة الندى أينما حطت قبل أن تمسحها بالغار والآس. سافر يسوع ومريم المجدلية متسترين، متجاوزين القوافل والمسافرين الآخرين مفضلين ذلك على المخاطرة بأن

يتعرف عليهما الناس. ولا يعني ذلك أن يسوع كان يتجنب ما هو مقدر له، فليس ذلك سهلاً أبداً تحت عين الرب الحارسة، ولكن بدا أن صاحب الجلالة ذاته قد قرر أن يمنح يسوع بعض الراحة حتى لا يأتي المجذومون في طريقه ليطلبوا الشفاء، أو تتوسل الأرواح المحسوسة الخروج، وكانت القرى التي مرا فيها تتمتع بهدوء بالسلام الذي حباها به الرب، وكأنها قد مرقت من قبل عبر طريق التوبة بوساطة حسناتها. كان الزوجان ينامان أينما يتم لهما ذلك، لا يبحثان عن مضجع مريح سوى حضن بعضهما البعض، في أحيان ليس لها سقف غير السماء، عين الإله الهائلة والسوداء المنقطة بالضياء، ذلك الضياء الذي هو الانعكاس المتبقي من النظرات المرفوعة إلى السماء من قبل جيل بعد آخر مستفهمة عن الصمت وصاغية إلى الجواب الوحيد الذي يجود به الصمت. فيما بعد، بعد أن تغدوا مريم المجدلية وحيدة في العالم، ستحاول أن تتذكر هذه الأيام والليالي ولكنها ستجد من الصعوبة الاحتفاظ بأية ذكريات عن لحظات الأسى والمرارة وكأنها تحاول أن تحمي جزيرة الحب من انقضاض بحر عاصف متخم بالوحوش. كان ذلك الوقت يقترب ولكن عند النظر إلى الأرض والسماء، ليس ثمة علامات لاقترابه بعد، مثلما يطير طير في سماء مفتوحة دون أن يلاحظ العقاب الرشيق، ومخالبه النافرة وهو يسقط مثل حجر. كان يسوع ومريم المجدلية يغنيان طوال الطريق مما خلق إنطباعاً لدى المسافرين الآخرين الذين قالوا لأنفسهم، زوجان سعيدان، وكان ذلك أصدق وصف لتلك اللحظة. هكذا وصلا جيريكو، ومن هناك، تمهلا في سيرهما بسبب الحرارة المركزة وفقدان الظل، ليقطعا الطريق حتى بيثاني بيومين. بعد كل هذا الزمن، كانت مريم المجدلية تتساءل كيف سيستقبلها أخوها وأختها، خصوصاً بعد أن غادرت لتعيش بغياً، قالت، قد يظنان أنني مت، أو حتى أنهما قد يتمنيان موتي، فقال لها يسوع كي يثنيها عن الركون إلى مثل هذه الأفكار السوداوية، إن الزمن يشفي كل شيء، أكد

لها ذلك متناسياً أن الجرح الذي أصاب عائلته لا يزال طرياً ولا يزال ينزف. دخلا بيثاني ومريم تغطي نصف وجهها خشية أن يتعرف عليها أحد القرويين. فوبخها يسوع بلطف، لماذا تخفين وجهك، إن حياتك الماضية خلفك الآن ولم تعد موجودة، لم أعد الشخص ذاته، هذا صحيح، ولكنني الشخص الذي كنته والذي أكونه وكلاهما محاطان بالعار، أنتِ الآن الشخص الذي تكونينه فقط، وأنت الآن معي، حمداً للإله، ولكن سيأتي اليوم الذي سيأخذك مني فيه. أسقطت مريم وشاحها وأبانت وجهها، لكن لا أحد قال، انظروا، هذه هي شقيقة لعازر، المرأة التي هربت لتعيش بغيا.

قالت مريم المجدلية، هذا هو المنزل، ولكنها لم تقو على طرق الباب أو أن تعلن عن وصولها. دفع يسوع الباب المفتوح برقة ونادى، يا أهل البيت، فأجابه صوت امرأة، من ينادي، ومع هذه الكلمات ظهرت عند المدخل. كانت هذه هي مرثا الأخت التوأم لمريم، لكنها الآن لا تكاد تحمل أية علامات للشبه ذلك لأن السنين تركت آثارها على مرثا، أو ربما تكون الحياة القاسية التي عاشتها، أو لا تعد المسألة غير مزاجية ووجهة نظر. الشيء الأول الذي لاحظته هي عيون يسوع وتعابيره وكأن غيمة داكنة قد إنقشعت فجأة، لتترك وجهه مشعاً ومضيئا، ثم رأت شقيقتها فأضحت حذرة، سيماها يخزن تعاستها، لا بد أنها قد فكرت، من هذا الرجل الذي معها، أو ربما قالت، كيف يمكن أن يكون معها، إن يكن بهذه الهيأة، ولكنها لو اضطرت للتعبير عن نفسها، لكانت ستكون غير قادرة على وصف انطباعها الأول عن يسوع. وقد يكون هذا هو السبب الذي جعلها، بدلاً من أن تسأل شقيقتها، كيف الحال، أو ما الذي تفعلينه هنا، فكلما استطاعت أن تقوله، من هذا الرجل الذي جلبته معك. ابتسم يسوع فدخلت ابتسامته مباشرة إلى قلب مرثا برشاقة سهم. مكث هناك، وتوجع قلبها برضا لا تفسير له، قال لها، إسمي يسوع الناصري وأنا مع

شقيقتك، الكلمات ذاتها، بعد إجراء التغييرات الضرورية، كما يقول الرومانيون في اللاتينية، التي استخدمها عندما ودع أخاه يعقوب عند البحر، قال له، اسمها مريم المجدلية، وهي معي. قالت مرثا وهي تدفع الباب لينفتح على مصراعيه، تفضلا، كأنكما في بيتكما، ولكن لم يكن واضحاً أياً منهما كانت تخاطب. حين دخلا إلى الباحة أخذت مريم المجدلية شقيقتها من ذراعها وقالت لها، إنني أنتمي إلى هذا المكان كما أنتِ وأنا أنتمي إلى هذا الرجل الذي لا ينتمي إليك، إنني صريحة مع كليكما فلا تتباهي بفضلك أو تلومينني على الشر الذي فيّ، لقد جئت بسلام وأرغب أن أمكث بسلام. فقالت مرثا، كنت مستعدة لأن أستقبلك على إنك شقيقتي وأنا أتوق إلى اليوم الذي أرحب بك فيه بشغف، ولكن الأمر جاء سريعاً جداً، وكادت تستمر عندما أوقفتها فكرة مفاجئة، لم تكن متأكدة فيما إذا كان هذا الرجل الواقف إلى جانب شقيقتها يعرف عن الحياة التي كانت تعيشها أو ربما لا تزال تعيشها، فشعرت بالحيرة وامتقع وجهها وسرعان ما أحست بالكراهية لكليهما ولنفسها حتى تكلم يسوع أخيراً كي تعرف مرثا ما تود معرفته، فليس من الصعب جداً تخمين ما الذي يدور في أذهان الآخرين، قال لها، الرب يحكمنا جميعاً ويفعل ذلك على نحو مختلف كل يوم تبعاً إلى أحوالنا كل يوم، الآن لو أن الرب يحاكمك في هذه اللحظة، يا مرثا، لا تتخيلي أنك ستكونين مختلفة في عينيه عن مريم، وضح لي ذلك أكثر لأنني لم أفهم، ليس لدي المزيد لأقوله، ولكن احفظي كلماتي في قلبك وكرريها لنفسك كلما نظرت إلى شقيقتك، ألم تعد هي، فتساءلت مريم المجدلية بفظاظة مشمئزة من تحفظ شقيقتها، تقصدين أنني لم أعد عاهرة. جفلت مرثا ورفعت يديها إلى وجهها، كلا، كلا، لا أريد أن أعرف، إن كلمات يسوع كافية تماماً، ودون أن تستطيع كبح نفسها انفجرت باكية. ذهبت مريم إليها وعانقتها، وراحت تهدهدها بين ذراعيها. بينما ظلت مرثا تقول وهي تشهق باكية، أية حياة هذه، أية حياة، ولكن من غير المؤكد

أنها كانت تتحدث عن حياتها أو حياة شقيقتها. تساءلت مريم، أين لعازر، إنه في الكنيس، كيف هي أحواله في هذه الأيام، إنـه لا يـزال يعـاني مـن نوبات الاختناق، أما سوى ذلك، فصحتـه ليست بذلك السوء. وشعرت أنها تود أن تضيف بامتعاض أن مريم كانت بطيئة في إبداء اهتمامها، فخلال كل سنوات الغياب المدنس، ظلت هذه الشقيقة المبذرة، مبذرة بوقتها وجسدها، وفكرت مرثا مع نفسها بتورية مغتاظة، أن أختها لم تزعج نفسها يوماً في الاتصال بعائلتها أو تسأل عنها بعد أن مرض شقيقهما الذي كانت صحته غير مستقرة دائماً. ثم التفتت مرثا إلى يسوع الذي كان يلاحظ بانتباه العداء الذي بينهما عن بعد، وقالت لـه مريم، ينسخ أخونا الكتب في الكنيس وهذا أقصى ما يمكنه فعله في حالته الصحية المتداعية، وكانت في صوتها نغمة، على الرغم من لا قصديتها، هي نغمة من لا يفهم كيف يعيش الإنسان دون أن يهتم بثبات بعمل ما مثمر منذ الصباح وحتى المساء. تساءل يسوع، ما الذي يؤلم لعازر، نوبات من الاختناق، وكأن قلبه يوشك على التوقف عن النبض، ثم يغدو شاحباً جداً حتى تظن أنه يوشك على الهلاك. وسكتت مرثا قبل أن تضيف، إنه أصغرنا عمراً، تحدثت دون أن تفكر، ربما صدمت بملامح الشباب لدى يسوع، وعادت لترتبك، وأصابت قلبها الغيرة، مما جلب على شفاهها الكلمات التي كانت من الغريب أن تتفوه بها بينما مريم المجدلية، التي من واجبها هي أن تقولها، كانت واقفة هناك، فقالت مرثا ليسوع، أنت متعب، إجلس ودعني أغسل رجليك. بعد ذلك بوقت قصير، عندما وجدت مريم نفسها وحيدة مع يسوع، أشارت نصف مازحة، يبدو لي أننا الشقيقتين قد ولدنا لنحبك، فأجاب يسوع، تشعر مرثا بالحزن لأنها لم تتمتع بالحياة، ليس هذا ما يحزنها، إنها ممتعضة لأنها تظن أن ليس ثمة عدالة في السماء حين تحصل امرأة ساقطة على مكافأة بينما النسوة الفاضلات اللائي مثلها لا يحصلن على شيء، سيكافئها الرب بسبل أخرى، ربما، ولكنه ما دام قد خلق العالم فليس من حقه أن

يحرم النساء من ثمرات خلقه، مثال ذلك المعرفة الجسدية للرجال، بالطبع، كما جئت لتتعرف على المرأة، وما الذي كنت ترغب فيه أكثر من ذلك، ما دمت كما أنت، ابن الرب، الذي ينام معك ليس ابن الرب بل ابن يوسف، أقول لك بصراحة، منذ أن دخلت في حياتي لم أشعر أبداً أنني كنت أنام مع ابن إله، تعنين ابن الإله، آه لو أنك لم تكن كذلك.

بعثت مرثا مع أحد صبية الجيران ممن تثق به رسالة إلى لعازر لتعلمه أن مريم قد عادت إلى البيت، ولكن فقط بعد الكثير من التردد لأنها كانت قلقة فمن الأحرى أن لا يعلم أحد أن شقيقتها سيئة السمعة قد عادت إلى القرية مما سيجعل ألسنة الناس تعود إلى الثرثرة بعد كل ذلك الوقت. سألت مرثا نفسها، كيف ستواجه الناس في الشارع في اليوم التالي، وما هو أسوأ، كيف ستجد الشجاعة لأن تمشي مع أختها. سيكون من الصعب تفادي جاراتها وصديقاتها، وستشعر بالفزع حين تقول لهم، هذه هي شقيقتي مريم، ألا تتذكرونها، لقد عادت إلى البيت، لتتلقى نظرات عارفة وتعليقات خبيثة، نعرفها بالطبع، من ذا الذي لا يتذكر مريم، دعنا نأمل أن هذه التفاصيل المملة لن تصدم قراءنا، ذلك لأن قصة الرب ليست كلها هابطة من السماء. كانت مرثا تحاول أن تكبح تلك الأفكار الخبيثة عندما وصل لعازر وقال ببساطة وهو يعانق مريم، مرحباً بعودتك يا أختاه، متناسياً حزن كل تلك السنوات التي مضت بالفرقة والقلق الصامت، ولأن مرثا شعرت أن عليها أن تضع الأمور في نصابها بشجاعة فقد أشارت إلى يسوع وقالت لأخيها، هذا هو يسوع، زوج شقيقتنا. تبادل الرجلان هزة رأس ودية ثم جلسا في الحال ليتبادلا الحديث بينما انطلقت المرأتان لتحضير وجبة الطعام معاً كما كن يفعلن ذلك مرات عديدة من قبل. الآن وبعد أن تناول يسوع ولعازر الطعام ذهبا إلى الباحة ليتمتعا بهواء الليل البارد بينما بقيت المرأتان في الداخل لتحلا المعضلة المهمة في كيفية ترتيب أفرشة النوم،وفي أذهانهما

أنهم قد أصبحوا أربعاً بدلاً من اثنين. بعد أن حدق يسوع لفترة طويلة في النجوم الأول التي ظهرت في السماء الصافية، سأل لعازر أخيراً، هل تعاني من ألم شديد، وأجابه لعازر بهدوء غريب، بلا، أعاني بشدة، فقال يسوع، لسوف تزول آلامك، بلا شك، حين أموت، كلا، أقصد في الحال تقريباً. لم أعلم أنك طبيب، لو كنت طبيباً يا أخي لما استطعت أن أعالجك، حتى لو لم تكن طبيباً لن تستطيع شفائي، فتمتم يسوع برفق، لقد شفيت، وأخذه من يده. وفي اللحظة ذاتها شعر لعازر أن المرض يخرج من بدنه مثل ماء قاتم ارتشفته الشمس. وأصبح تنفسه سهلاً فجأة وصارت ضربات قلبه أقوى فتساءل متحيراً عن الذي حصل له، ما الذي يجري، وجعل القلق صوته أجشاً، من أنت، فابتسم يسوع قائلاً، لست طبيباً، قل بحق الرب من أنت، لا تندب باسم الرب جزافاً، ولكن ما الذي سأفعله بهذا، ناد مريم وسوف تخبرك. ولم تكن ثمة حاجة لمناداة أي أحد. فقد ظهرت مرثا ومريم عند المدخل منجذبتين بارتفاع الأصوات، إذ خشيتا أن يكون الرجلان قد تنازعا، لكنهما لاحظتا أنهما كانتا على خطأ، فثمة ضوء أزرق منتشر في الباحة كلها، كأنه السماء، ولعازر الذي كان يختض بوضوح كان يشير إلى يسوع ويتساءل، من هذا الرجل، لقد لمسني فقط وقال، لقد شفيت فولى المرض عني. سارت مرثا لتهدئة أخيها، كيف يمكن أن يكون قد شفي إن كان يرتعش من الرأس وحتى القدم، لكن لعازر دفعها بعيداً وهو يقول، أنت التي أتيت به إلى هنا يا مريم فاخبرينا من هو. ودون أن تتحرك عن مدخل الباب أجابت مريم المجدلية ببساطة، إنه يسوع الناصري، ابن الرب. الآن وعلى الرغم من أن هذه الأنحاء قد حظيت بالإيحاءات النبوية والعلامات الرؤيوية منذ الأزمنة السحيقة فكان من الطبيعي تماماً للعازر ومرثا أن يعبرا عن عدم إيمانهما، إذ أن يقر شخص ما أنه قد شفي فجأة بطرق إعجازية شيء وشيء آخر تماماً إن يقال له أن الرجل الذي لمس يدك وشفى مرضك هو ليس غير ابن الرب ذاته. على أية حال، فإن الإيمان

والحب يمكن أن يصنعا الكثير، وقد يدعي البعض حتى أن ليس من الضروري أن يجتمعا لينجزا كل شيء، وكما حدث فقد رمت مرثا نفسها وهي باكية بين ذراعي يسوع، ثم، وبعد أن انتهت إلى جرأتها، سقطت إلى الأرض حيث بقيت، وكان وجهها قد تغير تماماً حين تمتمت لنفسها، لقد غسلت رجليك. ولم يتحرك لعازر، فقد شله الخوف، وقد نفترض إن لم يقتله هذا الكشف المفاجئ، فلأن فعل الحب الذي حدث قبل لحظة قد منحه قلباً جديداً. توجه إليه يسوع مبتسماً ليعانقه وقال له، لا تندهش لاكتشافك أن ابن الرب هو ابن الإنسان، فبصراحة، لم يكن أمام الرب أحداً آخر ليختاره، تماماً مثل الرجال الذين يختارون نساءهم والنساء اللائي يخترن رجالهن. كانت هذه الكلمات موجهة إلى مريم المجدلية التي أحسنت فهمها، لكن يسوع نسي أنها ستفاقم حزن مرثا وعزلتها اليائسة، هذا هو الفرق بين الرب وابنه، الرب يفعل ذلك قاصداً، أما ابنه فغير مبال، وهذا شيء بشري جداً. لا تهتموا لذلك، في هذا اليوم ثمة سرور في هذا المنزل، وبإمكان مرثا أن تعود إلى معاناتها وآلامها غداً، ولكن ثمة عزاء واحد متأكدة هي منه، أن لا أحد يجرؤ على الثرثرة بشأن ماضي شقيقتها المخزي في الشوارع والساحات وأماكن السوق في بيثاني، حين يعلمون، وسوف تشدد مرثا ذاتها على أن يُخبروا بأن الرجل الذي مع مريم قد أشفى لعازر من مرضه دون أن يلجأ إلى جرعات الأدوية أو تنقيعات الأعشاب. كانوا جالسين في المنزل يتمتعون برفقة بعضهم البعض، وعندها أشار لعازر، نسمع إشاعات من آن لآخر عن رجل من الجليل يدور في الجوار ليفعل المعجزات ولكن لم يشر أحد إلى أنه ربما يكون ابن الرب، فأجاب يسوع، تأتي بعض الأخبار أسرع من غيرها، فهل أنت ذلك الرجل، لقد قلتها بنفسك، ثم أخبرهم يسوع بقصته منذ البداية، ولكن ليست بالقصة بأكملها، لم يذكر باستور، ولم يقل شيئاً عن الرب سوى أنه ظهر له ليعلن، إنك ابني. وإذ لم يتكلموا عن تلك الإشاعات الأولى حول المعجزات البعيدة، تحولوا نحو

الحقائق ذات الدليل الملموس في هذه المعجزة الأخيرة، ولو لم يتحدثوا عن قوة الإيمان، وعن الحب وقواه، لكان من المؤكد أن يكون من الصعب جداً على يسوع بكلماته المقتضبة، رغم أنها آتية من الرب ذاته، أن يقنع لعازر ومرثا بأن هذا الرجل الذي سيتقاسم الفراش بعد قليل مع أختهما قد خلق من روح سماوية. ذلك لأن يسوع قد عانق تلك المرأة باللحم والدم وهي التي عرفت الكثير من الرجال دون أن تخشى الرب. ودعنا نغفر لمرثا الكبرياء الروحي الذي قادها لأن تتمتم تحت الملاءة التي غطت بها رأسها كي لا ترى ولا تسمع، إنني أستحقه أكثر منها.

في اليوم التالي انتشرت الأخبار كحريق هائج، وشكر الناس في كل مكان من بيثاني وحمدوا الإله بل حتى تلك الأرواح المتواضعة التي كانت متشككة في الأول، مؤمنة أن الأرض صغيرة جداً لتجمع كل هذه العجائب، قد اضطرت أن تغير آراءها عندما تواجهت مع معجزة شفاء لعازر، الذي لم يقل أحد عنه بأنه راح يتاجر بذلك للآخرين، ذلك لأنه كان طيب القلب وسرعان ما أفشى للناس سر استرداده لصحته. فتجمع الناس حول الباب، متلهفين ليروا بعيونهم الواثقة خالق المعجزات هذا الذي قد يُسمح لهم بلمسه باعتبار ذلك البرهان الأخير والأكيد. وجاء المرضى والعجزة أفواجاً أفواجاً آملين في الشفاء، البعض منهم على أقدامهم والبعض الآخر محمولين على مهاد من القش أو على ظهور أقاربهم حتى انغلق الشارع الضيق الذي يعيش فيه لعازر وشقيقته كلياً. حين وعى يسوع للموقف بعث بأنه سيلقي كلمة في الجمهور المحتشد في الساحة الكبيرة للقرية التي عليهم أن يذهبوا إليها حيث سيلتحق بهم عاجلاً. لكن أي إنسان يمسك بطير بأمان بيد واحدة لن يكون أحمق ويدعه يفلت من يده. لذلك، من الواضح، إما من خلال الحكمة أو عدم الثقة، لا يبدو أن أحداً يرغب في تفويت هذه الفرصة المؤاتية وكان يسوع مجبراً على أن يظهر وجهه ويغادر المنزل كالآخرين دونما

جعجعة أو انفجارات احتفالية، دونما أية هزات في السماء أو الأرض. قال، هاأنا قادم، محاولاً التكلم على نحو طبيعي، ولكنه وهو يتظاهر بالنجاح، كانت الكلمات التي تكلم بها والتي أتت من حيث أتت، كافية لإركاع القرية برمتها على ركبهم طلباً للرحمة، أنقذنا، صاح البعض، وتوسل آخرون، إشفنا. شفى يسوع رجلاً كان أبكم، غير قادر على أن يترافع عن نفسه، وأبعد الآخرين لأنهم غير مؤمنين بما فيه الكفاية. أخبرهم أن يعودوا في يوم آخر، ولكن عليهم أولاً أن يتوبوا عن خطاياهم، إذ كما نعرف، أن ملكوت الرب قريب ويوشك الزمان على النهاية. سألوه، هل أنت ابن الرب، وأجابهم يسوع بأشد ما يكون الإبهام، لو لم أكن كذلك، لأصابكم الرب بالصمم وما كان ليسمح لكم بأن تسألوني هذا السؤال.

بدأ يسوع مكوثه في بيثاني بهذه الأعمال البارزة بينما ينتظر اليوم الذي سيجتمع فيه مع تلامذته الذين ساحوا عبر البقاع البعيدة. لا حاجة إلى القول أن الناس من المدن والقرى القريبة بدأوا يتقاطرون حين علموا بالرجل الشمالي الذي يفعل المعجزات الآن في بيثاني. ولم يكن يسوع مضطراً لأن يغادر بيت لعازر لأن الجميع احتشدوا هناك وكأنهم يحجون، لكن يسوع لم يستقبلهم، بل أمرهم بدلاً من ذلك أن يتجمعوا على تل خارج القرية حيث يعظهم بالتوبة ويعالج بعض المرضى. خلقت مثل هذه الحوادث الفرح الشديد بين الناس حتى أن الأخبار وصلت إلى أورشليم سريعاً، مما جعل الناس المحتشدين يزدادون عدداً حتى أن يسوع راح يسأل نفسه فيما إذا سيبقى هناك ليجازف في إثارة الشغب المحتمل جداً عندما تتعذر السيطرة على الحشود. جاء في البداية أناس متواضعون من أورشليم في طلب العلاج، ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأ الناس من كل الطبقات الاجتماعية الوصول وبضمنهم عدد من الفريسيين والناسخين من الذين رفضوا التصديق أن أحداً ما

بكامل وعيه يمتلك الشجاعة، يكاد المرء أن يقول شجاعة انتحارية، ليعلن نفسه على الملأ أنه ابن الرب. لقد عادوا إلى أورشليم وهم ساخطون ومندهشون لأن يسوع أجابهم الجواب الشافي حين سألوه، وحين يلحون عليه بالسؤال عن نسبه، فإنه يصر أنه كان ابن الإنسان، وحين يشار إلى الرب، كان يحدث أن يقول أبي، كان من الواضح أنه فكر بالرب على أنه أبو الجميع وليس أباه فقط. وعلى أية حال، فقد بقي هناك السؤال المحير عن هذه القدرات في الشفاء التي يمارسها يسوع دونما أية شعوذة أو خداع أو سحر. فكل ما يتطلب منه ليس سوى بضع كلمات بسيطة، إمش، إنهض، تكلم، أنظر، تطهر، ولسوف يتوهج جلد المجذوم فجأة مثل قطرة ندى تتلألأ في ضوء الصباح حين يلمسه بأطراف أصابعه، أناس بُكم وآخرون يتلعثمون بالكلام أصبحوا مبتهجين بالكلمات أو استردوا كلامهم، مشلولون قفزوا من الفراش ورقصوا من الفرح حتى سقطوا من الإرهاق، العميان لم يصدقوا أن عيونهم سترى ثانية، العرجان ركضوا برضيً عميق، ثم يتظاهر الواحد منهم بالعرج مازحاً ليبدأ الركض كرة ثانية. قال لهم يسوع، توبوا، توبوا، ولم يطلب منهم أكثر من ذلك. لكن كهنة الهيكل الكبار، الذين كانوا يعرفون أكثر من أي واحد من مثيري الجيشان ومثيري الفوضى التأريخيين الذين برزوا في زمانهم على هيئة الأنبياء والعرافين على مختلف أشكالهم، قد قرروا بعد أن تأملوا في أقوال يسوع أن لا يسمحوا بأية اضطرابات دينية أو اجتماعية أو سياسية وأنهم سوف يتنبهون عن كثب لكل ما قد يقوله الجليلي أو يفعله، حتى يستأصلوا هذه النبوءة الشريرة ويقضون عليها، إذ حسب كلمات الكاهن الأعلى، أن هذا الرجل لا يخدعني، بأن ابن الإنسان هو ابن الرب. لن يُسمح ليسوع بنثر بذوره في أورشليم، لكنه هنا في بيثاني كان يصنع ويشحذ ويصوغ المنجل الذي سينحرونه به.

حدثت الحوادث غير العادية عندما بدأ الحواريون يصلون إلى بيثاني

أزواجاً أزواج، اليوم اثنان، غداً اثنان، أو ربما أربعة إن شاءت المصادفة والتقوا في الطريق. وبعيداً عن بعض التفاصيل الصغيرة، فقد سردوا القصة ذاتها عن رجل ظهر في الصحراء وتنبأ بالطريقة التقليدية وكأنه كان يدحرج الصخور بصوته ويحرك الجبال بذراعيه، بينما ينبيء الناس بالعقاب الذي ينتظرهم وبالوصول الوشيك للمسيح. لم يتمكن الحواريون من رؤيته لأنه كان في حركة دائبة من مكان لآخر اعتماداً على نتف المعلومات التي ترده، التي على الرغم من انتظامها العام، فقد كانت كلها غير مباشرة، وعليهم أن يبحثوا عن ذلك النبي بأنفسهم، إذ توشك الأشهر الثلاثة أن تنتهي وهم يخشون أن يفوت موعدهم. فسألهم يسوع إن كانوا يعرفون اسم ذلك النبي قالوا له إن اسمه كان يوحنا، وكان ذلك هو اسم الرجل الذي من المفترض أن يأتي ليساعد يسوع اعتماداً على كلمات الرب حين غادر. فقال يسوع، فهو هنا من قبل إذاً، ولمم يفهم أصدقاؤه ما الذي كانت تعنيه كلماته تلك، إلا مريم المجدلية، إذ كانت على علم بكل شيء. رغب يسوع في البحث عن يوحنا الذي من المؤكد أنه يبحث عن يسوع أيضاً، لكن من بين التلاميذ الاثني عشر لم يصل بعد توماس ويهوذا الاسخريوطي، ولأنهما قد يحوزان على معلومات أكثر، فقد كان تأخرهما محبطاً. ولكن على أية حال، كان للانتظار ما يبرره، ذلك لأن الأخيرين لم يريا يوحنا فقط بل أنهما في الحقيقة قد تحدثا إليه. وجاء الآخرون من خيامهم المنصوبة خارج بيثاني، ليسمعوا ما الذي سيحكيه توماس ويهوذا الاسخريوطي فجلسوا في حلقة في باحة منزل لعازر مع مرثا ومريم وبحضور النسوة الأخريات. تناوب يهوذا الاسخريوطي مع توماس الحديث وبيّنا كيف أن يوحنا كان في البرية حين سمع كلمة الرب، فهرع إلى ضفاف نهر الأردن ليعمّد ويعظ بالكفارة عن مغفرة الذنوب، لكن الحشود التي تكاثرت عليه ليعمدها عاقبها بالصرخات العالية التي أدخلت فيهم الرعب، آه يا جيل الأفاعي الغادرة، من ذا الذي حذركم لتهربوا من

الغضب الآتي، احملوا من أجل ذلك الثمار وتعالوا للتوبة، ولا تفكروا بأن تقولوا بين أنفسكم، لدينا إبراهيم أبونا، لأنني أقول لكم أن الرب قادر على أن يخلق من هذه الأحجار أبناء لإبراهيم، وتبقون أنتم منبوذين، والآن الفأس موضوعة على جذور الأشجار، وكل شجرة لا تؤتي ثمرها جيداً تستأصل وترمى في النار. فسألته الحشود مذعورة، ما الذي يجب علينا أن نفعله، فأجاب يوحنا، فليتقاسم كل من لديه رداءان مع من ليس لديه رداء، وكل من لديه احتياط يفعل الشيء ذاته وقال لجامعي الضرائب، لا تطلبوا أكثر مما يقتضيه الناموس، ولا تظنوا أن الناموس بسيط لأنكم تسمونه الناموس، وقال للجنود الذين سألوه، وماذا عنا، ما الذي يجب أن نفعله، فأجاب، لا تستخدموا ضد أي أحد ولا تنفذوا حكماً جائراً على أحد وأرضوا أنفسكم مثلما تستلمون أجوركم. وهنا سكت توماس الذي بدأ هذه المحاورة، وأغتنم يهوذا الاسخريوطي الفرصة ليستأنف. ثم سألوا يوحنا إن كان هو المسيح، فأخبرهم أنني بالتأكيد أعمدكم بالماء لتتوبوا لكن الذي يأتي بعدي أعظم مني، وهو الذي يستحق أن أحمل له حذاءه ، ولسوف يعمدكم بالروح القدس وبالنار، شخص مروحته بيده، ولسوف يطهر أرضه كلياً، ويجمع قمحه في خزن لكنه سيحرق النفاية بنار لا تنطفئ. ولم يقل يهوذا الاسخريوطي من بعد ذلك شيئاً وانتظر الجميع أن يتحدث يسوع، لكن يسوع رسم خطوطاً مبهمة بإصبعه على الأرض وبدا كأنه ينتظر أن يتكلم أحد الحاضرين. ثم قال بطرس، فأنت إذاً المسيح القادم كما تنبأ يوحنا، فأجاب يسوع وهو لا يزال يحفر في التراب، لقد قلتها أنت لا أنا، لقد أخبرني الرب فقط أنني ابنه، وتوقف للحظة، ثم أنهى كلامه، سأذهب للبحث عن يوحنا، فقال ابن زبيدي الذي اسمه أيضاً، يوحنا، سنأتي معك، لكن يسوع هز رأسه ببطء، لا أحتاج إلا توماس ويهوذا الاسخريوطي لأنهما قد رأياه، والتفت إلى يهوذا وسأله، كيف يبدو، وأجابه يهوذا، إنه أطول منك وأثقل، وله لحية طويلة كأنها قد صنعت

من الهلب ولا يرتدي سوى رداء من الوبر وثمة مشد جلدي حول خصره ويقول الناس أنه هناك في البرية يتغذى على الجراد والعسل البري. قال يسوع، إنه أشبه بالمسيح مني، ونهض من الحلقة.

انطلق الثلاثة في الصباح الباكر التالي، ولأنهم يعرفون أن يوحنا لا يمكث سوى بضعة أيام في المكان ذاته وأنهم أكثر الاحتمال سيجدونه يعمد على ضفاف نهر الأردن، فقد هبطوا من بيثاني إلى مكان يدعى بيثابارا، الواقع عند حافة البحر الميت، عازمين على الاتجاه إلى أعلى النهر حتى بحر الجليل، ولربما أبعد من ذلك نحو الشمال نحو منبع المياه إن اقتضت الضرورة. لكنهم عندما تركوا بيثاني لم يتخيلوا أبداً أن رحلتهم ستكون قصيرة هكذا، فهناك عند في بيثابارا ذاتها وجدوا يوحنا منفرداً وحده، وكأنه كان يتوقع مجيئهم. لمحوه من بعيد، شاخص صغير لرجل جالس عند ضفة النهر، تحيطه الجبال الوادعة التي تشبه الجماجم ووديان تشبه الندب المفتوحة، ويمتد على اليمين تحت الشمس والسماء البيضاء، البحر الميت المشؤوم، يلمع سطحه المتكدر مثل نحاس ذائب. عندما أصبحوا على مرمى حجر منه، سأل يسوع تلميذيه، أهذا هو. نظر التلميذان بعناية وكل منهما يظلل عينيه بيد واحدة، وأجابا، إما هو أو توأمه. قال يسوع، انتظرا هنا حتى أعود ولا تحاولا الاقتراب، ودون أن يزيد كلمة أخرى راح يهبط باتجاه النهر. جلس توماس ويهوذا الاسخريوطي على الأرض الجافة، وراحا يراقبان يسوع وهو يبتعد، يظهر ويختفي تبعاً لارتفاع وهبوط الأرض وحين وصل الضفة، شاهداه يسير باتجاه يوحنا الذي لم يتحرك من البقعة خلال كل هذا الوقت. قال توماس، لنأمل أننا غير خاطئين، فرد يهوذا الاسخريوطي، لكن يسوع كان متيقناً في اللحظة التي رآه فيها وقد سأل لمجرد السؤال. في الأسفل هناك، نهض يوحنا على قدميه وراح ينظر إلى يسوع وهو يقترب منه. تساءل يهوذا الاسخريوطي، ما الذي سيقولانه لبعضهما البعض، فقال

توماس، ربما سيخبرنا بذلك يسوع أو ربما لا يخبرنا. تقابل الرجلان البعيدان وتحدثا بفرح، يتضح ذلك من إشاراتهما والحركات التي يقومان بها بعصاتيهما، وبعد وقت، سارا إلى حافة الماء حيث اختفيا عن الأنظار خلف سدٍ بارز، لكن يهوذا وتوماس كان يعرفان ما الذي يحدث هناك لأنهما، أيضاً، قد عمدهما يوحنا بعد أن خاضا في النهر حتى وصل الماء إلى خصريهما. غرف يوحنا الماء بكفيه ورفعه نحو السماء ثم سكبه على رأس يسوع، وردد الكلمات، إنني أعمدك بهذا الماء وليته يغذي نارك. وبعد أن أنهى يوحنا ويسوع ذلك عادا من النهر واستردا عصاتيهما ومن المحتمل أن يكونا يودعان بعضهما البعض، فقد تعانقا ويبدأ يوحنا بالسير بمحاذاة ضفة النهر باتجاه الشمال، بينما يتوجه يسوع إلى هذا الاتجاه. ويقف توماسٍ ويهوذا الاسخريوطي في مكانهما ينتظرانه، ويهوذا صامت أيضاً، ليسير نحو الأمام في الطريق إلى بيثاني. وحين يشعر تلميذاه أنه تجاهلهما، يسيران خلفه، يتوقان لإشباع فضولهما، وحين لم يستطع توماس أن يكبح جماح نفسه أكثر من ذلك أهمل إشارة يهوذا ليثنيه عن الكلام وتساءل، ألا تريد أن تخبرنا بما قاله لك يوحنا، فأجاب يسوع، حتى يحين الوقت المناسب، هل قال لك على الأقل بأنك المسيح، حتى يحين الوقت المناسب، قال يسوع ذلك للمرة الثانية، ولم يتأكد لتلميذيه إن كان يكرر ببساطة ما قاله من قبل، أو أنه كان يخبرهما أنه لم يحن الوقت للمسيح بأن يظهر. ومال يهوذا الاسخريوطي إلى الفرضية الثانية حين تخلفا قانطين، بينما كان توماس، المتشكك بطبعه، مع بعض السخط، مع فكرة أن يسوع كان يكرر كلامه.

وحدها مريم المجدلية عرفت ما الذي حدث في تلك الليلة ولا أحد غيرها، فقد أسرها يسوع، لقد قيل القليل، إذ ما إن حيينا بعضنا البعض حتى رغب يوحنا في أن يعرف إن كنت أنا الذي سيأتي أو يتحتم علينا

انتظار شخص آخر، وماذا قلت له، إن العميان يستردون بصرهم والعرجان يسيرون، والمجذومين يتطهرون والطرشان يسمعون والفقراء لديهم الإنجيل المبشر لهم، وماذا قال، إن المسيح ليس بحاجة لأن يعمل الكثير ما دام عمل ما هو متوقع منه، أهذا ما قاله، أجل، تلك هي بالتحديد كلماته، وما هو المتوقع من المسيح، هذا ما سألته به، وبماذا أجابك، أخبرني بأن أكتشف نفسي، وماذا قال لك بعد ذلك، لا شيء آخر، أخذني إلى النهر، وعمدني ورحل، ما هي الكلمات التي رددها عند تعميدك، إنني أعمدك بالماء وليته يغذي نارك. بعد هذه المحادثة مع مريم المجدلية لم يتكلم يسوع أبداً خلال أسبوع. غادر نزل لعازر وراح لينضم إلى تلاميذه على مشارف بيثاني حيث نصب خيمة في مكان بعيد عن الآخرين وقضى يوماً كاملاً منفرداً. لم يسمح حتى لمريم المجدلية أن تدخل خيمته التي يغادرها في الليل فقط ليذهب إلى الجبال الجرداء. في بعض الأحيان يتبعه تلامذته سراً تحت ذريعة أنهم كانوا فقط يريدون حمايته من هجمات الحيوانات الضارية، التي كانت في الحقيقة، غير معروفة في تلك الأنحاء. اكتشفوا أن يسوع يختار بقعة مريحة ويجلس ليحدق هناك، ليس في السماء، بل أمامه مباشرة وكأنه ينتظر ظهور شخص ما من الظلال الكئيبة للوادي أو من حول زاوية تل ما. كان ثمة ضوء القمر، لذلك يمكن رؤية أي أحد يقدم من بعيد، لكن أحداً لم يأت. انسحب يسوع من مكانه عند الضياء الأول وعاد إلى مخيمه. أكل القليل جداً من الطعام الذي جلبه له يوحنا ويهوذا الاسخريوطي كل واحد مرة ولم يجهد نفسه في رد تحياتهما. وفي إحدى المرات طرد بطرس بقسوة عندما سأله الأخير إن كان كل شيء على ما يرام وفيما إذا كانت لديه أية أوامر يوجهها. لم يخطئ بطرس تماماً في تقدير هذه الحركة، ولكنه كان قد تحدث بالأمر مبكراً جداً، إذ بعد ثمانية أيام ظهر يسوع من خيمته في ضوء النهار الساطع، وانضم إلى تلاميذه وأكل معهم، وبعد أن انتهى من ذلك، قال لهم، سنذهب غداً إلى أورشليم نحو الهيكل، هناك

ستفعلون ما آمركم به فقد حان الوقت لابن الرب أن يعرف ما هي الفائدة المرتجاة من بيت أبيه وحان الوقت للمسيح بأن يقوم بما يجب عليه أن يقوم به. أراد التلاميذ أن يعرفوا المزيد، ولكن بصرف النظر عما يقوله لهم، فلن تنتظر كثيراً قبل أن تكتشف أنه ما كان ليقول شيئاً آخر. أضحى التلاميذ الآن غير معتادين أن يتحدث إليهم بهذه اللهجة ولا أن يروا مثل هذه التعابير القاسية على وجهه فلم يعد يشبه يسوع الرقيق الهادئ الذي ألفوه، والذي قاده الرب حيثما شاء دون أن ينطق بكلمة تذمر واحدة. من الواضح أن هذا التغير قد ولدته الظروف، غير المعروفة حتى الآن، والتي قادته إلى عزل نفسه عن تلامذته ليسير متجولاً، وكأنه ممسوس من قبل أرواح الليل، فوق التل والوادي بحثاً عن الكلمة التي يبحث عنها الإنسان دائماً. على أية حال اعتقد بطرس، بكونه أكبرهم سناً، أن ليس من العدل أن يأمرهم يسوع بالذهاب إلى أورشليم بهذه الطريقة، وكأنهم مساعدو طهاة لا يفعلون شيئاً سوى جلب المواد وحملها، يذهبون ويعودون دون أن يفهموا شيئاً. لذلك قال متذمراً، نحن مستعدون لأن نفهم سلطتك ونطيعك بالكلمة والفعل، كونك ابن الرب وكونك أيضاً إنسان، ولكن ليس من الحق أن تعاملنا مثل أطفال لا يشعرون بالمسؤولية أو مثل شيوخ خرفين، ترفض الوثوق بنا وتصدر علينا أوامرك دون أن تسألنا الرأي أو تسمح لنا بأن نقرر في شيء، فقال يسوع، أرجوكم المعذرة، كلكم، لأنني أنا نفسي لا أعرف ما الذي يجيء بي إلى أورشليم، كل ما أخبرت به هو أن علي الذهاب ولا شيء بعد ذلك، ولستم مجبرين على مرافقتي، من أمرك بالذهاب إلى أورشليم، صوت في رأسي يخبرني بما يجب عليّ عمله وما لا يجب، لقد تغيرت كثيراً منذ لقائك بيوحنا، أجل فذلك الوعد جعلني أدرك أن ليس كافياً أن تأتي بالسلام، فلابد للمرء أن يحمل سيفاً، فتساءل اندراوس، إن تكن مملكة الرب قريبة منا فلماذا نحمل سيفاً، ذلك لأن الرب لم يكشف النقاب عن الوسيلة التي تصلك بها مملكة الرب، لقد جربنا السلام من قبل

فلنجرب الآن السيف، ولسوف يختار الرب ما يشاءه، لكنني أكرر، لستم مجبرين على مرافقتي، فأخبره يوحنا، أنت تعرف إننا سنتبعك حيثما ذهبت، وأجابه يسوع، لا تقسم على ذلك، فلسوف يكتشف ذلك من يصلون منكم إلى هناك.

في اليوم التالي ذهب يسوع إلى منزل لعازر ليس ليودعهم بل ليؤكد لهم أنه عاد للحياة بين تلامذته بعد رجوعه الغامض إلى البرية، وأخبرته مرثا أن شقيقها ذهب إلى الكنيس. وبعد ذلك انطلق يسوع وتلامذته نحو الطريق إلى أورشليم، ورافقتهم مريم المجدلية والنسوة الأخريات حتى آخر البيوت في بيثاني حيث وقفن يلوحن لهم بقناعة على الرغم من أن الرجال لم ينظروا إلى الخلف مرة واحدة. السماء ملبدة بالغيوم وتهدد بالمطر، ربما يفسر ذلك سبب قلة الناس في الطريق، إذ قرر الناس الذين ليسوا في عجلة للذهاب إلى أورشليم البقاء في بيوتهم منتظرين إشارة من السماء. تقدم الرجال الثلاثة عشر في الطريق المقفر في أغلب الأحيان حين تتكدس الغيوم الرمادية فوق الجبال وكأن السماء والأرض يوشكان أخيراً على التلاقي في التحام أبدي، التراب والتراب، الذكر والأنثى، والمقعر والمحدب. عندما وصلوا بوابات المدينة وجدوا الزحام المعتاد المتجمع هناك وخضعوا للانتظار الطويل قبل أن يصلوا الهيكل في الأخير. لكن الأمور انقلبت على نحو مختلف. وتسبب ظهور الرجال الثلاثة عشر، الذين يكادون جميعاً أن يكونوا حفاة ويحملون عُصياً غليظة ولحاهم منسابة وشعثاء، ويضعون عباءات داكنة على ثيابهم التي تبدو كأنها رأت أياماً أفضل من هذه، تسبب ظهور هؤلاء بأن يتراجع الناس المتزاحمون ويسألوا أنفسهم، من أين يمكن أن يكون هؤلاء قد جاؤوا، من ذلك الذي في مقدمتهم، ولم يعرف أحد الجواب، حتى قال أحد الواقفين جانباً الذي جاء من الجليل، إنه يسوع الناصري.الذي يدعي أنه ابن الرب ويقوم بالمعجزات، فتساءل الآخرون، وأين هم ماضون،

ولما كانت الطريقة في اكتشاف ذلك هي تتبعه، فقد سار كثيرون خلفهم، ولذلك خلال الوقت الذي وصلوا فيه مدخل الهيكل لم يعودوا ثلاثة عشر في الخارج بل ألف، ومكثوا هناك في انتظار أن يروا ما الذي يمكن أن يحدث. وسار يسوع في الجهة حيث كان ثمة صيارفة وقال لتلاميذه، هذا ما جئنا لعمله، ومع هذه الكلمات راح يقلب الطاولات جالداً وضارباً أولئك الذين يبيعون ويشترون، خالقاً صخباً عالياً حتى أن كلماته لم تكن تسمع أبداً عدا في الحقيقة أن صوته الطبيعي راح يرن بنغمات جهورية، لائماً، لقد كُتب أن بيتي سوف يسمى بيت المصلي ولكنكم جعلتموه ملجأً للصوص، واستمر يطيح بالطاولات ويبعثر الدراهم في كل مكان مما جلب الفرحة الكبرى لألفي إنسان اندفعوا لجمع هذا المنّ. وتبع التلاميذ مثال يسوع، وفي الأخير أطيح أيضاً بطاولات بائعي الحمام، وحين تحررت الحمامات طارت فوق الهيكل، لتدور بعفوية حول دخان المذبح من بعيد، حيث لن يتم حرقهن بعد الآن فقد جاء المنقذ. واندفع حرس الهيكل نحو المشهد متسلحين بالهراوات لمعاقبة وإلقاء القبض أو طرد المخلين بالأمن، لكنهم وجدوا أنفسهم إزاء ثلاثة عشر جليلياً مرعبين يحملون في أيديهم عصياً غليظة يكتسحون جانباً أي أحد يجرؤ على الاقتراب. وراحوا يسخرون منهم، هيا، هيا تعالوا جميعاً، واشعروا بقوة الرب، وهجموا على الحرس ودمروا كل شيء يرونه قبل أن يضرموا النار بالخيم. وسرعان ما التف عمود ثان من الدخان في الهواء، وصاح صوت، استدعوا الجنود الرومانيين، ولكن لا أحد اهتم لصياحه، لأنه مهما يحدث، فقد منع الرومانيون من دخول الهيكل وفق القانون. اندفع المزيد من الحراس إلى الساحة، متسلحين بالسيوف والرماح هذه المرة، وانضم إليهم من الصرافين وبائعي الحمام، بعد أن قرروا أن لا يتركوا حماية ممتلكاتهم بيد الغرباء، ولذلك شيئاً فشيئاً أمست للحراس اليد العليا وإن يكن هذا الصراع يبهج الرب، كما يزعم الغزاة، فلم يفعل الكثير ليضمن الانتصار لشعبه. كان هذا هو الموقف حين ظهر الحبر الأعظم

في أعلى السلالم بصحبة كل الكهنة، والشيوخ والناسخين الذين استدعوا على عجل، وبصوت قوي يباري صوت يسوع، أعلن، دعوه يذهب هذه المرة، ولكن إن أبان وجهه هنا مرة ثانية فلسوف نقطع رأسه ونرميه مثل تلك البيقات التي تهدد بخنق القمح وقت الحصاد. قال اندراوس ليسوع الذي كان يقاتل إلى جانبه، لم تكن تمزح حين قلت أنك تجلب السيف لا السلام، وها قد عرفنا أن العصي كالسيوف غير نافعة، أجابه يسوع، ذلك يعتمد على من يلوح بالعصا أو يستخدم السيف، فسأله اندراوس، ما الذي ستفعله بعد ذلك، أجاب يسوع، دعنا نعود إلى بيثاني، لسنا بحاجة إلى السيوف بل بحاجة إلى الثبات والإرادة. وتقهقروا بانتظام شاهرين عصيهم على حشد الناس الذين سخروا منهم ووبخوهم دون أن يفعلوا أكثر من ذلك، وسرعان ما خرج التلاميذ من أورشليم بعد أن تراجعوا سريعاً، منهكين تماماً، والبعض منهم جرحى.

عند وصولهم إلى بيثاني، لاحظوا أن الجيران الذين جاؤوا إلى أبوابهم ينظرون إليهم بعين الشفقة والأسى، ولكن التلاميذ ظنوا أن ذلك شيء طبيعي بعد الحالة المؤسفة التي عادوا بها من المعركة. على أية حال سرعان ما اكتشفوا السبب الحقيقي للوجوم المرتسم على كل الوجوه حين انعطفوا في الشارع الذي يسكن فيه لعازر وأدركوا أن مصيبة قد حدثت. هرع يسوع أمام الآخرين، ودخل الباحة، بينما انزاح الناس المتجمهرون جانباً وهم يتحسرون ليدعوه يمر. ومن الداخل أتى صوت النحيب والعويل، كان من الممكن سماع مرثا وهي تنشج، آه يا أخي الحبيب، ومريم وهي تصرخ باكية، آه، يا أخي الحبيب. كان جسد لعازر ممدداً على حصير على الأرض كأنه نائم، لكنه لم يكن نائماً، كان ميتاً. قضى حياته كلها وهو يعاني من ضعف القلب، ثم شفي منه، كما يشهد بذلك إنسان في بيثاني، وهاهو الآن ميت، رابط الجأش وكأنه نحت من الرخام، سليم كأنه قد مر من قبل إلى الخلود، لكن العلامات الأولى

للتفسخ سرعان ما بدات بالظهور، مما سبب بمزيد من الألم والخوف لأولئك الذين يحيطون بالجثة. وسقط يسوع على ركبتيه، كأن قواه قد خارت فجأة، وراح يئن ويبكي، كيف حدث هذا، كيف حدث هذا، لم تزل الكلمات تتقافز من شفتيه حينما يقابله شيء ما لا شفاء له، فيظل يتساءل كيف حدث هذا، في محاولة يائسة وعقيمة لتأجيل اللحظة المروعة حين يتوجب علينا أن نرضى بالحقيقة، كما هي، نريد أن نعرف كيف حدثت، كأننا نريد أن نبدل الموت بالحياة، إبدال ما حدث بما كان يمكن أن يحدث. قالت مرثا من أعماق يأسها وحزنها المرير، يا يسوع لو كنت هنا لما مات أخي لكنني أعرف أن الرب يلبي لك مهما طلبت، كما لبى لك وأعاد البصر للأعمى وشفى المجنومين وأعاد النطق للأخرس وكل العجائب التي تكمن في رغبتك وتنتظر كلمة منك. فأخبرها يسوع، سينهض أخوك من الموت، فأجابت مرثا، أعرف أنه سيبعث من جديد في يوم البعث. فوقف يسوع منتصباً وشعر كأن قوة خارقة تتمسك بروحه وفي تلك اللحظة العظيمة اقتنع أنه يستطيع المحاولة في إنجاز كل شيء، أن يطرد الموت من هذه الجثة، يعيد لها الحياة كلياً، يمنحها النطق والحركة والضحك وحتى الدموع ولكن ليس دموع الحزن، وليزعم حقاً، أنا البعث والحياة، من يؤمن بي، رغم أنه ميت، فلسوف يحيا، وسأل مرثا، هل تؤمنين بهذا، فأجابت، بلا، أؤمن بأنك ابن الرب الذي تحتم عليه المجيء إلى هذا العالم، ولأجل ذلك، ومع إعداد كل شيء وترتيبه، كالشجاعة والقوة والإرادة التي تستخدمها، كل ما على يسوع أن يفعله، هو أن ينظر إلى ذلك الجسد الذي هجرته الروح، أن يمد ذراعيه إليه وكأنه يفتح للروح الطريق الذي عليها أن تأتي من خلاله، ويقول، إنهض يا لعازر، ولسوف ينهض لعازر من الموت لأنه هكذا يشاء الرب، ولكن في اللحظة الأخيرة وضعت مريم المجدلية يدها على كتف يسوع وقالت، لا أحد اقترف هذا العدد الهائل من الذنوب في الحياة ليستحق الموت مرتين، عند ذاك أسقط يسوع

ذراعيه وخرج باكياً.

مثل عاصفة ثلجية أو مثل برد قارس، قتل موت لعازر الحماسة العسكرية التي أشعلها يوحنا في صدر يسوع، حيث بعد أسبوع من التأمل الطويل والعديد من لحظات الفعل القصيرة، أمست خدمة الرب والناس متساوية ولها الدافع ذاته. بعد الأيام الأولى القليلة للحداد حين استؤنفت الواجبات والعادات في الحياة اليومية تدريجياً، جالبة فترة راحة مؤقتة من الحزن الذي لا يستسلم، ذهب بطرس واندراوس ليكلما يسوع. سألاه عن خططه، وفيما إذا يتحتم عليهم السفر ليبشروا مرة أخرى في المدن أو يعودوا إلى أورشليم ليقوموا بهجوم جديد، ذلك لأن التلاميذ قد بدأوا يشعرون بالملل ويتوقون لعمل شيء ما. إنه يتذمرون، لم نتخل عن ممتلكاتنا وعملنا وعوائلنا لنجلس في دائرة طوال النهار. نظر يسوع إليهما وكأن على عينيه غشاوة وأصغى كأنه يحاول معرفة صوتيهما وسط جوقة أصوات غير متآلفة، وبعد صمت طويل، أخبرهما بأن عليهما أن يصبرا وقتاً أطول قليلاً، فلا تزال لديه بعض الأشياء التي يفكر في أن يعملها ويشعر أن شيئاً ما يوشك على الحدوث سيقرر حياتهم أو موتهم مرة وإلى الأبد. وأكد لهما أيضاً أنه سينضم إليهم سريعاً في المخيم وتحير بطرس واندراوس من بقاء الأختين وحيدتين بينما لابد من اتخاذ قرار بما سيفعله الرجال، قال بطرس، لا داعي لأن تأتي من أجلنا، وكان بطرس لا يدري أن يسوع كان منشطراً بين واجبين متضادين، الأول تجاه الرجال والنساء الذين ضحوا وهجروا كل شيء ليتبعوه، والواجب الثاني هنا في هذا المنزل، تجاه هاتين الأختين

المتشابهتين لكنهما متضادتان كالوجه والمرآة، صراع مشاغب هزه بعمق. كان شبح لعازر حاضراً ويرفض الابتعاد. كان حاضراً عندما قالت مرثا كلماتها العنيفة والتي لم تغفر لمريم لأنها منعت أخيها من أن يسترد حياته، ولم تغفر ليسوع رفضه استخدام طاقاته التي وهبها له الرب. وكان لعازر حاضراً في دموع مريم اليائسة والتي، من خلال عدم سماحها لأخيها بأن يخضع للموت الثاني، كان سيتحتم عليها أن تعيش أبداً نادمة لأنها لم تخلصه من هذا الموت ومثل حضور طاغ يملأ كل ركن وشق، كان لعازر حاضراً في روح يسوع المضطربة، إذ وجد نفسه في تضاد رباعي، فإما يتفق مع ما قالته مريم ولكن يوبخها على ما قالته، أو يتغاضى عن طلب مرثا ولكن يلومها عليه. نظر يسوع إلى روحه التعسة ورأى ثمة أربعة خيول تجره وتشده بقوة نحو الجهات الأربع المتقابلة، لكأن أربعة حبال التفت حول رافعات وهي تقطع ببطء كل عرق في روحه، وكأن أيدي الرب والشيطان كانت تتسلى إلهياً وشيطاناً وتلعب الألعاب بما تبقى منه. وقف المصابون والمرضى عند باب البيت الذي كان عائداً من قبل للعازر على أمل أن يلقوا الشفاء. وكانت مرثا تخرج لهم أحياناً وتطردهم مستاءة، وكأنها تقول، لم يكن ثمة خلاص لأخي فلماذا يكون ثمة شفاء لكم، لكنهم عاجلاً أم آجلاً يعودون حتى نجحوا في الوصول إلى يسوع الذي عالجهم وأخرجهم دون أن يقول لهم، توبوا. أن يشفى المريض فإن ذلك كأنه الولادة من جديد دون الحاجة حتى إلى الموت، ذلك لأن المولود الجديد لا ذنوب له ولذلك لا حاجة به إلى التوبة. لكن هذه الأفعال في الإنبعاث الجسدي، إن سمحتم لي بأن أقول ذلك، على الرغم من أنه الأكثر رحمة، يترك ملحوظة بغيضة وطعماً مراً في قلب يسوع، لأنها ليست أكثر من تأجيل للانهيار الحتمي، وكل من يخرج للتو وهو يشعر بالصحة والرضى سيعود غداً يشكو من آلام جديدة لا علاج لها. وأمسى يسوع مكتئباً جداً حتى أن مرثا قالت له في أحد الأيام، لا تمت من أجلي لأن ذلك سيكون

مثل خسارتي للعازر مرة أخرى، وتقول مريم ليسوع وهي تئن تحت الغطاء الذي يتقاسمانه مثل حيوان جريح يختبيء في الظلام، أنت تحتاجني الآن أكثر من أي وقت مضى لكنني لا أستطيع الوصول إليك إن كنت تغلق نفسك خلف باب لا يفتحه أي إنسان، ويسوع الذي أجاب مرثا، سيعانق موتي كل ميتات لعازر الذي سيبقى يموت دون أن يسترد الحياة أبداً، وتوسل بمريم، حتى لو لم تستطيعي الدخول، لا تهجريني، مدي يدك حتى لو لم تريني، فمن دونك سأنسى الحياة أو ستنساني هي وإثر ذلك بأيام قليلة إلتحق يسوع بتلاميذه وذهبت معه مريم المجدلية. قالت له، سأنظر إلى ظلك إن كنت لا ترغب في أن أنظر إليك، وأجابها، أرغب في أن أحل حيثما حل ظلي إن تكن عيناك هناك. لقد أحبا بعضهما البعض وتبادلا عبارات العشق هذه ليس فقط لأنها جميلة وصادقة، إن يكن ثمة شيء يحمل الصفتين في آن واحد، بل أيضاً لأنهما شعرا أن الظلال تقترب وحان الوقت لأن يعتادا عتمة الغياب الأخير على الرغم من أنهما لا يزالان معاً.

ثم وصلت الأخبار إلى المعسكر بأن يوحنا المعمدان قد أُخذ سجيناً. لم يعرفوا سوى أنه قد أُلقي القبض عليه، وقد أمر بسجنه هيرودس نفسه. ولم يجد يسوع وأتباعه سبباً لهذا القرار سوى أنه إستثار تنبؤات يوحنا عن مجيء المسيح والتي يكررها في كل مكان بين تعميد وآخر، سيعمدكم الذي يأتي من بعدي بالنار، وبين لعنة وأخرى، آه يا جيل الأفاعي الغادرة، من ذا الذي حذركم لتهربوا من الغضب الآتي، عند ذاك حذر يسوع تلاميذه بأنهم لا بد أن يستعدوا لأي أسلوب من المضايقة والاضطهاد، فما دامت الاشاعات تنتشر في وقت كاف بأنهم هم أنفسهم كانوا يبشرون بالرسالة ذاتها، فكان من المتوقع تماماً أن يستنتج هيرودس أن اثنين مضافة لاثنين تساوي أربعاً ويلاحق ابن النجار الذي إدعى أنه ابن الرب مع أتباعه، والذي يعده الرأس الثاني

والأخطر للتنين الذي يهدد بإطاحة عرشه. من المؤكد أن الأخبار السيئة ليست مفضلة على عدمها، ولكن من الحكمة أن تستقبل باتزان من قبل أولئك الذين، بعد أن انتظروا ورغبوا في أن يفعلوا أي شيء، اضطروا لأن يفعلوا شيئاً من لا شيء. سألوا بعضهم البعض، وسألوا يسوع ذاته، ما الذي يجب عليهم فعله، هل يتكاتفون معاً ويقاومون شر هيرودس، أم ينتشرون في المدن، أو ربما يتقهقرون إلى البرية حيث يتغذون على العسل البري والجراد، مثل يوحنا المعمدان قبل أن يهجر ذلك المكان نحو المجد العظيم ليسوع، ومن خلال النظر اليه، ليواجه مصيره التعس. على أية حال، ولأنه لا توجد علامة على وصول جيوش هيرودس في بيثاني لتذبح هؤلاء الأبرياء الآخرين، فقد ظل يسوع وتلامذته يحسبون بعناية البدائل المختلفة التي أمامهم، بعد أن وصلت المزيد من الأخبار السريعة لتعلمهم أن يوحنا قد قطع رأسه وأن سجنه وإعدامه غير مقترنين بالتبشير بمجيء المسيح أو ملكوت الرب. لقد عرّض يوحنا نفسه لغضب هيرودس لأنه عارض الزنا الذي يقترفه الملك بنفسه، بعد أن تزوج هيرودس من ابنة أخيه وزوجها على قيد الحياة. لقد بكى الجميع رجالاً ونساء على خبر موت يوحنا وخيم الحداد على المعسكر كله. لم يقنع أحد بأن يحكم عليه بالموت لهذا السبب. كان يهوذا الاسخريوطي الذي، كما تتذكرون، قد عمّده يوحنا يحتدم غيظاً وأقسم أن قرار هيرودس لا بد أن يكون قد أتى من أثر محفز خطر آخر لم يظهر أبداً للوجود أو تكون له أية أهمية في المستقبل. وسأل الناس الذين تجمعوا هناك، بضمنهم النساء، ما هذا ، يعلن يوحنا أن المسيح يأتي ليخلص البشر ويقتلونه لأنه أدان علاقة الزنا والزواج بين عم وابنة أخيه، بينا يكون الزنا واتخاذ المحظيات عادة مشاعة في هذه العائلة منذ أول هيرودس حتى اليوم. وشجب، ما هذا، عندما أمر الرب بنفسه يوحنا أن يعلن عن مجيء المسيح، وأنا متيقن أنه الرب بنفسه، لسبب بسيط إذ لا شيء يمكن أن يحدث دون رغبة الرب، لذلك الذين منكم ممن

يعرفون المزيد عن الرب أكثر مني يمكنهم أن يفسروا لي لماذا يرغب في أن تنفذ خططه هكذا بانحراف على الأرض، وقبل أن تحاولوا أن تخبروني أن الرب يعلم بذلك ونحن لا نعلم، فدعوني إذاً أخبركم أنني أصر على العلم كما علم الرب. وسرت رعشة رعب في أبدان الحاضرين، خائفين من غضب الرب الذي قد ينزل على هذا الوقح وعليهم لأنهم لم يعاقبوه على هذا التجديف في الحال. ولأن الرب غير حاضر الآن لاقناع يهوذا الاسخريوطي فقد التزم يسوع بالتحدي الذي كان الأقرب من صاحب الجلالة وقد وضعت حكمته على المحك. لو أن هذا كان ديناً آخر والظروف مختلفة، فلربما ما كانت الأشياء تندفع أكثر فأكثر، عدا تلك الابتسامة المبهمة من يسوع التي، مهما كانت واهنة وسريعة، تنم عن مشاعر متشابكة من الدهشة والخير والفضول، والتي قد تبدو مفرطة لولا حقيقة أن الدهشة قصيرة الأمد، والخير مكثف والفضول منهك. جاءت الابتسامة وغابت، تاركة خلفها شحوباً مميتاً ووجهاً بدا فجأة شديد النحول، وكأنه قد لمح تواً صورة حية لقدره. قال يسوع أخيراً بصوت غير معبر وفاتر الهمة، فلتنسحب النساء، وكانت مريم المجدلية أول من نهضت لتقوم. ثم وبعد أن كون الصمت جداراً وسقفاً ليضمهم في أعمق كهف على الأرض قال يسوع، ليت يوحنا يسأل الرب لماذا سمح لأحد تنبأ بمثل هذه الأنباء السارة بأن يموت لهذا السبب التافه. توقف للحظة وكاد يهوذا الاسخريوطي أن يتكلم، لولا أن يسوع رفع يده لإسكاته قبل أن يقول، أدرك الآن أنه من واجبي أن أقول لكم ما تعلمته من الرب ما لم يمنعني هو عن ذلك. ارتفعت الأصوات حين بدأ التلاميذ يتحدثون فيما بينهم، مهتاجين وخائفين مما سيسمعونه. كان يهوذا الاسخريوطي وحده الذي تبدو عليه علامات التحدي التي بدأ فيها النقاش. أخبرهم يسوع، إنني أعلم بمصيري ومصيركم، أعلم بمصير الأجيال القادمة، إنني أعلم بدوافع الرب وبواعثه، وعلينا أن نناقش هذه الموضوعات لأنها تتعلق بكم جميعاً ولسوف تهمكم في الأيام

الآتية. فتساءل بطرس، لماذا يتوجب علينا معرفة ما كشفه الرب لك، أليس من الأجدى أن تحتفظ به لنفسك. لو رغب الرب، لأسكتني في هذه اللحظة، فهو إذاً لا يمانع بالتأكيد فيما إذا تكلمتم أو بقيتم ساكتين، إنه فقط شيء لا معنى له، وإن تحدث الرب من خلالك، فلسوف يستمر في الكلام من خلالك حتى لو كنت تعتقد أنك تناقض مشيئته، كما يحدث الآن،هل تعلم يا بطرس أنني سوف أصلب، أجل، لقد أخبرتني بذلك، لكنني لم أخبرك أنك أنت واندراوس وفيليبوس هذا سوف تصلبون أيضاً، وإن بارثولوميو سيسلخ جلده وهو حي، وأن ماثيوس سوف يمثل بجسده من قبل البرابرة، وأنهم سوف يقطعون رأس يعقوب، ابن زبيدي، وأن يعقوب الثاني، ابن آلفيوس، سيرجم بالحجارة حتى الموت، وأن توماس سوف يقتل برمح وأن يهوذا ثاديوس ستسحق جمجمته وأن سمعان سيشطر نصفين، هذه الأشياء لم تعرفوها وأخبركم بها الآن. استقبلت هذه الكشوفات بصمت، لم يعد ثمة سبب آخر للخوف من المستقبل، وحين اتضح كأن يسوع كان يقول لهم أخيراً، أنكم ستموتون، فأجابوا معاً، مهما يكن، نحن نعرف ذلك من قبل. لكن يوحنا ويهوذا الاسخريوطي لم يسمعا بما سيحدث لهما فتساءلا، وماذا عنا، فأجاب يسوع، أنت يا يوحنا ستعيش حتى تعمر وتموت ميتة طبيعية، أما أنت يا يهوذا الاسخريوطي، فابتعد عن أشجار التين لأنه لن يمضي وقت طويل حتى تعلق نفسك بواحدة منها، وتساءل صوت، لم يعرف أحد مصدره، سنموت إذاً من أجلك، فرد عليه يسوع، بل من أجل الرب لا من أجلي، وتساءل يوحنا، ما الذي يريده الرب بعد كل هذا، إنه يريد جماعة أكبر مما لديه الآن، يريد العالم بأكمله له، فتساءل توماس ولكن إن يكن الرب هو إله الكون كيف يمكن أن يكون العالم لأحد سواه لا بالأمس أو الغد، بل منذ بدء الزمان، أجاب يسوع، لا يمكنني إخباركم بشيء عن ذلك. ولكن ما دمت قد عشت طويلاً وكل هذه الأشياء مخزونة في قلبك فلماذا تقولها لنا الآن وليس من قبل، ذلك لعازر الذي

أشفيته قد مات، ويوحنا المعمدان الذي تنبأ بقدومي قد قتل وهاهو الموت يحل بيننا. قال بطرس، لابد لكل المخلوقات من أن تموت، والبشر كباقي المخلوقات. الكثير سيموتون في المستقبل من أجل الرب ومن أجل مشيئته المقدسة، فإن شاء الرب ذلك فلابد أن يكون لسبب ما مقدس، لسوف يموتون لأنهم لم يولدوا من قبل ولا من بعد، فتساءل ماثيوس، هل سيعيشون حياة خالدة، أجل، ولكن بشروط أقل إيلاماً، فاحتج بطرس، لو أن ابن الرب قد قال ما قاله،فقد أنكر نفسه، فرد عليه يسوع، أنت مخطئ، لا يسمح إلا لابن الرب أن يقول مثل هذه الأشياء وما هو كفر على لسانك هي كلمة الرب على لساني، قال بطرس، أنت تتحدث وكأن علينا أن نختار بينك والرب، عليك دائماً أن تختار بين الرب والرب، ولمثلك ولمثل كل البشر، أنا في الوسط. ما الذي تريد منا أن نفعله، أريد مساعدتي في الموت لأحمي حيوات الأجيال القادمة، لكنك لا تستطيع معارضة مشيئة الرب، كلا، ولكنني أحاول على الأقل، أنت في مأمن لأنك ابن الرب، أما نحن فسنفقد أرواحنا، كلا، لو قررتم أن تطيعونني، فستطيعون الرب. كان يمكن رؤية هداب القمر الأحمر على أفق البرية البعيد. قال اندراوس، تكلم، لكن يسوع انتظر إكتمال القمر كلياً، ليغدو اسطوانة حمراء دموية هائلة ارتفعت من الأرض، عند ذاك فقط تكلم، ليخبرهم، لابد لابن الرب أن يموت على صليب، كي تتم مشيئة الرب، ولكننا لو أبدلناه برجل عادي لن يتمكن الرب بعد ذلك من التضحية بابنه، سأله بطرس، هل ترغب في أن يتخذ أحد منا مكانك، كلا، أنا بنفسي سأتخذ مكان الابن، بحق حب الرب أوضح كلامك، رجل عادي، ربما، لكنه رجل يتهيأ ليعلن نفسه ملكاً لليهود، يحث الناس على الإطاحة بعرش هيرودس وطرد الرومانيين من الأرض، وكل ما أطلبه أن يذهب أحدكم حالاً إلى الهيكل ويقول أنني ذلك الرجل وإن تكن العدالة سريعة فربما لا تملك عدالة الرب الوقت لتوقف عدالة البشر، مثلما لم توقف فأس منفذ الإعدام عندما أطاح برأس يوحنا. صُدم الجميع بالصمم

ولكن ليس لفترة طويلة، إذ سرعان ما سمعت صرخة استياء واحتجاج وإنكار. ناداه صوت، إن تكن أنت ابن الرب، فعليك إذاً أن تموت كونك ابن الرب، وانتحب آخر، ما دمت قد أكلت من الخبز الذي وزعته أنت، كيف يمكنني أن أخونك، وقال رجل، من المؤكد أن أحداً ما سيقدر له أن يكون ملك الكون، لا يرغب في أن يكون ملك اليهود، وهدد آخر، الموت لمن يجرؤ أن يتحرك من هنا ليخونك. وفي تلك اللحظة رن صوت يهوذا الاسخريوطي مدوياً وواضحاً فوق الضجيج، سأذهب إذا شئت. فأمسك به الآخرون وقد امتشقوا خناجرهم من بين ثيابهم لكن يسوع أمرهم، دعوه ولا تؤنوه. وعند ذاك قام وعانق يهوذا وقبله على خديه، إذهب فوقتي لك. ودون أن يقول يهوذا الاسخريوطي كلمة واحدة رمى طرف عباءته على كتفه وغاب في الليل وكأن الظلام قد ابتلعه.

جاء حرس الهيكل بصحبة جنود هيرودس للقبض على يسوع في أول الضياء. بعد أن أحاطوا المعسكر بمفرزة صغيرة جاءت خلسة متسلحة بالسيوف والرماح وقامت بهجوم مفاجئ، نادى آمر هذه المفرزة، أين هذا الرجل الذي يدعي أنه ملك اليهود. ونادى للمرة الثانية، ليتقدم الرجل الذي يدعي أنه ملك اليهود، وعند ذاك ظهر يسوع من خيمته برفقة مريم المجدلية الدامعة العينين وقال لهم، أنا ملك اليهود. فتقدم نحوه جندي وشد يديه وهو يهمس في أذنه، رغم أنك أسيري الآن، ولكن إن أصبحت ملكي، تذكر أنني كنت أنفذ أوامر شخص آخر، وإن أمرتني بأن ألقي القبض عليه سأطيعك مثلما أطيعه الآن، فقال له يسوع، الملك لا يلقي القبض على ملك، والرب لا يقتل رباً آخر، من أجل هذا خلق الناس العاديون لينفذوا أفعال القبض والقتل. وشدوا حبلاً أيضاً حول أقدام يسوع ليمنعوه من الهروب، فقال يسوع لنفسه وقد كان مقتنعاً بصدق ذلك، لقد تأخرتم جداً، فأنا قد طرت من قبل ذلك بكثير. عند ذاك فقط أطلقت مريم المجدلية صرخة مدوية وكأن قلبها كان يتفكك فقال لها

يسوع، لسوف تبكين من أجلي ولسوف تبكين كلكن أيتها النسوة لو حدثت مثل هذه الساعة لهؤلاء الرجال أو لأنفسكن، ولكن فلتعلمن أن كل دمعة تذرفنها ستذرف إزاءها ألف دمعة في المستقبل إذ أنني لن أموت ولن تموت إرادتي. والتفت إلى الجندي القائد وطلب منه، أطلق سراح هؤلاء الرجال الذين يرافقونني، لأنني أنا ملك اليهود لا هُم، ودونما تأخير خطا ليكون وسط الجنود الذين يحيطون به. علت الشمس وراحت تطوف فوق قمم بيثاني حين راحت الجموع تتسلق الطريق نحو أورشليم، ويسوع بين جنديين ليحرسوا نهايات الحبل المشدود حول معصميه. خلفه سار تلاميذه مع نسائهم، الرجال غاضبون والنسوة ينشجن، لكن الدموع والغضب ليست بذات جدوى، كانوا يسألون أنفسهم هامسين، ماذا نفعل،هل نهاجم الجنود ونحرر يسوع من أيديهم، وقد نموت في المعركة، أو نفر منتشرين قبل أن يصدر أمر آخر باعتقالنا، لكنهم وهم يواجهون هذه المعضلة المستحيلة لم يفعلوا شيئاً وأستمروا في السير في أثر جنود الملك. بعد قليل شاهدوا أن الموكب قد توقف فتساءلوا فيما إذا كانت الأوامر قد ألغيت لأنهم كانوا يفكون قيد يسوع من يديه وقدميه، بيد أن من يتصور ذلك لا بد أن يكون ساذجاً، ولكن قد يكون البعض منهم ذوي نفوس طيبة ولا يكونون سذجاً بهذه الدرجة. على أية حال، فتحت عقدة واحدة، من أجل حياة يهوذا الاسخريوطي التي فقدها هناك على شجرة تين على جانب الطريق الذي كان يسوع سيمر منه. كان الحواري الذي نفذ آخر رغبة لسيده يتدلى من أحد الأغصان. أمر القائد جنديين بأن يقطعا الحبل وينزلا الجثة. أشار أحد الجنود، إنه لا يزال دافئاً. ربما كان يهوذا الاسخريوطي جالساً على غصن شجرة التين والأنشوطة ملتفة حول عنقه وهو ينتظر صابراً ظهور يسوع من بعيد قبل أن يرمي نفسه من الغصن، وهاهو أخيراً يتصالح مع نفسه الآن وبعد أن قام بواجبه. اقترب يسوع منه ولم يحاول الجنود منعه. وقف محدقاً في وجه يهوذا الذي التوى وتشوه بالموت

المفاجئ. قال الجندي للمرة الثانية، إنه لا يزال دافئاً، وحدث أن فكر يسوع أنه قد يفعل ليهوذا ما فشل في فعله للعازر، وأن يعيده للحياة لينال موته الحتمي في مكان آخر ووقت آخر، بعيد وغامض، بدل أن يلازم الذاكرة بالخيانة. ولكن، كما نعرف، فإن ابن الرب وحده له القدرة على أن يعيد الحياة للناس وليس ملك اليهود هذا الذي يسير هنا، بروح منكسرة ومقيد اليدين والقدمين. أمر القائد رجاله، أتركوا الجثة هنا ليدفنها أهالي بيثاني أو تلتهمه النسور أولاً، انظروا فقط فيما إذا كان يحمل شيئاً ذا قيمة. فتش الجنود ولم يجدوا شيئاً، بل أكد أحد الجنود، ولا حتى درهماً واحداً، وليس ذلك بشيء عجيب، ذلك لأن الحواري المسؤول عن مالية الجماعة هو ماثيوس الذي أتقن واجبه، لأنه كان يعمل من قبل جابي ضريبة في الأيام التي كان معروفاً عنه أنه لاوي. تساءل يسوع، ألم يدفعوا له شيئاً مقابل خيانته، وأجابه ماثيوس الذي سمعه لقد رغبوا في أن يدفعوا له، لكنه قال أنه كان معتاداً على تصفية حساباته، وها قد فعل، ولم يعد بحاجة لأية تصفية بعد ذلك. وتقدم الموكب بينما تريث البعض من الحواريين في الخلف وهم يحدقون بعطف في الجثة، لكن يوحنا قال، دعونا نتركه هنا، لم يكن واحداً منا، وعجل يهوذا الآخر، الذي يسمى أيضاً، ثاديوس، ليصحح، شئنا أم أبينا، سيبقى أبداً واحداً منا، قد لا نعلم ماذا نفعل معه، لكنه سيبقى واحداً منا. قال بطرس، هيا نذهب، ليس هذا مكاننا، عند قدمي يهوذا الاسخريوطي، فرد عليه توماس، أنت محق، لابد أن يكون مكاننا إلى جانب يسوع الخالي.

دخلوا أورشليم أخيراً وأُخذ يسوع ليمثل أمام مجلس الشيوخ وكبار الكهنة والناسخين. قال له كبير الكهان وهو مسرور لرؤيته هناك، لقد أنذرتك إنذاراً عادلاً ولكنك رفضت الإصغاء، إن كبرياءك لن ينقذك الآن وستدينك أكاذيبك، فسأله يسوع، أية أكاذيب، أولها أنك ملك اليهود، ولكنني ملك اليهود، وثانيها بأنك ابن الرب، من أخبرك بأنني أدعي أنني

ابن الرب، كل الناس تقول ذلك، لا تلتفت إليهم، أنا ملك اليهود، أنت إذا تعترف بأنك لست ابن الرب، كم مرة يتحتم عليّ أن أخبرك بأنني ملك اليهود، انتبه لما تقوله، فكذبة مثل هذه كافية لأن تحكم بالإعدام، إنني أصر على ما أقوله، حسناً، سوف تمثل أمام الحاكم الروماني الذي يتوق لمقابلة هذا الرجل الذي يرغب في أن يخلعه ويعزل هذه المقاطعات عن سلطة القيصر. ومن هناك رافق الجنود يسوع إلى مقر بيلاطس. كانت الأخبار قد انتشرت بأن الرجل الذي ادعى أنه ملك اليهود، وقلب مكاتب الصيارفة وأضرم النار في أكشاكهم قد ألقي القبض عليه فاندفع الناس ليروا أي ملك هذا الذي قادوه عبر الشوارع ليراه الناس جميعاً، يداه مقيدتان مثل لص عادي، غير مبالين فيما إذا كان ملكاً حقيقياً أو مجرد سجين. وكما يحدث دائماً، حيث لا يتشابه الناس في هذا العالم، فقد كان ثمة بعض الناس ممن أشفقوا على يسوع، بينما لم يفعل ذلك آخرون، البعض منهم قالوا أطلقوا سراحه، إنه مجنون، بينما آمن آخرون أن معاقبة المجرم تنذر الآخرين، وثمة الكثيرين من الأخيرين مثلما الأولون. اختلط التلاميذ مع الناس المزدحمين وشعروا بالارتباك. كان من السهل معرفة النسوة اللائي معهم بسبب دموعهن، إلا امرأة واحدة لم تكن تبكي، إنها مريم المجدلية التي حزنت بصمت.

لم تكن المسافة بعيدة بين منزل كبير الكهنة وقصر الحاكم، لكن يسوع ظن أنه لن يصل إلى هناك، ليس بسبب الهسهسة والسخرية التي تطاق من قبل الناس المتجمهرين الذين يعبرون عن خيبة أملهم بهذا النموذج الحزين للملك، ولكن لأنه كان يتوق إلى أن يحفظ موعده مع الموت، وإلا فلسوف ينظر الرب بهذا الاتجاه ويقول، ما الذي يحصل، هل تراجعت عن عهدنا. عند بوابات القصر ثمة جنود من روما تولوا مسؤولية السجين، بينما بقي جنود هيرودس وحراس الهيكل في الخارج في انتظار الحكم. لم يسمح لأحد بمرافقة يسوع سوى بضعة من الكهنة.

كان الحاكم بيلاطس، هكذا كان اسمه، جالساً على عرشه وينظر إلى هذا الرجل الذي أُدخل عليه، لكأنـه شحاذ، ذو لحية كثيفة وقدمين عاريين، ثوبه ملطخ بلطخات قديمة وجديدة، الجديدة من أثر الفواكه الناضجة التي خلقها الرب لتؤكل لا أن يعبر الناس بها عن كراهيتهم ويتركون إشارة لحقدهم. وقف السجين أمامه منتظراً، مرفوع الرأس، عيناه تنظران في الفراغ وثبتتا على نقطة قريبة ولكن من المتعذر تحديدها بينه والحاكم. كان بيلاطس يعرف نوعين فقط من المجرمين، أولئك الذين يخفضون عيونهم وأولئك الذين يحدقون بتحد، وهو يحتقر النوع الأول، بينما يجعله النوع الثاني يشعر بقليل من الاهتياج، فلا يتأخر عند ذاك في إصدار الحكم. لكن هذا الرجل الذي يقف هناك بدا غير مبال تماماً لكل ما يحيطه، واثقاً جداً بنفسه ولذلك ثمة احتمال كبير أن يكون شخصية ملكية، من الناحية القانونية في الحقيقة، وقد كان ضحية لسوء فهم مؤسف ولسوف يسترد سريعاً تاجه وصولجانه وعباءته. فقرر بيلاطس أخيراً أنه سيكون من الملائم أن يضع هذا السجين ضمن الاعتبار الثاني ويحاكمه طبقاً لذلك، فبدأ استجوابه دونما إبطاء، ما اسمك، يسمونني يسوع، ابن يوسف، وقد ولدت في بيت لحم في اليهودية، لكن الناس يلقبونني بيسوع الناصري لأنني عشت في الناصرة في الجليل. من هو أبوك، لقد قلت لك تواً، اسمه يوسف. ما هي مهنته، نجار، طيب هلا تفضلت وشرحت لنا كيف أن نجاراً اسمه يوسف يكون أباً لملك يا يسوع، إذا كان من الممكن أن يصبح أبناء الملك نجارين، فلماذا لا يكون النجار أباً لولد أصبح ملكاً. فتدخل أحد الكهنة عند سماعه ذلك وقال، لا تنس يا بيلاطس أن هذا الرجل يدعي أيضاً أنه ابن الرب، فرد عليه يسوع، هذا ليس صحيحاً، فأنا أدعي فقط أنني ابن الإنسان، لكن الكاهن استمر غير قانع، لا تدعه يخدعك يا بيلاطس، في ديننا يكون ابن الإنسان والرب واحد ومتشابه. قام بيلاطس بحركة لا مبالاة بيده، وقال، لو أنه راح يتجول في الأرض مدعياً أنه ابن جوبيتر، وضع في بالك أنه

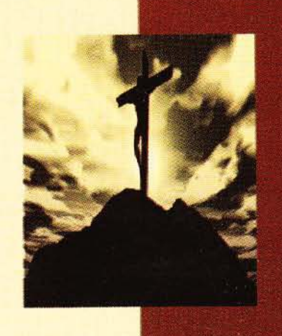
لم يكن الأول، فستكون للقضية بعض الأهمية، ولكن أن يكون أولاً يكون ابن ربكم فهذا ليست له أهمية كبيرة، فاحكم عليه إذاً لادعائه أنه ملك اليهود وسنذهب راضين. فقال بيلاطس بحدة، سيبقى الأمر فيما إذا كان يرضيني. كان يسوع ينتظر صابراً أن ينتهي حوارهم ليبدأ استجوابه. سأل الحاكم يسوع، من أنت حسب قولك، أنا من أنا، ملك اليهود، وما دمت ملكاً لليهود ما الذي تأمل الحصول عليه، كل ما يتوقعه الملك، مثال ذلك، أن يحكم ويحمي شعبه، تحميهم ممن، من كل ما يعارضهم، إن كنت قد فهمتك، فأنت تحميهم من روما، هذا صحيح، وكي تحميهم، هل ستهاجم الرومانيين، ليس ثمة من سبيل آخر، وتطرد الرومانيين من هذه الأرض، شيء يتبع آخر، فأنت إذاً عدو القيصر، أنا ملك اليهود، أعترف بأنك عدو القيصر، أنا ملك اليهود وأرفض أن أزيد على ذلك. رفع الكاهن الأعلى يديه نحو السماء منتصراً، كما ترى يا بيلاطس، إنه يعترف، ولا يمكنك الإبقاء على حياة من يجاهر علناً بعدائيته لك وللقيصر. وبّخ بيلاطس الكاهن وهو يتنهد ساخطاً، اصمت، ثم التفت إلى يسوع، وسأله، ألديك أي شيء آخر لتقوله، أجابه يسوع، لاشيء، معنى هذا أن لا خيار لدي إلا أن أحكم عليك، إفعل ما يجب عليك أن تفعله، كيف تفضل الموت، لقد قررت ذلك من قبل، وكيف ذلك، على صليب، حسناً، لسوف تصلب. وبحثت عيون يسوع حتى التقت في الأخير بعيون بيلاطس، وسأله، هل تتفضل علي برجاء، أجل مادام ذلك لا يتعارض والحكم الذي أصدرته تواً، هلا تفضلتم ووضعتم كتابة فوق رأسي تقول من أنا وما أنا ليرى الجميع ذلك، ولا شيء آخر، لاشيء آخر، استدعى بيلاطس كاتبه الذي جاء بأدوات الكتابة وكتب بخط يده، يسوع الناصري، ملك اليهود. أستيقظ الكاهن الأعلى من رضاه وأدرك فجأة ما الذي يحدث فاحتج، يجب أن لا تكتب ملك اليهود بل يسوع الناصري الذي ادعى أنه ملك اليهود. شعر بيلاطس بالضيق، وتأسف لأنه لم يصرف السجين بإنذار، فحتى أكثر القضاة حذراً لم يكن يرى في

هذا الشخص تهديداً لأي أحد يصرف فما بالك بالقيصر، عندها استدار نحو الكاهن الأعلى وقال له بخشونة، كف عن التدخل، لقد كتبت ما كتبت. وأشار للجنود بأن يأخذوا المتهم وطلب ماءً ليغسل يديه كما هي عادته بعد أن يصدر حكماً.

قادوا يسوع بعيداً وأخذوه إلى تل اسمه الجلجثة. على الرغم من بنيته القوية فقد وهنت ساقاه تحت ثقل الصليب وعند ذلك أمر قائد المائة جندي أحد المارة الذي توقف ليشاهد الموكب أن يساعد السجين ويحمل حمله. استمر الجمهور بإلقاء الاهانات والسخرية، ولكن بين الحين والآخر كان شخص ما ينطق كلمات التعاطف. أما التلاميذ فكانوا يمشون متحلقين في ذهول. أوقفت امرأة بطرس وتحدثته، كنت أنت أيضاً مع يسوع الجليلي، لكنه أنكر، وأجابها، لا أعرف ماذا تقولين، وحاول أن يختبئ بين الجمهور وحدث أن قابلته المرأة ذاتها ثانيةً، فسألته مرة أخرى، ألم تكن مع يسوع، ومرة أخرى أنكر بطرس قاسماً، إنني لا أعرف الرجل. ولأن الرقم ثلاثة هو الرقم الكامل المفضل لدى الرب فقد حدث أن اعترضته المرأة للمرة الثالثة وللمرة الثالثة لعن وأقسم قائلاً، لا أعرف الرجل. تسلقت النسوة جلجثة مع يسوع، وأحطنه من كل الجهات، وكانت مريم المجدلية هي الأقرب إليه ولكن لم يسمح لها بالوصول إليه لأن الجنود أبعدوها، كما سيبعدون أي أحد يقترب من البقعة التي انتصبت فيها ثلاثة صلبان، إثنان منهما قد شغلا من قبل بمحكومين كانا يصرخان ويعولان من الألم، والثالث مستعد للصلب، يقف طويلاً منتصباً مثل عمود يسند السماوات. أمر الجنود يسوع بأن يركع ومدوا ذراعيه على الرافدة الأفقية. حين دقوا المسمار الأول فيه ليخترق لحم رسغه بين عظمين، أعاد الدوار المفاجئ الزمن إلى الوراء، وشعر يسوع بالألم الذي شعر به أبوه من قبل، ورأى نفسه كما رآه على الصليب في سبفوريس. ثم دقوا المسمار الثاني في رسغه الآخر وأحس

بالتمزق الأول للحم الممدود ما إن راح الجنود يرفعون الرافدة الأفقية شيئاً فشيئاً نحو قمة الصليب، فتعلق ثقل يسوع بكامله من ذلك العظم الهش، وكاد ذلك أن يكون مريحاً حين دفعوا رجليه إلى الأعلى ودقوا مسماراً آخر في كعبيه، ولم يبق شيء الآن سوى انتظار الموت.

بينما يموت يسوع ببطء وتنحسر الحياة عن جسده إنفتحت السماء فجأة على وسعها وظهر الرب في اللباس ذاته الذي ارتداه في القارب، وتردد صدى كلماته في الأرض كلها، هذا هو إبني الحبيب، الذي أنا مسرور به. عندها أدرك يسوع أنه قد جلب إلى هنا بمزاعم مزيفة، مثلما يقاد الحمل إلى التضحية وأن حياته قد خطط لها بالموت منذ البداية. وحين تذكر نهر الدم والمعاناة الذي سيجري من جنبه والذي سيجعل الأرض كلها في طوفان، نادى السماء المفتوحة حيث يمكنه رؤية الرب مبتسماً، سامحوه أيها الناس، لأنه لا يعلم ما الذي فعله. ثم راح يلفظ أنفاسه الأخيرة في الحلم. وجد نفسه في الناصرة وبإمكانه أن يرى والده يهز كتفيه غير مبال وهو يبتسم أيضاً إذ يقول له، مثلا لا أستطيع أن أسألك كل الأسئلة، ليس بإمكانك أن تجيب بكل الأجوبة. كانت لا تزال فيه بعض الحياة حين شعر باسفنجة منقوعة بالماء والخل قد رطبت شفتيه، وحين نظر للأسفل رأى رجلاً يبتعد وعلى كتفه قصبة يتدلى منها دلو. لكن ما لم يره هو الإناء الأسود الذي تحته على الأرض والذي يتقاطر فيه الدم.



يقول ساراماغو عن هذه الرواية: "إن إنجيلي يحاول ملء المساحات الخالية بين الحوادث المختلفة التي حدثت في حياة المسيح كما رويت في الأناجيل الأخرى مع بعض التأويلات الشخصية من قبلي" .

يتتبع ساراماغو حياة المسيح من الوعي إلى الصلب، مسلطاً الضوء على يسوع بسيط لا يستطيع مقاومة تسلط الغرائز البشرية عليه، ولذلك نراه يتعايش عيشة الأزواج مع مريم المجدلية. أما الإله المستبد المتعطش للدماء والسلطة الذي يُكوِّن معه يسوع علاقة غير متوازنة ولا مستقرة، فهو طاغية سماوي أوحت به حوليات العهد القديم، وهو أيضاً الناقل لخطيئة يوسف المعقدة إلى إبنه، تلك الخطيئة التي تشحن الرواية بموضوعٍ غنيٍ لعلم النفس الحديث،ولكن توحد هوية الشحاذ الغامضِ الذي يظهر في عيد البشارة مع الراعي الشفوق والغريب الذي قضى يسوع الجوال معه سنوات التكوين قد أحدث الانعطافة الجديدة والمثيرة في النسخة التقليدية لقصة الإنجيل مما أدى إلى إعادة النظر في النقاش الأبدي حول الخير والشر .

ومهما يكن الموقف الذي يبثه ساراماغو في ثنايا خطابه الروائي هنا بحرية فمما لا شك فيه إن من حق القارئ العربي الاطلاع على هذه الضفيرة من الواقعية والغرائبية والفنتازيا والسخرية ليتسنى له أن يتبنى بدوره موقفاً واضحاً إزاء دعامة من دعامات الأدب الغربي المعاصر .

الناشر



